تراثنا



في

فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى

٦٧٧هـ - ٧٣٢هـ

السفر الخامس

نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب

وزارة الثقافة والإرشاد القومي
المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

مطابع كوستاتسوماس وشركاه
٥ شارع كنيسة الروم الكاثوليك بالظاهر ت ١١٨ ٩
القاهرة

فهرس

السّفر الخامس

من كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب

للنّويرىّ

(تابع) أخبار المغنّين الذين نقلوا الغناء من الفارسية الى العربية
ومن أخذ عنهم ومن آشتهر بالغناء

صفحة

الباب السابع :

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه توفيقي

ذكر أخبار إسحاق بن إبراهيم

هو أبو محمد إسحاق بن إبراهيم الموصليّ، وقد تقدّم نسبه في أخبار أبيه. وكان الرشيد يولَع به فيكنيه أبا صَفْوان. قال أبو الفرج الأصفهاني في ترجمة إسحاق: وموضعه من العلم، ومكانه من الأدب، ومحلّه من الرواية، وتقدّمه في الشعر، ومنزلته في سائر المحاسن (١) أشهر من أن يُدَلّ عليها بوصف. قال: فأما الغناء فكان أصغر علومه وأدنى ما يوسم به وإن كان الغالبَ عليه وعلى ما كان يحسنه، فإنه كان له في سائر أدواته نظراء وأكفاء ولم يكن له في هذا نظير. لَحِق بمن مضى فيه وسبق من قد بقي، وسهّل طريق الغناء وأنارها، فهو إمام أهل صناعته جميعا وقُدوتهم ورأسهم ومعلّمهم؛ يعرف ذلك منه الخاصّ والعامّ، ويشهد له به الموافق والمفارق. على أنه كان أكره الناس للغناء وأشدّهم بغضا له لئلا يدعَى إليه ويسمّى به (٢). وكان المأمون يقول: لولا ما سبق على ألسنة الناس وشهر به عندهم من الغناء لولّيته القضاء بحضرتي، فإنه أولى به وأعفّ وأصدق وأكثر دينا وأمانة من هؤلاء القضاة. وقد روى الحديث ولقي أهله مثل مالك بن أنس وسفيان بن عُيَيْنة [وهشيم بن بشير] (٣) وإبراهيم بن سعد وأبي معاوية الضرير ورَوْح

---

(١) كذا في الأغاني. وفي الأصل: «المجالس».

(٢) كذا في الأغاني. وفي الأصل. «لولا ما سبق إسحاق على ألسنة الناس وشهرته .. الخ».

(٣) زيادة عن الأغاني.

آبن عُبَادة وغيرهم من شيوخ العراق والحجاز . وكان مع كراهته للغناء أضنّ خلق الله به وأشدّهم بخلا على كل أحد حتى على جواريه وغلمانه ومن يأخذ عنه منتسبا إليه ومتعصّبا له فضـلا عن غيرهم . قال : وهو صحّح أجناس الغناء وطرائقـه وميّزها تميّزا لم يقدِر عليه أحد قبله .

وقال محمد بن عِمران الجُرْجانى : كان والله إسحاق غُرّةً فى زمانه ،وواحدا فى عصره علمـا وفهما وأدبا ووقارا وجَوْدةَ رأْى وصحّةَ مودّة . وكان والله يُخرس الناطق إذا نطق، ويُحيِّر السامع إذا تحدّث، لا يَمَـلّ جليسُه مجلسَه، ولا تَمُجّ الآذان حديثَه، ولا تنبو النفس عن مُطاولته. إن حدّثك ألهاك ، وإن ناظرك أفادك، وإن غنّاك أطربك. وما كانت خَصْلة من الأدب،ولا جنس من العلم يتكلم فيه إسحاق فيُقدِم أحد على مساجلته أو مناوأته فيه .

حكى أبو الفرج عن إسحاق قال : دعانى المأمون وعنده إبراهيم بن المهدىّ وفى مجلسه عشرون جارية قد أَجْلس عشرا عن يمينه وعشرا عن شماله . فلما دخلتُ سمعتُ من الناحية اليسرى خطأً فأنكرتُه . فقال المأمون : أسمعت خطأ؟ قلت : نعم يا أمير المؤمنين. فقال لإبراهيم بن المهدىّ : هـل تسمع خطأ ؟ قال لا . قال : فأعاد علىّ السؤال، فقلت : بلى والله يا أمير المؤمنين ، وإنه لفى الجانب الأيسر. فأعاد إبراهيم سَمْعه إلى الناحية اليسرى ثم قال : لا والله يا أمير المؤمنين ما فى هذه الناحيـة خطأ . فقلت : يا أمير المؤمنين، مُر الجوارىَ اللاتى على اليمين يُمْسِكْنَ ، فأمرهنّ فأمْسَكْن، ثم قلت لإبراهيم : هل تسمع خطأ؟ فتسمّع ثم قال : ما هاهنا خطأ . فقلت : ياأمير المؤمنين، يُمسكن وتضرب الثانية(١)، فأمسكن وضربت الثانية(١)، فعرف إبراهيم الخطأ فقال : نعم يا أمير المؤمنين، هاهنا خطأ . فقال المأمون عند ذلك

(١) فى الأغانى : «الثامنة» .

لإبراهيم بن المهدىّ : لا تُمـارِ إسحاق بعدها ، فإن رجلا عرف الخطأ بين ثمـانين وترا وعشرين حَلْقا لجدير ألّا تمـارِيَه ؛ قال : صدقت .

وقال آبن حمدون : سمعتُ الواثق يقول : ما غنّانى إسحاق قطّ إلا ظننتُ أنه قد زِيد فى مُلْكى ، ولا سمعتـه قط يغنّى غناء آبن سُرَيج إلا ظننتُ أن آبن سريج قد نُشِر ، وإنى ليحضُرنى غيرُه إذا لم يكن حاضرا ، فيتقدّمه عندى بطيب الصوت ، حتى إذا آجتمعا عندى رأيت إسحاق يعلو ورأيت من ظننتُ أنه يتقدّمه ينقص . وإن إسحاق لنعمةٌ من نعم الملوك التى لم يُحْظَ أحد بمثلها . ولو أن العمر والشـباب والنشاط ممـا يُشْتَرَى لآشتريتهنّ له بشطر مُلكى .

وحكى عن أحمـد بن المكّى عن أبيه قال : كان المغنُّون يجتمعون مع إسحاق وكلهم أحسن صـوتا منه ولم يكن فيه عيب إلا صـوته فيطمعون فيه ، ولا يزال بلُطفه وحِذقه ومعرفته حتى يغلبهم جميعا ويفضُلَهم ويتقدّم عليهم . قال : وهو أوّل (٢) من أحدث المجَسّ ليوافق صوته ويشاكله فجاء معه عجبا من العجب ، وكان فى حلقه نُبُوٌّ عن الوتر .

وحكى قال : سأل إسحاق الموصلىّ المأمون أن يكون دخوله مع أهل العلم والأدب والرُّواة لا مع المُغنّين ، فإذا أراد الغناء غنّاه ، فأجابه إلى ذلك . ثم سأله بعـد مدّة طويلة أن يأذن له فى الدخول مع الفقهاء فأذن له ؛ قال : فكان يدخل ويده فى يد قاضى القضاة يحيى بن أكثم . ثم سأل إسحاق المأمون فى لُبس السواد يوم الجمعـة والصلاة معه فى المقصورة ؛ قال : فضحك المأمون وقال : ولا كلّ هذا يا إسحاق! وقد آشتريت منك هذه المسئلة بمـائة ألف دينار[1] وأمر له بها .

---

(١) فى الأغانى : «درهم» .

وكان لإسحاق مع إبراهيم بن المهـدىّ مخاطبات ومنازعات ومحاورات بسبب الغناء، وكان الرشيد ينصر إسحاق على إبراهيم أخيه. من ذلك ما حكاه إسحاق قال: كنت عند الرشيد يوما، وعنده ندماؤه وخاصّته وفيهم إبراهيم بن المهدىّ؛ فقال لى الرشيد: غنّ:

شَرِبتُ مُدامةً وسُقِيتُ أُخرى * وراح المُنتشون وما ٱنتَشَيْتُ

فغنيته. فأقبـل علىّ إبراهيم بن المهـدىّ فقـال لى: ما أصبتَ يا إسحـاق ولا أحسنت. فقلت له: ليس هذا ممـا تعرفه ولا تُحسـنه، وإن شئت فغنّـه فإن لم أجدك أنك تخطئ فيه منذُ ٱبتدائك إلى ٱنتهائك فدَمِى حلال. ثم أقبلت على الرشيد فقلت: يا أمير المؤمنين، هذه صناعتى وصناعة أبى، وهى التى قربتْنا منك وٱستخدمتْنا لك فأوطأتْنا بساطَك، وإذا نازَعنا أحدٌ بغير علم لم نجِد بُدّا من الإفصاح والذبّ؛ فقال: لا غَرْوَ ولا لوم عليك. وقام الرشيد ليبول؛ فأقبل إبراهيم بن المهدىّ علىّ وقال: ويحك يا إسحاق! أتجترئ علىّ وتقول لى ما قلتَ يا ٱبن الفاعلة! لا يَكْنِى. فداخلنى ما لم أملك نفسى معه، فقلت له: أنت تشتُمنى ولا أقدر على إجابتك وأنت ابن الخليفة وأخو الخليفة، ولولا ذلك لقلت لك: يا ٱبن الزانية كما قلت لى يا ٱبن الزانيـة. أوَ ترانى كنت لا أحسن أن أقول: يا ٱبن الزانية! ولكن قولى فى ذمّك ينصرف كله إلى خالك الأعلَم[1]، ولولاك لذكرتُ صناعتَه ومذهبه — قال إسحاق: وكان بَيْطارا — قال: ثم سكتّ، وعلمتُ أن إبراهيم سوف يشكونى إلى الرشيد، وسوف يسأل مَنْ حضر عما جرى فيخبرونه، فتلافيتُ ذلك بأن قلت: إنك تظن أن الخلافة تصير اليك[2]، فلا تزال تتهدّدنى بذلك وتُعادينى كما تُعادِى سائرَ أولياء أخيك حسدا

(١) الأعلم: الذى بشفته العليا أو فى حاشيها شق. (٢) كذا فى الأغانى. وفى الأصل: «أن الخلافة لك ...»

له ولولده على الأمر! وأنت تضعُف عنه وعنهم، وتستخِفّ بأوليائهم تشفّيًا، وأرجو ألا يُخرجها الله من الرشيد وولده، وأن يقتلك دونها . فإن صارت إليك — والعياذ بالله تعالى من ذلك — فحرامٌ علىّ حينئذ العيش! والموت أطيب من الحياة معك، فآصنع حينئذ مابدالك! قال: فلما خرج الرشيد وثب إبراهيم فجلس بين يديه وقال: يا أمير المؤمنين، شتمنى إسحاق وذكر أمّى وآستخفّ بى . فغضب وقال لى: ويلك! ماتقول؟ قلت: لاأعلم، فسَلْ من حضر. فأقبل على مسرور وحسين فسألها عن القصة فجعلا يُخبرانه ووجهه يَرْبَدّ الى أن انتهيا إلى ذكر الخلافة فسُرِّى عنه ورجع لونه، وقال لإبراهيم: لا ذنب له، شتمته فعرّفك أنه لايقدِر على جوابك، ارجع إلى موضعك وأمسك عن هذا . فلما آنفضّ المجلس وآنصرف الناس أمر الرشيد بألّا أبرح . وخرج كل من حضر حتى لم يبق غيرى، فساء ظنّى وهمّتنى نفسى . فأقبل علىّ وقال: يا إسحاق، أترانى لم أفهم قولك ومرادك! قد والله زنّيته ثلاث مرات! أترانى لاأعرف وقائعَك وأقدامَك وأين ذهبت! ويلك لا تَعُـدْ! حدِّثنى عنك لو ضربك إبراهيم أكنتُ أقتصّ لك منه فأضربه وهو أخى يا جاهل! أتُرَاه لو أمر غلمـانه فقتلوك أكنتُ أقتله بك! فقلت: والله يا أمير المؤمنين، قد قتلنى هذا الكلام، وإن بلغه ليقتلنّى، وما أشك أنه قد بلغه الآن . فصاح بمسرور وقال له: علىّ بإبراهيم فأُحضِر، وقال لى: قم فانصرف . فقلت لجماعة من الخدَم — وكلهم كان لى محبًّا وإلىّ مائلا ولى مطيعا —: أخبرونى بمـا يجرى؛ فأخبرونى من غد أنه لمّـا دخل عليه وبّخه وجهّـله وقال له: أتستخفّ بخادمى وصنيعتى وآبن خادمى وصنيعتى وصنيعة أبى فى مجلسى! وتُقدِم علىّ وتستخِفّ بمجلسى وحضرتى! هاه هاه هاه! وتُقْدِم على هذا وأمثاله! وأنت مالك وللغناء! وما يدريك ماهو! ومن أخذك به وطارحك إياه حتى نتوهّم أنك تبلغ منه مبلغ إسحاق الذى غُذِّى به وعلّمه وهو من صناعته! ثم تظن أنك (٣)

تُخَطِّئه فيما لا تدريه، ويدعوك الى إقامة الحجة عليه فلا تثبُت (١) لذلك وتعتصم بشتمه! هذا مما يدلّ على السقوط وضعف العقل وسوء الأدب من دخولك فيما لا يشبهك، وغلبةِ لذّتك على مروءتك وشرفك، ثم إظهارِك إياه (٢) ولم تُحكمه، وآدّعائك ما لا تعلمه حتى ينسبك إلى إفراط الجهل. ألا تعلم، ويحك، أن هـذا سوء أدب وقلّة معرفة وقلة مُبَالاة بالخطأ والتكذيب والردّ القبيح! ثم قال: والله العظيم وحق رسوله وإلا فأنا بريءٌ من المهديّ إن أصابه أحد بسوء أو سقط عليه حجر من السماء أو سقط من دابّته أو سقط عليه سقفه أو مات بجأة لأقتلنك به. والله! والله! والله! فلا تعرض له وأنت أعلم! (٣) قم الآن فآخرجْ؛ فخرج وقد كاد يموت. فلما كان بعـد ذلك دخلت على الرشـيد وإبراهيم عنده [فأعرضت عن إبراهيم] (٤) فجعل ينظر إليّ مرة وإليه مرة ويضحك، ثم قال: إني لأعلم محبّتك لإسحاق وميلَك إليه وإلى الأخذ عنه، وإن هذا لا يجيئك من جهته كما تريد إلا بعد أن يرضى، والرضا لا يكون بمكروه، ولكن أحسِنْ إليه وأكرمه وآعرف حقَّه وبِرَّه وصِلْه، فإذا فعلتَ ذلك ثم خالف ماتهواه عاقبتَه بيد مستطيلة منبسطة ولسانٍ منطلق. ثم قال لي: قم إلى مولاك وآبن مولاك فقبّل رأسه؛ فقمت إليه وقام إليّ وأصلح الرشيدُ بيننا.

قال أبو الفرج: وكان إسحاق جيّد الشعر، كان يقول الشعر ويَنسُبه للعرب. فمن ذلك قوله:

لَفَظ الخدورُ إليك حُورًا عِينًا * أنسَيْن ما جمـع الكِنَاسُ قَطِينَا
فإذا بَسَمْنَ فَعَنْ كمثل غمـامة * أو أُقْحُوان الرمل بات مَعِينـا
وأصحُّ ما رأت العيـونُ محاجرًا (٥) * ولَهُنّ أمراضُ ما رأيت عيونا

(١) في الأغاني: عليك. (٢) كذا في الأغاني. وفي الأصل: «من دخولك فيما لا يشبهك ثم إظهارك إياه وغلبت لذتك الخ». (٣) كذا في الأغاني. وفي الأصـل: «وأنت أعلم ولا تعرض له». (٤) زيادة عن الأغاني. (٥) كذا بالأغاني، وفي الأصل: «جوارحا».

فكأنما تلك الوجوهُ أهِـلّةٌ * أقْمَرْنَ بين العشر والعشْرينا
وكأنهن إذا نهضْنَ لحاجةٍ * ينهضْنَ بالعَقَداتِ من يَبْرِينا

وأشعاره فى هذا النوع كثيرة .

روى عن الأصمعىّ قال : دخلت أنا و إسحاق بن إبراهيم الموصلىّ يوما على الرشيد فرأيناه لَقِسَ(١) النفس، فأنشده إسحاق :

وآمرةٍ بالبخل قلتُ لها اقْصِرِى * فذلك شىءٌ ما إليه سبيلُ
أرى الناس خُلّان الكرامِ ولا أرى * بخيلا له حتى المماتِ خليل
و إنى رأيتُ البخل يُزْرِى بأهله * فأكرمتُ نفسى أن يقال بخيل
ومن خيرِ حالاتِ الفتى لو علمتِه * إذا نال خيرًا أن يكونَ يُنِيل(٢)
فعالِى فعالُ المكثِرين تجمُّلًا * ومالى كما قد تعلمين قليل
وكيف أخافُ الفقرَ أو أُحرَمُ الغِنَى * ورأىُ أمير المؤمنين جميل!

قال : فقال الرشيد : لاتخف(٣) إن شاء الله ؛ ثم قال : لله درّ أبياتٍ تأتينا بها ما أشدّ أصولَها، وأحسنَ فصولَها، وأقلّ فُضُولَها ! وأمر له بخمسين ألف درهم. فقال له إسحاق : وصفُك والله يا أمير المؤمنين لشعرى أحسنُ منه، فعلامَ آخذ الجائزة ! فضحك الرشيد وقال : آجعلوها مائة ألف درهم. قال الأصمعىّ : فعلمت يومئذ أن إسحاق أحذقُ بصيد الدراهم منّى .

قال أبو عبد الله بن حمدون : سأل المتوكل عن إسحاق، فعُرِّف أنه كُفّ وأنه بمنزله ببغداد، فكتب فى إحضاره . فلما دخل عليه رفعه حتى أجلسه قُدّام السرير وأعطاه

(١) لقست نفسه (من باب فرح) : غثت وخبثت . (٢) كذا فى الأغانى وكتب الأدب. وفى الأصل :
ومن خير خلات الفتى قد علمته * إذا قال خيرا أن يقال نبيل
(٣) كذا فى الأغانى : وفى الأصل : «لا كيف ان شاء الله» .

مخـدّة وقال : بلغنى أن المعتصم دفع إليـك فى أوّل يوم جلست بين يديه مِخدّة ، وقال : إنه لا يستجلب ما عند حرّ مثلُ إكرامه. ثم سأله : هل أكل ؟ فقال نعم؛ فأمر أن يُسـقَى . فلما شرب أقداحا قال : هاتوا لأبى محمد عُودا؛ فجىء به فاندفع يغنّى بشعره :

ما علّة الشيخ عيناه بأربعةٍ * تغرَوْرِقانِ بدمع ثم ينسكب

قال آبن حَمْدون : فمـا بقى غلامٌ من الغِلمان الوقوفِ [على الجيْر](١) إلا وجدتُه يرقُص طرباً وهو لا يعلم بمـا يفعل؛ فأمر له بمائة ألف دينار(٢) . ثم آنحـدر المتوكل الى الرّقة وكان يستطيبها لكثرة تغريد الطير فيها؛ فغنّاه إسحاق : (٤)

أأن هَتَفت وَرْقاءُ فى رَوْنق الضُّحَى * على فنن غضّ النبات من الرَّنْدِ

بكيتَ كما يبكى الوليـدُ ولم تزل * جليـدًا وأبديت الذى لم تكن تُبْدِى

فضحك المتـوكل ثم قال : يا إسحاق ، هـذه أخت فَعلتك بالواثق لمّـا غنّيته بالصالحيّـة :

طَرِبتُ إلى أُصَيْبِيَةٍ صِـغارٍ * وذكَّرنى الهوى قربُ المزارِ

فكم أعطاك لمّـا أذِن لك فى الانصراف ؟ قال : مائـة ألف دينـار(٢)؛ فأمر له بمـائة ألف دينار(٢) وأذن له بالانصراف(٣) . وكان آخر عهده بإسحاق . توفى بعد ذلك بشهرين . وكانت وفاته فى شهر رمضان سـنة خمس وثلاثين ومائتـين . وكان يسأل الله تعـالى ألا يبتليه بالقُولَنْج(٤) لِـا رأى من صعوبته على أبيـه ، فرأى فى منامه كأنّ قائلا يقول له : قد أُجيبت دعوتُك ولست تمـوت بالقُولَنْج ولكنّك

(١) زيادة عن الأغانى . والجير : اسم قصر بسرّ من رأى بناه المتوكل وأنفق على عمارته أربعـة آلاف ألف درهم . (٢) فى الأغانى : "درهم" .

(٣) عبارة الأغانى : «وأذن له بالانصراف الى بغداد . وكان هذا آخر عهدنا به لأن إسحاق الخ»

(٤) مرض يصيب المعدة يعسر معه خروج الثفل والريح .

تموت بضدّه ، فأصابه ذَرَب فى شهر رمضان ، فكان يتصدّق فى كل يوم يمكنه صومه بمائة درهم ، ثم ضَعُف عن الصوم فلم يُطقه ومات فى الشهر . ولما نُعِى إلى المتوكل غمّه وحزِن عليه وقال : ذهب صدر عظيم من جمال الملك وبهائه وزينته . رحمه الله تعالى .

ذكر أخبار عَلُّويَه

هو أبو الحسن على بن عبد الله بن سيف . وجدّه سيف من الصُّغْد الذين سباهم الوليد بن عثمان بن عفّان وآسترق منهم جماعة آختصهم لخدمته وأعتق بعضهم ولم يُعتِق الباقين فقتلوه . قال أبو الفرج الأصفهانى : وكان علىٌّ هذا مغنّيا حاذقا ، ومؤدّبا مُحسنا ، وصانعا متقنا ، وضاربا متقدّما ، مع خفّة رُوح وطيب مجالسة وملاحة نوادر . وكان إبراهيم الموصلىّ علّمه وخرّجه وعُنى بتحذيقه جدًّا ، فبرع وغنّى لمحمد الأمين وعاش إلى أيام المتوكّل ومات بعد إسحاق الموصلى بيسير . وكان سبب وفاته أنه خرج عليه جَرَبٌ ، فشكاه إلى يحيى بن ما سَوَيْه ، فبعث إليه بدواء مُسهل وطِلاء ، فشرب الطلاء وآطّلى بالدواء ، فقتله ذلك . قال : وكان عَلُّويَه أعسر ، فكان عوده مقلوب الأوتار : البَمّ أسفل الأوتار كلها ثم المِثْلَث فوقه ثم المَثْنَى ثم الزِّير ، فكان عوده إذا كان فى يد غيره يكون مقلوبا ، وإذا أخذه كان فى يده اليمنى وضرب باليسرى فيكون مستويا . وكان إسحاق يتعصّب له فى أكثر أوقاته على مُخَارِق . وقال حماد آبن إسحاق : قلت لأبى : أيّما أفضل عندك مُخَارق أم(١) عَلُّويه ؟ فقال : يابنىّ ، عَلُّويه أعرفهما فهمًا بما يخرج من رأسه ، وأعلمُهما بما يغنّيه ويؤدّيه ، ولو خُيِّرت(٢) بينهما من يطارح جوارىّ ، أو شاورنى من يستنصحنى لما أشرت إلا بعَلُّويه ؛ لأنه يؤدّى

---

(١) فى الأصل : «أو» . (٢) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : « خيرنى » .

الغناء، [و] [1] إذا صنع شيئا صنعه صَنعةً مُحكمة، ومخارق لتمكُّنه من حَلقه وكثرة نَغَمه لا يُقْنَع بالأخذ منــه، لأنه لا يؤدّى صــوتا واحدا كما أخذه ولا يغنّيه مرّتين غناءً واحدا لكثرة زوائده فيه، ولكنهما إذا آجتمعا عند خليفة أو سُــوقةٍ غلب مُخارق على المجلس والجائزةِ بطيب صوته وكثرة نغمه .

وقال أبو عبــد الله بن حمدون : حدّثنى أبى قال : اِجتمعت مع إسحاق يوما فى بعض دُور بنى هاشم، وحضر علُّويه فغنّى أصواتا ثم غنّى من صنعته :

ونُبِّئتُ ليلى أرسلتْ بشفاعةٍ * إلىّ فهلّا نفسُ ليلى شفيعُها!

فقال له إسحاق : أحسنت أحسنت والله يا أبا الحسن ! أحسنت ما شئت ! فقام علُّويه من مجلسه فقبّل رأس إسحاق وعينيه وجلس بين يديه وسُرّ [2] بقوله سرورا كثيرا، ثم قال : أنت سيدى وآبن سـيدى [وأستاذى] [3] وآبن أستاذى، ولى إليك حاجة . قال : قل، فوالله إنى أبلُغ فيها ما تُحبّ . قال : أيّمــا أفضلُ أنا عندك أم مُخارق ؟ فإنى أُحبّ أن أسمع منك فى هذا المعنى قولا يُؤثَر و يحكيه عنك من حضر، فشرّفنى به . فقال إسحاق : ما منكما إلا مُحسنٌ مُجمِل، فلا تُرِد أن يجرى فى هذا شىء . قال : سألتك بحقّ عليك و بتُرْبة أبيك و بكل حقّ تُعظّمه إلا حكمت! فقال : ويحك! والله لو كنت أستجيز أن أقول غير الحق لقلته فيما تحب ، فأمّا إذ أبيتَ إلا ذكر ما عندى ، فلو خُيّرت أنا من يطارح جـوارىّ ويُغنّينى لمــا آخترت غيرك ، ولكنكما إذا غنّيتما بين يدى خليفــةٍ أو أمير غلبك على إطــرابه وآستبدّ عليك بجائزته . فغضب علُّويه وقام وقال : أُفّ من رضاك وغضبك !

وكان الواثق بالله يقول : علُّويه أصحّ الناس صنعة بعد إسحاق، وأطيب الناس صوتا بعد مُخارق، وأضربُ الناس بعد زَلْزَل وملاحظ، فهو مُصَلٍّ كلِّ سابقٍ نادر

(١) زيادة نراها لازمة. (٢) كذا فى الأغانى. وفى الأصل : "وصلى". (٣) زيادة من الأغانى.

وثانى كل أول، وأصل كل متقدّم . وكان يقول : [غناء][١] علُّويه مثل نقر الطست يبقى ساعة فى السمع بعد سكوته .

وقال عبد الله بن طاهر : لو ٱقتصرت على رجل واحد يغنّينى لمـا ٱخترت سوى علُّويه ؛ لأنه إن حدّثنى ألهانى ، وإن غنّانى أشجانى ، وإن رجعت إلى رأيه كفانى .

وقال محمد بن عبد الله بن مالك : كان علُّويه يغنّى بين يدى الأمين ، فغنّى فى بعض غنـائه :

ليتَ هندًا أنجزتَنا ما تعِـدْ * وشفَت أنفسَنا ممـا تجِـدْ

وكان الفضل بن الربيع يضطغن عليه شيئا ، فقال للأمين : إنما يعرّض بك ويستبطئ المأمون فى محاربته إياك ؛ فأمر به فضُرب خمسين سوطا وجُرّ برجله حتى أُخرِج ، وجفاه مدّة ؛ حتى سأل كوثرا أن يترضّاه له فترضّاه له وردّه إلى الخدمة وأمر له بخمسة آلاف درهم[٢] . فلما قدِم المأمون تقرّب إليه بذلك فلم يقع له بحيث يحبّ ، وقال : إن الملك بمنزلة الأسد أو النار فلا تتعرّض لمـا يُغضبه ، فإنه ربما جرى منه ما يُتلفك ثم لا يَقدِر بعد ذلك على تلافى مافرَط منه ؛ ثم قرُب من المـأمون بعد ذلك .

قال علّويه : أمرنا المأمون أن نباكره لنصطبح ، فلقينى عبدالله بن إسماعيل المراكبى مولى عَريب فقال : أيها الظالم المعتدى ، أمَا ترحم ولا ترِقّ ! عَريب هائمة من الشوق إليك تدعو الله وتستحكمه عليك وتحلُمُ بك فى نومها فى كل ليلة ثلاث مرات . قال [علّويه : فقلت أمّ الخلافة زانية][١] ومضيت معه . فحين دخلت قلت : أستوثق من الباب فإنى أعرَفُ الناس بفضول الحُجّاب ؛ وإذا عَريب جالسة على كرسىّ تطبخ ثلاث قدور من دَجاج . فلما رأتنى قامت فعانقتنى وقبّلتنى وقالت : أىّ شىء تشتهى؟

(١) زيادة عن الأغانى . (٢) فى الأغانى : « دينار » .

فقلت : قِدْرا من هذه القدور، فأفرغت قِدْرا بينى و بينها فأكلنا ، ودعت بالنبيذ فصبّت رِطلا فشربَتْ نصفه وسقتنى نصفه، فما زلتُ أشرب حتى كدت أن أسكر. ثم قالت : يا أبا الحسن ، غنّيتُ البارحة فى شعر لأبى العتاهية أعجبنى، أفتسمعه (١) وتُصلحه ؟ فغنّت :

عَذيرى من الإنسان لا إن جَفَوتُه * صفا لى ولا إن صرتُ طوْعَ يديه
وإنّى لمشتاقٌ إلى ظِـلّ صاحبٍ * يروقُ و يصفُو إن كَدِرت عليه

فصيّرناه مجلسنا . وقالت : قد بقى فيه شىء ؛ فلم أزل أنا وهى حتى أصلحناه . ثم قالت : أُحبّ أن تغنّى أنت أيضا فيه لحنًا ففعلتُ، وجعلنا نشرب على اللحنين ثلاثا (٢) . ثم جاء الحُجّاب فكسروا الباب وآستخرجونى، فدخلت على المأمون فأقبلت أرقُص من أقصى الإيوان وأُصفّق وأُغنّى بالصوت ؛ فسمع المأمون والمغنُّون ما لم يعرفوه فآستطرفوه، وقال المأمون : آدنُ ياعلُّويه وردّده، فردّدته عليه سبع مرات . فقال لى فى آخرها عند قولى : "يروق و يصفو إن كدرت عليه" : ياعلويه خذ الخلافة وأعطنى هذا الصاحب .

وقال علُّويه : قال إبراهيم الموصلىّ يوما : إنى قد صنعت صوتا وما سمعه منى أحد بعدُ، وقد أحببت أن أنفعك به وأرفع منك بأن أُلقيه عليك وأَهَبَه لك، ووالله ما فعلت هذا بإسحاق قطّ ، وقد خصَصْتك به ، فآنتحله وآدّعِه ، فلست أنسبه إلى نفسى، وستكسب به مالا . فألقى علىّ :

إذا كان لى شيئان يا أمَّ مالكٍ * فإنّ لجارِى منهما ما تخيّرا

فأخذتُه عنه وآدّعيته ، وسترته طول أيام الرشيد خوفا من أن أُتّهم فيه وطولَ أيام الأمين ، حتى حدث عليه ماحدث وقدِم المأمون من خُراسان ، وكان يخرج

(١) كذا بالأغانى؛ وليس فى الأصل همزة الاستفهام . (٢) فى الأغانى : « مليا » .

إلى الشَّمَّاسِيّة فيتنزّه، فركبت يوما فى زُلَالِى[1] وجئت أتبعه، فرأيت حَرّاقة علىّ بن هشام، (٦) فقلت للّلاح : آطرح زُلَالى على الحَرّاقة ففعل ، وآستؤذِن لى فدخلت وهو يشرب مع الجوارى، وما كانوا يحجبون جواريهم، فغنّيته الصوت فآستحسنه جدًّا وطرِب عليه، وقال: لمن هذا؟ فقلت: هذا صوت صنعته وأهديته لك ولم يسمعه أحد قبلك؛ فآزداد به عجبًا وطربًا، وقال للجارية: خُذِيه عنه، فألقيته عليها حتى أخذته، فسُرّ بذلك وطرِب، وقال لى : ما أجد لك مكافأة على هذه الهديّة إلا أن أتحوّل عن هذه الحَرّاقة بما فيها وأسلمه إليك ؛ فتحوّل إلى أخرى وسُلّمت لى بخزانتها وجميع آلاتها وكل شىء فيها ؛ فبعت ذلك بمائة ألف وخمسين ألف درهم ، وآشتريت ضيعتى الصالحيّة .

وقال عَلُّويه: خرج المأمون يوما ومعه أبيات قد قالها وكتبها فى رُقعة بخطّه وهى:

خرجتُ إلى صيد الظِّباء فصادنى * هنــاك غزالٌ أدعج العَيْن أحورُ
غزالٌ كأنّ البــدرَ حلّ جبينَه * وفى خدّه الشِّعْرَى المنــيرة تَزْهَرُ
فصاد فُؤادى إذ رمانى بسهمه * وسهم غزالِ الإنس طرف ومَحْجِر
فيامن رأى ظبيًا يصيد، ومن رأى * أخا قَنَصٍ يُصطادُ قهرًا ويُقْسَرُ

قال : فغنّيته فأمر لى بعشرين[2] ألف درهم .

ذكر أخبار معبَد اليَقْطِينى

قال أبو الفرج : كان معبد هذا غلاما مولّدا من مولّدى المدينة، أخذ الغناء عن جماعة من أهلها، وآشتراه بعض ولد علىّ بن يَقْطِين . وأخذ الغناء بالعراق عن إسحاق وآبن جامع وطبقتهما، وخدم الرشيدَ ولم يخدم غيره من الخلفاء، ومات فى أيامه .

(١) زلال (على وزن غراب مضاف الى ياء المتكلم) : ضرب من سفن دجلة كالحراقة والطيار .
(٢) فى الأغانى : « عشرة آلاف » .

وكان أكثر انقطاعه إلى البرامكة . وروى أبو الفرج الأصفهانيّ حكاية عنه أحببت أن أذكرها فى هــذا الموضع ، وهى ما رواه بسنده إلى محمد بن عبد الله بن مالك الخُزَاعيّ ، قال حدّثنى معبَد الصغير المغنّى مولى على بن يَقْطين قال : كنت منقطعا إلى البرامكة أُحدّثهم وأُلازمهم . فبينا أنا ذات يوم فى منزلى إذ أتانى آت فدقّ بابى ، فخرج غلامى ثم رجع إلىّ فقال لى : على الباب فتى ظاهر المُروءة يستأذن عليك ، فأذنت له ، فدخل شابّ ما رأيت أحسنَ وجهًا منه ولا أنظف ثوبا ولا أجمل زِيًّا منه من رجل دَنِف عليه آثار السّقم [ظاهرة](١) . فقال لى : إنى أحاول لقاءك منذ مدّة ولا أجد إلى ذلك سبيلا ، وإن لى حاجة . فقلت : وما هى؟ فأخرج ثلاثمائة دينار فوضعها بين يدىّ فقال : أسألك أن تقبلها وتصنع فى بيتين قلتُهما لحنا تغنّينى به . فقلت : هاتِهما ، فأنشدنى :

والله يا طَرْفِىَ الجانى على بَدنِى * لتُطفِئَنّ بدمعى لوعَة الحَزَنِ
أو لأبوحنّ(٢) حتى يحجُبُوا سَكَنِى * فلا أراه وقد أُدْرِجتُ فى كَفَنِى

قال : فصنعت فيه لحنًا ثم غنّيته إياه ، وأُغمِى عليه حتى ظننته قدمات ، ثم أفاق فقال : أعِدْ ، فديتُك! فناشدته الله فى نفسه وقلت : أخشى أن تموت ؛ فقــال : هيهات! أنا أشقى من ذلك . وما زال يخضع لى ويتضرّع حتى أعدته ، فصعِق صعقة أشدّ من الأولى حتى ظننت أن نفسه قد فاضت . فلمـا أفاق رددت عليه الدنانير فوضعتها بين يديه ، وقلت : يا هذا ، خذ دنانيرك وآنصرف عنى ، قد قضيت حاجتك وبلغت وطرًا ممـا أردته ، ولست أُحبّ أن أُشرك فى دمك . فقال : [يا](١) هذا ، لا حاجة لى فى الدنانير ، وهذه مثلها لك ، ثم أخرج ثلاثمائة دينار فوضعها بين يدىّ وقال : أعِد الصوت علىّ مرةً أُخرى وحِلٌّ لك دمى ! فشرِهَتْ نفسى فى الدنانير ،

---

(١) زيادة عن الأغانى . (٢) كذا فى الأغانى ، وفى الأصل : «أو لأبرحن» ولا معنى له .

وقلت : لا والله ولا بعشرة أضعافها إلا على ثلاث شرائط . قال : وما هى؟ قلت : أُولاهن أن تقيم عندى وتحرّم بطعامى . والثانية أن تشرب أقداحا من النبيذ تُطَيِّبُ(١) قلبك وتسكّن ما بك . والثالثة أن تحدّثنى بقصّتك . قال : أفعلُ ما تريد . فأخذت الدنانير ودعوتُ بطعامٍ فأصاب منه إصابة مُعَذِّر، ثم دعوت بالنبيذ فشرب أقداحا، وغنّيته بشعر غيره فى معناه وهو يشرب ويبكى، ثم قال : الشرطَ أعزّك الله! فغنّيته صوته فجعل يبكى أحرّ بُكاءٍ وينْشِج أشدّ نَشيج وينتحب . فلما رأيت ما به قد خفّ عما كان يلحَقه ورأيت النبيذ قد شدّ قلبه، كررت عليه صوته مرارا . ثم قلت : حدّثنى (٧)
حديثك، فقال : أنا رجل من أهل المدينة خرجت متنزِّها فى ظاهرها وقد سال العقيق فى فتية من أقرانى وأخدانى، فبصُرنا بفَتَيات قد خرجن لمثل ما خرجنا له ، فجلس حَجْرةً(٢) منا، وبصُرت منهن بفتاة كأنها قضيب قد طلّه الندى، تنظر بعينين ما آرتد طرفهما إلا بنفس من يلاحظهما . فأطلنا وأطلن حتى تفرّق الناس، وآنصرفن وآنصرفنا وقد أبقت بقلبى جُرحًا بطيئا آندماله ؛ فعدت إلى منزلى وأنا وَقِيذ، وخرجت من الغد إلى العقيق وليس به أحدٌ فلم أر لها ولا لصواحبها أثرا، ثم جعلت أتتبّعها فى طرق المدينة(٣) وأسواقها، وكأنّ الأرض أضمرتها فلم أحسّ لها بعين ولا أثر، وسقِمت حتى أيِس منى أهلى . وخَلَتْ بى ظِئْرى فآستعلمتنى حالى وضمِنت لى كتمانَها والسعى فيما أحبّه منها، فأخبرتها بقصتى؛ فقالت : لا بأس عليك، هذه أيام الربيع وهى سنة خِصْب وأنواء وليس يبعد عنك المطر، ثم هذا العقيق فتخرج حينئذ وأخرج معك فإن النسوة سيجئن ؛ فإذا فعلن ورأيتَها أتبعُها حتى أعرف موضعها ثم أصل بينك وبينها وأسعى لك فى تزويجها . فكأنّ نفسى آطمأنت إلى ذلك ووثقت به وسكنت إليه، فقويتُ وطمِعت وتراجعتْ إلىّ نفسى . وجاء مطر بعقب ذلك وسال العقيق

(١) فى الأغانى : «تشد» . (٢) ناحية . (٣) كذا بالأغانى . وفى الأصل : «طريق المدينة» .

وخرج الناس وخرجت مع إخوانى اليه، فجلسنا مجلسنا الأوّل بعينه، فما كنا والنسوة إلا كفَرَسَىْ رِهان، فأومأتُ إلى ظِئرى فجلستْ، وأقبلتُ على إخوانى فقلت : لقد أحسن القائل :

رمتنى بسهم أقصدَ القلبَ وآنثنَتْ * وقـــد غادرتْ جُرْحًا به ونُدُوبا

فأقبلتْ على صواحباتها وقالت : أحسن والله القــائل ، وأحسن من أجابه حيث يقـــول :

بنــا مثلُ ما تشكو فصبرًا لعلّنا * نرى فَرَجًا يَشفِى السَّقامَ قريبًا

فسكتُّ عن الجواب خوفًا من أن يظهـر منى ما يفضحنى و إياها ، وعرفت ما أرادت . ثم تفرّق الناس وآنصرفنا، وتبعتْها ظئرى حتى عرفت منزلها، وصارت إلىّ فأخذت بيدى ومضينا إليها ، فلم نزل نتلطّف حتى وصلتُ إليها ، فتلاقينا وتزاورنا على حال مخالسةٍ ومُراقبةٍ، حتى شاع حديثى وحديثُها وظهر ما بينى و بينها، فحجبها أهلها وسدّوا أبوابها، فما زلت أجهد فى لقائها فلا أقدِر عليه، وشكوت ذلك إلى أبى لشدّة ما نالنى وسألته خِطْبَتَها لى . فمضى أبى ومَشْيَخة أهلى إلى أبيها فخطبوها، فقال: لو كان بدأ بهذا قبل أن يفضَحها و يشهَرها لأسعفته بما آلتمس، ولكنه قد فضحها فلم أكن لأحقّق قول الناس فيها بتزويجه إياها، فآنصرفتُ على يأسٍ منها ومن نفسى .

قال معبد : فسألته أن ينزل بجوارى، وصارت بيننا عِشرة . ثم جلس جعفر بن يحيى ليشرب فأتيته، فكان أوّل صوت غنّيته صوتى فى شعر الفتى، فشرب وطرِب عليه طربًا شديدا، وقال : ويحــك ! إن لهذا الصوت حديثا فــا هو ؟ فحدّثته، فأمر بإحضار الفتى فأُحضِر من وقتــه، وآستعاده الحديث فأعاده، فقال : هى فى ذمتى حتى أزوّجك إياها، فطابت نفسه وأقام معنا ليلتنا حتى أصبح، وغدا جعفر إلى الرشيد فحدّثه الحديث، فعجب منه وأمر بإحضارنا جميعا فأُحضِرنا، وأمر بأن أغنّيه الصوت

فغنيته إياه وشرب عليه وسمع حديث الفتى؛ فأمر من وقته بكتاب الى عامل الحجاز بإشخاص الرجل وآبنته و جميع أهله إلى حضرته؛ فلم تمض إلا مسافة الطريق حتى أُحضِروا . فأمر الرشيد بإحضار أبي الجارية إليه فأُحضِر، وخطب إليه الجارية للفتى وأقسم عليه ألّا يخالف أمْرَه ؛ فأجابه وزوّجها إياه؛ وحمل الرشيد إليه ألف دينار لجهازها وألف دينار لنفقة طريقه، وأمر للفتى بألف دينار ولى بألف دينار، وأمر جعفرُ لى وللفتى بألف دينار . وكان المدينيّ بعد ذلك من نُدماء جعفر بن يحيى .

ذكر أخبار محمد الرف

هو محمد بن عمرو مولى بنى تميم، كوفىّ المولد والمنشأ . والرّفّ(١) لقب غلب عليه . وكان مُغَنِّيا ضاربا صالح الصّنعة مليح النادرة . وكان أسرع خلقِ الله أخذًا للغِناء وأصحّهم أداءً له وأذكاهم . وكان اذا سمع الصوت مرتين أو ثلاثا أدّاه لا يكون بينه وبين من أخذه عنه فرقٌ فيه . وكان متعصّبًا على آبن جامع مائلًا إلى إبراهيم الموصلىّ (٨)
وآبنه إسحاق، وكانا يرفعان منه ويقدّمانه ويأخذان له الصِّلات من الخلفاء. وكانت فيه عربدةٌ إذا سكر . فعربد بحضرة الرشيد مرةً، فأمر بإخراجه ومنعه من الدخول إليه وجفاه وتناساه . قال أبو الفرج : وأحسبه مات فى خلافته أو خلافة الأمين .
ومن أخباره فى جودة الأخذ وسرعة الحفظ ما رواه حماد بن إسحاق عن أبيه قال : غنّى آبن جامع يوما بحضرة الرشيد :

جَسَورٌ على هجرى جبانٌ عن الوصلِ * كذوبُ عِدَاتٍ يُتْبِعُ الوعدَ بالمَطْلِ
مُقَــدِّم رِجلٍ فى الوصــال مؤخِّرٌ * لأُخرى يشوب الجِدّ فى ذاك بالهَزْلِ

(١) ورد فى أكثر أصول الأغانى المخطوطة والمطبوعة «الرف» بالراء المهملة، وورد فى بعض المواضع من أصول الأغانى « الزف » بالزاى المعجمة .

يهُـمّ بنـا حتى إذا قلت قـد دنا * وجاذبني عطفـاه مال إلى البُخْلِ
يزيد آمتناعًا كلمـا زدتُ صـبوةً * وأزداد حِرْصًا كلمـا ضَنّ بالبَـــذْلِ

فأحسن فيه ما شاء وأجمـل ، فغمزت عليـه محمد الرقّ وفَطِن لمـا أردت ، وآستحسنه الرشـيد وشرب عليه وآستعاده مرتين أو ثلاثا . ثم قمتُ إلى الصــلاة وغمزت الرف بجاءنى، وأومأت إلى مُخارق وعلوّيه وعقيد بجاءونى؛ فأمرته بإعادة الصوت فأعاده وأدّاه كأنه لم يزل يرويه ؛ ولم يزل يكرره على الجماعة حتى غنّوه . ثم عدت إلى المجلس؛ فلما آنتهى الدور إلىّ آبتدأت فغنّيته قبل كل شيء غنيّته . فنظر إلى آبن جامع محدّدا طَرْفه؛ وأقبل علىّ الرشيد وقال: أكنت تَرْوِى هذا الصوت؟ قلت : نعم ياسيّدى . فقال آبن جامع : كذب والله ما أخذه إلا منى الساعة . فقلت: هذا صوت أرويه قديما، وما فيمن حضر [أحد] (١) إلا وقد أخذه منّى . وأقبلت عليهم فقلت لهم : غنّوه ؛ فغنّاه علّويه ثم عقيد ثم مُخارِق . فوثب آبن جامع فجلس بين يديه فحلف بحياته وبطلاق آمرأته أنّ اللحن صنعه منذ ثلاث ليال وما سُمِع به قبل ذلك الوقت . فأقبل الرشيد علىّ وقال : بحياتى آصدُقنى عن القِصّة، فصدَقته ، فجعل يضحك ويصفّق ويقول : لكل شيء آفة، وآفة آبن جامع الرقُّ .

قال إسحاق بن إبراهيم : كان محمد الرقّ أروَى خلقِ الله تعالى للغناء وأسرعَهم أخذًا لمـا سمعه، ليست عليه فى ذلك كُلْفة، إنما يسمع الصوت مرة واحدة وقد أخذه . وكنا معه فى بلاء إذا حضر، فكان كل من غنّى منّا صوتا (٢) فسأله عدوله أو صديق بأن يُلقِيه عليه فبخِل ومنعه إياه وسأل محمد الرقّ أن يأخذه فما هو إلا أن يسمعه مرّةً واحدةً حتى أخذه وألقاه على من سأله . قال : وكان أبى يَبَرّه ويصله ويُحْذِيه من

(١) زيادة من الأغانى .

(٢) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : « وكل من غنى الخ » .

كل جائزة وفائدة تصل إليه . وكان محمد الرفّ مُغْرًى بآبن جامع خاصّــةً من بين المغنّين لبخله ، وكان لا يفتح آبن جامع فاه بصــوت إلا وضــع عينَه عليــه وصغَى بسمعه إليه حتى يحكِيَه . وكان فى آبن جامع بخلٌ شديد لا يقدِر معه على أن يُسْعِفه ببرّ ورِفْد. وساق نحو ما تقدّم إلا أنه قال : إن الرّفّ أخذ الصوت لأوّل مرة وألقاه على إسحاق فأخذه عنه فى ثلاث مرار . قال حماد : وللرفّ صَنعة يسـيرة ، وذكر منها أصواتا .

ذكر أخبــار محمد بن الأشعث

قال أبو الفرج : كان محمــد بن الأشعث القرشيّ ثم الزُّهْرِىّ كاتبا ، وكان من فِتيان أهل الكوفة وظُرفائهم ، وكان يقول الشعر ويُغنّى فيه . فمن ذلك قوله فى سَلّامة زرقاء آبن رامين :

أمسى لسلّامةَ الزرقاءِ فى كَبِـدِى * صَــدْعٌ يُقيم طَوَالَ الدهرِ والأبدِ
لا يستطيع صَــنَاعُ القومِ يَشْـعَبُه * وكيف يُشْعَبُ صدعُ الحبِّ فى الكبِدِ
إلّا بوصل التى من حبّها آنصدعتْ * تلك الصدوعُ من الأسقام والكَمَدِ

وكان ملازمًا لآبن رامين ولجاريته سلّامة الزرقاء ، فشُهِر بذلك ، فلامه قومه فى فعله فلم يَحْفِل بمقالتهم ، وطال ذلك منه ومنهم ، حتى رأى بعضَ ما يكره فى منزل آبن رامين ، فمــال الى سحيقة جارية زُرَيق آبن مَنِيح مولى عيسى بن موسى ، وكان زُرَيْق شيخا كريما نبيلا ، يجتمع إليه أشراف أهل الكوفة من كل حىّ ، وكان الغالبُ على منزله رجلًا من ولد القاسم بن عبد الغفار العِجْلىّ كغلبة محمد بن الأشعث على منزل آبن رامين ، فتلازما على ملازمة زُرَيق . وفى ذلك يقول محمد بن الأشعث :

يَا بنَ رامينَ بحتُ بالتصريح * فى هواى سحيقــةَ ابنِ منيـــح
قينــةٌ عقّــةٌ ومولًى كـريمٌ * ونديمٌ من اللُّبـاب الصريح
رَبَعِىٌّ مُهَـــذَّبٌ أرْيَحِىٌّ * يشترى الحمـدَ بالفَعَـالِ الرّبيح
نحن منه فى كل ما تشتهى الأنـ * ـفُسُ من لَذّةٍ وعيشٍ نجيح
عنـد قومٍ من هاشم فى ذُرَاهـا * وغِنـاءٍ من الغزال المليــح
فى سُرورٍ وفى نعــيم مُقِـــيم * قـد أمِنّـا من كل أمرٍ قبيــح
فاسـلُ عنّـا كما سـلوناك إنّى * غيرُ سالٍ عن ذاتِ نفسى ورُوحِى
حافظٌ منك كل ما كنت قد ضـ * ـيّعت ممـا عَصَيتُ فيه نَصيحى
فالقِلَى ما حييتُ منى لك الدهـ * ـرَ بـــودٍّ لمنيّـــتى ممنـــوح
يابن رامين فالزَمَنْ مَسْجِدَ الحـ * ـىّ بطـــول الصـــلاة والتسـبيح

قال عمر بن نوفل وهو راوى هذه الأبيات: فلم يَدع ابنُ رامين شريفا بالكوفة إلا تحمّل به على ابن الأشعث وهو يأبى أن يرضى عنه وأن يعاود زيارته، حتى تحمّل عليه بالجَحْوانىّ، وهو محمد بن بشر بن جَحْوان الأسدىّ وكان يومئذ على الكوفة، فكلّمه فرضِى عنه وعاد إلى زيارته، ولم يقطع منزل زُرَيق . وقال فى سحيقة :

سحيقــةُ أنتِ واحدة القِيانِ * فمـا لكِ مُشْــبِهٌ فيهنّ ثانى
فَضَلْتِ على القيان بفصلِ حِذْقٍ * فَحُزْتِ على المَدَى قَصَبَ الرِّهانِ
سجـدْنَ لكِ القيــانُ مُكَفِّراتٍ * كما سجـد المجوس لمَرْزُبانِ
ولا سِيّمَـا إذا غنّتْ بصـــوتٍ * وحرّكتِ المَثَالِثَ والمثـانى
شَرِبتُ الخمـــرَ حتى خِلْتُ أنى * أبو قابوسَ أو عبـدُ المَدَانِ
فإعمـال اليسار على المـــلاوى * ومن يمنـاكِ ترجمـةُ البيانِ

ولمحمد بن الأشعث أصوات له فيها غِناء . منها :

رَحُبتْ بلادُك يا أُمامَهْ * وسَلِمْتِ ما سَجَعتْ حمامَهْ
وسقى دِيارَكِ كلما * حَنَّتْ الى السُّقْيا غمامه
انِّى وإن أقصيتِنى * شَفِقٌ(١) أُحِبّ لكِ الكرامه
وأرى أمورَكِ طاعةً * مفروضةً حتى القيامه

وله غير ذلك من الأصوات .

ذكر أخبار عمرو بن بانة

قال أبو الفرج الأصفهانىّ : هو عمرو بن محمد بن سليمان بن راشد مولى ثقيف . وكان أبوه صاحب ديوان ووجها من وجوه الكُتّاب، ونُسب إلى أمه . وكان مغنِّيا محسنا، وشاعرا صالح الشعر، وصنعته صنعة متوسِّطة، وكان مرتجلا . قال : وكتابه فى الأغانى أصل من الأصول . وكان يذهب مذهبَ إبراهيم بن المهدىّ فى الغناء، ويخالف إسحاق ويتعصّب عليه تعصُّبا شديدا ويواجهه بنفسه . وهو معدود فى ندماء الخلفاء ومغنّيهم، على ما كان به من الوَضَح . وفيه يقول الشاعر :

أقول لعمرٍو وقد مرّ بى * فسلَّم تسليمةً جافيَهْ
لئن فَضَّلوك بفضلِ الغِنا * ءِ فقد فضّل الله بالعافيه

وقال أحمد بن حمدون : كان عمرو حسن الحكاية لمن أخذ عنه الغناء، حتى كان من يسمعه لو توارى عن عينه [عمرو](٢) لم يشكّ فى أنه هو الذى أخذ عنه، لحسن حكايته . وكان محظوظًا ممن يعلّمه، ما علّم أحدًا قطّ إلا خرج نادرا مبرّزا . وله أخبار مع الخلفاء وإنعام منهم عليه، منهم المتوكل على الله . رحمه الله .

---

(١) فى الأغانى : "سفها" . (٢) زيادة عن الأغانى .

ذكر أخبار عبد الله بن العباس الربيعىّ

هو أبو العباس عبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع . والربيع ، على ما يدّعيه أهله ، آبن يونس بن أبى فروة . وآل أبى فروة يدفعون ذلك و يزعمون أنه لَقِيط وجد منبوذًا كَفَله يونس ، فلما خدَم المنصور آدّعى إليه . قال أبو الفرج الأصفهانى : (١٠) وكان شاعرا مطبوعا ومغنّيا مُحسنا جيّــدَ الصنعة نادرَها . قال : وهو أوّل مَنْ غنّى بالكنكلة فى الإسلام .

وكان سبب دخوله فى الغناء على ما رواه أبو الفرج بسنده إليه قال : كان سبب دخولى فى الغنــاء وتعلُّمى إياه أنّى كنت أهوَى جاريةً لعمّتى رُقَيّــةِ بنت الفضــل آبــن الربيع ، وكنت لا أقدِر على مُلازمتهــا والجلوس معها خوفاً من أن يظهــر ما لهــا عندى ، فيكون ذلك سببَ منعى منهــا ؛ فأظهرت لعمّتى أنى أشتهى أن أتعلّم الغناء و يكون ذلك فى سِترٍ عن جدّى — وكان جدّى وعمّتى على حال من الرقّة علىّ والمحبّة لى لا نهاية وراءها ، لأن أبى تُوُفِّى فى حياة جَدّى الفضل — فقالت : يا بُنَىّ ، وما دعاك إلى ذلك ؟ فقلت : شهوةٌ غَلبتْ على قلبى ، إن مُنِعتُ منها مُتّ غمًّا — قال : وكان لى فى الغناء طبع قوىّ — فقالت لى : أنت أعلم وما تختاره ، والله ما أحبّ منعك من شىء ، و إنى كارهةٌ أن تحذق فى ذلك وتشتهر فيسقُط و يفتضح أبوك وجدّك . فقلت : لا تخافى من ذلك ، فإنما آخذ منه مقدار ما ألهو به . ولازمت الجارية لمحبتى إيّاها بعلّة الغناء ، فكنتُ آخذ عنهــا وعن صواحباتها حتى تقدّمتُ الجماعةَ حذقًا وأقرّت لى بذلك ، وبلغت ما كنت أريد من الجارية ، وصرت ألازم مجلس جدّى . ثم لم يكن يمرّ لإسحاق ولا لآبن جامع ولا للزُّبير بن دحمان ولا لغيرهم صوت إلا أخذته ، وكنت سريع الأخذ ، إنما كنت أسمعه مرتين [illegible]

وقد صحّ لى . وأحسست فى نفسى قوّة فى الصناعة، فصنعت أوّل صوت صنعته فى شعر العَرْجىّ :

أماطتْ كساءَ الخزّ عن حُرّ وجهِها * وأدنتْ على الخدّين بُرْداً مُهَلْهَلا

ثم صنعتُ :

أَقفَرَ من بعد خَلّةٍ سَرَفُ * فالمُنْحَنَى فالعَقِيقُ فالجُرُف

وعرضتهما على الجارية التى كنت أهواها وسألتها عما عندها فيهما ؛ فقالت : لا يجوز أن يكون فى الصنعة فوق هذا . وكان جوارى الحارث بن بُسْخُنَّر وجوارى أبيه يدخلن إلى دارنا فيَطْرَحْنَ على جوارى عمّى وجوارى جدّى و يأخذن أيضا ماليس عندهن، فأخَذْنَهما منّى، وسألن الجارية عنهما فأخبرتهن أنهما من صَنعتى، ثم آشتهرا حتى غُنّى الرشيدُ بهما يوماً فآستظرفهما، وسأل إسحاق : هل تعرفهما؟ فقال : لا ، وإنهما لمن أحسن الصنعة وجيِّدها ومُتْقَنها . ثم سأل الجارية عنهما فوقفت خوفًا من عمّى وحَذَرًا أن يبلُغ جدّى أنها ذكرتنى ؛ فآتهمها الرشيد فأخبرته القصّة؛ فوجّه من وقته فدعا بجَدّى فقال له : يا فضل، أيكون لك آبن يغنّى ثم يبلُغ فى الغناء المبلغ الذى يمكنه أن يصنع صوتين يستحسنهما إسحاق وسائر المغنين ويتداولها جوارى القِيان فلا تُعْلِمنى بذلك، كأنك رفعت قدره عن خِدمتى فى هذا الشأن ! فقال له جدّى : وحقّ ولائك يا أمير المؤمنين ونعمتِك وإلا فأنا برئ من بيعتك وعلىّ العهد والميثاق(١) والعِتْق والطلاق إن كنت علمت بشىء من هذا قط إلا منك الساعة . [فمن هذا من ولدى ؟ قال : عبد الله بن العباس هو(٢)، فأحْضِرْنيه الساعة](٣) . فجاء جدّى وهو يكاد أن ينشق غيظًا ، فدعانى؛ فلما خرجت إليه شتمنى

(١) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : "والبيان" . (٢) لعل العبارة : «هو عبد الله ابن العباس» . (٣) زيادة عن الأغانى .

وقال : [ياكلب][(١)] بلغ من أمرك أنك تجسُر على أن تتعلّم الغِناء بغير إذنى! ثم زاد ذلك حتى صنعت ، ولم تقنع بهـذا حتى ألقيت صنعتك على الجوارى فى دارى ، ثم تجاوزهن إلى جوارى الحارث بن بُسْخُنَّر ، فاشتُهِرتَ ، و بلغ أميرَ المؤمنين فتنكّر لى ولامنى ، وفضحت آباءك فى قبورهم وسقطت للأبد إلا من المغنِّين ! فبكيت مما جرى علىّ وعلمت أنه صدَقنى ؛ فرحِمنى وضمّنى إليه وقال : قد صارت الآن مصيبتى فى أبيك مصيبتين ، إحداهمـا به وقد مضى وفات ، والأخرى بك وهى موصولة بحياتى ، ومصيبة[(٢)] باقية العار علىّ وعلى أهلى بعدى ، و بكى وقال : عزّ علىّ يا بُنَىّ أنّى أراك أبدًا ما بقيت على غير ما أُحبّ ؛ وليست لى فى هذا الأمر حيلة لإنه أمر قد خرج عن يدى . وقال : جئنى بعود حتى أسمعك وأنظـر كيف أنت ، فإن كنت تصلُح للخدمة فى هـذه الفضيحة و إلا جئتُ بك منفردًا وعرّفتــه خبرك وٱستعفيته لك . فأتيتُ بعود وغنّيته غِناءً قديمـا ؛ فقال : لا ، بل صوتيك اللذين صنعتَهما ، فغنّيته إياهما ، فاستحسنهما و بكى ، ثم قال : بَطَلتَ والله يا بنىّ وخاب أملى فيك . فواحربا (١١) عليك وعلى أبيك ! فقلت : ليتنى مِتّ قبـل ما أنكرته أو أُخرِست ! ومالى حيلة ! لكنى وحياتك يا سيِّدى — و إلا فعلىّ عهد الله وميثاقه والعتق والطلاق وكل يمين يحلف بها [حالف][(٣)] لازمة [لى][(٣)] — لا غنّيتُ أبدًا إلا لخليفة أو ولىّ عهد . فقال : قد أحسنتَ فيما نَبِهت[(٤)] عليه من هذا . فركب وأمر بى فأُحضِرتُ ، ووقفتُ بين يدى الرشيد وأنا أُرْعَد ؛ فٱستدعانى وٱستدنانى حتى صرتُ أقربَ الجماعة إليه ، ومازحنى

---

(١) زيادة عن الأغانى .

(٢) فى الأغانى : مصيبته ؛ ولعلها : مصيبتك .

(٣) زيادة عن الأغانى .

(٤) الذى فى أساس البلاغة : «نَبِهت على الأمر : تفطنت له» .

وأقبـل علىّ وسكّن منى،[1] وأمر جَدّى بالانصراف ؛ وأومأ إلى الجمـاعة فحدّثونى وسُقيت أقداحًا[2] وغنّى المغنون جميعا ؛ وأومأ إلىّ إسحاق بعينه أن ابدأ فغنِّ إذا بلغت النوبة إليك قبل أن تُؤمر بذلك ليكون ذلك أملح وأجمل بك . فلما جاءت النَّوْبة إلىّ أخذتُ عودًا ممن كان إلى جنبي وقمتُ قائمـا واستأذنت فى الغناء ؛ فضحك الرشـيد وقال : غَنّ جالسا ؛ فغنّيت لحنى الأوّل ، فطرب واستعاده ثلاث مرّات وشرب عليه ثلاثة أنصاف . ثم غنّيت الثانى فكانت هذه حاله ، فسكِر ودعا بمسرور وقال : احمل الساعة مع عبـد الله عشرة آلاف دينار وثلاثين ثوبا من فاخر ثيابى وعيبةً مملوءة طِيبا ، فحُمل ذلك كله معى . قال عبد الله : ولم أزل كلما أراد ولىّ عهد أن يعلم مَنِ الخليفةُ بعد الخليفة هو أم غيره دعانى وأمرنى أن أغنّى ، فأُعرِّفه يمينى فيستأذن الخليفة فى ذلك ، فإن أذِن لى فى الغناء علم أنه ولىّ عهد وإلا عرَف أنه غيره ، حتى كان آخرهم الواثق فدعانى فى أيام المعتصم وسأله أن يأذَن لى فى الغناء ، فأذِن لى ثم دعانى من الغد فقال : ما كانـ غِناؤكـ إلا سببًا لظهور سِرّى وأسرار الخلفاء قبلى ! والله لقد هَمَمتُ أن آمر بضرب رقبتك ! لا يبلُغَنى أنك امتنعت من الغناء عند أحد ، فوالله لئن امتنعت لأضربن عنقك ! فأعتِقْ من كنت تملِكه يوم حلفت ، وطلِّق من كان عندكـ يومئذ ، وأرِحنا من يمينك هذه المشئومة . فقمت وأنا لا أعقِل جَزَعًا منه ؛ فأعتقت جميع ما كان بقى عنـدى من ممـاليكى الذين حلفت يومئذ وهم فى ملكى ثم تصدّقت بجملة ، واستفتيت فى يمينى أبا يوسف القاضى حتى خرجت منها ؛ وغنّيت بعـد ذلك إخوانى جميعا حتى اشتُهِر أمرى ، وبلغ المعتصم خبرى فتخلّصت منه .

---

(١) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : «وأقبل على الجماعة وشكر منى الخ» .

(٢) فى الأغانى : «وسقيت الجماعة وغنى الخ» .

وروى أبو الفرج أيضا عن الصُّولىّ عن الحسين بن يحيى قال : قلت لعبد الله آبن العباس : إنه بلغنى لك خبرٌ مع الرشيد أوّل ماشُهِرتَ بالغناء فحدّثنى به؛ فقال : نعم! أوّل صوت صنعته :

أتانى يُؤَامِرنى فى الصَّبُو * ح ليـلًا فقلتُ له غَادِها

فلما دار لى وضربت عليه بالكنكلة (١)، عرضْته على جارية (٢) لنا يقال لهـا راحة، فآستحسنته، وأخذته عنى . وكانت تختلف إلى إبراهيم الموصلى، فسمعها يوما تغنّيه وتناغى (٣) به جارية من جواريه، فآستعادها إياه فأعادته؛ فقال : لمن هذا الصوت؟ قالت : صوت قديم . قال : كذبتِ، لو كان قديما لعرفته . وما زال يداريها ويتغاضب عليها حتى آعترفت له أنه من صنعتى ، فعجِب من ذلك . ثم غناه يومًا بحضرة الرشيد ليُغْرِب به على المغنّين، فآستحسنه الرشيد، فقال له : لمن هذا يا إبراهيم؟ فأمسك عن الجواب وخشِى أن يكذبه فينمِى إليه الخبر من غيره، وخاف من جدّى إن يصدُقْه؛ فقال له : مالك لاتجيبنى؟ قال : ما يمكننى يا أمير المؤمنين . فآستراب بالقصّة، فأقسم الرشيدُ أنه إن لم يعرّفه عاقَبه عقوبةً تُوجعه، وتوهّم أنه لعُلَيّة بنت المهدىّ أو لبعض حُرَمه فآستطير غضبًا . فلما رأى إبراهيم الجدّ منه صدَقه فيما بينه وبينه سرًّا . فدعا لوقته بالفضل بن الربيع وقال له : أيصنع ولدك غناءً يرويه الناس ولا تعرّفنى! فجزِع وحلف بحياته وبيعته أنه ما عرَف ذلك قط ولا سمع به إلا فى وقته ذلك . وساق باقى الخبر نحو ما تقدّم .

قال عبد الله بن العباس : دخل محمد بن عبد الملك الزيات على الواثق وأنا بين يديه أُغنّيه وقد آستعادنى صوتًا فأعدته، فآستحسنه محمد بن عبد الملك [وقال : (٤)] هذا والله

(١) فى الأغانى : «تأتى لى» . (٢) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : «على حارة» .
(٣) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : «تعانى» . (٤) زيادة نراها لازمة .

يا أمير المؤمنين أولى الناس بإقبالك عليه وإصغائك إليه؛ فقال : أجل! هذا والله مولاى وابن موالىّ لا يعرفون غير ذلك . فقال : ليس كل مولى يا أمير المؤمنين مولى لمواليه ، ولا كل مولى يُتَجَمَّل بولائه يجمع ما جمعه عبد الله من ظَرْف وأدب وصحّةِ عقل وفضل علم وجودة شعر . فقال له : صدقت يا محمد . فلما كان من الغد جئت محمد بن عبد الملك شاكرًا لحسن مَحْضَره، فقلت فى أضعاف كلامى : وأفرط (١٣) الوزير، أعزّه الله تعالى، فى وصفى وتقريظى بكل شىء حتى وصفنى بجودة الشعر، وليس ذلك عندى، وإنما أعبث بالبيتين والثلاثة . ولو كان عندى أيضا شىء من ذلك لصَغُر عن أن يصفه الوزير ويحكيه فى هذا المجلس الرفيع المشهور[1] . فقال : والله يا أخى لو عرفتَ مقدار قولك :

يا شادنًا رام إذ مـ * ـرّ فى الشّعانين[2] قتلى
يقول لى :كيف أصبحـ * ـت؟ كيف يُصبِح مِثلِى

لَمَا قلت هذا القول . والله لو لم يكن لك شعر فى عمرك إلا قولك : «كيف يصبح مثلى» لكنت شاعرا مُجيدا . وهذا الشعر قاله عبد الله بن العباس فى نصرانية كان يهواها ولا يصل إليها إلا إذا خرجت إلى البيعة . وله معها أخبار وأشعار له فيها أصوات . منها قوله :

إنّ فِى القلبِ مِن الظَّبْيِ كُلومْ * فدَعِ اللّومَ فإنّ اللّوْمَ لوم
حبذا يومُ الشّعانِينِ وما * نِلتُ فيه من نعيم لو يدوم
إن أكن أعظمتُ أنْ هِمتُ به * فالذى تركب من عَذْلِى عظيم
لم أكن أوّل من سنّ الهوى * فدَعِ العذل فذا داء قديم

(١) لعله «المشهود» .

(٢) الشعانين : عيد للنصارى قبل الفصح بأسبوع .

وروى أبو الفرج بسنده إلى محمد بن جُبَيْر قال : كنا عند أبى عيسى بن الرشيد فى زمن ربيع وعنـدنا مُخارق وعلّويه وعبد الله بن العباس الربيعى وعبـد الله بن الحارث بن بُسْخُنَّر ونحن مصطبحون فى طارمة مضروبة على بسـتانه وقد تَفَتَّح فيه ورد وياسَمين وشـقائق والسماء متغيّمة غيمًا مطبقًا وقـد بدأت تَرُشّ رشًّا ساكنا، فنحن فى أكمل نشاط وأحسن يوم، إذ خرجت قَيِّمة دار أبى عيسى فقالت : ياسيِّدى، قد جاءت عَسَّاليج؛ قال : تخرجُ إلينا فليس بحضرتنا من تحتشمه . قال : فخرجت إلينا جارية شَكِلة حُلْوة حسنة العقل والهيئة والأدب فى يدها عود فسلّمت، وأمرها أبو عيسى بالجلوس فجلست . وغنّى القوم حتى آنتهى الدّور إليها، وظننا أنها لا تصنع شيئا وخفنا أن تهابنا فتَحْصَر، فغنّت غناءً حسنا مُطرِبًا مُتْقَنا، لم تدع أحدًا ممن حضر إلا غنّت صـوتا من صَـنْعته فأدّته على غاية الإحكام ؛ فطربنا وآستحسنّا غناءها وخاطبناها بالآستحسان؛ وألح عبـد الله بن العباس من بيننا بالآقتراح عليها والمزاح معها والنظر اليها . فقال أبو عيسى : عَشِقْتَها وحياتى يا عبد الله ! فقال : لا والله يا سيّدى وحياتك ما عشِقتُها، ولكن استملحت كل ما شاهدته منها من مَنْظَر وشَكْل وعقل وعشرة وغناء . فقال له : ويحك ! فهذا والله هو العشق وسببه . ورب جِدّ جرّه اللعب . قال : وشربنا ؛ فلما غلب النبيـذ على عبـد الله غنّى أهزاجاً قديمة وحديثة، وغنّى فيما بينها هزجاً فى شعر قاله فيها لوقته، فما فطِن له إلا أبوعيسى، وهو:

نَطَق المكتومُ مـنّى فبَــدَا * كم ترى المكتومَ منّى لا يَضِحْ
سحـرُ عينيـك إذا ما رَنَتَـا * لم يدع ذا صَبْوةٍ أو يفتضح
ملكتْ قلبًـا فأمسى غَلِقًـا * عنــدها صَبًّا بهـا لم يسترح (١)

(١) كذا فى الأغانى . وفى الأصل :

ملكت نفسى وأمسى علقا * عنـدنا صبابها لم يسـترح

بجمالٍ وغناءٍ حَسَنٍ * جلَّ عن أن يتقيه(١) المقترح

أورث القلب هموماً ولقد * كنتُ مسروراً بمرآه فَرِح

ولكم مُغْتَبِقٍ همًّا وقد * باكر اللهوَ بكُورَ المُصْطَبِح

فقال له أبو عيسى : فعلتَها والله يا عبد الله، صح والله قولى لك فى عساليج وأنت تُكابر حتى فضحك السُّكْر. فجحد وقال : هذا غناءٌ كنت أرويه . فحلف أبو عيسى أنه ما قاله وما غنّاه إلا فى يومه؛ وقال له : آحلف بحياتى أنّ الأمر ليس هو كذلك! فلم يفعل . فقال أبو عيسى : والله لو كانت لى لوهبتُها لك ، ولكنها لآل يحيى آبن معاذ، ووالله إن باعوها لأُمَلِّكَنَّك إياها ولو بكل ما أملك! ووحياتى لَتَنْصَرِفَنّ قبلك إلى منزلك . ثم دعا بمحافظتها وخادمًا من خدمه فوجّه بها معهما إلى منزله . وآلتوى عبد الله قليلًا وتجلّد ثم آنصرف . وآتصل الأمر بينهما بعد ذلك فآشترتها (١٣) عمته رُقَيّة بنت الفضل بن الربيع من آل يحيى بن معاذ، وكانت عندهم حتى ماتت .

قال : وقالت بذل الكبيرة لعبد الله بن العباس : قد بلغنى أنك عشقتَ جارية آسمها عساليج، فآعرِضها علىّ، فإما أن عذرتُك أو عَذَلْتك؛ فوجّه إليها فحضرتَ، وقال لبذل : هذه هى يا سيدّتى، فآسمعى وآنظرى ثم مُرِينى بما شئتِ أُطِعْك . فأقبلت عليه عساليج وقالت : يا عبد الله، أتشاور فىّ! فوالله ما شاورت فيك لمّا محبتك . فقالت بذل : أحسنتِ والله ياصبيّة! ولو لم تُحسنى شيئا و[لا](٢) كانت فيك خَصلة تُحمد لوجب أن تُعْشَق لهذه الكلمة . ثم قالت لعبد الله : ما ضيّعت، احتفظ بصاحبتك هذه .

وقال حمدون بن إسماعيل : دخلت يوما على عبد الله بن العباس الربيعىّ وخادم له يسقيه، و بيده عودٌ وهو يغنّى :

(١) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : «أن يقتفيه» .

(٢) التكملة عن الأغانى .

إذا ٱصطبحتُ ثـلاثًا * وكان عـودى نَديِمى
والكأس تضحكُ ضِحكًا(١) * من كفّ ظبيٍ رخـيم
فـا عـلىّ طـريقٌ * لطـارقاتِ الهـموم

فما رأيت أحسن ممـا حكى حالَه فى غنائه ولا سمعت أحسن ممـا غنّى . ومن صنعته وشعره قوله :

صَـدَع البينُ الفـؤادا * إذ به الصـائحُ نادَى
بينما الأحبـابُ مجمـو * عون إذ صاروا فُرادَى
فأتى بعــضٌ بــلادًا * وأتى بعـــضٌ بِـلادا
كلمـا قلت تَنَـاهَى * حَدَثانُ(٢) الدّهرِ زادا

ذكر أخبـار وجه القَرْعة

هو أبو جعفر محمد بن حمزة بن نصـير الوصيف مولى المنصور، ويُلَقَّب وجهَ القَرْعة ، أحد المغنِّين الحُذَّاق الضُّرَّاب الرواة . أخذ الغناء عن إبراهيم الموصلىّ وطبقته . وكان حسن الأداء طيِّب الصوت لا علّة فيه، إلا أنه كان إذا غنّى المزج خاصّة خرج لا لسبب يُعْرَف ، إلا أنه [إن](٣) تعرّض للحنين فى جِنس من الأجناس فلا يصح له البتة .

وروى أبو الفرج بسـنده عن محمد الهاشمىّ أنه شهد إسحاق بن إبراهيم الموصلىّ عند عمه هارون بن عيسى وعنده محمد بن الحسن بن مصعب ، قال : فأتانا محمد بن

(١) فى الأغانى : « تغرب » .
(٢) هذه رواية الأغانى . وفى الأصل :
كلمـا قلت تـناهت * حادثات الدهر زادا
(٣) زيادة عن الاغانى .

حمزة وجه القَرْعة، وكان شرِسَ الأخلاق أبىّ النفس ، وكان إذا سئل الغناء أباه، فإذا أُمسِك عنه كان هو المبتدئ به؛ فأمسكنا عنه حتى طلب العود فأُتِي به فغنّى :

مَرّ بى سِرْبُ ظِباءٍ * رائحاتٍ من قُبـاء

زُمَرًا نحو المُصَلَّى * يتمشَّينَ حِـذائى

فتجاسـرتُ وألقيـ * ـتُ سرابيلَ الحيـاءِ ،

وقديمًـا كان لَهْوِى * وفنـــونى بالنسـاءِ

قال : وكان يُحسِـنه ويُجيده ، فجعل إسحاق يشرب ويستعيده حتى شرِب ثلاثة أرطال، ثم قال : أحسنت يا غلام ! هذا الغناء لى وأنت تتقدّمنى فيه ! ولا يَخْلَق الغناء ما دام مثلك ينشأ فيه .

وقال أيضا : كنا فى البستان المعروف ببستان خالص النصرانىّ ببغداد، ومعنا محمد ١
ابن حمزة وجه القَرْعة وهو يغنينا :

يا دارُ أقفَـرَ رَسْمُهـا * بين المُحَصَّب والحَجُونِ

يا بِشْرُ إنى فآعلَمِى * والله مجتهِـدًا يميـــنى

ما إن صرمتُ حبالَكم * فصِلِي حِبالِي أو ذَرِينى

فإذا برجل راكب على حمـار يؤُمُّنا وهو يصيح : أحسنت والله ! فقلنا : آصـعَدْ ١
إلينا كائنا من كنت؛ فصعد وقال: لو منعتمونى من الصعود لمـا آمتنعت؛ ثم سَفَر اللثام عن وجهه وإذا هو مُخارق . فقال : يا أبا جعفر، أعِدْ علىّ صوتك فأعاده، وشرب رطلًا من شرابنا وقال : لولا أنى مدعوّ الخليفة لأقمت عندكم وآستمعت هذا الغناء الذى هو أحسن من النزْهة غِبَّ المطر .

وله مع إسحاق بن إبراهيم ومخارق أخبار شهدا له فيها بحسن الصنعة ؛ وكفاه ذلك فضلا فى صناعته .

ذكر أخبار محمد بن الحارث بن بُسْخُنَّر(١)

(١٤) قال أبو الفرج الأصفهانى : هو من أهل الرَّىّ ، مولى المنصور، من ولد بَهْرام شوبين مَرْزُبان الرىّ . قال : وهو مرتجل قليل الصَّــنعة حسن الغناء والنغم بقوة وشجًا واقتدار شديد على الغِناء ، وكان فى زمانه أحد المعدودين فى حسن الأدب وتمام المروءة وحسن الرَّىّ والآلة ، وكان عظيم التِّيــه رفيع الهمة ، وكانت له منزلة عنــد المأمون . قال محمد بن الحارث : كنت مع المأمون وهو يريد بلاد الروم ومعه عدّة من المغنِّين ، فجلس يومًا والمعتصم والعباس معه من حيث لا نراهم وهم يسمعون غناءنا ؛ فغنّى المغنُّون جميعا وغنّيت هَزَجًا لإسماعيل بن جامع ، فبعث إلىّ المـأمون بأصل شاهشفرم(٢) وقد لُفّ أصله بمنـديل حرير ؛ فجاءنى به الغلام وقال : أعِد الصوت ؛ فأخذته وشممته ووثبت فأعدته قائمـا ، ووضعت الأصــل بين يدى وشربت رطلا وقلت للمغنّين : حكم لى أمير المؤمنين بالحِذْق والغِناء . فقالوا : وكيف؟ قلت : دفع إلىّ لواء الغناء من بينكم . فقالوا : ليس كما ذكرت ، ولكن حيّــاك إذ أطربته ؛ والرسول قائم فانصرف بالخبر ، فما لبث أن رجع إلىّ فقال : هو كما ذكرت .

قال أبو العَنْبَس بن حمــدون : كان محمد بن الحارث أحسن خلق الله شمائل وإشارةً إذا غنّى . وقال أحمد بن حمدون : صنع محمد بن الحارث [هزجًا فى هذا الشعــر](٣) :

أمسَيْتُ عبــدًا مُســتَرَقّا * أبكِى الأُلى سكنوا دِمَشْــقا
أعطيتُهـــم قلبى فمَنْ * يبــقَ بلا قلبٍ فأبــقَى!

---

(١) كذا فى تصحيح كتاب الأغانى للأستاذ الشنقيطى المطبوع بمصر سنة ١٣٣٤ هـ . وبسخنر هو أحد الأعاجم من مرازبة الرى موالى المنصور الخليفة العباسىّ الثانى . وفى الأصل : «بشحير» وهو تحريف .

(٢) فى مفردات ابن البيطار : «شاهسفرم» وهو ضرب من النبات عطر الرائحة .

(٣) التكملة من الأغانى .

وطرحه على المسدود الطُّنبورىّ فوقع له موقعا حسنا، وآستحسنه محمد منه فقال : أتحبّ أن أَهَبَه لك ؟ قال : نعم، قال : قد فعلت . فكان المسدود يُغنّيه و يدّعيه، و إنما هو لمحمد بن الحارث .

قال محمد : لمّا قدِم المأمون من خُراسان لم يَشْتَقْ مغنّيا بمدينة السلام غيرى . فبعث إلىّ فكنت أُنادمه سرّا ، ولم يظهـر للندماء حتى ظفِر بإبراهيم بن المهدىّ؛ فلما عفا عنه ظهر للندماء .

ولمحمد بن الحارث شعر، منه قوله :

ومن ظنّ أنّ التِّيهَ من فضلِ قَدْرِهِ[1] * فإنى رأيت التيهَ من صِغَر القَـدْرِ
ولو كان ذَا عزٍّ ونفسٍ أبيّةٍ * لغَضَّ الغنى منـه وعزَّ عن الفقرِ
رأى نفسَـه لا تَسْـتقِلُّ بحقِّها * فتَـاهَ انقِص النفس أو قلّةِ الشكر

ذكر أخبار أحمد بن صَدَقة

قال أبو الفرج الأصفهانىّ : هو أحمـد بن صدقة بن أبى صدقة . كان أبوه حجازيّا مغنّيا، قدِم على الرشيد وغنّى له . وقد ذكرنا أخباره فى النوادر من كتابنا هذا، فلا حاجة بنا إلى إعادتها . وكان أحمد طُنبوريًّا مُحسِنا مُقـدَّمًا حاذِقا حسَنَ الغِناء مُحْكَمَ الصَّنعة . قال : وله غناء كثير فى الأرمال والأهزاج وما يجـرى مجراها من غناء الطُّنبوريّين . وكان ينزل الشأم . ووُصِف للمتوكل فأمر بإحضاره ، فقـدِم عليه فغنّاه، فآستحسن غناءه وأجزل صِلته . وآشتهاه الناس وكثُر من يدعوه؛ فكسب بذلك أكثر مما كسبه مع المتوكل أضعافا .

وروى أبو الفرج عن أحمد بن صدقة قال : اِجتزت بخالد بن يزيد الكاتب، فقلت له : أنشِدْنى بيتين من شعرك حتى أغنّى فيهما . فقال : وأىّ حظٍّ لى فى ذلك!

(١) فى الأصل : « من فضل قدرة » .

تأخذ أنت الجائزة وأحصُــل أنا على الإثم ! فحلفت أنى إن أخذت بشــعره فائدة جعلت له فيها حظّا ، وأذكرت به الخليفة وسألته فيه. فقال: أمّا الحظُّ من جهتك فأنت أنذل من ذلك، ولكن عسى أن تُفلِح فى مسئلة الخليفة، وأنشدنى :

تقــول سَلَا، فَمَنِ المُدْنَفُ * ومَنْ عينُــه أبدًا تَذْرِفُ!
ومَنْ قلبُــه قَلِقٌ خافقٌ * عليــك وأحشاؤه تَرْجُفُ!

فلمــا جلس المأمون للشرب دعانى ، وكان قد غضِب على حظِيّةٍ له ، فحضرتُ مع المغنّين. فلما طابت نفسه وَجّهتْ إليه بتُفّاحةٍ من عَنْبَر عليها مكتوبٌ بالذهب : « يا سيّدى سلوت » ، وما علِم الله أنى عرفت شــيئا مِن خبرهما . وانتهى الدَّور إلىّ فغنّيت البيتين، فاحمرّ وجه المأمون وانقلبت عيناه وقال: يابن الفاعلة، لك علىّ وعلى حُرَمى صاحب خبر! فوثبت وقلت : يا سيّدى ، ما السبب؟ قال : من أين (١٥) عرفتَ قِصّتى مع جاريتى حتى غنّيت فى معنى ما بيننا ؟ فحلفت أنى لم أعرف شيئا من ذلك، وحدّثته بحديثى مع خالد، فلما انتهيت إلى قوله: «أنت أنذل من ذلك» ضحك وقال : صدَق، وعجِب من هذا الاتّفاق، وأمر لى بخمسة آلاف درهم ولخالد بمثلهــا .

وروى عنه أيضا قال: دخلت على المأمون فى يوم الشعانين(١) وبين يديه عشرون وصيفةً جَلَبٌ روميّات مُزَنَّرات قد تزيّنّ بالديباج الرومىّ، وعلّقن فى أعناقهن صُلبانا من الذهب، وفى أيديهن الخوص والزيتون . فقال لى المأمون : ويلك يا أحمد ! قد قلتُ فى هؤلاء أبياتا فغَنِّ بها، ثم أنشدنى :

---

(١) الشعانين : عيد من أعياد النصارى ويسمى : «الزيتونة» يعملونه فى سابع أحد من صومهم . ومعنى الشعانين : التسبيح .

ظباءٌ كالدّنانيرِ * مِلَاحٌ فى المقاصيرِ
جلاهنّ الشّعانينُ * علينا فى الزّنانيـــيرِ
وقد زَرَفْنَ(١) أصداغًا * كأذناب الزرازير
وأقبلْنَ بأوسـاطٍ * كأوسـاط الزّنابير

فخفّفته وغنّيته ، فـلم يزل يشرب والوصائف يرقُصن بين يديه بأنواع الرقص من الدّسْتَبَنْدَا(٢) إلى الإيلىّ حتى سكر، وأمر لى بألف دينار، وأمر بأن ينثر على الجوارى ثلاثة آلاف دينار ، فقبضت الألف ونُثِرتْ ثلاثةُ آلاف الدينار فآنتهبتها معهنّ .

قال : ولم يزل أحمد بالعراق حتى بلغه موت بُنَيَّةٍ له بالشأم، فشخص نحو منزله ، وخرج عليه الأعراب فأخذوا ما معه وقتلوه .

ذكر أخبار أبى حَشِيشة

قال أبو الفرج : أبو حشيشة لَقَب غلب عليه ، وهو محمد بن أبى أميّة، ويكنى أبا جعفر . وكان أهله جميعا متّصلين بإبراهيم بن المهدىّ ، وكان هو من بينهم يغنّى بالطُّنبور أحسن الناس غناء . وخدم جماعة من الخلفاء، أوّلهم المأمون ومن بعده إلى المعتمد . قال : وكان أكثر آنقطاعه إلى أبى أحمد بن الرشيد أيام حياته . وكان أبوه وجَدُّه وأخواله كُتّابا .

قال أحمد بن جعفر جحظة فى ترجمة أبى حشيشة : وكان له صنعةٌ تقدّم فيها كلَّ طُنْبُورىٍّ لا أُحاشى أحدًا فى ذلك . قال : فمنها :

---

(١) زرفن صدغيه : جعلهما كالزرفين، وهو حلقة الباب .

(٢) الدستبندا : نوع من أنواع رقص المجوس يأخذ بعضهم بيد بعض ويدورون ويرقصون .

كأنّ همومَ الناسِ فى الأرض كلِّها * علىّ وقلـــبى بينهــم قلبُ واحدِ
ولى شاهــدَا عــدلٍ سُهَادٌ وعَبْرةٌ * وكم مُدَّعٍ للحبِّ من غــير شاهــدِ

قال جحظة : ورأيته بين يدى المعتمد على الله وقد غنّاه من شعر علىّ بن محمد ابن نصر :

حُرِمتُ بَذْلَ نوالِكْ * واسَوْءتَا من فِعالِكْ !
لــمّا ملكتَ وِصالى * آيستنى من وِصالِكْ

فوهب له مائتى دينار . قال : وغنّى يومًا عنــد ابن المدبّر بحضرة عَريب ؛ فقالت له : أحسنت يا أبا جعفر! ولو عاش الشيخان ما قلتُ لهما هذا (تعنى علّويه ومُخارقا) .

وقال أبو الفرج : إنّ أبا حشيشة ألّف كتابًا جمع فيه أخباره مع من عاشر وخدم من الخلفاء ؛ قال : وهو تاب مشهور . قال : أوّل من سمعنى من الخلفاء المأمون ، وصَفَنى له مُخارق ، فأمر بإشخاصى إليه ، وأمر لى بألف درهم أتجهّز بها . فلما وصلت إليه أدنانى وأُعجِب بى ؛ وقال للمعتصم : هــذا أثر خَدَمك وخَدَم آبائك وأجدادك يا أبا إسحاق . وذكر ما كان يشتهيه عليه كلُّ خليفــة ، فقال : كان المأمون يشتهى من غِنــائى :

كان يَنْهَى فَنُهِى حتى [سلا][1] * وانجلتْ عنــه غَيَاياتُ الصِّبا
خَلَع اللهوَ وأضحى مُسْــبِلًا * للنُّهَى فضــلَ قميصٍ ورِدَا

قال : وكان المعتصم يشتهى علىّ :

أسرفتَ فى سوء الصَّنيع * وفتكتَ بى فَتْــكَ الخَليع

---

(١) آخر الشطر الأوّل من البيت مفقود من الأصل ، ولم نوفق اليه حين التصحيح . ولعل الكلمة التى وضعناها تكون قريبة من الأصل .

وولِعتَ بى متمــرّدًا * والعُذْرُ فى طـرق الوَلُوعِ
صَــيّرتُ حبّــك شافعًـا * فأُتِيتُ من قِبَـلِ الشّفِيعِ

قال : وكان الواثق يختار من غِنائى :

يا تارِكى مُتَــلَذّذَ الـ * ـعُذّالِ جَذْلانَ العُداةِ
أُنْظُــرْ إلىّ بعــينِ را * ضٍ نظرةً قبل المماتِ (١٦١)
خَلّيْتَنى بين الوعيـ * ـدِ وبين أَلسِنَةِ الوُشاةِ !
ماذا يُرَجّى بالحيـا * ةِ مُنَغّصٌ رُوحَ الحياةِ !

قال : وكان المتوكل يحبّنى ويستخفّنى، وكانت أغانيه التى يشتهيها علىّ كثيرة، منهـا :

أطعتَ الهوى وخَلعتَ العِذَارَا * وباكرْتَ بعـد المراح العُقارَا
ونازعـك الكأسَ من هاشِمٍ * كـريمٌ يُحِبُّ عليهـا الوَقارا
فتًى فـرَق الحمـــدُ أمــوالَه * يَجُــرُّ القميصَ ويُرْخِى الإزارا
رأى اللهُ جعفــرَ خـيرَ الأنامِ * فملّكه ووَقاهُ الحِـــذارا

قال : وكان المستعين يشتهى علىّ :

وما أنسَ لا أنسَ منها الخُشوع * وفَيْضَ الدّموع وغمْزَ اليــدِ
وخَدّى مُضـافٌ إلى خَــدّها * قيامًا الى الصـــبح لم نَرْقُــدِ

قال : وآشتهى علىّ المعتمد :

قلــبى يُحِبُّــكِ يا مُــنَى * قلــبى ويُبْغِضُ مَن يُحِبُّــكْ
لِأكونَ فــردًا فى هــوا * كِ، فليت شعرى كيفَ قلبُكْ؟

قال جحظة : وكانت وفاة أبي حشيشة بسُرّ مَن رأى . وسببها أنه آصطبح عند قَلَمَ غلام الفضـل بن كَاوُش فى يوم بارد ، فقال له : أنا لا آكل إلا طعاما حارّا ، فأتاه بفُجْلية باردة وقال : تُساعدنى وتأكل معى ، فأكل منها فخمِد قلبه فمات .

ذكر أخبار القيان

وأوّل من غنّى من النساء ومن آشتهر بالغناء منهنّ فى الإســلام

قالوا : أوّل من غنّى الغناء العربىّ جَرَادَتا آبنِ جُدْعان . قال أبو الفرج الأصفهانىّ : قال آبن الكلبىّ : كان لآبن جُدْعان أمتان يُسَـمَّيان الجرادتين يُغَنِّيان فى الجاهليّة ، وسمّاهما جرادتى عباد (١) ؛ ووهبهما عبدُ الله بن جُدْعان لأُمَيّـة بن أبى الصَّلْت الثقفىّ وكان قد آمتدحه . وآبن جُدْعان هو عبد الله بن جدعان بن عمرو بن كعب بن سعد ابن تيم بن مُرّة بن كعب بن لُؤَىّ بن غالب . كان سَيِّدا جوادا ؛ فرأى أُمَيَّة ينظر الى الجرادتين وهو عنـده فأعطاه إياهما . وقد قيل فى سبب إعطائه إياهما : إن أُمَيّة بن أبى الصَّلْت قدِم عليه ؛ فقال له عبد الله : أمرٌ مّا أتى بك ! فقال أُمَيّة : كلاب غرماء قد نبحتنى ونهشتنى . فقال له عبد الله : قَدِمتَ علىّ وأنا عليل وحقوقٌ لحقتنى ولزمتنى ، فأَنْظِرْنى قليلًا وقد ضَمِنتُ قضاءَ دينك فلا أسألك عن مبلغه ، قال : فأقام أميّة أياما ثم أتاه فقال :

أأذكر حاجتى أم قد كفانى * حياؤك إنّ شيمتَـك الحياءُ
وعلمُك بالأمورِ وأنت قَرْمٌ * لك الحسبُ المهذّبُ والسَّناءُ
كريمٌ لا يُغَـيِّره صـباحٌ * عن الخُلُقِ الكريم ولا مَساءُ
تُبارِى الريحَ مَكْرُمةً ومجـدًا * إذا ما الكلب أجحره الشّتاءُ

---

(١) فى الأغانى : « جرادتى عاد » .

إذا أثنى عليك المرءُ يومًا * كفاه من تَعَرُّضه[1] الثناءُ
إذا خَلَفتَ عبدَ الله فاْعلَمْ * بأنّ القومَ ليس لهم جزاءُ
فأَرْضُك كلّ مَكْرُمةٍ بنتها * بنو تيم وأنت لهم سماءُ
وهل تخفَى السماءُ على بصيرٍ! * وهل بالشمسِ طالعةً خفاءُ!

فلمّا أنشده أُمَيّة هذا الشعر كانت عنده قينتان، فقال لأميّة : خذ أيّتهما شئت ، فأخذ إحداهما وآنصرف[2]؛ فمرّ بمجلس من مجالس قريش فلاموه على أخذها ، وقالوا له : لقد ألفيته عليلًا، فلو رَدَدْتها عليه، فإن الشيخ محتاج إلى خدمتها ،كان[3] ذلك أقرب لك عنده وأكثر من كل حقّ ضمِنه. فوقع الكلام من أميّة موقعًا ونَدِم؛ فرجع إليه ليردّها عليه . فلما أتاه بها، قال آبن جُدْعان : لعلك إنما رددتها لأن قريشا لاموك على أخذها؛ وذكر لأميّة ما قال القوم . فقال أميّة : والله ما أخطأتَ يا أبا زهير. قال : فما الذى قلتَ فى ذلك؟ فقال :

عطاؤكَ زَيْنٌ لآمرئٍ إن حَبَوْتَه * ببَذْلٍ وما كلُّ العطاءِ يَزِينُ (١٧)
وليس بشَيْنٍ لآمرئٍ بذلُ وجهِهِ * إليكَ كما بعضُ السؤالِ يَشِينُ

فقال عبد الله لأميةَ : خذ الأخرى؛ فأخذهما جميعا وخرج . فلما أن صار إلى القوم بهما أنشأ يقول :

ومالى لا أُحَيِّيه وعندى * مَوَاهِبُ قد طلعنَ من النِّجادِ
لأبيضَ من بنى عَمْرِو بنِ تَيْمٍ * وهم كالمَشْرَفيّاتِ الحِدادِ
لِكلّ قبيلةٍ هادٍ ورأسٌ * وأنت الرأسُ تقدُم كلَّ هادِ

---

(١) فى الأصل : « تعرّضه » .
(٢) كذا بالأغانى . وفى الأصل : «قال لأمية : خذ إحداهما أيهما شئت فأخذها وآنصرف الخ» .
(٣) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : « فكان ... » بزيادة الفاء .

عِمادُ الخَيْفِ قد علمت مَعَدٌّ * وإنّ البيتَ يُرْفَع بالعماد
له داعٍ بمكّةَ مُشْمَعِلٌّ * وآخرُ فوق دَارته يُنادى
إلى رُدُحٍ من الشِّيزَى مِلَاءٍ * لُبَابَ البُرِّ يُلْبَكُ بالشِّهادِ

وكان سبب قول أميّة بن أبى الصلت هذا الشعر أنّ عبد الله بن جُدْعان وفد على كِسْرَى فأكل عنده الفالُوذَ، فسأل عنه فقيل له : هذا الفالوذ . قال : وبم يصنع؟ قيل : لُبابُ البُرّ يُلبك مع عسل النحل . قال : أبغونى غلامًا يصنعه، فأتوه بغلام يصنعه فابتاعه، ثم قدِم به مكة، فأمره أن يصنع الفالُوذ ففعل، ثم وضع الموائد من الأبطح إلى باب المسجد، ثم نادى مناديه : ألَا من أراد الفالُوذَ فليحضُرْ، فحضره الناس . وكان فيمن حضر أميّة بن أبى الصلت فقال الأبيات . وقال فيه أيضا :

ذُكِر آبنُ جُدْعانٍ بخيـ * ـرٍ كلّما ذُكِر الكِرامُ
من لا يخونُ ولا يَعُقّ ولا يُبَخِّله الأنامُ
يَهَبُ النجيبةَ والنجيـ * ـبَ له الرِّحالة والزِّمامُ

وآبن جُدْعان ممن ترك شربَ الخمر فى الجاهليّة. وقد تقدّم ذكره . وهجاه دُرَيْد ابن الصِّمّة بشعر، فلقيه بعد ذلك عبدُ الله بسُوق عكَاظ، فحيّاه وقال : هل تعرفنى يا دُرَيد ؟ قال لا . قال : فلِمَ هجوتَنى ؟ قال : ومن أنت ؟ قال : عبدُ الله بن جُدْعان . قال : هجوتُك لأنك كنت أَثِرًا كريما فأحببتُ أن أضع شعرى موضعه . فقال له عبد الله : لئن كنتَ هجوتَ لقد مدحتَ ؛ وكساه وحمله على ناقة برحلها ، فقال دُرَيد :

إليك آبنَ جُدْعانَ أعملتُها * مُخَفَّفَةً للسُّرَى والنَّصَبْ
فلا خفضَ حتى تلاقى آمرأً * جوادَ الرِّضا وحليمَ الغَضَبْ
وجلدًا إذا الحربُ مَرَّتْ به * يُعين عليها بجَزْلِ الحطبْ

وجُلْتُ البــلادَ فمــا إن أرى * شبيهَ ابنِ جُدْعان وَسْطَ العرب
ســوى ملكٍ شامخٍ مُلْكُهُ * له البحرُ يجرى وعَيْنُ الذهب

وأخبار آبن جُدعان كثيرة وسيادته فى الجاهليّة مشهورة ، ليس هذا موضع إيرادها ، وإنما أوردنا ما أوردنا منها فى هذا الموضع على سبيل الأستطراد ، فالشىء بالشىء يذكر . فلنْرجع إلى أخبار القِيان .

ذكر أخبار جميلة

هى جميلة مولاة بنى سُلَيم ، ثم مولاة بطن منهم يقال لهم بنو بَهْز ، وكان لها زوج من موالى بنى الحارث بن الخزرج ، وكان ينزل فيهم ، فغلب عليها ولاء زوجها فقيل لها : مولاة الأنصار . وقد قيل : إنها كانت لرجل من الأنصار ينزل بالسُّنْح . وقيل : كانت مولاة الحجّاج بن عِلَاط السُّلَمىّ . قال أبو الفرج الأصفهانىّ : وهى أصل من أصول الغناء ، أخذ عنها مَعْبَد وابن عائشة وحَبَابة وسلّامة وعقيلة والعتيقة وغيرهم . وفيها يقول عبد الرحمن بن أرطاة :

إنّ الدّلالَ وحسنَ الغنا * ءِ وَسْطَ بيوتِ بنى الخَزْرَجِ
وتلكم جميلةُ زَيْنُ النساء * إذا هى تزدان للمَخْرَجِ
إذا جئتَها بذلَتْ وُدَّها * بوجهٍ مُنيرٍ لها أبلجِ

قال : وكانت جميلة أعلم خلق الله بالغناء . وكان معبد يقول : أصل الغناء جميلة وفرعه نحن ، ولولا جميلة لم نكن نحن مغنّين . قال : وسئلت جميلة : أنّى لك هذا الغناء؟ قالت : والله ما هو إلهام ولا تعليم ، ولكنّ أبا جعفر سائب خاثر كان جارنا ، وكنت (١٨) أسمعه يغنّى ويضرب بالعود فلا أفهمه ، فأخذت تلك النغمات وبنيت عليها غنائى ، فجاءت أجود من تأليف ذلك الغناء ، فعلمتُ وألقيت ؛ فسمعنى مَوْلَيَاتى يومًا وأنا

أُغَنِّى سرًّا ، ففهمننى ودخلن علىّ وقلن : قــد علِمنا ما تكتمين وأقسمن علىّ ؛ فرفعت صوتى وغنّيتهن بشعر زُهَيْر بن أبى سُلْمَى :

وما ذَكَرْتُكِ إلا هِجْتِ لى طَرَبًا * إنّ المحبّ ببعض الأمرِ معذورُ
ليس المحبُّ كمن إن شَطّ غيرُه * هجرُ الحبيب، وفى الهِجرانِ تغييرُ

فحينئذ شاع أمرى وظهر ذكرى وقصدنى الناس وجلست للتعليم ؛ فكان الجوارى يكْثُرْنَ عندى ، وربمـا آنصرف أكثرهن[1] ولم يأخذن شيئا ســوى ما سمعنى أُطارح غيرهن ، وقد كسَبت لموالىّ ما لم يَخْطُر لهم ببال[2] ، وأهل ذلك كانوا وكنت . وقد أقرّ لجميلة كلُّ مكىٍّ ومدنىّ من المغنّين . قال : ولمـا قدِم آبن سريج والغَرِيض وآبن مِسْجَح وسَلْم بن مُحْرِز المدينةَ وآجتمعوا هم ومَعْبَد وآبن عائشة حكّموها بينهم ؛ وآجتمعوا عندها ، وصنع كل منهم صوتا وغناه بحضرتها — وقد ذكر الأصــفهانىّ الأصوات — فلما سمعت الأصوات قالت : كلّكم مُحسِنٌ مُجِيــدٌ فى غنائه ومذهبه . قال ابن عائشة : ليس هذا بمُقْنِــع . قالت : أمّا أنت يا أبا يحيى فتُضْحِك الثَّكلى بحسن صوتك ومشاكلته النفوسَ . وأمّا أنت يا أبا عَبّاد فنسيجُ وَحْدِه بتأليفك[3] وحسن نظمك وعذوبة غنائك . وأمّا أنت يا أبا عثمان فلك أوّليّةُ هذا الأمر وفضلُه . وأمّا أنت يا أبا جعفر فمع الخلفاء تصلُح . وأمّا أنت يا أبا الخَطّاب فلو قدّمتُ أحدًا على نفسى لقدّمتك . وأمّا أنت يا مولى العَبَلات فلو ابتدأتَ قدّمتُك عليهم . ثم سألوها جميعا أن تغنّيهم لحنًا كما غنّوا ، فغنّتهم ، فكلهم أقرّوا لها وفضّلوها .

وكانت جميلة قد آلت أنها لا تغنّى أحدًا إلا فى منزلها . فكان عبد الله بن جعفر

(١) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : «ولم يأخذن شيئا مما سمعنى» .
(٢) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : «وأصل» .
(٣) فى الأغانى : «بجودة تأليفك» .

يأتيها فى مجلسها فيجلس عنـدها وتغنّيه . فأرادت أن تكفّر عن يمينها وتأتيه فتغنّيه فى بيته؛ فقال : لا أكلِّفك ذلك .

وروى الأصفهانىّ أنّ ابن أبى عَتِيق وآبنَ أبى ربيعة والأحوص بن محمد الأنصارىّ أتوا منزلَ جميلة واستأذنوا عليها فأذِنت لهم. فلما جلسوا سألت عن عمر، فقال لهـا : إنى قصـدتُك من مكة للسلام عليك؛ فقالت : أهلُ الفضل أنت . قال : وقد أحببتُ أن تُفرّغى لنا نفسَك اليوم وتُخْلِى مجلسَك؛ قالت : أفعل . فقال لها الأحوص : أحبّ ألّا تغنّى إلا بما نسألك ؛ فقالت : ليس المجلس لك، القوم شركاؤك ؛ فقال : أجل . قال عمر : فإنى أرى أن نجعل الخيـار إليها . قال ابن أبى عتيق : وفّقك الله. فدعت بعود فغنّت :

تَمشِى الهُوَيْنَى إذا مشتْ فُضُلًا * مَشْىَ النَّزِيفِ(1) المخمورِ فى الصُّعُدِ
تَظَلّ من بعـدِ بيتِ جارتِهـا * واضـعةً كفَّها على الكَبِدِ
يا مَنْ لِقلبٍ مُتَـيَّمٍ سَـدِمٍ * عانٍ رهـينٍ مُكَلَّمٍ كَمِـدِ
أزجُرُه وهـو غـيرُ مُنْزَجِرٍ * عنهـا بطَرْفٍ مُكَحَّلِ السَّهَـدِ

قال راوى هذه الحكاية: فلقد سمعتُ للبيت زَلزلةً وللدار هَمْهمةً . فقال عمر : لله دَرُّكِ يا جميلة ! ماذا أُعطيتِ ! أنت أوّل الغناء وآخره ! ثم سكتت ساعةً وأخذت العود فغنّت، فطرب القوم وصفّقوا بأيديهم وفحصوا بأرجلهم وحرّكوا رءوسهم، وقالوا : نحن فِداؤك من المكروه، ما أحسنَ ما غنّيتِ وأجملَ ما قلتِ ! . وأُحضِر الغداء فتغدّى القوم بأنواع من الأطعمة ومن الفواكه، ثم دعتْ بأنواع الأشربة؛ فقال عمر : لا أشرب ، وقال آبن أبى عتيق مثل ذلك ؛ فقال الأحوص : لكنّى

---

(1) النزيف : السكران .

أشْرَب، وما جزاء جميلة أن يُمتنَع من شرابها ! فقال عمر : ليس ذاك كما ظننت . فقالت جميلة : من شاء أن يحلى بنفسه ويخلِط رُوحه بروحى فعل، ومن أبى ذلك عذَرناه ، ولم يمنعه ذلك عنـدنا ما يريد من قضـاء حوائجه والأُنْس بمحادثته . قال آبن أبى عتيق : ما يَحسُنُ بنا إلا مساعدتُك . فقال عمـر : إنى لا أكون أخسَّكم، افعلوا ما شئتم تجدونى سامعًا مطيعا . فشرب القوم أجمع؛ فغنّت بشعر آبن أبى ربيعة :

ولقد قالت لجـاراتٍ لها ۞ كالمهَـا يلعَبْن فى حُجْرتِهـا
خُذْنَ عنى الظلَّ لا يتبَعنى ۞ ومضتْ تسعَى إلى قُبّتِها
لم تُعَلَّق رَجُلًا فيما مَضى ۞ طَفْلةٌ غيـداءُ فى حُلّتهـا
لم يَطِشْ قطُّ لها سهمٌ ومَنْ ۞ تَرْمِهِ لا ينجُ من رَمْيتِها

فصاح عمر ثم شقّ جيبَ قميصه إلى أسفله، ثم ثاب اليه عقلُه فنـدم واعتذر (١٩) وقال : لم أملك من نفسى شيئا . وقال القوم : قد أصابنا الذى أصابك وأُغْمِىَ علينا غير أننا قد فارقناك فى تخريق الثياب . فدعتْ جميلة بثياب فجعلتها على عمر فقبِلها ولبِسها ، وآنصرف القوم إلى منازلهم . وكان عمر نازلًا على آبن أبى عتيق، فوجّه إلى جميلة بعشرة آلاف درهم وعشرة أثواب كانت معـه فقبِلتها جميلة ، وآنصرف عمر إلى مكة جذلانَ مسرورا .

وروى أبو الفرج بأسانيد رفعها إلى يونس الكاتب والزبير بن بكّار عن عمـه مُصْعَب قالا : حجّتْ جميلة فخرج معها من الرجال المغنّين والنساء والأشراف وغيرهم جماعةٌ ذكرهم أبو الفرج، منهم من المغنّين هِنْب وطُوَيْس والدَّلال ومَعْبَد ومالك بن أبى السَّمْح وآبن عائشة ونافع الخير ونافع بن طُنبورة وغير هؤلاء ممن ذكرهم؛ ومن النساء المغنّيات جمـاعة ذكرهنّ : منهن الفَرِهة وعزّة الميلاء وحَبَابة وسلّامة وخُلَيْدة وعَقيلة والشّماسـيّة وفَرعة ونَبيلة ولذّة العيش وسعيدة والزَّرقاء؛ ومن غير المغنّين من

الأشراف ابن أبى عتيق والأحوص وكُثَيِّر عَزّة ونُصَيْب ، وجماعة من الأشراف الرجال والنساء . وحج معها من القِيان مُشيِّعات لها ومعظِّمات لقدرها خمسون قينة وجّه بهنّ مواليهنّ معها وأعطوهنّ النفقات وحملوهنّ على الإبل فى الهوادج والقِباب وغير ذلك ؛ فأبت جميلة أن تنفق واحدةٌ منهنّ درهما فما فوقه حتى يرجعن . قال : وتخاير من خرج معها فى آتخاذ أنواع اللِّباس العجيب والهوادج والقِباب . قال : ولما قاربوا مكة تلقّاهم سَـعيد بن مِسْجَح وابن سُرَيج والغَرِيض وآبن مُحْرِز والهُذَلِيّون وجماعة من المغنّين من أهل مكة وفتيانٌ كثير(١) ، ومن غير المغنّين عمر بن أبى ربيعة والحارث ابن خالد المخزومىّ والعَرْجىّ وجماعة من الأشراف . فدخلت جميلة مكة وما بالحجاز مغنٍّ حاذق ولا مغنِّية إلا وهو معها وجماعة من الأشراف [ممن سمّينا وغيرهم من الرجال والنساء ، وخرج أبناء أهل مكة من(٢)] الرجال والنساء ينظرون إلى جمعها وحسنِ هيئتهم . فلما قضت حجّها سألها المكيّون أن تجعل لهم مجلسا ؛ فقالت : للغناء أم للحديث ؟ فقالوا : لهما جميعا . قالت : ما كنت لأخلِط جِدًّا بهَزْل ، وأبتْ أن تجلس للغناء . فقال عمر بن أبى ربيعة : أقسمتُ على من كان فى قلبه حبٌّ لسماع غنائها إلا خرج معها إلى المدينة ، فإنى خارج معها . فخرجتْ فى جمع كثير من الأشراف وغيرهم أكثر من جمعها بالمدينة . فلما قدمت المدينة تلقّاها الناس والأشرافُ من الرجال والنساء . فدخلت بأحسنَ مما خرجت منها ، وخرج الرجال والنساء فوقفوا على أبواب دُورهم ينظرون إلى جمعها وإلى القادمين معها . فلما دخلت إلى منزلها وتفرّق الناس إلى منازلهم ونزل أهلُ مكة على أقاربهم وإخوانهم ، أتاها الناس مسلّمين ، وما استنكف من ذلك صغير ولا كبير . فلما مضى لمَقْدَمها عشرة أيام جلست للغناء ، وقالت لعمر بن أبى ربيعة : إنى جالسة لك ولأصحابك ، فإذا شئتَ فعِدِ الناس .

(١) فى الأغانى : «وفتيان كثيرة لم يسمين» . (٢) زيادة عن «الأغانى» .

فغصّت الدار بالأشراف من الرجال والنساء، وٱبتدأت جميلةُ فغنّت بشعر لعمر بن أبى ربيعة :

هيهـاتَ من أَمَةِ الرّحمنِ منزلُنـا(١) * إذا حَلَلنا بسِيفِ البَحْرِ من عَدَنِ
وٱحتـلّ أهلُك أجياداً فليس لنا(٢) * إلا التّذَكُّرُ أو حظٌّ(٣) من الحَزَنِ
لو أنهـا أبصرتْ بالجَزْعِ عَبْرتَه * وقـد تَغَـرَّد قُمْـرِىٌّ على فَنَنِ
إذًا رأتْ غيرَ ما ظنّتْ بصاحبها * وأيقنَتْ أنّ لَحْجاً ليس من وطنِي
ما أنسَ لا أنسَ يومَ الخَيفِ مَوْقفَها * وموقفى وكلانا ثَمّ ذو شَجَنِ
وقولَهـا للـثُّرَيّا وهى باكيـةٌ * والدمعُ منها على الخَدَّينِ ذو سُـنَنِ
بٱللهِ قـولى له من غيرِ مَعْتَبَـةٍ * ماذا أردتَ بطولِ المُكْثِ فى اليمنِ
إن كنتَ حاولتَ دنيا أو ظفِرتَ بها(٤) * فمـا أصبتَ بترك الحج من ثمنِ

فكلهم ٱستحسن الغنـاء ، وضجّ القوم لحسن ما سمعوا، وبكى عمر حتى جرت دموعه على ثيابه ولحيته. ثم أقبلت على ٱبن سريج فقـالت : هاتِ، فغنّى صـوته بشعر لعمر :

(٣٠)

أليستْ بالّتى قالت * لمولاةٍ لهـا ظُهُـرَا
أشيرِى بالسّـلامِ له * إذا ما نَحْـوَنا نَظَـرا
وقُولِى فى مُلَاطَفـةٍ * لزينبَ نوِّلى عُمَـرا
وهذا سِحرُكَ النّسوا * نَ قد خَبَّرنَنى الخبرَا

---

(١) كذا فى الأغانى وديوان عمر بن أبى ربيعة . وفى الأصل : «منزلها» .
(٢) كذا فى الأغانى والديوان . وفى الأصل : «فليس لهم» . (٣) كذا فى الأغانى والديوان . وفى الأصل : «هم» .
(٥) فى الأصل :
[illegible]

ثم قالت لسعيد بن مِسجح : هاتِ ياأبا عثمان، فاندفع فغنّى. ثم قالت : يامعبد هات، فآندفع فغنّى فآستحسنته. ثم قالت: هاتِ يآبنَ مُحرِز، فإنى لم أُؤَخِّرْكِ لخَساسةٍ بك ولا جهلاً بالذى يجب فى الصناعة[1]، ولكنى رأيتُك تحبّ من الأمورِ كلِّها أوسطَها وأعدَلَها . فجعلتك حيث تحب واسطةً بين المكيّين والمدنيّين ، فغنّى . ثم قالت للغرِيض: هاتِ يامولى العبَلات؛ فغنّى بشعر عمرو بن شأس الأبياتَ، وفى آخرها :

أرادتْ عِراراً بالهَوَانِ ومَنْ يُرِدْ * عِراراً لَعَمْرِى بالهَوانِ فقد ظَلَمْ

فقالت : أحسن عمرو بن شأس ولم تُحسِن ، إذ أفسدتَ غناءك بالتعريض، وواللهِ ما وضعاك إلا موضعَك ولا نقصناك من حظّك، فماذا أهنّـاك! ثم أقبلت على الجماعة فقالت : ياهؤلاء اصدُقوه وعَرِّفوه نفسَه ليقنع[2] بمكانه . فأقبل القوم عليه وقالوا : ياأبا زيد، قد أخطأتَ إن كنتَ عرّضت. فقال: قد كان ذلك، ولست بعائد؛ وقام إلى جميلة فقبّل طَرَف ثوبها وآعتذر، فقبِلتْ عذره وقالت : لاتعد، وأقبلت على آبن عائشة فقالت: ياأبا جعفر، هات، فَغنّى، فقالت: حَسَنٌ ماقلت. ثم أقبلت على نافع و بُدَيْح فقالت : أُحِبّ أن تغنّيا جميعـا بصوت ولحنٍ واحد ، فغنيا . ثم أقبلت على الهُذَلّيين الثلاثة فقالت : غَنُّوا صوتًا واحدا، فآندفعوا فغنّوْا. ثم أقبلت على نافع بن طُنْبورة فقالت : هاتِ يانقش الغضارة و ياحَسَنَ اللسان ؛ فآندفع فغنّى، فقالت : حَسَنٌ والله. ثم قالت : يامالك هاتِ، فإنى لم أُؤخِّرك لأنك فى صنعة آخرهم [illegible] أردتُ أن أختِمَ بك، يومَنا تَبَرُّكًا بك، وكى يكون أوّلُ مجلِسنا كآخره ووسطُه كآخره ؛ فإنك عندى ومَعْبَدًا فى طريقـةٍ واحدة ومَذْهب واحد ،

---

(١) كذا فى الأغانى . وفى الأصـل : «من الصاعة» .

(٢) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : «ليقع» .

لا يدفع ذلك إلا ظالمٌ ولا يُنكره إلا عاضِلٌ للحق، والحقّ أقول، فمن شاء أن ينكر؛ فسكت القوم كلهم إقرارًا بما قالت . فٱندفع فغنّى :

عَدُوٌّ لمن عادتْ وسِـلْمٌ لسِلْمِها * ومَنْ قربت سلْمى أحبَّ وقرّبَا
هَبِيني آمرأً إمّا بريئًا ظَلَمتِـهِ * وإمّا مُسِيئًا تاب بعـدُ وأَعْتَبا
أقولُ ٱلتماسَ العُذْرِ لـمّا ظَلَمتِني * وحَمَّلتِـنى ذنبًا وما كنتُ مُذْنِبا
لِيَهْنِكِ إشماتُ العـدوّ بهَجْرِنا * وقَطْعُكِ حبلَ الودّ حتى تَقَضَّبا

فقالت جميلة : يا مالك، ليت صوتك قد دام لنا ودُمنا له ! وقطعت المجلس، وٱنصرف عامّة الناس وبقى خواصّهم . قال : ولـمّا كان فى اليوم الثانى حضر القوم جميعا . فقالت لطُوَيْس : هاتِ يا أبا عبد النّعيم، فغنّى :

قد طال ليـــلِى وعادنى طَرَبِى * من حُبِّ خَوْدٍ كريمةِ الحَسَبِ
غَرّاء مثـل الهــلالِ آنِسـةٍ * أو مثـل تِمثالِ صُورةِ الذّهَبِ
صادتْ فؤادِى بجِيـدِ مُغْزِلةٍ * ترعَى رِياضا مُلتفّـةَ العُشُبِ

فقالت جميلة : حسنٌ والله يا أبا عبد النعيم . ثم قالت للدّلال : هاتِ يا أبا يزيد، فغنّى، فٱستحسنت غنـاءه . ثم قالت لِهَنْب : إنا نُجِلُّك اليـوم لِكِبَرِ سـنّك ورِقّةِ عظمك؛ فقال : أجل . ثم قالت لبَرْد الفؤاد ونَوْمة الضُّحَى : هاتِيَا جميعًا لحنًا واحدا، فغنّيا، فقالت : أحسنتما . ثم قالت لِفند وزجة[(1)] وهِبة الله : هاتوا جميعا صوتًا واحدا، إنكم متفقون فى الأصوات؛ فاندفعوا فغنّوا . ثم غنّت جميلة بشعر الأعشى :

بانت سـعادُ وأمسى حبلُها ٱنقطعا * وٱحتلّت الغَوْرَ فٱلجَـدّيْنِ فٱلفَرَعا
وٱستنكرتنى وما كان الذى نَكِرتْ * من الحوادث إلا الشّيبَ والصَّلَعا

(1) فى الأغانى : «رحمة» .

تقولُ بنتى وقــد قرّبتُ مُرْتحِــلًا * يارَبِّ جَنِّبْ أبِى الأوصابَ والوَجَعا
وكانــ شىءٌ إلى شىءٍ فغَـــيّرَه * دهرٌ مُلِحٌّ على تفــريقِ ما جمعــا

قال: فلم يُسْمَعْ شىءٌ أحسنُ من ٱبتدائها بالأمس وخَتْمِها فى اليوم، وقطعت المجلس وٱنصرف قوم وأقام آخرون . فلما كان فى اليوم الثالث ٱجتمع الناس فضربت سِتارة (٣١) وأجلست الجوارى، فضربْنَ كلُّهنّ، وضربت هى فضربت على خمسين وَتَرًا فزُلْزِلت الدار . ثم غنّت على عودها وهنّ يضربن على ضربها :

فإن خَفِيتْ كانت لعينيــكَ قُــرّةً * وإن تَبْــدُ يومًا لم يُعَمَّمْك عارُها
من الخَفِراتِ البِيضِ لم تَرَ غِلْظةً * وفى الحَسَبِ الضَّخْمِ الرفيعِ نِجارُها
فمــا رَوْضةٌ بالحَزْنِ طيّبةُ الثَّرَى * يمُجُّ النَّــدَى جَثْجاثُها وعَرارُها
بأطيبَ مِنْ فِيها إذا جئتَ مَوْهِنًا * وقد أُوقِدَتْ بالمَنْدَلِ الرَّطْبِ نارُها

فدَمعتْ أعينُ كثيرٍ منهم حتى بَلُّوا ثيابهم وتَنَفَّسوا الصُّعَداء، وقالوا : بأنفسنا أنتِ يا جميــلة ! ثم قالت للجــوارى : اكففن فكففْن ؛ وقالت : ياعَزَّ غَنِّى ، فغنّت بشعر لعمر :

تَذكّرتَ هِنــدًا وأعصارَها * ولم تَقْضِ نفسُــك أوطارَها
تَذَكّرتِ النفسُ ما قد مضى . وهاجتْ على العــينِ عُوّارَها
لتمنحَ رامةَ منّــا الهــوى * وتَرْعَى لرامــةَ أسرارَهــا
إذا لم نَزُرْهــا حِذارَ العِــدَا * حَسَــدنا على الزَّوْرِ زُوّارَها

فقالت جميلة : يا عزّ، إنك لباقية على الدهر، فهنيئًا لك حسنُ هذا الصوت مع جودة هذا الغناء . ثم قالت لحَبَابة وسَلّامة : هاتِيا لحنًا واحدا، فغنّتا فٱستُحسِن غناؤهما . ثم أقبلت على خُلَيْدة فقالت : بنفسى أنت ! غَنِّى فغنّت ، فٱستُحسِن منها

ما غنّت . ثم قالت لعقيلة والشَّماسيّة : هاتيا ، فغنّتا . ثم قالت لفرعة ونَبِيلة ونديمة ولذة العيش هَاتِينَ ، فغنّين ، فقالت : أحسنتُنّ . وقالت لسعيدة والزّرقاء : غنيا ، فغنّتا . ثم قالت للجماعة فغنَّوْا ، وانقضى المجلس وعاد كل إنسان إلى وطنه . فما رُئى مجلسٌ ولا جمعٌ أحسنُ من هذه الأيام الثلاثة . وقد ذكر أبو الفرج ما غَنّى به كل واحد منهم فأوردنا بعضــه وتركنا بعضه آختصارا . وأخبار جميلة كثيرة ، قد ذكر منها أبو الفرج الأصفهانى جملةً تدلّ على أنها كانت مُبَجّلة عند الأشراف معظّمة عند المغنّين ، يأخذون عنها ويأتمرون بأمرها ، ويسعَوْن إليها ، وينطقون إذا آستنطقَتْهم ، ويُكفّون إذا آستكفّتْهم ؛ وفيما قدّمناه دلالة على ذلك والله أعلم .

ذكر أخبـار عَزَّةَ المَيْلاء

قال أبو الفرج الأصفهانى : كانت عَزّة مولاةً للأنصار ، ومسكنها المدينة ، وهى أقدم من غَنّى الغِناء المُوقَعَ من نساء الحجاز ، وماتت قبــل جميلة . قال : وقد أخذ عنها مَعْبَدٌ ومالك بن أبى السَّمْح وآبن مُحْرِز وغيرُهم من المكّيين والمدنيّين . وكانت من أجمل النساء وجها وأحسنِهنّ جسما . وسُمّيت الميلاء لتمايُلها فى مِشْيتها .

وقال معبد : كانت من أحسن النساء ضَرْباً[1] بعود ، مطبوعةً على الغناء ، لا يُعْيِيها أداؤه ولا صنعته ولا تأليفه ، وكانت تُغَنّى أغانىَ القِيَانِ القُدَماء[2] مثل شِيرِين وزِرْياب وخَوْلَة والرَّباب وسلمى ورائقة[3] ، وكانت رائقة أستاذتها . فلما قَدِم نَشيط وسائب ،

---

(١) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : «صوتا بعود» .

(٢) فى الأغانى : «من القدائم» .

(٣) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : «ورائعة» بالعين المهملة .

خاثر المدينةَ غَنيًا أغانى بالفارسيّة[(١)]، فأخذت عَزّة عنهما نَغَمًا وألّفت[(٢)] عليها ألحانًا عجيبة؛ فهى أوّل مَنْ فَتَنَ أهل المدينة بالغِناء وحرّض رجالَهم ونساءهم عليه .

وقال الزُّبَيْرِىّ . وجدتُ مشايخ أهل المدينة إذا ذكروا عَزّة قالوا : لله دَرُّها! ما كان أحسن غِناءها، وأطَلَّ صوتَها، وأندَى حَلْقَها، وأحسنَ ضَرْبَها بالمزاهر والمعازف وسائر الملاهى، وأجملَ وجهَها، وأظرفَ لسانَها، وأقربَ مجلِسَها، وأكرمَ خُلُقَها، وأسخى نفسَها، وأحسنَ مُساعدتَها ! . وكانت جميلة تقول مثل ذلك فيها .

وكان آبن سُرَيج فى حَداثة سنّه يأتى المدينةَ فيأخذ عنها ويتعلّم منها؛ وكان بها مُعْجَبا، وكان إذا سئل : مَنْ أحسنُ الناس غناء ؟ قال : مولاة الأنصار المُتَفَضِّلة على كل مَنْ غَنّى وضرب بالمعازف والعِيدان من الرجال والنساء .

وكان آبنُ مُحْرِز يُقيم بمكة ثلاثة أشهر ثم يأتى المدينة فيقيم بها ثلاثة أشهر من أجل عَزّة، وكان يأخذ عنها . وقد تقدّم ذلك فى أخباره .

(٢٣) وكان طُوَيْس أكثر ما يأوِى إلى منزل عَزّة ، وكان فى جِوارها ، وكان إذا ذكرها يقول : هى سيِّدة من غَنّى من النساء، مع جمالٍ بارع، وخُلُقٍ فاضل ، وإسلامٍ لايشوبه دَنَس؛تأمر بالخير وهى من أهله ، وتنهى عن الشرّ وهى تُجانبه، فناهيك بها ! ما كان أنبلَها وأنبل مَجْلِسَها ! . ثم قال : كانت إذا جلست جلوسا عامًّا فكأنّ الطيرَ على رءوس أهل مجلسها، فمن تكلّم أو تحرّك نقرَ رأسه .

وقال صالح بن حسّان الأنصارىّ : كانت عَزّة مولاةً لنا ، وكانت عفيفة جميلة، وكان عبد الله بن جعفر وآبن أبى عتيق وعمر بن عبد الله بن أبى ربيعة يَغْشَوْنها

---

(١) كذا بالأغانى . وفى الأصل : «أغانى الفارسية» .

(٢) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : «وألقت عليهما» الخ .

فى منزلها فتغنّيهم . وغنّت عمر بن أبى ربيعة لحنًا لها فى شىء من شعره ، فشقّ ثيابه وصاح صيحة عظيمةً صَعِق معها . فلما أفاق قال له القوم : لغـيرِك الجهلُ يا أبا الخطّاب؛ قال : إنى سمعت والله مالم أملِك معه نفسى ولا عقلى .

وكان حسّان بن ثابت مُعْجَبا بها، وكان يقدّمها على سائر قِيان المدينـة . وقد ذكرنا خبرها مع النعمان بن بشير وحسّان بن ثابت، وأن كلّ واحد منهما سمع غناءها، فبكى حسّان بن ثابت وآستعاد النعمان بن بشير صوتها مرارا ؛ وتقدّم أيضـا من أخبارها فى خبر عائشة بنت طلحة وأخبار جميلة ما يُسْتغنَى عن إعادته فى هـذا الموضع . فلنذكر مَنْ سواها .

ذكر أخبـار سَلّامة القَسّ

كانت سلّامة القَسّ هذه مولَّدة من مولَّدات المدينة، وبها نشأت، وأخذت الغناء عن معبَد وآبن عائشة وجميلة ومالك بن أبى السَّمْح ومن دونهم، فمهرت فيه. وإنما سُمِّيت سَلّامة القَسّ لأنّ رجلا يُعرف بعبد الرحمن بن أبى عَمّـار بن جُشَم بن معاوية — وكان منزله بمكة، وهو من قُرّاء أهل المدينة، كان يُلَقَّب بالقسّ لعبادته — شُغِف بها وشُهِر بحبها . وكان سبب ذلك أنه سمع غناءها على غير تَعَمُّد منه فبلغ منه كلّ مبلغ . فرآه مولاها فقال : هل لك أن تدخل فتسمع؟ فأبى . فقال له مولاها : أنا أُقعِـدها حيث تسمع غناءها ولا تراها . فلم يزل به حتى دخل ، فأسمعه غناءها فأعجبـه . فقال : هـل لك أن أخرجها إليك؟ قال لا . فلم يزل به حتى أخرجها فأقعدها بين يديه ، فغنّت فشَغِف بها وشُغِفت به وعرَف ذلك أهلُ مكة . فقالت له يوما : أنا والله أُحبُّك . فقال : وأنا والله الذى لا إله إلا هو أُحبُّك . فقالت : والله أشتهى أن أُعانقك وأقبّلك . فقال : والله وأنا أشتهى مثـل ذلك . قالت :

وأشتهى والله أن أُضاجعك وأضع بطنى على بطنك وصدرى على صدرك قال : وأنا والله كذلك . قالت : فما يمنعك من ذلك ؟ والله إنّ المكان لخال . قال : يمنعنى منه قول الله عزّ وجل: ﴿ الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾، فأنا أكره أن تحول مودّتى إياكِ عداوةً يوم القيامة . ثم قام وآنصرف وعاد إلى ما كان عليه من النُّسك، ولم يعد إليها بعد ذلك . وكان يُشَبَّه بعَطَاء بن أبى رَبَاح . وله فيها أشعارٌ كثيرة، منها قوله :

إنّ التى طرقَتْكَ بين ركائب * تَمْشِى بِمِزْهَرِها وأنت حَرامُ
لَتِصيدُ قلبَك أو جزاءَ مودّةٍ * إنّ الرفيق له عليك ذِمامُ
باتت تُعَلِّلنا وتحسَب أننا * فى ذاك أيقاظٌ ونحن نيامُ
حتى إذا سطَع الضياء لناظرٍ * فإذا وذلك(١) بيننا أحلامُ
قد كنتُ أعذُل فى السَّفاهةِ أهلَها * فآعجَبْ لِما تأتى به الأيامُ
فآليوم أعذُرهم وأعلَمُ أنما * سُبُلُ الضَّلالةِ والهدَى أقسامُ

وقوله أيضا فيها :

ألم تَرها ــ لا يُبعِدُ اللهُ دارَها ــ * إذا رَجّعتْ فى صوتِها كيف تَصْنَعُ!
تَمُدّ نِظامَ القولِ ثم تَرُدُّه * إلى صَلْصَلٍ من صوتها يَتَرَجَّعُ

وقوله فيها :

ألَا قُل لهذا القلبِ هل أنت مبصرُ * وهل أنت عن سَلّامة اليومَ مُقْصِرُ
ألَا ليتَ أنّى حيث صارتْ بِىَ النّوَى * جليسٌ لسَلْمَى كلّما عَجَّ مِزْهَرُ

---

(١) كذا فى الأصل . ولعلها : «فاذا بذلك» .

٣٣ وله من قصيدة طويلة أوّلها :

سَـــلّام هل لى منكمُ ناصِرُ * أم هـــل لِقلبي عنـكمُ زاجر
قد سَمِـع الناسُ بوجِدى بكم * فمنهـــمُ اللائم والعـاذِرُ

فى أشـعار كثيرة يطول الشرح بذكرها . ومدحها الأحوص أيضا بشـعر كثير . وقال فيها أيضا ابن قيس الرُّقَيّات .

وروى أبو الفرج الأصفهانى قال : كانت سَلّامة وريّا أُختين ، وكانتا من أجملِ النساء وأحسنهِنّ غناءً؛ فاجتمع الأحوص وابن قيس الرقيّات عندهما . فقال لهما ابن قيس الرقيّات : إنى أريد أن أمدحكما بأبيات فأصدُقَ فيها و[لا](١) أكذِب . فإن أنتما غنّيتمانى بذلك وإلّا هجوتُكما ولم أقربْكما أبدًا . قالتا : فما قلت؟ قال : قلت :

لقــد فَتنتْ ريّا وسَلّامةُ القَسّا * فلم يتركا لِلقسّ عقــلًا ولا نَفْسا
فتاتانِ أمّا منهما فشبيهةُ الـ * ـهِلالِ وأخرى منهما تُشْبِه الشمسَا
تَكُنّانِ أبشـارًا رِقاقًا وأوجُهًا * عِتاقًا وأطـــرافًا مُخَضَّبةً مُلْسا

فغنّته سـلّامة فاستحسنه . وقال ابن قيس الرقيّـات للأحوص : يا أخا الأنصار، ما قلت ؟ قال قلت :

سَـــلّامُ هل لِمُتَيَّمٍ تَنْـــويلُ * أم قد صَرَمتِ وغال وُدَّكِ غُولُ
لا تَصْـــرِمى عـــنّى ولاءكِ إنه * حَسَنٌ لدىّ وإن بَخِلتِ جميلُ
أزَعمتِ أنّ مودّتى رصبابتى * كَذِبٌ وأنّ زيارتى تقليل(٢)

فغنّت الأبيات . فقال ابن قيس الرقيّات : أحسنتِ والله ! ما أظنك إلا عاشـقةً لهذا الحلف . فقال له الأحوص : وما الذى أخرجك إلى هذا؟ قال . حُسْنُ غنائها

(١) التكملة عن الأغانى .

(٢) فى الأغانى : «تعليل» .

بشعرك، فلولا أنّ لك فى قلبها مَحَبّةً مُفْرِطةً ما جاء هكذا(١) حسنًا على هــذه البديهة . فقال الأحوص : على قدر حُسْنِ شعرى على شعرك هكذا حَسُن الغناء به . وما هذا [منك] إلا الحسدُ(٢)، وليس ذلك إلا ما حسدت عليه . فقالت سلّامة : لولا أنّ الدخول بينكما يُوجِب بِغْضةً لحكمتُ بينكما حكومةً لا يَرُدُّها أحد . قال الأحوص : فأنتِ [من ذلك](٢) آمنــة . قال آبن قيس الرقيّات : كلّا ! قد أمِنتَ أن تكون الحكومة عليك، فلذلك سبقتَ بالأمان لها . فتفرّقا على ذلك . ثم مشى آبن قيس الرقيّات إلى الأحوص فاعتذر إليه فقبِل عُذْرَه . ومن شعر الأحوص فيها :

سَلّام إنّكِ قد مَلَكتِ فأَسْجِحِى * قد يملكُ الحُرُّ الكريمُ فيُسْجِحُ
مُنِّى على عانٍ أطلْتِ عناءَه * فى الغُـلِّ عندكِ والعُناةُ تُسَرَّحُ
إنّى لأنْصَحُكُمْ وأعلَم أنه * سِيّانِ عندكِ من يَغُشُّ ويَنْصَحُ
وإذا شكوتُ إلى سَلامةَ حُبَّها * قالت أجِدٌّ منـك ذا أم تَمزَحُ

وحكى أبو الفرج قال : لـمّا قدِم عثمان بن حَيّان المُرّى المدينة واليا عليها، قال له قوم من وجوه الناس : إنك قد وَلِيت المدينة على كثرةٍ من الفساد؛ فإن كنت تريد أن تُصلح فطَهِّرْها من الغناء والرِّثاء(٣) . فصاح فى ذلك وأجّل أهلَه ثلاثًا يخرجون فيها من المدينة، وكان آبن أبى عتيق غائبا، وكان من أهل الفضل والعفاف والصلاح . فلما كان آخر ليلة من الأجل قدِم فقال : لا أدخل منزلى حتى أدخل على سَلّامة القَسّ . فدخل عليها فقال : ما دخلتُ منزلى حتى جئتُكم لأُسَلِّم عليكم . فقالوا : ما أغفلك عن أمرنا ! وأخبروه الخبر . فقال : اصبروا علىّ الليلة . فقالوا : نخاف ألّا يُمكِنَك شىء .

(١) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : « ما جاء هذا ... » .
(٢) زيادة عن الأغانى .
(٣) فى الأغانى : «والزنا» .

قال : إن خفتم شيئا فأخرجوا فى السحر . ثم خرج فآستأذن على عثمان بن حيّان فأذِن له ، فسلّم عليه وذكر غيبته وأنه جاء ليقضى حقّه ، ثم جزاه خيرًا على ما فعل من إخراج أهل الغناء والزّناء ، وقال : أرجو ألّا تكون [تَمِلت][1] عمـلًا هو خير لك من ذلك . قال عثمان : قد فعلتُ ذلك وأشار علىّ به أصحابك . فقال : قد أصبتَ ، ولكن ما تقول فى آمرأة كانت هذه صِناعتها وكانت تُكْرَه على ذلك ، ثم تركته وأقبلت
(٢٤) على الصلاة والصيام والخير، وأنا رسولها إليك تقول : أتوجه إليك وأعوذُ بك أن تُخرِجنى من جِوار رسول الله صلى الله عليه وسلم ومسجده ؛ قال قال : فإنى أدَعُها لك ولكلامك . فقال آبن أبى عتيق : لا يدعك الناس ، ولكن تأتيك وتسمع من كلامها وتنظر إليها ، فإن رأيت أن مثلها ينبغى أن يُترك تركتَها ؛ قال نعم فجاءه بها . وقال : احملى معك سُبْحةً وتَخَشَّعى ففعلت . فلما دخلت على عثمان سلّمت عليه وجلست وحدّثته ، فإذا هى من أعلم الناس بأمور الناس ، فأُعْجِب بها ؛ وحدّثته عن آبائه وأمورهم ففَكِهَ لذلك فقال ابن أبى عتيق : اقرئى للأمير . فقرأت ؛ فقال لها : احدِى ففعلت . وكثُر عَجَبُه منها . فقال : كيف لو سمعتها فى صناعتها ! فلم يزل يُنْزِله شيئا فشيئا حتى أمرها بالغناء فغنّته . فقام عثمان من مجلسه وقعد بين يديها ، ثم قال . لا والله ما مثل هذه تخرج . فقال آبن أبى عتيق : لا يدعك الناس تُقِر سلّامة وتُخرِج غيرها . قال : فدعوهم جميعا . فتركهم جميعا وأصبح الناس يتحدّثون بذلك .

ثم آشترى يزيد بن عبد الملك سلّامة ، وكانت لمُصْعَب بن سُهَيل الزُّهرى ، وقيل : لسهيل بن عبد الرحمن بن عوف . وكانت حَبَابة جارية آل لاحق ، فاشتراهما جميعا ؛ فاشترى سلّامة بعشرين ألف درهم ، وتسلّمها رُسُل يزيد فخرجوا بها وشيّعها

(١) زيادة عن الأغانى .

الناس . فلما نزلتْ سِقايةَ سليمان بن عبد الملك قالت للترسل : إنّ لى قوماً كانوا يَغْشَوْنَنى ويُسَلِّمون علىّ ، ولا بدّ لى من وَدَاعهم والسلام عليهم ؛ فأذِن للناس عليها ، فأتوا حتى ملئوا رَحبة القصر والفِناء ؛ ووقفت هى بينهم بارزةً ومعها العودُ فغنّت :

فارَقُونى وقــد علمتُ يقينـًا * ما لمن ذاق مِيتةً من إيابِ
إنّ أهلَ الحِصَابِ قد تركونى * مُوزَعاً مُولَعـًا بأهلِ الحِصَابِ
أهــلِ بيتٍ تَتـايعوا(١) للمنـايا * ما على الدّهرِ بعدهم من عِتابِ
كم بذاك الحَجُونِ من حَىِّ صِدْقٍ * من كُهُولٍ أعِفّـةٍ وشَبَابِ
سكنوا الجِزْعَ جِزْعَ بيت أبى مو * سى إلى النخل من صُفَىِّ السِّبابِ
فـلِىَ الويلُ بعــدَهم وعليهـم * صرتُ فردًا ومَلّـنى أصحـابى

قال : فلم تزل تردّد هذا الصوت حتى راحت ، وانتحب الناس بالبكاء عنـد ركوبها ؛ فما شئتَ أن ترى باكيًا نبيلاً إلا رأيته .

قالوا : وكانت حَبَابة عند يزيد متقـدّمة على سلّامة ، وكانت حبابة تنظر الى سلّامة بتلك العين الجليلة المتقدّمة وتعرف فضلَها عليها ؛ فلما رأت أَثَرةَ يزيد لهـا ومحبّتَه إيّاها استخفّت بها . فقالت لها سلّامة : أى أُخَيّة ، نَسِيتِ فضلى عليك ! ويلك ! أين تأديب الغناء ! أين حق التعليم ! أنسيتِ قولَ جميلة لك وهى تطارحنا : خُذِى إحكام ما أُطارحك من أُختك سلّامة ، فلا تزالين بخـيرٍ ما بَقِيتْ لك وكان أمرُكما مؤتلفا ! . فقالت : صدَقْتِ والله لا عدتُ لشىء تكرهينه أبدا . وماتت حَبَابة وعاشت سلّامة بعدها دهرا .

---

(١) كذا فى ديوانه والأغانى ج ١ ص ٣٢١ طبع دار الكتب المصرية . وفى الأصول : «تتابعوا» بالباء الموحدة .

ولمـا مات يزيد أحضرها آبنهُ الوليد وأمرها بالغناء، فتنغصتْ من ذلك وبكت، ثم غنّته . فقال : رحم الله أبى وأطال عمرى وأمتعنى بحُسْنِ غنائك ! . ياسلاّمة، بم كان أبى يُقَدِّم حَبَابة عليك؟ قالت : لا أدرى والله . قال : لكننى أدرى ذلك، بما قسم الله عزّ وجلّ لهـا . قالت : يا سيِّدى أجَلْ . وهى إحدى من آتّهِم بهنّ الوليد من جوارى أبيه .

ذكر أخبـار حَبَـابة

كانت حَبَابة جارية مولَّدة من مولّدات المدينة لرجل من أهلها يعرف بآبن دبابة[(١)]، وقيـل : بل كانت لآل لاحِق المكّيين ، وقيل : كانت لرجل يعرف بابن مينا . وكانت تسمّى العالية[(٢)]، فسماها يزيدُ بن عبد الملك لمـا آشتراها حَبَابة . وكانت حُلوةً جميلةَ الوجه ظريفةً حسنةَ الغناء طيِّبةَ الصوت ضاربةً بالعود . أخذت الغناء عن ابن سُرَيْج وابن مُحْرِز ومالك بن أبى السَّمْح ومَعْبَد وعن جميلة وعَزّة الميلاء .

وكان يزيد بن عبـد الملك يقول : ما تَقَرّ عينى بمـا[(٣)] أُوتيتُ من الخلافة حتى أشتريَ سلاّمة جارية مُصْعَب بن سُلَيم وحبَابَة جارية آبن لاحِق المكيّة . فأرسل فآشتُرِيتا له . فلما آجتمعتا عنده قال : أنا الآن كما قال الأوّل :

فألقت عصاها وآستقرّ بها النّوَى * كما قَرّ عينًا بِالإِيابِ المسـافِرُ (٢٥)

وكان يزيد بن عبد الملك فى خلافة أخيه سليمان قد قَدِم المدينــة فتزوّج سَعْدَةَ بنت عبد الله بن عمرو بن عثمان على عشرين ألف دينار، ورُبَيْحة بنت محمد بن على ابن عبدالله بن جعفر بن أبى طالب على مثل ذلك ، وآشترى العاليةَ[(٢)] بأربعة آلاف

---

(١) فى الأغانى : « يعرف بابن رمانة وقيل : ابن مينا وهو خرجها وأدّبها » .

(٢) كذا فى الأغانى طبع بولاق والطبرى طبع أُلمـانيا . وفى الأصل : «الغالية» بالغين المعجمة .

(٣) كذا فى الأغانى، وفى الأصل : «لم يقرعينى ما أوتيت الخ» .

دينار . فبلغ ذلك سليمان فقال :لأحجُرَنّ عليه. فبلغ يزيد ذلك فاستقال مولى حَبَابة؛ ثم آشتراها بعد ذلك رجل من أهل إفريقية . فلما وَلِي يزيد آشترتها سَعْدة آمرأته وعلمت أنه لا بدّ طالبها ومشتريها . فلما حصلت عندها قالت له : هل بقي عليك شيء من الدنيا لم تنله ؟ قال : نعم، العالية . قالت : أوَرأيتها؟ قال نعم . قالت: أفتعرفها ؟ قال نعم . فرفعت الستر فرآها، فقالت : هذه هي ؟ قال نعم؛ قالت : هي لك ، وخرجت عنهما . فسمّاها حبابة وعظُم قدرُ سَعْدة عنده . ويقال : إنها أخذت عليها قبل أن تَهبها له أن تُوَطِّئ لآبنها عنده في ولاية العهد .

قال : وآرتفع قدر حَبَابة عند يزيد وتمكّن حبُّها في قلبه تمكنا عظيما . وكان أول ذلك أنه أقبل يوما الى البيت الذى هي فيه فقام من وراء الستر فسمعها تترنّم وتغنّى:

كان لى يا يزيدُ حبُّك حَيْنا * كاد يَقْضِى علىّ لمّا آلتقينا

فرفع الستر فوجدها مضطجعةً مقبلةً على الجدار، فعلم أنها لم تعلَم به ولم يكن ذلك لمكانه؛ فألقى نفسه عليها وحرّكت منه .

قال : وأراد يزيد بن عبد الملك أن يتشبّه بعُمر بن عبد العزيز، وقال: بماذا صار عمر أرْجَى لربه منى! . وقيل : بل لَامَه مَسْلَمة بن عبد الملك على الإلحاح على الغناء والشرب، وقال له : إنك وَلِيتَ بعقب عمر بن عبد العزيز وعَدْلِه ، وقد تشاغلتَ بهذه الإماء عن النظر فى الأمور، والوفودُ ببابك وأصحابُ الظُّلَامات يصيحون وأنت غافل! قال : صدقتَ والله ، وهمّ أن يترك الشرب ، ولم يدخل على حبابة أياما، فشقّ ذلك عليها فأرسلت الى الأحْوَص أن يقول أبياتا فى ذلك، فقال :

أَلَا لا تَلُمْهُ اليوم أن يَتَبَلّدا * فقد غُلِبَ المحزونُ أن يتجلّدا

بَكَيْتُ الصِّبَا جُهْدِى فمن شاء لَامَنِي * ومن شاء آسَى فى البكاء وأَسْعَدَا

وإنّى وإن فُنِّدْتُ فى طلب الصِّبَا * لأعلَمُ أنّى لستُ فى الحبِّ أوحدَا
إذا أنت لم تَعشَقْ ولم تَدرِ ما الهوى * فكن حَجَرًا من يابس الصَّخْرِ جَلْمَدا
فما العيشُ إلا ما تَلَذُّ وتَشْتَهِى * وإن لامَ فيه ذو الشَّنَانِ وفَنَّدَا

قال : فلما كان فى يوم الجمعة تعرّضتْ له حَبَابة عند خروجه الى الصلاة، فلقيته والعودُ فى يدها، فغنّت البيت الأوّل، فغطى وجهه وقال : مَهْ لا تفعلى. ثم غنّت «وما العيش إلا ما تَلَذّ وتشتهى» فعدل إليها وقال : صَدَقتِ، قبّح الله من لَامنى فيكِ ! يا غلام، مُرْ مَسْلَمة فلْيُصَلِّ بالناس . وأقام معها يشرب وهى تغنّيه وعاد الى حاله، وقال لها : من يقول هذا الشعر؟ قالت : الأحوص . فاستدعاه واستنشده الشعر فأنشده الأبيات . ثم أنشده قصيدتَه التى أوّلها :

يا مُوقِدَ النّارِ بالعَلْياءِ من إضَمٍ * أَوْقِدْ فقد هِجتَ شوقًا غيرَ مُنْصَرِمِ

وهى قصيدة طويلة ، فقال له يزيد : ٱرفع حوائجك ؛ فكتب إليه فى نحو أربعين ألف درهم من دين وغيره فأمر له بها . وقد قيل فى أمر هذه الأبيات : إن حَبَابة لمّا بعثتْ الى الأحوص فى عمل الشعر قالت له : إن رددتَ أميرَ المؤمنين عن رأيه فلك ألفُ دينار، فدخل الأحوص عليه وٱستأذنه فى الإنشاد ؛ فقال : ليس هذا وقتك . فلم يزل به حتى أذِن له فأنشده الأبيات . فلما سمعها وثب حتى دخل على حَبَابة وهو يتمثّل :

وما العيشُ إلا ما تَلَذُّ وتشتَهِى * وإن لام فيه ذو الشَّنَانِ وفنّدا

قالت : ما ذاك(1) يا أمير المؤمنين؟ فقال : أبيات أنشدنيها الأحوص ، فسَلِى ما شئتِ . قالت : ألف دينار تعطيها الأحوص؛ فأعطاه ألف دينار .

(١) فى الأغانى : «فقالت ماردّك يا أمير المؤمنين» .

قال : وقال يزيد يوماً لسَلّامة وحَبَابة : أيُّكما غنّتني ما فى نفسى فلها حُكمها . فغنّت سلّامة فلم تُصب ما فى نفسه ، وغنّت حَبَابة بشعر ابن قيس الرُّقَيّات :

حلَقٌ من بنى كِنانةَ حَوْلِى * بِفِلَسْطِين يُسْرِعون الرُّكوبَا
جَزِعتْ(١) أنْ رأت مَشِيبى عِرْسِى * لا تَلُومِى ذوائبى أنْ تَشِيبَا (٣٦)

فأصابت ما فى نفسه ، فقال : احتكمى . قالت : تَهَبُ لى سلّامة ومالها . قال : اطلُبى غيرها ؛ فأبت غيرها ؛ فقال : أنت أولَى بها ومالها ، فلَقِيتْ سلّامة من ذلك أمرًا عظيما . فقالت حبَابة : لا تَرَيْنَ إلا خيرا . فجاءها يزيدُ فسألها أن تبيعه إيّاها بحكمها . فقالت : أُشهِدك الآن أنها حُرّة ، فاخْطُبْها الآن أُزَوِّجْك مولاتى .

قال : وغنّت حَبَابة يوماً يزيد :

ما أحسنَ الجِيدَ من مُلَيْكَةَ والـ * لَبّاتِ إذ زانها تَرائبُها
يا ليتنِى ليلةً — إذا هجَع النا * سُ ونام الكلابُ — صاحِبُها
فى ليلةٍ لا يُرَى بها أحدٌ * يسعَى علينا إلّا كواكِبُها

فطرِب يزيد ، وقال : هل رأيتِ قطُّ أطربَ منّى ؟ قالت : نعم ، ابن الطيار مُعاوية ابن عبد الرحمن بن جعفر . فكتب يزيد الى عبد الرحمن بن الضحّاك فحمله إليه . فلما قدِم أرسلت إليه حَبَابة : إنما بعث إليك لكذا وكذا وأخبرته بالقصة ؛ فإذا أُدخِلتَ عليه وتَغَنّيتُ فلا تُظهِرنّ طَرَبًا حتى أُغَنّىَ الصوت الذى غنّيتُه ؛ فقال : سَوْءَةٌ على كِبَرِ السنّ ! فدعاه يزيد وهو على طنفسة خَزٍّ ، ووضع لمعاوية مثلها ، وجاءوا بجامَيْنِ فيهما مِسْكٌ ، فوُضِع أحدُهما بين يدى يزيد والآخرُ بين يدى مُعاوية . قال معاوية : فلم أدر كيف أصنع ، فقلتُ : أنْظُرُ كيف يصنع فأصنع مثلَه ؛ فكان يُقَلِّبه فتفوح

(١) فى الأغانى : «هزئت» .

ريحه وأفعل مثـلَ ذلك . فلما جيءَ بحَبَابة وغنّت، فلما غنّت ذلك الصوت أخذ معاوية الوِسادةَ فوضَعها على رأسه وقام يدور ويقول : الدُّخْنُ بالنَّوَى يعنى اللُّوبيا ! وأمر له يزيد بصِلَاتٍ فى دَفَعات مبلغُها ثمانيةُ آلاف دينار .

وحكى أيضا أنها غنّتْ يومًا يزيدَ فطرِب، ثم قال : هل رأيتِ أطـرَبَ منّى؟ قالت : نعم، مولاى الذى باعنى . فغاظه ذلك، فكتب فى حَمْله مُقَيَّدا. فلما وصل أمر يزيد بإدخاله عليه فأُدخِل يَرْسُفُ فى قيوده، وأمر يزيدُ حَبَابةَ أن تغنّى فغنّت :

تَشُـطُّ بنا دارُ جِيرَانِنا * ولَلدَّار بعـدَ غدٍ أبعدُ

فوثب حتى ألقَى نفسَه على الشمعة فاحترقتْ لِحيته ، وجعل يصيح : الحريق ياأولاد الزنا ! فضحِك يزيد وقال : لَعَمْـرى إن هذا لأطـرب الناس[1] ! وأمر بحلّ قيوده ووصله بألف دينار ووصلته حَبَابة، وردّه الى المدينة .

وروى أبو الفـرج الأصفهانىّ بسـنده الى غانم الأزدىّ قال : نزل يزيد بن عبد الملك ببيت رأس بالشأم ومعه حَبَابة، فقال : زعموا أنه لايصـفو لأحدٍ يوماً عيشُه الى الليل لا يُكَدِّره شىء عليه، وسأُجَرِّب ذلك ؛ ثم قال لمن معه : إذا كان غدٌ لا تُخْبِرونى بشىء ولا تأتونى بكتّاب. وخلا هو وحَبَابة، فأُتيا بما يا كلانِ، فأكلت رُمّانة فشَرِقتْ بحَبّة منها فماتت، فأقام لايدفنها ثلاثًا حتى تغيّرت وأنتنت وهو يشَمُّها ويرشُفها. فعاتبه على ذلك ذووه وأقرباؤه وصَدِيقُه وعابوا عليه ما يصنع، وقالوا : قد صارت جيفةً بين يديك، فأَذِن لهم فى غَسْلها ودفنها، فأُخرِجتْ فى نِطْع، وخرج معها لا يتكلّم حتى جلس على قـبرها . فلمـا دُفِنت قال : أصبحتُ والله كما قال كُثَيِّر :

(١) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : «إن مثل هذا يطرب الناس» .

فإنْ تَسْلُ عنكِ النفسُ أو تَدَعِ الهَوَى * فبالْيأسِ تسلُو عنكِ لا بِالتَّجَلُّدِ
وكلُّ خليلٍ راءِنِى فهو قائلٌ * مِنَ اَجْلِكِ هذا هامةُ اليومِ أو غدِ

فما بقى إلا خمسَ عشرة ليلة ومات، فدُفن الى جنبها .

وروى أيضا عن مَسْلَمة بن عبد الملك قال: لمّا ماتت حَبَابة جزع عليها يزيد، فجعلتُ أُسَكِّنه وأُعَزِّيه وهو ضاربٌ بذَقَنه على صدره ما يكلِّمنى حتى دفنها . فلمّا بلغ إلى بابه التفتَ إلىّ وقال : فإن تَسْلُ عنك النفس ... البيت ، ثم دخل بيته فمكث أربعين يومًا ثم هَلَك .

قال : وروى المدائنىّ أنه اشتاق إليها بعد ثلاثة أيام من دفنه إيّاها ؛ فقال : لا بُدّ أن تُنْبَشَ حتى أنظر إليها ، فنُبِشت وكُشِف له عن وجهها وقد تغيّرت تغيُّرًا قبيحا ، فقيل له : يا أمير المؤمنين، اتقِ الله تعالى ! ألَا تراها كيف صارت ! فقال : ما رأيتُ قطّ أحسنَ منها اليوم ،أَخرِجوها . فجاء مَسْلَمة ووجوهُ أهله(١)، فلم يزالوا به حتى أزالوه عن ذلك ودفنوها ، وانصرف ، وكِمد كَمَدًا شديدًا حتى مات، فدُفن إلى جانبها .

وروى عن عبد الله بن عُرْوة بن الزُّبير قال : خرجتُ مع أبى إلى الشأم زمن يزيد بن عبد الملك . فلما ماتت حَبَابة وأُخرِجتْ ، لم يستطع يزيد الركوبَ من الجزَع (٣٧)
ولا المشيَ ، فحُمِل على مِنبر على رِقاب الرجال . فلمّا دُفنت قال : لم أُصَلِّ عليها ، انبشوا عنها . فقال له مَسْلَمة : نَنْشُدك اللهَ يا أمير المؤمنين ، إنما هى أَمَةٌ من الإماء وقد واراها الثرى . فلم يأذَنْ للناس بعد حَبَابة إلا مرّةً واحدة ؛ قال : فوالله ما استتمّ دخول الناس حتى قال الحاجب : اخرجوا رحمكم الله . ولم يَنْشَبْ يزيدُ أن مات كَمَدا .

(١) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : «وركبه أهله» .

ذكر أخبار خُلَيْدة المكّيّة

قال أبو الفرج : هى مولاة لابن شَمّاس، كانت هى وعَقِيلة ورُبَيْحة يُعرَفْن بالشَّمّاسيّات . وقد أخذت الغناء عن ابن سُرَيْج ومالك ومَعْبَد .

وروى أبو الفرج بسنده عن الفضل بن الربيع أنه قال : مارأيتُ ابنَ جامع يطرَب لغناء كما يطرَب لغناء خُلَيْدة المكّيّة . وكانت سوداء، وفيها يقول الشاعر :

فَتَنَتْ كاتبَ الأمير رَبَاحٍ * يا لَقَوْمِى خُلَيْدةُ المكّيّه

وغنّت هشام بن عُرْوة يومًا، فلما سمعها قال : اكتُبِى على صَدْرِكِ (قُلْ هُو اللهُ أَحَدٌ) وبين يديك المُعَوِّذتين لا تُصيبُك العين .

وقال عُمَر بن شَبّة : بلغنى أنّ محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفّان أرسل إلى خُلَيْدة المكّيّة أبا عَوْنٍ مولاه يخطُبها عليه . فاستأذن فأذِنتْ له وعليها ثيابٌ رِقاق لا تستُرها ، ثم وثبتْ فقالت : إنما ظننتُك بعضَ سُفَهائنا، ولكنّى ألبَس لك ثيابَ مثلك ففعلت . وقال : قد أرسلنى إليك مولاى، وهو من تعلمين من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن عثمان بن عفّان ومن علىّ وهو ابن عمّ أمير المؤمنين، يخطُبك . قالت : قد نَسَبتَ فأبلغتَ، فاسمع نسبى أنا بأبى [أنت](1) ! إن أبى بِيعَ على غير عَقْد الإسلام ولا عَهْده، فعاش عبدًا ومات فى رجله قيدٌ وفى عُنقه سِلْسِلةٌ على الإباق والسَّرِقة ، وولدتنى أمى على غير رِشْدةٍ وماتت وهى آبقة ، فأنا مَنْ تعلَم . وإن أراد صاحبُك نكاحًا مباحًا أو زِنًا صُرَاحا فهَلُمّ الينا نحن له . فقال : إنه لا يدخل فى الحرام . فقالت : لا ينبغى أن يستحيى من الحلال ، فأمّا نكاح السرّ فلا والله لا فعلتُه ولا كنتُ عارًا على القِيان . قال : فأتيتُ محمدا فأخبرته؛ فقال :

(١) التكملة عن الأغانى .

ويحك ! تزوّجها سُكينة وعندى بنتُ طلحة بن عبيد الله ! لا ! ولكن ارجع إليها فقل لها : فمتى لى بأن أزيد نظرى فيها لعلّى أسلو، فرجعتُ إليها فأبلغتها الرسالة فضحكت وقالت : أمّا هذا فنعمْ، لسنا نمنعه .

ذكر أخبار مُتَيَّم الهشامية

قال أبو الفرج : كانت متيّم مولَّدة صفراء من مولَّدات البَصْرة، وبها نشأتْ وتدرّبت[1] وغنّت. وأخذت عن إسحاق وأبيه قبله وعن طبقتهما من المغنّين. وكانت من تخريج بَذْل وتعليمها . وآشتراها علىّ بن هشام بعد ذلك فآزدادت أخذًا ممن كان يغشاه من أكابر المغنّين . وكانت من أحسن الناس وجهًا وغناءً وأدبا. وكانت تقول : الشعر ليس ممـا يُستجاد ولكنه يُسْتَحْسَن من مثلها . وحَظِيتْ عند علىّ بن هشام حُظْوةً شديدةً، وتقدّمت جواريَه جُمَعَ عنده، وهى أمّ ولده كلهم .

حكى أبو الفرج قال : كان عند علىّ بن هشام بِرْذَوْنٌ أشهب قِرْطاسىّ فى نهاية الحسن والفَرَاهة وكان به مُعْجَبا، وكان إسحاق بن إبراهيم يَشْتهيه شهوةً شديدةً ويُعَرِّض لعلىّ مرارًا فى طلبه فلم يَسْمَحْ به . فسار إسحاق إلى علىّ يومًا وقد صنعتْ متيم :

فلا زِلْنَ حَسْرَى ظُلَّعًا، لِمَ حَمَلْنَها * إلى بَلَدٍ ناءٍ قليـلِ الأصـادقِ

فاحتبسـه علىّ وبعث إلى متيم يأمرها أن تجعل صوتَها فى صـدر غنائها ففعلت، فأطربت إسحاقَ إطراباً شديدا، وجعل يستعيده ويستوفيه ليزيدَ فى طَرَبه[2] وهو يُصغِى اليه ويتفهّمه حتى صحّ له . ثم قال لعلىّ : ما فعـل البِرْذَوْنُ الأشهب ؟ قال : على مَا عهدتَ من حُسْنه وفَرَاهته . قال : آختر الآن منّى خَلّةً من آثنتين : إمّا أن

(١) فى الأغانى : «وتأدبت» .

(٢) عبارة الأغانى . « وجعل يستردّه فتردده وتستوفيه ليزيد فى إطرابه إسحاق وهو يصغى ... » .

طِبْتَ لى نفسًا [به](١) وحملتَنى عليه ، وإمّا أن أبيت فأدّعى والله هذا الصوت [لى](١) وقد أخذته، أفتراك تقول : إنه لمتيّم وأقول : إنه لى، فيؤخذ قولُك ويُترك قولى؟ (٦٨) فقال : لا والله ما أظنّ هذا ولا أراه؛ ياغلام، قُدِ البرذونَ إلى منزل إسحاق، لا بارك الله لك فيه ! .

وحكى أن علىّ بن هشام مولاها كلّمها بشىء فأجابته جوابًا لم يُرضه، فدفع [يده] فى صدرها، فغضِبتْ ونهضت وتثاقلت عن الخروج إليه . فكتب إليها :

فليتَ يدى بانتْ غداةَ مددتُها * إليك ولم تَرجِعْ بكَفٍّ وساعدِ
فإن يرجِعِ الرحمنُ ما كان بيننا * فلستُ إلى يوم التّنادى بعائد

قال : وعتَبت عليه مرّةً فتمادَى عتبُها، فترضّاها فلم ترضَ، فكتب إليها : الإدلال يدعو إلى الملال، وربّ هجرٍ دعا إلى صبر، وإنما سُمِّى القلبُ قلبًا لتقلّبه؛ وقد صدق عندى العباس بن الأحنف حيث يقول :

ما أُرانى إلا سأهجُـــرُ مَنْ ليـ * ـس يرانى أقوى على الهِجْرانِ
ملّنى واثقًا بحسن وفائى(٢) * ما أضرَّ الوفاءَ بالإنسانِ

قال : فخرجتْ إليه من وقتها ورضيت .

وروى عن يحيى المكىّ قال : قال لى علىّ بن هشام : لمّا قَدِمتْ جَدّتى شاهك من خُراسان، قالت : اعرِض جواريَك علىّ؛ فعرضتهن عليها. ثم جلسنا على الشراب وغنّتنا مُتَيّمُ، فأطالت جَدّتى الجلوسَ، فلم أنبسط إلى جوارى كما كنت أفعل، فقلت هذين البيتين :

أنبقَى على هذا وأنتِ قريبةٌ * وقد مَنَع الزُّوّارُ بعضَ التكلُّم
سلامٌ عليكم لا سـلامَ مُوَدِّعٍ * ولكن سلامٌ من حبيب متيَّم

---

(١) زيادة عن الأغانى . (٢) فى الأغانى : * قد حدا بى إلى الجفاء وفائى *

وكتبت بهما فى رقعة و رميتها إلى متيّم ؛ فأخذتها ونهضت لصلاة الظهر، ثم عادت وقد صنعت فيه لحنًا فغنّته . فقالت شاهك : ما أرانا إلا قد ثقّلنا عليكم اليوم؛ وأمرت الجوارى فحملوا مِحَفّتها، وأمرت للجوارى بجوائز ساوت بينهن، وأمرت لمتيّم بمائة ألف درهم .

قال : ومرّت متيّم فى نسوةٍ وهى متخفّية بقصر على بن هشام بعد أن قتله المأمون . فلما رأت بابه مُغلقًا لا أنيس به وقد علاه التراب والغُبْرة وطُرِحتْ فى أفنِيته المزابلُ وقفتْ عليه وتمثّلت :

يا مَنزِلًا لم تَبْلَ أطْلالُهُ * حاشى لأطلالِكَ أن تَبْلَى
لم أبك أطلالَكَ لكنّنى * بكيتُ عيشى فيك إذ وَلّى
قد كان لى فيك هوًى مرّةً * غيّبه الترب وما مَلّا
فصِرْتُ أبكى بعده جاهدًا (١) * عند آدّكارى حيث قد حَلّا
والعيشُ أوْلَى مابكاه الفتى * لا بُدّ للمحزونِ أن يَسْلَى

قال : ثم بكت حتى سقطت من قامتها ، وجعل النسوة يناشدنها [ويقلن] (٢) : اللهَ اللهَ فى نفسك! فإنك الآن تؤخذين . فبعد لأيٍ مّا آحْتُمِلَتْ تتهادى بين آمرأتين حتى جاوزت الموضع .

وحُكِى عنها قالت : بعث إلىّ المعتصم بعد قدومه بغداد؛ فلما دخلتُ أمر بالعُود فوُضِع فى حجرى، وأمرنى بالغناء فغنّيتُ :

هل مُسْعِدٌ لبكائى * بعَبْرةٍ أو دِمَاءِ
وذاك شىءٌ قليلٌ * لسادتى النُّجَباءِ

(١) فى الأغانى : « فصرت أبكى جاهدا فقده » .
(٢) زيادة عن «الأغانى» .

ـــ وهذا الشعر لمراد جارية علىّ بن هشام ترثيه ـــ فقال : اعدِلى عن هذا الصوت؛ فغنّيتُ :

* ذهبتُ عن الدنيا وقد ذهبتْ عنّى *

فدَمعتْ عيناه وقال : غَنِّى غيرَ هذا؛ فغنّيت :

أولئك قومى بعــد عِزٍّ وثَرْوةٍ(١) * تَفَانَوْا فإلّا تَذْرِفِ العينُ أكمَدِ

فبكى بكاء شديدا، ثم قال : ويحك! لا تُغَنِّى فى هذا المعنى شيئا . فغنّيتُه :

لا تأمَنِ الموتَ فى حِــلٍّ وفى حَرَمٍ * إنّ المنايا بِجَنْبَىْ(٢) كلِّ إنســانِ

وآسلُكْ طريقَك هَوْنًا غيرَمُكتَرِثٍ * فسوف يأتيك ما يَمْنِى لك آلمــانِى

فقال : والله إنى لأعلم أنكِ إنمــا أردتِ بمــا غنّيتِ ما فى قلبــك لصاحبك [وأنّكِ] لم تريدينى، ولو أعلم أنك تُريدينى لقتلتُك، ولكن خذوها! فأخذوا بيدى فأُخْرِجتُ .



وهذه متيّم هى التى كان يهواها عبــد الصمد بن المُعَذَّل، وأظنّ ذلك قبل آتصالها بعلىّ بن هشام، وهى إذ ذاك عند رجل من وجوه البصرة .

قال : وكانت لا تخرُج إلا متنقِّبة. فحكى المبرّد وغيره : أنها قَدِمتْ يومًا إلى آبن عبيد الله بن الحسين العنبرىّ القــاضى ، فآحتاج إلى أن يُشْهِد عليها، فأمَر بها أن تَسْفِر ففعلت . فقيل لعبد الصمد : لو رأيتَ متيّمًا وقــد أسفرها القاضى لرأيت شيئا عجيبا ! فقال :

ولمّــا سَرَتْ عنهــا القِناعَ مُتَيَّمٌ * تروّح منهــا العَنْــبرِىُّ متيّما

رأى آبنُ عُبَيْــدِ الله وهو مُحَكَّمٌ * عليها لهــا طَرْفًا عليــه محكّما

(١) فى الأغانى : «ومنعة» .

(٢) فى الأغانى : « تغشى » .

وكان قَدِيمًا كالحَ الوجهِ عابسًا * فلما رأى منها السفورَ تبَسَّما
فإن يَصْبُ قلبُ العنبرىِّ فقبله * صبا باليتامى قلبُ يحيى بنِ أكثما

فبلغ قولُه يحيى بن أكثم ، فكتب إليه : عليك لعنة الله ! أىَّ شىء أردتَ منّى حتى أتانى شَرُّكَ من البَصْرة ! فقال لرسوله : قل له : متىّ أقْعَدتُك على طريق القافية .

ذكر أخبار ساجى جارية عُبَيد الله بن عبد الله بن طاهر

قال أبو الفرج : كانت ساجى إحدى المُحسنات المبرّزات المتقدّمات، وهى تخريج مولاها عبيد الله ، وكان مهما صنع من الغِناء نسبه إليها، وكان قد بلغ من ذلك الغاية، ولكنه كان يترفّع عن ذكره ويكره أن يُنْسَب إليه .

حكى أبو الفرج عن أحمد بن جعفر جحظة قال : كتب المعتضدُ إلى عُبَيد الله ابن عبد الله بقُمّ(١) أن يأمر جاريتَه ساجى بزيارته ففعل . قال جحظة : فحدّثنى من حضر ذلك المجلس من المغنّيات قالت : دخلتْ علينا وما فينا إلا من تَرْفُلُ فى الحُلِىّ والحُلَل وهى فى أثواب ليست كأثوابنا فآحتقرناها ؛ فلما غنّت آحتقرنا أنفسنا ، ولم تزل تلك حالنا حتى صارت فى أعيننا كالجبل وصرنا كلا شىء . ولمّا آنصرفت أمر لها المعتضد بمال وكُسوة . ودخلت إلى مولاها جعل يسألها عن خبرها وما رأت مما آستظرفت وسمعت وآستغربت؛ فقالت : ما آستحسنتُ هناك شيئا ولا آستغربته من غناء ولا غيره إلّا عُودًا من عود محفورًا فإنى آستظرفته . قال جحظة : فما قولُك فيمن تدخل إلى دار الخليفة ولا تمُدّ عينَها إلى شىء تستظرفه وتستحسنه إلّا عودا !

---

(١) قم : مدينة كبيرة بين أصبهان وساوة .

قالوا : وكان المعتَضِد إذا آستحسن شيئًا بعث به إلى ساجى فتُغَنِّى فيه. وكانت صنعتها فى عصره تُســمَّى غناءَ الدار . وماتت ساجى فى حياة مولاها وكان عليلًا، فرثاها ببيتين فقال :

يَمِينًـا يقينًا لو بُلِيتُ بفَقْـدِها * وبى نَبْضُ عِرْقٍ للحياةِ وللنُّكْسِ
لأوشكتُ قتْلَ النفسِ قبل فِراقِها * ولكنها ماتت وقد ذهبَتْ نَفْسِى

ذكر أخبار دُقَاق

قال أبو الفرج: كانت دقاق مغنِّيةً محسِنةً مُتْقِنة الأداء والصنعة جميلة الوجه. أخذت الغناء عن أكابر مغنِّى الدَّولةِ العبَّاسية . وكانت ليحيى بن الربيع، فولدت له آبنه أحمد. ومات يحيى فتزوّجت بعــده بعِدّةٍ من القوّاد والكتّاب فماتوا وورِثتْهم، ثم آنقطعت إلى حَمْدونةَ بنت الرشـيد ثم إلى غَضِيض . وكانت مشهورةً بالظَّرْف والمُجُون .

قال هِبة الله بن إبراهيم بن المهـدىّ : وكانت تُواصِل جماعةً كانوا يميلون إليها وتُرِى كلَّ واحد منهم أنهـا تهواه. وكانت أحسنَ أهل عصرها وجهًا وأشأمهم على من تزوّجها أو رابطها . فقال فيها إبراهيم بن المهدىّ :

عَدِمتُكِ يا صَديقةَ كلِّ خَلْقٍ * أكُلَّ الناسِ وَيْحَكِ تَعْشَقِينا
وكيف إذا خَلَطتِ الغَثَّ منهم * بِلَحْـمِ سَمِينِهِــم لا تَبْشَمِينا

قال أبو هفّان : خرج يحيى بن الربيع إلى بعض النواحى وترك جاريتــه دُقاق فى داره؛ فعمِلت [بعده][١] الأوابد . فقال موسى[٢] الأعمى [فيه][١] :

(١) زيادة عن الأغانى .

(٢) فى الأغانى : «أبو موسى» .

قل ليحيي نعمْ صَبَرْتَ على المو * ت ولم تخشَ ريبَ سَهمِ المَنُونِ
كيف قل لى أطَقْتَ ويحكَ يا يحـ * ـيَ على الضَّعْفِ منك حَمْلَ القُرون

يشير بقوله : « سهم ريب المنون » إلى شُؤْمها .

ذكر أخبار قَلَم الصالحيّة

قال أبو الفرج الأصفهانىّ : كانت قَلَم الصالحيّة مُوَلَّدة صفراء حُلْوةً حَسَنةَ الغِناء والضَّرْبِ حاذقةً، قد أخذت عن إبراهيم وآبنه إسحاق ويحيى المكىّ وزُبَير بن دحمان. وكانت لصالح بن عبد الوهاب [أخى أحمد بن عبد الوهاب][1] كاتب صالح بن الرشيد، وقيل : بل كانت لأبنه[2] . قال: وكانت لها صَنْعةٌ يسيرة نحو عشرين صوتا، فاشتراها الواثق بعشرة آلاف دينار .

قال أحمد بن الحسين بن هشام: كانت قَلَم إحدى المغنّيات المُحسنات المتقدّمات، فغَنَّى بين يدى الواثق لحنٌ لها فى شعر محمد بن كناسة، وهو :

فىّ آنقباضٌ وحِشْمةٌ فإذا * صادفتُ أهل الوفاءِ والكرمِ
أرسلتُ نفسى على سَجِيّتها * وقلتُ ما قلتُ غيرَ مُحْتَشِمِ

فسأل : لمن الصنعة؟ فقيل : لقلم الصالحيّة جارية صالح بن عبد الوهاب . فبعث إلى محمد بن عبد الملك الزّيات فأحضره وسأله : مَنْ صالحُ بن عبد الوهاب؟ فأخبره . قال : وأين هو؟ قال : ببغداد . قال : ابعث وأَشْخِصه ولْيُحْضِرْ معه جاريته قَلَم . فكتب فى إشخاصهما، فقدِما على الواثق، فدخلت عليه، فأمرها بالجلوس والغناء، فغنّت فاستحسن غِناءها وأمر بآبتياعها . فقال صالح: أَبيعها بمائة ألف دينار وولاية مصر . فغَضِب الواثق من ذلك وردّها اليه . ثم غنّى بعد ذلك زرزر الكبير فى مجلس

(١) زيادة عن الأغانى . (٢) فى الأغانى «لأبيه» .

الواثق بشعرٍ الغناءَ فيه لها ؛ فقال الواثق : لمن هذا الغناء ؟ فقال : لقلم الصالحيّة ؛ فبعث إلى ابن الزيات بإشخاصها ففعل ، فدخلتْ على الواثق فأمرها بالغناء ، فغنته من صنعتها فأعجبه غناؤها ، وبعث الى صالح فأحضره وقال له : إنّى قد رَغِبتُ فى هذه الجارية فاسْتَمْ فى ثمنها سَوْماً يجوز أن تُعْطاه . فقال : أمّا إذ وقعت الرغبة فيها من أمير المؤمنين فما يجوز أن أملك شيئاً له فيه رغبة ، وقد أهديتُها الى أمير المؤمنين ، فإن من حقه علىّ إذا تَناهَيْتُ فى قضائه أن أُصَيِّرها ملكه ، فبارك الله له فيها . فقال الواثق : قد قَبِلتها ، وأمر ٱبن الزيّات أن يدفع إليه خمسة آلاف دينار ، وسمّاها ٱعتباطاً . فلم يُعْطِه ٱبن الزيّات المـال ومَطَله به ؛ فوَجّه إلى قلم مَنْ أعلمها بذلك ؛ فغنّت الواثقَ صوتاً وقد ٱصطبح ؛ فقال لها : بارك الله فيك وفيمن ربّاك . فقالت : يا سيّدى وما نَفْعُ مَنْ ربّانى منّى إلّا التعب والغُرْم والخروج منّى صِفْرا ! فقال : أوَلم نأمر له بخمسة آلاف دينار؟ قالت : بلى ! ولكنّ ٱبنَ الزيّات لم يعْطِه شيئا . فدعا بخادم من خاصّــة الخدم ووقّع إلى ٱبن الزيات بحمل خمسة آلاف الدينار إليه وبخمسة آلاف أخرى معها . قال صالح : فصِرْتُ مع الخادم إليه فقرّبنى وقال : أمّا خمسةُ الآلاف الأولى فقد حضرتْ ، وخمسةُ الآلاف الأخرى أنا أدفعها اليك بعد جمعة . قال : فقمت ، ثم تناسانى كأنه لم يعرفنى . فكتبت إليه أقتضيه ؛ فبعث إلىّ : ٱكْتُبْ لى قبضًا بها وخذها بعد جمعة . فكرِهتُ أن أكتب إليه قبضًا فلا يحصُل لى شىء . قال : فاستترت فى منزل صديق لى . فلمـا بلغه ٱستتارى خاف أن أشكوه إلى الواثق ، فبعث إلىّ بالمـال وأخذ كتابى بالقبض . قال : فابتعتُ بالمـال ضَـيْعةً وتعلّقت بهـا وجعلتها معاشى ، وقعَدتُ عن عمـل السلطان ، فمـا تعرّضت لشىء بعـــدها .

(٣١)

إذا دعتْ بالعـــودِ فى مَشْهَدٍ * وعاونتْ يُمْنَى يديهـا الشِّمالُ
غنّتْ غنـاءً يَسـتفزُّ الفـــتى * حِذْقًا وزان الحذقَ منها الدَّلالُ

قال : وهَوِىَ محمـد بن عيسى الجعفرىّ بصبص فهام بها وطال ذلك عليه؛ فقــال لصديق له : قد شغلتنى هــذه عن صَنْعتى وكلِّ أمرى، وقد وجدتُ مَسّ السُّلُوّ عنها، فآذهب بنا إليها حتى أُكاشفها ذلك وأسـتريح . فأتياها؛ فلما غنّتهما قال لها محمد بن عيسى : أتغنّين :

وكنتُ أُحِبُّكُمْ فسلَوْتُ عنكمْ * عليكم فى دِيارِكُمُ السّـــلامُ

فقالت : لا، ولكنى أُغَنِّى :

تَحَمَّــلَ أهلُها عنها فبانوا * على آثارِ مَنْ ذهب العَفَــاءُ

قال : فآستحيا وآزداد بها كَلَفًا ولها عِشقا؛ فأطرق ساعة ثم قال لها : أتغنّين :

وأخضَعُ بالعُتْبَى إذا كنتُ مُذْنِبًا * وإن أذنبتْ كنتُ الذى أتنصَّلُ

قالت : نعم، وأغنِّى أحسن منه :

فإن تُقْبِلوا بالوُدّ نُقْبِلْ بمثله * ونُنْزِلكم منّا بأقرب منزلِ

فتقاطعا فى بيتين وتواصلا فى بيتين، وما شعر بهما أحد .

(٣٣) قال : وحضر أبو السائب المخزومىّ مَجلِسًا فيه بَصْبَص، فغنّت :

قلبى حبيسٌ عليـــك موقوفُ * والعينُ عَبْرَى والدمعُ مذروفُ
والنفسُ فى حَسْرةٍ بغُصّتهـا * قد شَـفَّ أرجاءَها التساويفُ
إن كنتِ بالحُسْنِ قد وُصِفْتِ لنا * فإنّنى بالهـــوى لَموصـــوفُ
يا حَسْرتَا حسرةً أموتُ بهـا * إنْ لم يكن لى إليــك معروفُ

قال : فطَرِب أبو السائب ونَعَـر وقال : لا عَرَّف الله من لا يعرف لك معروفَك، ثم أخذ قِناعها عن رأسها ووضـعه على رأسه وجعل يبكى ويَلْطِم ويقول

لها : بأبى أنت ! والله إنى لأرجو أن تكونى عند الله أفضلَ من الشُّهداء لِمـا تُولِيناه من السرور، وجعل يصيح : وا غَوْثاه! يالله ما يلقَى العاشقون ! .

وقال عثمان بن محمد الليثىّ: كنت يومًا فى منزل آبن نَفيس، فخرجتْ إلينا جاريته بَصْبَص، وكان فى القوم فتًى يحبها ، فسألتْه حاجةً فقام ليأتِيَها بها ، فنسِى أن يلبس نعله ومضى حافيا . فقالت له : يافلان، نسيتَ نعلك؛ فرجع فلبِسها وقال : أنا والله كما قال الأوّل :

وحُبُّكِ يُنْسِينِى عن الشىء فى يَدِى * ويَشْغَلُنِى عن كلّ شىءٍ أُحاوِلُهْ

فأجابته فقالت :

وبى مثلُ ما تشكوه منّى وإنّنى * لأُشْفِق من حبٍّ لذاك تُزايِلُهْ

ذكر أخبار جوارى آبن رامين

وهنّ سلّامة الزَّرْقاء ، وربيحة ، وسَعْدَة

قال أبو الفرج : وآبن رامين هو عبد الملك بن رامين مولى عبد الملك بن بِشْر آبن مروان . وكان له جوارٍ مُغَنِّيات مُجِيدات ، وهنّ سلّامة الزرقاء ، وربيحة ، وسَعْدَة . وفيهنّ يقول إسماعيل بن عمّار قصيدته التى أوّلها :

هل مِن شِفَاءٍ لقلبٍ لَجَّ مَحْزُونِ * صَبَا وصَبَّ إلى رِئْمِ آبن رامين
إلى ربيحة إن الله فَضّلها * بحُسْنِها وسماعٍ ذى أفانينِ
نَعَمْ شِفاؤُكَ منها أن تقولَ لها * قتلْتِنى يومَ دَيرِ اللُّجِّ[1] فأحيِينى
أنتِ الطبيبُ لداءٍ قد تلبَّس بى * من الهَوَى فآنفُثِى فى فىَّ وآرقِينى
نَفْسِى تأبَى لكم إلّا طَوَاعِيةً * وأنتِ تحْمِينَ أنفًا أن تُطيعينى

---

(١) دير اللج : هو بالحيرة [illegible] .

ومنهـا :

لم أنس سَعْدةَ والزّرقاءَ يومَهما * باللُّجِّ شَرْقيّـــه فوق الدكاكين
يُغنِّيان آبن رامينٍ ضُحَاءَهما * بالمِسْـــجَحِيِّ وتشبيب المحبّينِ
فـا دعوت به فى عيش مملكةٍ * ولم نَعِش يومًا عيشَ المساكين

وهى أبيات طويلة، وله فيهنّ غيرها .

قال : وآشترى جعفر بن سـليمان بن علىّ سلّامة الزرقاء بثمانين ألف درهم ؛ وقيل : إنه اشترى ربيحة بمائة ألف درهم، والأوّل أصح . وقيل : إنّ الذى آشترى ربيحة محمد بن سليمان، وآشترى صالح بن علىّ سَعْدة بتسعين ألف درهم . وقيل : آشترى مَعْن بن زائدة إحداهنّ . قال : وكانت سلّامة الزرقاء عاقلة شَكِلة . قال : ولـمّا آشتراها جعفر ومضتْ لها مدّة عنده، سألها يومًا : هل ظَفِر منـك أَحَدٌ قطُّ ممن كان يهواكِ بخَلْوة أو قُبْـلة ؟ فخشِيتْ أن يبلُغه شيء كانت فعلتْه بحضرة جماعة أو يكون قد بلغه شيء، فقالت : لاوالله إلا يزيد بن عَوْن العبادىّ الصيرفى ، فإنه قبّلنى قُبْـلة وقذف فى فىّ لؤلؤةً بعتُها بثلاثين ألف درهم . فـلم يزل جعفر بن سليمان يحتال له حتى وقع به فضربه بالسِّياط حتى مات .

وقد روى أبو الفرج الأصـفهانىّ فى خبر يزيد بن عون هذا بسـند رفعه إلى عبد الرحمن بن مقرون أنه آجتمع هو ورَوْح بن حاتم عند آبن رامين، وأن الزرقاء (٣٣) خرجتْ عليهم فى إزارٍ ورداء [قَهْوِيّين][(1)] مُوَرَّدين ، كأنّ الشمس طالعةٌ بين رأسها وكتفها . قال : فغنّتنا ساعة ؛ ثم جاء الخادم الذى كان يأذَن لها — وكان الإذنُ عليها دون مولاها — فقام على الباب وهى تغنّى ، حتى إذا قطعت الغناءَ نظرتْ إليه فقالت : مَه ! قال : يزيد بن عَوْن العبادىّ الصيرفىّ الملقب بالماجن على الباب . قالت :

(١) زيادة عن الأغانى .

ائذن له . فلما آستقبلها طَفَر ثم أقعَى بين يديها ، فوَجدتْ والله له ، ورأيتُ أثرذلك ، وتنوّقتْ تَنَوّقًا(١) خلافَ ما كانت تفعل بنا . فأدخل يده فى ثوبه فأخرج لؤلؤتين فقال : انظرى يازرقاء، جُعِلتُ فداكِ! ثم حلف أنه نَقَد فيهما بالأمس أربعين ألف درهم . قالت : فما أصنع بك؟ قال : أردتُ أن تعلَمى . فغنّت صوتًا ثم قالت : ياماجن هَبْهما لى! قال : إن شئتِ والله فعلتُ . قالت : قــد شئتُ . قال : فاليمينُ التى حلفتُ بها لازمةٌ [لى](٢) إن أخذتِهما إلا بشَفَتَيْكِ من شَفَتَىّ . فقال آبن رامين للغلام : ضَع لى ماءً ثم اخرج عنا؛ فقالت : هاتِهما . فمشى على رُكبتيه وكفّيه وهما بين شفتيه وقال : هاكِ؛ فلما ذهبتْ تتناولها جعل يَصُدّ عنها يمينًا وشمالًا ليستكثر منها ؛ فغمزتْ جاريةً على رأسها ، فخرجت كأنها تريد حاجةً ثم عطفت عليــه ؛ فلمــا دنا وذهب ليروغ دفعتْ مَنْكِبيه وأمسكتهما حتى أخذت الزرقاء اللؤلؤتين بشفتيها من فمه ورَشَح جبينها عرَقًا حياءً منا . ثم تجلّدتْ علينا(٣) فأقبلت عليه وقالت : المغبونُ فى آسته عود . فقال : فأمّا أنا فلا أُبالى ، والله لا يزال طيبُ هذه الرائحة فى أنفى وفمى ما حَيِيت .

قال : وآجتمع عند آبن رامين مَعْن بن زائده ورَوْح بن حاتم وآبن المُقَفّع . فلما تغنّت الزَّرقاء وسَــعْدة بعث مَعْن فجىء ببَــدْرةٍ فصبّها بين يديها ، وبعث رَوْح فجىء ببَدْرة فصبّها بين يديها . ولم تكن عند آبن المقفّع دراهم ، فبعث فجاء بصَكّ ضيعةٍ ، وقال : هذه عُهدةُ ضَيْعتى خذيها ، وأمّا الدراهم فما عندى منها شىء . وشربت زَرْقاء دواءً فأهدى لها ابن المقفّع ألفَ دُرّاجة(٤) .

وعن إسحاق بن إبراهيم قال : كان رَوْح بن حاتم بن المُهَلَّب كثيرَ الغِشْيان لمنزل ابن رامين ، وكان يُنسب إلى الزرقاء ، وكان محمد بن جميل يهواها وتهواه ؛ فقال لها :

---

(١) تنوّقت فى الأمر : أنقت فيه .
(٢) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : « عليها » .
(٣) زيادة عن الأغانى .
(٤) نوع من الطيور .

إنّ رَوْح بن حاتم قد ثَقُل علينا . قالت : فما أصنع وقد غَمَر مولاى بِبِرّه ! قال : احتالِى له . فبات عندهم رَوْح ليلةً ، فأخذت سراويله وهو نائم فغسلته . فلما أصبح سأل عنه ، فقالت : غسلناه . فظنّ أنه أحدَثَ فيه فاحتيج إلى غَسْله فاستحيا من ذلك فانقطع عنهم ، وخلا وجهُها الآن جميل .

ذكر أخبار عِنَان جارية الناطفىّ

قال أبو الفرج الأصفهانىّ : كانت عِنَانُ مولَّدة من مولَّدات اليمامة ، وبها نشأت وتأدبت ، واشتراها الناطفىّ ورباها . وكانت صفراءَ جميلةَ الوجهِ شَكِلةً مليحةَ الأدبِ والشعرِ سريعة البَدِيهة ، وكان فحول الشعراء يُساجلونها ويُعارضونها فتنتصف منهم . ولها مع أبى نُوَاس الحسن بن هانئ وغيره من الشعراء والفضلاء مُعاياةٌ ومُراجعات ، نذكر منها طَرَفا .

قال أبو حَبَش : قال لى النّاطِفِىّ : لو جئتَ إلى عِنَان فطارحتَها ! فعزمتُ على الغُدُوّ إليها ، وبِتُّ ليلتى أحوك بيتين ، ثم غدوتُ عليها فأنشدتها :

أَحَبّ المِلَاحَ البِيضَ قلبى ورُبّما * أَحَبّ المِلاحَ الصُّفْرَ من وَلَدِ الحَبَشْ
بَكَيت على صفراءَ منهن مَرّةً * بكاءً أصابَ العينَ مِنّى بالعَمَشْ

فقالت عنان :

بَكيتُ عليها إنّ قلبى يُحِبُّها * وإنّ فؤادى كالجَنَاحَيْنِ ذو رَعَشْ
تَعَنَّيْتَنا بالشعرِ لمّا أتيتَنا * فدونَك خذه مُحْكَمًا يا أبا حَبَشْ

وقال مَرْوَان بن أبى حَفْصَة : لقينى الناطفىّ فدعانى إلى عِنَان ، فانطلقتُ معه . فدخل إليها قبلى فقال : جئتك بأشعر الناس مروان [illegible]

عليلة فقالت : إنى عن مروان لفى شغل . فأهوى إليها بسوط فضربها، وقال لى: أُدخل؛ فدخلت وهى تبكى، فرأيت الدموع تحدّر من عينيها؛ فقلت :

بكتْ عِنانُ فجــرى دمعُها * كالدُّرِّ إذ يَسْبِقُ من خَيْطِهِ

فقالت مُسرعة :

فليتَ مَنْ يضربها ظالمًا * تيْبَسُ يُمْناهُ على سَوْطِهِ

قال مروان : فقلت : أُعْتِق ما أملك إن كان فى الجنّ والإنس أشعرُ منها .

وقال أحمد بن مُعَاوية قال لى رجل : تَصَفّحتُ كُتُبًا فوجدتُ فيها بيتًا جَهَدت جهدى أن أجد من يُجيزه فلم أجِد . فقال لى صديق لى : عليك بعِنَان جارية الناطفىّ؛ فأتيتها فأنشدتها البيت وهو :

وما زال يَشكو الحبَّ حتى رأيتُه * تَنَفّس من أحشائه وتكلّما

فلم تلبث أن قالت :

ويَبْكِى فأبكِى رحمةً لبكائه، * إذا ما بكَى دمعًا بكيتُ له دما

وقال موسى بن عبد الله التميمىّ : دخل أبو نُوَاس على الناطفىّ وعِنان جالسةٌ تبكى ، وقد كان الناطفىّ ضربها ، فأومأ إلى أبى نُوَاس أن حَرّكْها بشىء؛ فقال أبو نُوَاس :

عِنَانُ لو جُدْتِ لى فإنّىَ مِنْ * عُمْرِىَ فى (آمن الرَّسُولُ بِمَا)[1]

فقالت :

وإن تمادى ولا تمــاديتَ فى * قَطْعِكَ حَبْلى أكُنْ كمن خَتَمَا

فقال أبو نواس :

عَلِمتُ مَنْ لو أتى على أنفُس الـ * ـماضين والغابرين ما نَدِما

(١) [illegible] اقتباس هذه الآية ، وهى قبيل آخر سورة البقرة ، أن يدل على أنه فى آخر مرحلة من حياته [illegible] من عمره [illegible] بمقدار ما تقع هذه الآية من السورة المذكورة .

فقالت :

لو نَظَرتْ عينُهـا إلى حَجَـرٍ * وَلَّدَ فيــه فُتورُها سَـــقَما

وقال أبو جعفر النَّخَعِيّ : كان العبَّاس بن الأحْنَف يهوَى عِنان جارية الناطفيّ . فجاءنى يوماً فقال لى : اِمضِ بنا إلى عِنان . فصِرنا إليها ، فرأيتها كالمُهَاجِرة له ؛ فجلسنا قليلا ، ثم ٱبتدأ العبّاس فقال :

قال عبّاسٌ وقــد أُجْ * ـهِدَ من وجْدٍ شَــدِيد
ليس لى صَبْرٌ على الهَجْ * ـرِ ولا لَذْعِ الصُّــدودِ
لَا ولَا يَصْـــبِرُ للهَجْ * ـرِ فؤادٌ من حَدِيدِ

فقالت عِنان :

مَنْ تراه كان أغــنَى * منكَ عن هذا الصُّدودِ
بعدَ وَصْـــلٍ لك مِنِّى * فيــه إرغامُ الحَسُودِ!
فٱتَّخِذْ للهجْرِ إن شئـ * ـتَ فــؤاداً من حَدِيدِ
ما رأينــاكَ على ما * كنتَ تَجْنِي بجَلِيــدِ

فقال عبّاس :

لو تجُودِيــنَ لصَبٍّ * راحَ ذا وَجْدٍ شَــدِيدِ
وأخِى جَهْلٍ بمـا قد * كان يجنى بالصُّــدودِ
ليس مَنْ أحدث هجراً * لِصَـــدِيقٍ بِســـدِيدِ
ليس منه الموتُ إن لم * تَصِلِيــــهِ ببَعِيـــدِ

قال : فقلت للعبّاس : ويحك ! ما هذا الأمر ؟ قال : أنا جَنَيْتُ على نفسى (٣٥) بتَـأبِّيَّ عليها . فلم أبرَحْ حتى تَرَضَّيْتها له .

وقال الأصمعىّ : بعثت الىّ أمّ جعفر أنّ أمير المؤمنين قد لَهِج بذكر هذه الجارية عِنان ، فإنْ صَرَفْتَه عنها فلك حكمُك . قال : فكنت أرْبَعُ لأنْ أجد القول

فيها موضعًا فلا أجده ولا أُقدِم عليه هيبةً له، إذ دخلتُ يومًا فرأيتُ فى وجهه أثر الغَضَب فٱنخزلتُ . فقال : مالك يا أصمعىّ؟ قلت : رأيتُ فى وجه أمير المؤمنين أثر الغضب، فلعن الله من أغضبه ! فقال : هـذا الناطفىّ، والله لولا أنّى لم أجْرِ فى حكمٍ قطُّ متعمّدا لجعلتُ على كل جبل منه قِطعة ! ومالى فى جاريته من أرب غيرَ الشعر . قال الأصمعىّ : فذكرتُ رسالةَ أمّ جعفر فقلت : أجَلْ، والله ما فيها غيرُ الشعر، أفيَسُرّ أميرَ المؤمنين أن يُجامع الفرزدق ! فضحِك حتى استلقى . وٱتّصل قولى بأمّ جعفر فأجزلتْ لى الجائزة .

وقال يعقوب بن إبراهيم : طلب الرشيدُ من الناطفىّ جاريته، فأبى أن يَبيعها بأقلّ من مائة ألف دينار . فقال الرشيد : أعطيك مائةَ ألف دينار على أن تأخذ الدينار بسبعة دراهم، فٱمتنع عليه، فأمر أن تحمل إليه . فذكروا أنها دخلتْ مجْلِسَه فى هيئتها، فقال لها الرشيد ويلك ! إن هذا قد ٱعتاص علىّ فى أمرك . فقالت : ما مَنَعك أن تُوفيه وتُرْضِيه؟ فقال : ليس يقنَع بما أُعطيه، وأمرها بالانصراف . فتصدّق الناطفىّ حين رجعت إليه بثلاثين ألف درهم . فلم تزل فى قلب الرشيد حتى مات مولاها . فلما مات بعث الرشيد مسرورًا الخادم، فأخرجها الى باب الكَرْخ وأقامها على سرير وعليها رداءٌ سِنْدِىّ قد جَلّلها، فنُودى عليها فيمن يزيد بعد أن شاور الفقهاءَ فيها، فقالوا : هذه كَبِدٌ رَطْبَة وعلى الرجل دَين، فأشاروا ببيعها . وكانت تقول وهى على المصطبة : أهان الله من أهانى وأرذل من أرذلنى ! فوكَزَها مسرور بيده . وبلغ بها مسرورٌ مائتى ألف درهم ؛ فجاء رجل فقال : علىّ زيادة خمسة وعشرين ألف درهم، فوكزه مسرور وقال : أتَزيد على أمير المؤمنين ! فبلَغ بها مائتين وخمسين ألف درهم وأخذ مالها . قال : ولم يكن فيها عيبٌ يعاب، فطلبوا

لها عيبا لا تُصيبها العينُ، فأوقعوا بخِنْصَر رِجْلها فى ظُفره شيئا. قال: وأولدها الرجل الذى آشتراها ولدين، ثم خرج بها الى خُرَاسان فمات هناك وماتت بعده .

ذكر أخبار شارية جارية إبراهيم بن المهدىّ

قال أبو الفـــرج : كانت شارية مولَّدة من مولَّدات البَصْرة . يقال : إنّ أباها كان من بنى سامة بن لُؤىّ المعروفين ببنى ناجية، وإنه جحدها . وكانت أمّها أَمَة، فدخلت فى الرقّ . وقيل : إن أمّها كانت تدّعى أنها بنت محمد بن زيد من بنى سامة ابن لؤىّ، وقيل: إنها كانت تدّعى أنها من بنى زُهْرة، وقيل : بل سُرِقت فبيعت، فآشترتها آمرأة من بنى هاشم فأدّبتها وعلّمتها الغناء ، ثم اشتراها إبراهيم بن المهدىّ، فأخذت عنه غناءه كلّه أو أكثره . وبذلك يحتجّ من يُقَدّمها على عَرِيب ويقول : إنّ إبراهيم خرّجهـا ، وكان يأخذها بصحة الأداء لنفسه وبمعـرفة ما يأخذها به ؛ ولم تلق عَرِيب ذلك، لأن المراكبىّ لم يكن يُقارب إبراهيم فى العـلم ولا يقاس به فى بعضه فضـلًا عن سائره .

قال : ولـما عَرَضتها مولاتها الهاشميّة للبيع ببغـداد عُرِضت على إسحاق بن إبراهيم الموصلىّ فأعطى فيها ثلثمائة دينار، ثم آستغلاها بذلك ولم يُردها . فجىء بها الى ابراهيم بن المهدىّ فساوم بها ؛ فقالت له مولاتها · إن إسحاق بن إبراهيم أعطى بها ثلثمائة دينار وأنت أحقّ بها . فقال : زنوا لها ما قالت فوُزِن لهـا . ثم دعا بقيّمته فقال : خُذِى هذه الجاريةَ ولا تُزَيّنيها سنةً، وقولى للجوارى يطرحن عليها . فلما كان بعد سنة أُخرِجَتْ إليه، فنظر إليها وسمع منها؛ فأرسل إلى إسحاق بن إبراهيم ، فلما أتاه أراه إيّاها وأسمعه غناءها، وقال : هـذه جارية تباع، فبكم تأخذها لنفسك؟ قال إسحاق: آخذها بثلاثة آلاف دينار وهى رخيصة بها . فقال له إبراهيم: أتعرفها؟

قال لا . قال : هذه الجارية التى عرضتْها الهاشميّة بثلثمائة دينار فلم تقبلها . فعجِب إسحاقُ من حالها وما صارت إليه .

وقد حُكى عن هبة الله بن إبراهيم بن المهدىّ أنها عُرِضت ببغداد على إبراهيم فأُعجِبَ بها إعجابًا كبيرا ، [فلم يزل يُعْطِى بها حتى] (١) بلغت ثمانية آلاف درهم. قال : ولم يكن عند أبى درهم ولا دانق ؛ فقــال لى : ويحك ! قد والله أعجبتنى هــذه الجارية إعجاباً شديدا، وليس عندنا شىء . فقلت له : بِـع ماتملكه حتى الخــزف وتجمع ثمنها . فقــال لى : [قد تذكّرتُ فى شىء] (١)، اذهب إلى علىّ بن هشام فأقرئه منّى الســلام، وقل له : قد عُرِضتْ علىّ جاريةٌ وقد أخذتْ بمجامع قلبى، وليس عنــدى شىء ، فأُحِبّ أن تُقْرِضَنى عشرة آلاف درهم . فقلت : إن ثمنها ثمــانية آلاف درهم، فلِمَ تُكثِرعلى الرجل بعشرة آلاف درهم! فقال : إذا آشــتريتها بثمانية آلاف درهم فليس لنا بدٌّ من أن نكسوها ونقيم لها ما تحتاج إليــه . قال : فصِرتُ إلى علىّ بن هشام وأبلغته الرسالة ؛ فدعا بوكيل له وقال : إدفع إلى خادمه عشرين ألف درهم ، وقل له : أنا لا أصلك ، ولكن هى لك حلال فى الدنيــا والآخرة . قال : فصرتُ إلى أبى بالدراهم ، فلو طلعتُ عليه بالخلافة لم تكن تَعدِل عنده تلك الدراهم . قال : وكانت أمّهــا خبيثة، وكانت كلما لم يُعْطِ إبراهيمُ آبنتهــا ما تشتهى ذهبتْ إلى عبد الوهاب بن علىّ ، ودفعت إليه رُقعةً يُوصلها إلى المعتصم تسأله أن تأخذ آبنتها من إبراهيم .

وحُكى عن يوسف بن إبراهيم المِصرىّ صاحب إبراهيم بن المهدىّ أنّ إبراهيم وجّه به إلى عبــد الوهاب بن علىّ فى حاجة كانت له . قال : فلقيته وانصرفت من عنده؛ فلم أخرج من دِهليز عبدِ الوهاب حتى آستقبلتنى آمرأة؛ فلما نظرتُ فى وجهى

(١) زيادة من الأغانى . وفى الأصل : «إعجابا كبيرا بلغت» .

سترتْ وجهها ، فأخبرنى شاكرىٌّ أن المرأة أمٌّ شارية جارية إبراهيم . فبادرت إلى إبراهيم وقلت له : إنى رأيت أمَّ شارية فى دار عبد الوهاب ، وهى من تعلم ، وما يفجّؤك إلا حيلةٌ قد أوقعتها . فقال لى : اشهدك أنّ جاريتى شارية صَدَقةٌ على ميمونة بنت إبراهيم بن المهدىّ ، ثم أشهد ٱبنه هبة الله على مثل ما أشهدنى ، وأمرنى بالركوب إلى ٱبن أبى دواد وإحضار من قَدَر عليه من الشهود المعدّلين عنده ؛ فأحضر أكثر من عشرين شاهدا . وأمر بإخراج شارية فأخرِجت . فقال لها : ٱستُرى وجهك ؛ فجزِعتْ من ذلك ، فأعلمها أنمـا أمرها بذلك لخير يريده لها ففعلت . فقال لها : تَسَمَّىْ ؛ فقالت : أنا أَمَتُك . فقـال لهم : تأمّلوا وجهها ففعـلوا . ثم قال : فإنى أُشهِدكم أنها حرّة لوجه الله تعالى ، وأنى قد تزوّجتها وأصـدقتُها عشرة آلاف درهم ؛ ياشارية أرضِيتِ ؟ قالت : نعم ياسيّدى ، قد رضيت ، والحمد لله تعالى على ما أنعم به علىّ . فأمرها بالدخول ، وأطعم الشهود وطيّبهم وٱنصرفوا . قال : فمـا أحسبهم تجاوزوا دار ٱبن أبى دواد حتى دخل علينا عبـد الوهاب بن علىّ ، فأقرأ عمّـه سـلامَ المعتصم ، ثم قال له : يقول لك أمير المؤمنين : مِنَ المفـترَض علىّ طاعتُك وصِيانتُك عن كلّ ما يسـوءك ، إذ كنت عمّى وصِـنو أبى . وقد رفعت [ٱمرأة](١) إلىّ قصّـة ذكَرَت فيها أن شارية ٱبنتها ، وأنهـا ٱمرأة من قريش من بنى زُهْرة ، وٱحتجّت بأنه لا تكون بنت ٱمرأة من قريش أَمة . فإن كانت هـذه المرأة صادقة فى أنّ شارية بنتها ، وأنها من بنى زهرة ، فمن المحال أن تكون شارية أمَة . والأشـبهُ بك والأصـلح إخراج شارية من دارك وتُصيِّرها عند من تثق به من أهلك ، حتى يُكْشَف عما قالت هـذه المرأة . فإن ثبت ذلك أمرتَ مَنْ يجعلها عنده بإطلاقها ، وكان فى ذلك الحظ لك فى دِينك ومروءتك . وإن لم يصح ذلك

---

(١) التكملة عن الأغانى (ج ١٤ ص ١١٠ طبع بولاق) .

أُعيـدت الجارية إليـك وقد زال عنك القول الذى لا يليق بك ولا يحسن . فقال إبراهيم : فديتك، هَبْ شارية بنت زهرة بن كلاب، أيُنْكَرُ على [ٱبن](١) العباس بن عبدالمطلب أن يكون بعلا لها؟! فقال عبدالوهاب لا . فقال : أبْلِـغْ أمير المؤمنين — أبقاه الله — السلام، وأخبره أنّ شارية حرّة ، وأنى قد تزوّجتها بشهادة جماعة من العـدول . وقد كان الشهود أعلموا ٱبن أبى دواد بالقصة ، فركب إلى المعتصم وحدّثه بالحديث معجبا له منه ،فقال : ضَلَّ سَعْىُ عبد الوهاب . ثم دخل عبد الوهاب على المعتصم . فلما رآه يمشى فى صحن الدار سدّ المعتصم أنفه وقال : ياعبدالوهاب، (٣٧) أنا أُشَمّ رائحـة صُوف مُحْرَق، وأحسب عمّى لم يُقْنِعه ردُّك على أُذنك صـوفةً حتى أحرقها ، فشَمَمْتُ رائحتها منك . فقال : الأمر على ما ظنّ أمير المؤمنين وأسمج .

قال : ثم ٱبتاع إبراهيم من بنته ميمونة شارية بعشرة آلاف درهم وستر ذلك عنها ؛ فكان عتقه إياها وهى فى ملك غيره ، ثم ٱبتاعها من ميمونة خلّت له ، فكان يطؤها بملك اليمين وهى تتوهّم أنها زوجته . فلما تُوُفِّى طلبت شاريةُ مشاركةَ أمّ محمد بنت خالد زوجة إبراهيم فى الثّمن، فاظهرت خبرها ؛ فأمر المعتصم بٱبتياعها من ميمونة بخمسة آلاف وخمسمائة دينار فَحُوِّلت الى داره ، وكانت فى مِلْكه حتى تُوُفِّى . وقال ابن المعتز : وقد قيل : إنّ المعتصم ٱبتاعها بثلثمائة دينار ؛ وملكها إبراهيم ولها سبع سنين وربّاها تربية الولد .

قال : وحدّثت شارية أنهـا كانت مع إبراهيم فى حرّاقة قد توسّط بهـا دجلة فى ليلة مُقْمِرة، فاندفعتْ فغنّت :

لقد حَثُّوا الجمالَ لِيهـ * ـربُوا منّـا فلم يئلُوا

(١) زيادة عن الأغانى .

فوثب إليها فأمسك فاها فقال : أنتِ والله أحسنُ من الغَرِيض وجهًا وغناءً ، فما يُؤْمِنُنى عليك ! أمسكى .

ويقال : إنها لم تضرب بالعود إلا فى أيام المتوكل لمّا آتّصل الشرُّ بينها وبين عَرِيب ، فصارت تقعد بها عند الضرب ، فضربتْ بعد ذلك .

قال آبن المعتز : وحدّثنى محمد بن سهل بن عبد الكريم المعروف بسهل الأحول ، وكان قاضى الكُتّاب فى زمانه ، كان يكتب لإبراهيم وكان ثقةً ، قال : أعطى المعتصم إبراهيم بشارية سبعين ألف دينار ، فآمتنع من بيعها . قال : فعاتبتُه على ذلك ، فلم يجبنى بشىء . ثم دعانى بعد أيام وبين يديه مائدة لطيفة ، فأحضر الغلام سَفُّودًا فيه ثلاثة فَرَاريج ، فرمى إلىّ بواحدة فأكلتها وأكل آثنتين ، ثم شرب رطلًا وسقانى ؛ ثم أُتِى بسَفُّود آخر ففعل كما فعل وشرب [كما شرب] (١) وسقانى ؛ ثم ضُرِب سِتْرٌ إلى جانبه فسمعتُ حركة العيدان ؛ ثم قال : يا شارية تغنّى ، فسمعتُ شيئا ذهب بعقلى . فقال : يا سهل ، هى التى عاتبتنى فى أن أبيعها بسبعين ألف دينار ، لا والله ولا هذه الساعة الواحدة بسبعين ألف دينار !

وحُكى عن عُبَيد الله بن عبد الله بن طاهر قال : أمرنى المعتز بالله ذات يوم بالمُقام عنده فأقمت ، ومُدّت الستارة وخرج من كان يغنّى وراءها وفيهنّ شاريةُ ، ولم أكن سمعتها قبل ذلك فآستحسنتُ ما سمعتُ منها . وقال لى المعتز : يا عبيد الله ، كيف ما تسمع منها عندك ؟ فقلت : حظُّ العَجَب من هذا الغناء أكثر من حظ الطَّرَب ؛ فآستحسن ذلك ، وأخبرها به فآستحسنته .

قالوا : وكانت شارية أحسن الناس غناءً منذ تُوُفّى المعتصم إلى آخر خلافة الواثق . وقيل : إن إبراهيم بن المهدى لم يطأ شارية ، وإن الذى آفتضّها المعتصم . وكان إبراهيم يُسمّى شاريةَ بنتى .

(١) زيادة عن الأغانى .

وقال يعقوب بن بيان : كانت شاريةُ لصالح بن وصيف . فلما بلغه رحيل موسى بن بُغا من الجبل يريده بسبب قتل المعتز، أودع شارية جوهره، فظهر لها جوهر كثير بعد ذلك . فلما أوقع موسى بصالح آستترت شارية عند هارون بن شعيب العُكْبَرِىّ، وكان أنظف خلق الله طعامًا وأسراهم مائدة، وأوسخهم كلّ شىء بعد ذلك، وكان له بسُرَّ مَنْ رأى منزل وفيه بستان كبير، وكانت شارية تُسمّيه أبى، وتزوره فى منزله فتحمل معها كل شىء تحتاج إليه حتى الحصير تقعد عليه . وكانت من أكرم الناس . عاشرها أبو الحسن علىّ بن الحسين عند هارون هذا ، ثم أضاق(١) فى وقت فآقترض منها على غير رهن عشرة آلاف دينار فأقرضته، ومكثت أكثر من سنة ما أذكرته بها ولا طالبته بردّها .

قال يعقوب بن بيان : وكان الناس بسُرَّ مَنْ رَأى متحازبين، فقوم مع شاريةَ، وقوم مع عَريب ، لا يدخل أصحاب هذه فى هؤلاء ، ولا أصحاب هذه فى هؤلاء . وكان [أبو الصقر](٢) إسماعيل بن بلبل عَريبيًّا ؛ فدعا علىّ بن الحسين يوم جمعة أبا الصقر وعنده عريب وجواريها . فآتصل الخبر بشارية فبعثت بجواريها إلى علىّ آبن الحسين بعد يوم أو يومين، وأمرت إحداهنّ — قال : وما أدرى [من](٢) هى : مهرجان أو مطرب أو قمرية، إلا أنها إحدى الثلاث — أن تُغنّيه :

لا تعودَنّ بعدَها * فترى كيف أصنعُ



فلما سمع الغناء ضحك وقال : لستُ أعود .

قال : وكان المعتمد قد وَثِق بشاريةَ فلم يكن يأكل إلا طعامَها ؛ فمكثت دهرًا تُعِدّ له كلّ يوم جَوْنَتَين، فكان طعامه منهما فى أيام المتوكل .

---

(١) يقال : أضاق الرجل اذا ذهب ماله وافتقر .
(٢) زيادة عن الأغانى .

وقال أبو الفرج : حدّثنى جحظة قال : كنت عنـد المعتمد يومًا فغنّتْ شاريةُ بشعر مولاها إبراهيم بن المهدىّ ولحنِه :

يا طـــولَ عِلّةِ قلبِىَ المعتادِ * إلْفَ الكِرامِ وصُحْبَةَ الأمجادِ
ما زِلتُ آلَفُ كلَّ قَرْمٍ ماجدٍ * متقـــدِّمِ الآباءِ والأجداد

فقال لها : أحسنت والله! فقالت : هذا غنائى وأنا عارية ، فكيف لو كنتُ كاسيةً! فأمَر لها بألف ثوب من جميع أصناف الثياب الخاصّة، فحُمِل ذلك إليها. فقال لى علىّ بن الحسين بن يحيى المنجم . اجعل انصرافك معى، ففعلتُ. فقال لى: هل بلغك أنّ خليفة أمر لمغنّية بمثـل ما أمر به أمير المؤمنين اليوم لشارية ؟ قلت لا . فأمر بإخراج سِيَرِ الخلفاء، فأقبل بها الغلمان فى دفاترَ عظام، وتصفّحناها كلها فما وجدنا أحدًا قبله فعَل مثل ذلك . انقضت أخبار شارية

— · ·· ·

ذكر أخبار بَذْل

قال أبو الفرج : كانت بذل صفراء مولّدة من مولّدات المدينة ورُبِّيَتْ [illegible] بصرة، وهى إحدى المحسنات المتقدّمات الموصوفات بكثرة الرواية . يقال [illegible] ثلاثين ألف صوت [illegible] : ولها كتاب فى الأغانى [illegible] الأصوات [illegible] يشتمل على [illegible] [illegible] : إنهـا [illegible] وكانت حُلْوةَ الوجه [illegible] [illegible] فأحدها [illegible] محمد الأمين [illegible] [illegible] فائد [illegible] [illegible] وطبقتهم

(١) زيادة [illegible] الأ[illegible] .

وقال جحظة عن أبي حشيشة : وكانت أحسن الناس غناءً في دهرها، وكانت أستاذة كل مُحْسِنٍ ومحسنة، وكانت أرْوَى خلق الله للغناء . وكانت لجعفر بن موسى الهادي، فوُصِفت لمحمد الأمين، فبعث إلى جعفر فسأله أن يُزيره إياها فأبى، فأتاه الأمين إلى منزله فسمع ما لم يسمع مثلَه قطّ، فقال لجعفر: يا أخي، بِعْنِي هذه الجارية . فقال له : يا سيِّدى، مثلى لا يبيع جارية . قال : هَبْها لى . قال : هى مُدَبَّرة(١) . فآحتال الأمين عليه حتى أسكره وأمر بحمل بَذْل إلى الحَرَّاقة وآنصرف بها . فلما أفاق جعفر سأل عنها، فأُخبر بالخبر، فسكت . فبعث إليه محمد من الغد، فجاء وبَذْل جالسةٌ فلم يقل شيئا . فلما أراد جعفر أن ينصرف قال الأمين : أوْقِروا حَرَّاقةَ آبن عمىّ دراهم فأُوقِرتْ، فكان مبلغ ذلك عشرين ألف ألف درهم . وبقيت بذل عند الأمين إلى أن قُتِل، ثم خرجت فكان ولد جعفر وولد الأمين يدّعون ولاءها، فلما ماتت ورثها ولد الأمين .

وقال محمد بن الحسن الكاتب : إن الأمين وَهَبها من الجوهر ما لم يملك أحدٌ مثلَه، فسُلِّم لها بعد مقتل الأمين، فكانت تبيع منه الشيء بعد الشيء بالمال العظيم، فكانت على ذلك مع ما يصل إليها من الخلفاء إلى أن ماتت وعندها منه بقية عظيمة. قال : ورغِب إليها وجوه القُوّاد والكُتّاب والهاشميّين فى التزويج فأبَتْه، وأقامت على حالها حتى ماتت .

وحكى أبو حشيشة قال: كنت يومًا عند بَذْل وأنا غلام، وذلك فى أيّام المأمون وهو ببغداد، وهى فى طارمة(٢) لها تمتشط، فخرجتُ إلى الباب فرأيتُ الموكبَ فظننتُ أنّ الخليفة يمرّ على ذلك الموضع، فرجعتُ إليها فقلت : يا سيّدتى، الخليفةُ يمرّ على

(١) دبر العبد اذا قال له : أنت حر بعد موتى .

(٢) الطارمة : بناء من خشب كالقبة . معرب .

بابك . فقالت : انظُروا أىّ شىء هذا، إذ دخل بوابها فقال : علىّ بن هشام بالباب . فقالت : وما أصنع به ! فقامت إليها جاريتها وشـيك[1]، وكانت ترسلها إلى الخليفة وغيره فى حوائجها ، فأكبّت على رجلها وقالت : اللهَ ! اللهَ ! أتحتجبين على علىّ بن هشام ! فدعتْ بمنديل فطرَحته على رأسها ولم تقم إليه . فقال : إنى جئتك بأمر سيّدى أمير المؤمنين، وذلك أنه سألنى عنك فقلت له : لم أرها منذ أيام؛ فقال : هى عليك غَضْبى ، فبحياتى لا تدخلُ منزلك حتى تدخلَ إليها فتسترضيها ! . فقالت : إن كنتَ جئتنا بأمر الخليفة فأنا أقوم، فقامت فقبّلَت رأسه و يديه، وقعد ساعة وٱنصرف. (٣٩) فقالت : يا وَشِيك، هاتى الدواةَ وقرطاسًا ففعلت ، فجعلتْ تكتب فيه يومها وليلتها حتى كتبت ٱثنى عشر ألف صوت — وقيل : سبعة آلاف صوت — ثم كتبت إليه : يا علىّ بن هشام، تقول : استغنيتُ عن بَذْل بأربعة آلاف صوت أخذناها منها ! وقد كتبتُ هذا وأنا ضَجِرة، فكيف لو فرَغتُ لك قلبى كلَّه ! . وختمت الكتاب وقالت لهـا : امضِى به إليه . فما كان أسرَعَ من أن جاء رسوله (خادم أسود يقال له مُخَارق) بالجواب يقول فيـه : يا سيِّدتى ، لا والله ما قلتُ الذى بلَغك، ولقد كُذِب علىّ عندك ، إنمـا قلتُ : لا ينبغى أن يكون فى الدنيا أكثر من أربعة آلاف صوت ، وقد بعثتِ إلىّ بديوان لا أُؤدّى شكرك عليه أبدا؛ وبعث إليها بعشرة آلاف درهم وتخوت فيها بَزٌ[2] ووَشْى ومُلَح وتختا مطبقا فيه أنواع الطيب .

وقيل : إن إبراهيم بن المهدىّ كان يعظِّمها، ثم يرى أنه يستغنى عنها بنفسه . فصارت إليه، فدعت بعود فغنّت فى طريقة واحدة وٱنقطاع واحد وإصبع واحدة مائة صوت لم يعرف إبراهيم منهـا صوتاً واحدا، ثم وضعت العود وٱنصرفت، ولم تدخل دارَه حتى طال طلبه لها وتضرُّعه إليها فى الرجوع إليه .

(١) فى الأغانى (ج ١٥ ص ١٤٥ طبع بلاق) : «وشيكة» . (٢) فى الأغانى : خز .

وقال أحمد بن سعيد المالكيّ : إن إسحاق بن إبراهيم الموصليّ خالف بَذْلًا في نسبة صوت غنّته بحضرة المأمون ؛ فأمسكت عنه ساعةً ثم غنّت ثلاثة أصوات في الثقيل الثاني واحدًا بعد واحد، وسألت إسحاق عن صانعها فلم يعرفه. فقالت للمأمون: هي والله لأبيه أخذتُها من فيه، فإذا كان لا يعرف غناء أبيه فكيف يعرف غناء غيره ! فاشتدّ ذلك على إسحاق حتى رُئِى ذلك فيه .

وقال حمادُ بن إسحاق : غنّت بذلُ بين يدى أبى :

إن تَرَيْنِي ناحلَ البَدَنِ * فلِطُولِ الهمّ والحَزَنِ
كان ماأخشَى بواحدتِي * ليتَه واللهِ لم يَكُنِ

قال : فطرِب أبى طربًا شديدا وشرِب رِطلًا وقال لها : أحسنتِ يابنتى، والله لأُتغنّين صوتًا إلا شربتُ عليه رطلا .

انتهت أخبار بذل .

ذكر أخبار ذَاتِ الخالِ

قال أبو الفرج الأصبهانيّ : وآسم ذات الخال خِشْف، وكانت لأبى الخطّاب النحاس المعروف بقرين مولى العبّاسة بنت المهديّ . وكانت ذات الخال من أجمل النساء وأكملهنّ، وكان لها خال فوق شفتها العُليا، وقيل : على خدّها . وكان إبراهيم الموصلى يتعشّقها ، وله فيها أشعار كثيرة كان يقولها ويغنّى فيها حتى شَهَرها بشعره وغِنائه . وآتصل خبرها بالرشيد، فآشتراها بسبعين ألف درهم. فقال لها ذات يوم: أسألك عن شيء، فإن صَدَقتِنى و إلا صَدَقنى غيرُك وكَذّبتُك . قالت : أصدُقك . قال : هل كان بينك و بين إبراهيم الموصليّ شيءٌ قط ؟ وأنا أُحَلّفه أن يَصْدُقَنى . قال : فسكتت ساعة ثم قالت : نعم! مرّة واحدة؛ فأبغضها . وقال يومًا فى مجلسه :

أيكم لا يبالى أن يكون كَشْخَانًا(١) حتى أهَبَه ذات الخال؟ فبدر حَمّويه الوصيف فقال: أنا، فوهبها له. ثم آشتاقها الرشيد يومًا فقال: ويلك ياحَمّويه! وَهَبْنا لك الجارية على أن تسمع غناءها وحدك! فقال: يا أمير المؤمنين، مُرْ فيها بأمرك. قال: نحن عندك غدا. فمضى فآستعدّ لذلك وآستعار لها من بعض الجوهريين بَدَنَة(٢) وعقودًا ثمنها آثنا عشر ألف دينار، فأخرجها إلى الرشيد وهى عليها. فلما رآه أنكره وقال: ويلك يا حمويه! من أين لك هذا؟! ما وَلّيتك عملًا تكسِب فيه مثلَه ولا وَصَل إليك منّى هذا القـدر! فصدَقه عن أمره، فبعث الرشيدُ إلى أصحاب الجوهر، فأحضرهم وآشترى الجوهر منهم ووهبه لها، وحلف ألّا تسأله فى يومه ذلك حاجةً إلّا قضاها؛ فسألته أن يُوَلّى حمّويه الحرب والخراج بفارس سبع سنين، ففعل ذلك وكتب له عهده بذلك، وشرط على ولىّ العهد أن يتمها له إن لم تتمّ فى حياته.

قال الأصفهانىّ: ولإبراهيم الموصلىّ فى ذات الخال شعر كثير غَنّى فيه. فمنه قوله:

أذاتَ الخالِ قـد طالَ * بمن أسْقَمْتِه الوَجَـعُ
وليس إلى سوا كُمْ فى الّـ * ـذى يلـقَى له فَـزَعُ
أمَا يَمْنَعُـكِ الإسـلا * مُ من قتلِى ولا الورَعُ
وما ينفـكّ لى فيـك * هـوًى تَغْـتَرُّهُ خُدَعُ

ومنها:

جزى الله خيرًا من كَلِفْتُ بحبّه * وليس به إلا التّمَوُّه(١) من حُبّى
وقالوا قلوبُ الغانياتِ رقيقةٌ * فما بالُ ذاتِ الخال قاسيةَ القلبِ

---

(١) الكشخان: الديوث. (٢) البدنة: قميص لا كمين له تلبسه النساء.

(١) فى الأغانى (ج ١٥ ص ٨٣ طبع بولاق): «التموه».

وقالوا لها هذا حبيبُك مُعْـرِضًا * فقالت لهم إعراضُه أيسرُ الخَطْبِ
فما هى إلا نظــرةٌ بتَبَسُّمٍ * فتنشَب رجلاه ويسقُطُ للجَنْبِ

وله فيها أشعارٌ كثيرة غير ما أوردناه .

ذكر أخبار دنانير البرمكيّة

قال أبو الفرج : كانت دَنَانيرُ مولاة يحيى بن خالد البرمكىّ ، وكانت صفراء مولّدة ، من أحسن الناس وجها ، وأظرفهم وأكملهم أدبًا ، وأكثرهم رِوايةً للغناء والشعر ، ولها كتاب مجرّد فى الأغانى مشهور . وكان آعتمادها فى غِنائها على ما أخذته من بَذْل ، وهى خرّجتها ؛ وقد أخذتْ أيضا عن الأكابر الذين أخذت بَذْل عنهم مثل فُلَيْح وإبراهيم وآبن جامع وإسحاق ونُظَرائهم . وكانت تغنّى غناء إبراهيم فتَحْكِيه فيه حتى لا يكون بينهما فرق ؛ فكان يقول ليحيى : متى فقدتَنى ودنانيرُ باقيةٌ فما فقدتَنى .

وقال أحمد بن المكىّ : كانت دنانير لرجل من أهل المدينــة ، كان قد خرّجها وأدّبها ، وكانت أروى الناس للغناء القديم ، وكانت صفراءَ صادقة الملاحّة . فلما رآها يحيى وقعت من قلبه مَوْقِعًا فآشتراها . وشُغِف بها الرشيدُ حتى كان يصير إلى منزل مولاها فيسمعها ، فألِفها وآشتدّ إعجابُه بها ، ووهَب لها هِبَاتٍ سنِيّة . منها أنه وهب لها فى ليلةٍ عِقدًا قيمتُه ثلاثون ألف دينار ، فردّته عليه فى مصادرة البرامكة بعــد ذلك . وعرفت أمُّ جعفر الخبر فشكته إلى عُمومته وأهله ، فصاروا جميعا اليه فعاتبوه ؛ فقال : مالى فى هذه الجارية أرَبٌ فى نفسها ، وإنما أَرَبِى فى غِنائها ؛ فآسمعوها ، فإن آستحقّت أن تُؤْلَف لغنائها وإلّا فقولوا ما شئتم . فلمّا سمعوها عَذَروه ؛ وعادوا إلى أمّ جعفر وأشاروا عليها ألّا تَلِحّ فى أمرها ؛ فقبلت ذلك ، وأهدت إلى الرشيد عشر جوارٍ منهنّ أمُّ المأمون وأمّ المعتصم وأمّ صالح .

وقال عمر بن شَبّة : إنّ دنانير أصابتها العلّة الكلبية فكانت لا تصبر عن الطعام ساعةً واحدة ، وكان يحيي يتصدّق عنها فى كل يوم من شهر رمضان بألف دينار لأنها كانت لا تصومه . وبقيت عند البرامكة مدّة طويلة .

وقال إسحاق وأحمد بن الطيّب : إنّ الرشيد دعا بدنانير بعد البرامكة، فأمرها أن تغنّى . فقالت : يا أمير المؤمنين ، إنى آليتُ ألّا أُغَنّى بعد سيّدى أبدا . فغضب وأمر بصَفْعها فصُفِعت، وأُقيمت على رجليها وأُعطيت العودَ ؛ فأخذته وهى تبكى أحرّ بكاء، وآندفعت فغنّت :

يا دارَ سَلْمَى بنازح السَّنَدِ * من الثّنايا ومَسْقَط اللّبَدِ
لمّا رأيتُ الديارَ قد دَرَستْ * أيقنتُ أنّ النعيمَ لم يَعُدِ

قال : فَرَقَّ لها الرشيد، وأمر بإطلاقها، فانصرفت .

وقال أبو عبد الله بن حمدون : إنّ عَقِيدًا مولى صالح بن الرشيد خطَب دنانير وشُغِف بها فردّته ؛ فآستشفع إليها بمولاه صالح بن الرشيد وبِبَذْل والحسن بن مُحْرِز فلم تُجِب، وأقامت على الوفاء لمولاها . فكتب اليها عَقِيد :

يا دنانيرُ قد تَنكَّرَ عقلى * وتَحيّرتُ بين وَعْدٍ ومَطْلِ
شَفَعى شافعى إليك وإلّا * فآقتُليني إن كنتِ تَهْوَيْنَ قتلي
أنا بالله والأمير وما آ * مُلُ من مَوْعِدِ الحسين وبَذْلِ
ما أُحِبّ الحياةَ يا حِبّ إن لم * يجمع الله عاجِلًا بك شملي

فلم يَعْطِفها ذلك عليه ، ولم تزل على حالها حتى ماتت . ولعَقِيد هذا فيها أشعار فيها غناء . وكان عقيد حسن الغناء، وله فيها أصوات؛ منها قوله :

هذى دنانيرُ تنسانى وأذكُرُها * وكيف تنسَى مُحِبًّا ليس ينساها
أعوذُ بالله من هِجْرانِ جاريةٍ * أصبحتُ من حُبّها أهذى بذكراها

قد أكمل الحُسْنُ فى تركيب صُورتها * فارتجّ أسفلُها واهتزّ أعلاها
قامتْ لتمشِى فليت اللهَ صوّرنى * ذاكَ الترابَ الذى مسّته رِجلاها
والله والله لو كانت ، إذا برزت ، * نفسُ المتيّم فى كفّيه ألقاها

ذكر أخبار عَرِيبَ المأمونيّة (١)

قال أبو الفرج الأصفهانىّ : كانت عَريب مغنّية مُحسنة ، وشاعرة صالحة الشعر ، وكانت مليحة الخطّ والمذهبِ فى الكلام ، ونهايةً فى الحسن والجمال والظَّرْف وحُسْن الصوت وجودة الضَّرْب وإتقان الصَّنْعة والمعرفة بالنَّغَم والأوتار والرواية للشعر ؛ لم يتعلّق بها أحد من نُظَرائها ، ولا رُئى فى النساء — بعد القِيان الحجازيّات مثل جميلة وعزّة الميلاء وسلّامة الزرقاء ومن جرى مجراهنّ على قِلّة عددهنّ — نظيرٌ لها .

قال : وكان فيها من الفضائل التى وصفناها ما ليس لهنّ ممّا يكون فى مثلها من جوارى الخلفاء ومن نشأ فى قصور الخلفاء وغُذِى برقيق العيش الذى لا يُدانيه عيش الحجاز والمَنْشأ بين العامّة والعرب الجُفَاة . قال : وقد شهِد لها من لا تحتاج مع شهادته الى غيره ؛ فرُوِى عن حمّاد بن إسحٰق قال قال أبى : ما رأيتُ امرأةً أضربَ من عريب ، ولا أحسنَ صنعةً ووجهًا ، ولا أخفَّ روحًا ، ولا أحسنَ خطابًا ، ولا أسرعَ جوابًا ، ولا ألعبَ بالشِّطْرَنْج والنَّرْد ، ولا أجمعَ لخَصْلةٍ (٤٣)

---

(١) ورد هذا الاسم مضبوطا فى الأغانى ج ٢١ ص ١٨٤ طبع ليدن والمحاسن والأضداد للجاحظ ص ١٩٩ طبع ليدن (بضم أوّله وفتح ثانيه) . ولكن رأينا فى الأغانى من الشعر ما يؤيد أن ضبطه بفتح أوّله وكسر ثانيه ؛ ومن هذا الشعر :

لقد ظلموك يا مظلوم لمّا * أقاموك الرقيب على عريب
ولو أولوك إنصافا وعدلا * لما أخلوك أنت من الرقيب

ومن هذا الشعر أيضا :

قاتل الله عريبا * فعلت فعلا عجيبا

حسنةٍ لم أرَها فى آمرأة غيرها قطّ . قال حماد : فذكرتُ ذلك ليحيى بن أكثم ، فقال : صدَق أبو محمد، هى كذلك . قلت : أفسمعتَها ؟ قال : نعم، هناك (يعنى فى دار المأمون) . قلت : أفكانتْ كما ذكر أبو محمد فى الحِذق؟ قال يحيى : هذه مسئلةٌ الجوابُ فيها على أبيك، هو أعلم منّى بها . فأخبرتُ أبى بذلك، فضحك ثم قال : أَمَا آستحييتَ من قاضى القضاة أن تسأله عن مثل هذا !

وقال إسحاق بن إبراهيم الموصلىّ : اِستدعانى المأمون يومًا فدخلت عليه، فسألنى عن صوت وقال لى : أتدرى لمن هو؟ فقلت : أسمعه ثم أُخبر أمير المؤمنين إن شاء الله بذلك . فأمر جاريةً من وراء السِّتارة أن تُغنّيه، فضربت فإذا هى قد شبّهته بالقديم؛ فقلت : زِدْنى معها عودًا آخر، فإنه أثبَتُ لى؛ فزادنى عودًا آخر. فقلت : يا أمير المؤمنين، هذا صوتٌ مُحْدَث لامرأة ضاربة . قال : من أين قلت ذلك؟ فقلت : إنى لمّا سمعتُ لِينَه عرفتُ أنه مُحْدَث من غناء النساء، ولمّا رأيت جودة مَقَاطعه علمتُ أنّ صاحبته ضاربة حفِظتْ مقاطعَه وأجزاءه، ثم طلبتُ عودًا آخر فلم أشكّ . قال : صدَقت، الغناءُ لِعَرِيبَ .

وقال آبن المعتزّ : قال علىّ بن يحيى : أمرنى المعتمد على الله أن أجمع غِناء عريب الذى صنعته، فأخذتُ منها دفاترَها وصُحُفَها التى كانت قد جمعتْ فيها غِناءها، فكتبتُه فكان ألفَ صوت، وقد قيل أكثر من ذلك . وقد وصفها أبو الفرج الأصفهانىّ وأطنب فى وصفها وتفضيلها، وآستدلّ على ذلك وبسط القولَ فيه .

وأمّا ما قيل فى نسبها وسنّها وكيف تنقّلت بها الحال إلى أن آتصلت بالمأمون، فقد رُوِى عن إسماعيل بن الحسين خال المعتصم أنها آبنة جعفر بن يحيى، وأنّ البرامكة لمّا نُهِبوا سُرِقتْ وهى صغيرة فبِيعتْ . قال أحمد بن عبد الله بن إسماعيل المَرَاكبىّ :

إن أمّ عريب كانت تُسَمَّى فاطمة، وكانت يتيمة؛ فتزوّجها جعفر بن يحيى بن خالد؛ فأنكر عليه أبوه، وقال له : تتزوّج بمن لا يُعرف لها أمّ ولا أب ! اِشْترِ مكانها ألف جارية . فأخرجها جعفر وأسكنها فى دار فى ناحية باب الأنبار سِرًّا من أبيه، ووكّل بها من يحفَظها، وكان يتردّد إليها؛ فولدت عريب فى سنة إحدى وثمانين ومائة . وكانت سِنُوها إلى أن ماتت ستًّا وتسعين سنة . قال : وماتت أمّ عريب فى حياة جعفر، فدفعها إلى آمرأة نَصْرانيّة وجعلها دايةً[1] لها . فلما حدثت بالبرامكة تلك الحادثة باعتها من سنبس النخّاس، فباعها من المراكبىّ .

قال آبن المعتزّ : وأخبرنى يوسف بن يعقوب قال : كنت إذا نظرتُ قَدَمَىْ عَرِيب شَبّهتُهما بقدمى جعفر بن يحيى . قال : وسمعت من يحكى أنّ بلاغتها فى كتبها ذُكِرتْ لبعض الكتّاب ، فقال : وما يمنعها من ذلك وهى بنت جعفر بن يحيى! هذا ملخص ما حكاه أبو الفرج فى نسبها .

وأمّا أخبارها مع مَنْ مَلَكها وكيف تنقّلت بها الحال، فقد حكَى آبن المعتزّ عن الهشامىّ أنّ مولاها خرج بها إلى البَصْرة فأدّبها وخرّجها وعلّمها الخطّ والنحو والشعر والغِناء، فبرَعت فى ذلك أجمع، وتزايدت حتى قالت الشعر . وكان لمولاها صديقٌ يقال له حاتم بن عدىّ من قوّاد خُرَاسان ، وقد قيل : إنه كان يكتب لعجيف على ديوان العرض؛ فكان مولاها يدعوه كثيرا ويُخالطه . فركبه دَيْن فآستتر عنده؛ فمدّ عينَه الى عَرِيب وكاتبها فأجابته، ودامت المواصلة بينهما وعَشِقته؛ ثم آنتقل من منزل مولاها . فلم تزل تحتال حتى آتّخذت سُلّمًا من سِبٍّ[2] ، وقيل : من خيوط غِلاظ، وكان قد آتّخذ لها موضعا، ثم لفّت ثيابها وجعلتها فى فِراشها بالليل ودثّرتها

(١) الداية : الظئر المرضعة والمربية . (٢) السب : شقة كتان رقيقة . وفى الأصل : « سقب » . وفى الأغانى : « عقب » . فلعلهما محرفان عما أثبتناه .

بدِثارها، ثم تسوّرت الحائطَ وهرَبت، وأتته فمكثت عنده؛ ومولاها لا يتهمه بشيء من أمرها . فقال عيسى بن عبد الله بن إسماعيل المراكبيّ يهجو أباه ويعيّره بها — وكان كثيرا ما يهجوه — : (٤٣)

قاتل اللهُ عَرِيبَا * فعلتْ فِعلًا عَجيبا
رَكبتْ والليلُ دَاجٍ * مَرْكَبًا صَعْبًا مَهيبا
فَٱرتقتْ مُتّصِلًا بالنّجمِ أو منه قريبا
صَبَرَتْ حتى إذا ما * أقصَدَ النومُ الرّقيبا
مَثّلتْ بين حَشَايا * ها، لِكَيْ لَا تَسْتَرِيبا
خَلَفًا منها إذا نُو * دِى لم يُلْفَ(١) مُجيبا
ومضتْ يحمِلها الخَوْ * فُ قَضيبًا وكَثِيبا
مُحّةٌ لو حُرّكتْ خِفْ * تَ عليها أن تَذُوبا
فتدلّتْ لِمُحِبٍّ * فتلقّاها حَبِيبا
جَذِلًا قد نال في الدُّنْ * يَا من الدُّنيا نَصِيبا
أيّها الظبيُ الذي تَسْ * حَرُ عيناه القلوبا
والذي يأكُلُ بعضًا * بعضُه حُسْنًا وطِيبا
كنتَ نَهْبًا لِذِئابٍ * فلقد أطعمتَ ذِيبا
وكذا الشاةُ إذا لم * يَكُ راعِيها لبيبا
لا يُبالِي وَبَأُ المَرْ * عَى إذا كان خَصيبا
ولقد أصبح عبد اللّـ * ـه كَشْخَانًا جَرِيبا

(١) كذا في الأغاني . وفي الأصل : « م تلق » .

قَـدْ لَعَمْرِى لَطَم الخَـدَّ* وقد شَـقَّ الجيوبا
وجرت منـه دموعٌ * بَلَّتِ الذَّقْنَ الخَضِيبا

قال ابن المعتزّ : وحدّثني محمـد بن موسى بن يونس : أنها ملّته بعـد ذلك فهرَبت منه ، فكانت تغنِّي عند أقوام عرفتهم ببغداد وهي مستترة متخفّية . فلمّا كان يومٌ من الأيام اجتاز ابن أخي المَرَاكِبيّ ببُسـتانٍ كانت فيه مع قوم تغنّي، فسمع غِناءها فعرفه؛ فبعث إلى عمّـه وأقام هو مكانه، فلم يبرَح حتى جاء عمّه وكَبَسها، فأخذها وضربها مائةَ مِقرَعة وهي تصيح: يا هذا، لِمَ تقتلني ! لست أصبِر عليك، أنا امرأة حُرّة، فإن كنتُ مملوكةً فبِعْني، لستُ أصبِر على الضّيق . فلما كان من الغد نَدِم على فعله وصار إليها فقبّل رأسها و يدها ورجلها ووَهَب لها عشرةَ آلاف درهم . ثم بلغ محمّدا الأمينَ خبرُها فأخذها . قال : وكان الأمينُ في حياة أبيه طلبها منه فلم يُجبه إلى ذلك . فلما أفضتْ إليه الخلافةُ جاء المراكبيّ ومحمدٌ راكب ليقبّل يده؛ فأمر بمنعِه ودفعه ، ففعل ذلك الشاكرى(١)؛فضربه المراكبيّ وقال: أتمنعني من تقبيل يد مولاى ! فجاء الشاكرىّ لمـّا نزل محمد الأمين فشكاه؛ فأمر بإحضار المراكبيّ فأمر بضرب عنقه ، فسئل في أمره فعفا عنه وحبسه، وطالبه بخمسمائة ألف درهم مما اقتطعه من نفقات الكراع؛ و بعث فأخذ عريب من منزله مع خَدَم كانوا له . فلمّا قُتـل محمد الأمين هَربتْ عـريب الى المراكبيّ فكانت عنده .

قال ابن المعتزّ: وأمّا رواية إسماعيل بن الحسن حال المعتصم فإنها تخالف هذا، وذكر أنها إنما هربت من دار مولاها المراكبيّ إلى محمد بن حامد الخاقانيّ المعروف بالخَشِن أحد قوّاد خُراسان، وكان أسقر أصهب أزرق العين . وفيه تقول عَرِيب ولها فيه غناء :

(١) الشاكرىّ: الأجير والمستخدم، وهو معرب جاكر . (عن القاموس) .

بأبي كلّ أصْهَبٍ * أزرقِ العينِ أشقرِ
جُنّ قلبي به وليد * س جُنُونى بمُنكَرِ

وقال إسحاق بن إبراهيم : لمّـا نُمى إلى الأمين خـبرُ عَرِيب بعث فى إحضارها وإحضار مولاها فأحضرا، فغنّت بحضرة إبراهيم بن المهدىّ، فطرب الأمين وآستعادها، وقال لإبراهيم : كيف سمعت ؟ قال : سمعت يا سـيّدى حسنًا، وإن تطاولتْ بها الأيام ومَكَن رَوْعُها آزداد غِناؤها حُسْـنًا وطِيبا . فقال للفضل بن الربيع : خذها إليك وسَاوِمْ بهـا ففعل، فآشتطّ مولاها فى السَّوْم ثم أوجبها له بمـائة ألف درهم. وآنتقض أمر الأمين وشُغِل عنها فلم يأمُرْ لمولاها بشىء حتى قُتل بعد أن آفتضّها؛ (٤٤) فرجعت إلى مولاها، ثم هرَبت منه إلى آبن حامد؛ فلم تزل عنده حتى قدِم المأمون بغداد فتظلم المراكبىّ من محمد بن حامد، فأمر المأمون بإحضاره وسُئل عنها فأنكرها. فقال له المأمون : كذَبتَ، وقد سقَط إلىّ خبرُك، وأمر صاحبَ الشُّرَط أن يجرّده فى مجلس الشُّرط ويضع عليه السِّياطَ حتى يردّها فأخذه. فبلغها الخبرُ، فركبت حمار مُكَارٍ وجاءت وقد جُرِّد ليُضْرَب، وهى مكشوفة الوجه وهى تصـيح : إن كنتُ مملوكةً فليبعْنى ، وإن كنتُ حُرّةً فلا سبيلَ علىّ . فرُفِع خبرُها إلى المـأمون، فأمر بتعديلها عند قُتَيبة بن زياد القاضى فعُدِّلت عنده. وتقدّم إليه المَرَاكبىّ مطالباً بها، فسأله البيِّنة على ملكه إياها فعـاد متظلّما إلى المأمون وقال : قد طولبتُ بمـا لم يُطالَبْ به أحدٌ فى رقيق . وتظلمت زُبَيدة بنـتُ جعفر إليه وقالت : مِنْ أغلظِ ماجَرى علىّ، بعـد قتل آبنى، هجومُ المَرَاكبىّ على دارى (١) وأخذُ عَرِيب منها. فقال المراكبىّ : إنما أخذتُ مِلْكى، لأنه لم يَنْقُدْنى الثمن. فأمر المأمون بدفعها إلى محمد آبن عمر الواقدىّ، وكان قد ولّاه القضاء بالجانب الشرقىّ، فأخذها من قُتَيبة بن زياد

(١) فى الأصل : «داره» وهو تحريف .

وأمر ببيعها ساذَجةً؛ فآشتراها المأمون بخمسين ألف درهم، وقيل : آشتراها بخمسة آلاف درهم . ودعا عبد الله بن إسماعيل وقال له : لولا أنّى حلفت ألّا أشترى مملوكا بأكثر من هذا لزدتك، ولكنى سأُوَلِّيك عملًا تَكسِب فيه أضعافَ هذا الثمن، و رمى إليه بخاتمين من ياقوت أحمر قيمتُهما ألف دينار، وخلع عليه خِلَعاً سنيّة. فقال: يا أمير المؤمنين، إنما ينتفع بهذا الأحياء، وأمّا أنا فإنى لا محالة ميّت؛ لأن هذه الجارية كانت حياتى . وخرج فاختلط وتغيّر عقله ومات بعد أربعين يوما . وذهبت بالمأمون كلَّ مذهب ميلًا إليها ومحبّةً لها، حتى قيل : إن المأمون قبّـل رجلها فى بعض الأيام وإنها قالت أثر ذلك: وآلله يا أمير المؤمنين، لولا ما شرّفهـا الله به من وضع فمك الكريم عليها لقطعتها! ولكن لله علىّ ألّا أغسِلها لغير وضوء أو طُهْر إلا بماء الورد ما عِشْتُ . فكانت تفعل ذلك إلى أن ماتت .

وحَكى علىّ بن يحيى المنجّم أنّ المأمون لمّا مات بِيعتْ فى ميراثه — ولم يُبَعْ له عبدٌ ولا أمةٌ غيرُها — فاشتراها المعتصم بمائة ألف وأعتقها فهى مولاته . وقيل : إنه لمّـا مات محمد الأمين تدلّت عَرِيب من قصر الخُلْد بحبل إلى الطريق وهَربت إلى حاتم بن عدىّ .

وحكى إبراهيم بن رَبَاح قال : كنت أتولّى نفقاتِ المأمون، فوَصَف له إسحاق آبن إبراهيم الموصلىّ عَرِيب، فأمره أن يشتريها له، فاشـتراها بمائة ألف درهم؛ فأمرنى المأمون بحملها، وأن أحمـل إلى إسحاق مائة ألف درهم، ففعلت ذلك؛ فلم أدر كيف أثبتها، فكتبتُ فى الدِّيوان أنّ مائة الألف خرجتْ فى ثمن جوهرة، ومائة الألف الأخرى خرجت لصائغها ودلّالها . فجاء الفضل بن مروان الى المأمون وقد رأى ذلك وأنكره، وسألنى عنـه فقلت : نعم، هو ما رأيت . فسأل المأمونَ عن ذلك فقال : وهبتَ لدلّال وصائغ مائةَ ألف درهم ! وغلّظ القِصّة؛ فأنكرها

المأمون، ودعانى فدنوتُ وأخبرته أنّ المـال الذى خرج فى ثمن عَرِيب وصِلَةِ إسحاق، وقلت : أيّما أصْوَبُ يا أمير المؤمنين : ما فعلتُ، أم أُثْبِت فى الديوان أنها خرجتْ ثَمَنَ مُغَنِّية وصلةَ مُغَنٍّ. فضحك المأمون وقال : الذى فعلتَ أصوَبُ . ثم قال للفضل آبن مروان : يا نَبَطِىّ، لا تعترض على كاتبى هذا فى شىء .

ولعَرِيب أخبار قد بسَط أبو الفـرج الأصبهانىّ القولَ بها فى كتابه الذى ترْجَمَه "تحف الوسائد فى أخبـار الولائد"، وذكر أيضا نُتَفا من أخبارها فى كتابه المترجم "بالأغانى". منها خبرها مع محمد بن حامد المعـروف بابن الخَشِن، وأخبار لها مع المأمون، وأخبار مع صالح المنـذرىّ الخادم، وإبراهيم بن المـدبّر، وغير ذلك من أخبارها . وقد رأينا أن نُثْبِت لُمَعا من ذلك .

*
* *

أما أخبارها مع محمد بن حامد — وهو أحد من كانت تعشقه وتهواه وتخاطر بنفسها فى الاجتماع به — فمنها ما رُوى عن آبن عبد الملك الضرير أنها لمّا صارت فى دار (٤٥) المأمون آحتالت حتى وصلت إليه، وكانت تلقاه فى الوقت بعد الوقت حتى حَمَلَتْ منه وولَدتْ بنتا؛ فبلغ ذلك المأمون فزوّجه إياها . وقال محمد بن موسى : اِصطبح المأمون يومًا ومعه نُدَماؤه وفيهم محمد بن حامد وجماعة من المغنّين وعَرِيب معه على مصلاة؛ فأومأ إليها محمد بن حامد بقُبْلة؛ فاندفعت فغنّت آبتداء :

رَمَى ضَرْعَ نابٍ فاستمرّ بطَعْنةٍ ＊ كحاشـيةِ البُرْدِ اليَمَـانِى المُسَهَّمِ

تريد بغنائها جوابَ محمد بن حامد بأن تقول له : طعنة . فقال المأمون للندماء : أيُّكم أومأ إلى عَرِيب بقُبْلة؟ والله لئن لم يَصْدُقنى لأضربنّ عُنُقَه ! فقال محمد بن حامد : أنا يا أمير المؤمنين أومأتُ إليها، والعفوُ أقرب للتقوى . فقال : قد عفوتُ عنك . فقال : كيف آستدلّ أميرُ المؤمنين على ذلك؟ فقال : ابتدأتْ صوتا، وهى لا تغنّى

آبتداء إلا لمعنًى ، فعلمتُ أنهــا لم تبتدئ هذا الصوت إلا لشيء أُومئ إليهــا به ، ولم يكن من شرط هذا الموضع إلا إيماءً بقُبلة ، فعلمتُ أنها أجابته بطعنة . وقد حُكى أنّ المأمون قال فى هذه الواقعة عن محمد بن حامد : نُكَشْخِنه قبل أن يُكَشْخِننا[1] ، فزوّجه إياها ، وآشترط عليه أن يُحْضِرها إلى مجلسه فى أوقات عيَّنها له المأمون .

وقال حمدون : كنت ليلةً فى مجلس المأمون ببلاد الروم بعد العشاءِ الآخرة فى ليلة ظلماء ذات رُعُود و بُروق ؛ فقال لى المأمون : اركَبِ الساعةَ فرسَ النَّوبة وسِرْ إلى عسكر أبى إسحاق ، (يعنى المعتصم) ، فأدِّ إليه رسالتى وهى كيت وكيت . فركبت فلم تَثْبُت معى شمعة ، وسمعتُ وقْع حافر دابّة فرَهِبتُ ذلك فجعلت أتوقّاه حتى صَــكّ ركابى تلك الدابّة ، و برقت بارقة فأبصرتُ وجه الراكب فإذا عَرِيب ، فقلت : عَرِيب؟ قالت : نعم ، حمدون ؟ قلت نعم . ثم قلت لها : مِنْ أين أقبلتِ فى هذا الوقت ؟ قالت : من عند محمــد بن حامد . قلت : وما صنعتِ عنده ؟ قالت : يانِكْس ، عَرِيب تجىء فى هــذا الوقت من عند محمــد بن حامد خارجةً من مَضْرِب الخليفة راجعةً إليه تقول لها : أىّ شئ عملتِ معه ! صَلَّيتُ معه التراويح ، أو قرأتُ عليه أجزاء من القرآن ، أو دارسته شيئا من الفقه ! يا أحمق ، تحدثنا وتعاتبنا وآصطلحنا ولعبنا وشربنا وَغنّينا وآنصرفنــا . قال : فأخجلتنى وعاظتنى وتركتنى . ومضيتُ فأدّيت الرسالة ؛ ثم عدت إلى المأمونــ وأخذنا فى الحديث وتناشدنا الأشــعار ، فهممتُ أن أُحدّثه بحديثها ثم هِبْتُه ، فقلت : أُقَدّم قبــل ذلك تعريضا بشىء من الشعر فأنشدته :

أَلَا حَىِّ أطــلالًا لقاطعة الحَبْــلِ * أَلُوفٍ تُسوِى صبّ القوم بالرَّذْلِ
فــلو أنّ من أمسَى بجانب تَلْعَــةٍ * الى جَبَــلَىْ طىٍّ فساقطة العــلِ

(١) كشخنه وكشحه : شتمه بالكشخنة وهى الدياثة وعدم الغيرة

جُلُوسٌ إلى أنْ يَقْصُرَ الظِّلُّ عندها * لراحوا وكلّ القومِ منها على وَصْلِ

فقال لى المأمون : اخفِضْ صوتَك لا تسمع عريب فتغضَب وتظنّ أنّا فى حديثها؛ فأمسكت عما أردت أن أُخبره به، وخار الله لى فى ذلك .

وقال محمد بن عيسى الواثقىّ : قال لى محمد بن حامد ليلةً : أُحِبّ أن تُفَرِّغَ لى مَضْرِبك، فإنى أريد أن أجيئك فأُقيم عندك؛ ففعلت وأتانى . فلمـا جلس جاءت عَرِيب فدخلتْ وجلسنا؛ فجعل محمـد يعاتبهـا و يقول : فعلتِ كذا وفعلتِ كذا ! فقالت لى: يامحمد، هذا عندك رأى! ثم أقبلتْ عليه فقالت : يا عاجز، خُذْ بنا فيما نحن فيه، وٱجعل سراويلى مِخْنَقتى وأَلْصِقْ خَلْخالِى بقُرْطى، فإذا كان غدٌ فاكتب بعتابك فى طُومار حتى أكتب اليك بعُذْرى فى مثله، ودع عنك هذا الفضول؛ فقد قال الشاعر :

دَعِى عَدَّ الذنوبِ إذا ٱلتقينا * تَعَالَىْ لا نَعُـدُّ ولا تَعُـدِّى
فأُقسمُ لو هَمَمْتِ بمدّ شَعْرِى * إلى باب(١) الجحيم لقلتُ مُدِّى

وقال أحمد بن حمدون: وقع بين عريب و بين محمد بن حامد شرٌّ حتى كادا يخرجان إلى القطيعة، وكان فى قلبها منه أكثر ممـا فى قلبه منها . فلقيته يومًا فقالت : كيف قلبك يامحمد ؟ قال : أشقَى ما كانــ وأقرحَه . فقالت : اسْتَبْدِلْ تَسْلُ. فقال لها : (٤٦)
لو كانت البلوَى باختيار لفعلتُ! فقالت : لقد طال إذًا تَعَبُك. فقال : وما يكون! أصبِرُ مُكْرَها! أمَا سمعتِ قول العبّاس بن الأحنف :

تَعَبٌ يطولُ مع الرَّجاء لِذِى الهوى * خيرٌ له مِنــ راحةٍ فى الياس
لولا كرامتُكم لَمَـا عاتبتُكُـمْ * ولكُنْتُمُ عندى كبعض النّـاس

قال : فذرَفَت عيناها، وٱعتذرت اليه وٱعتنقته، وٱصطلحا وعادا إلى ما كانا عليه .

(١) فى الأغانى : « الى نار الجحيم » .

وحكى أحمد بن جعفر بن حامد قال : لمّا تُوُفِّىَ عمّى محمد بن حامد، صار جَدّى إلى منزله، فنظر إلى تركته وجعل يقلّب ما خلّف، ويُخْرَج إليه منها الشىءُ بعد الشىء، إلى أن أُخرِج إليه سَفَطٌ مختوم؛ ففَضّ الخاتَم وفتحه، فاذا فيه رِقاع عَرِيب إليه؛ فجعل يتصفّحها ويبتسم، فوقعتْ فى يده رُقْعةٌ فقرأها ووضعها بين يديه، وقام لحاجته؛ فقرأتها فإذا فيها :

وَيْلِى عليكَ ومنكا! * أوقعتَ فى الحقّ شكّا
زعمتَ أنّى خَؤونٌ * جَوْرًا علىّ وإفكا
إن كان ماقلتَ حَقّا * أوكنتُ أزمعتُ تَرْكا
فأبـــدل الله ما بى * من ذِلّة الحُبّ نُسْكا

قال : وهذا الشعر لعَرِيب .

* * *

وامّا أخبارها مع المأمون وإخوته وغير ذلك من أخبارها — قال صالح ابن علىّ بن الرشيد المعروف بزعفرانة : تمـارَى خالى أبو علىّ والمأمون فى صوت، فقال المأمون : أين عَرِيب؟ فجـاءت وهى محمومة، فسألها عن الصوت؛ فقالت فيه بعلمها . فقال لها : غنّيه . فولّت لتجىء بالعود؛ فقال : غنّيه بلا عُود . فاعتمدتْ من الحُمّى على الحـائط وغنّت، وأقبلت عقربٌ فرأيتها وقـد لَسَبَتْ يدَها مرّتين أو ثلاثا، فـا نحّتْ يدها ولا سكتت حتى فرغت من الصوت؛ ثم سقطت وقد غُشى عليها .

قال عثمان بن العَلاء عن أبيه : عَتَب المأمون على عَرِيب فهجرها[1] أياما، ثم آعتلّت فعادها فقال : كيف وجدتِ طعمَ الهجر؟ فقالت : ياأمير المؤمنين، لولا مرارةُ

(١) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : « فهجره » .

الهجر ما عُرِفتْ حلاوةُ الوصل، ومن ذمّ بدءَ الغضب حَمِد عاقبةَ الرضا . فخرج المأمون إلى جلسائه فحدّثهـم بالقِصة ، ثم قال : أتُرَى لو كان هذا من كلام النَّظّام لم يكن كثيرا !

وقال أحمد بن أبى دُواد: جرى بين المأمون و بين عريب كلام، فكلّمها المأمون بشيء غضِبت منه فهجرته أياما . فدخلتُ على المأمون، فقال: يا أحمد، اقضِ بيننا . فقالت عريب : لاحاجةَ لى فى قضائه ودخوله بيننا ، وأنشأت تقول :

ونخلِط الهجـرَ بالوصال ولا * يدخل(1) فى الصُّلْح بيننا أَحَـــدُ

وكانت قد تمكّنتْ من المأمون وأخذت بمجامع قلبه، وذهب به حبُّها كلَّ مَذْهَب ؛ وقد قدَّمنا أنه قبّل رجلها .

وكانت عريب تهوَى أبا عيسى بن الرشيد أخا المأمون، وكان المثلُ يُضرب بحسنه وحسن غِنائه، وكانت ترعم أنها ما عشِقتْ أحدًا من بنى هاشم وأصْفَتْه من الخلفاء وأولادهم سواه . ولم تزل عَريب مبجَّلة عند الخلفاء محبوبة اليهم مُكَرَّمة لديهم إلى أن غضب عليها المعتصم والواثق وآنحرفا عنها . وكان سبب ذلك أن المعتصم وجد لها كتابًا إلى العبّاس بن المأمون ببلد الروم تقول فيه : أُقتل أنت العِلْج حتّى أقتل أنا الأعور الليلىّ هاهنا (تعنى الواثق، وكان المعتصم آستخلفه ببغداد) . ولَعَمْرِى إنّ هــذا من الأمور العظيمة التى لا تُحْتَمَل من الأولاد والإخوة فكيف من أَمَة مغنِّية ! ولو لم يكن لها عندهم المكانة العظمى والمحلّ الكبير لما أبقَوْها بعد الاطّلاع من باطن حالها على هذه الطّوِيّة . وكانت عَريب تُكابد الواثق فيما يصوغه من الألحان، وتصوغ فى ذلك الشعر تغنّيه لحنًا فيكون أجود من لحنه .

(1) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : «ولا يصلح» .

قال : وكانت عَريب تعشق صالحًا المنذرىّ الخادم، فتزوجته سرًا . فحُكى عنها أنّ بعض الجوارى دخلتْ عليها يومًا؛ فقالت لها عريب : ويحك! تعالَىْ إلىّ ! فجاءت ؛ فقالت : قبّلى هذا الموضع منّى، فإنك تجدين ريح الجنّـة ، وأومأت إلى سالفتها ، ففعلت ثم قالت لها : ما السبب فى هذا؟ قالت : قبّلنى الساعةَ صالح المنذرىّ فى هذا الموضع . قال : ووجّهه المتوكل إلى مكان بعيد فى حاجةٍ؛ فقالت عريب فيه :

أمّا الحبيبُ فقد مَضَى * بالرّغم مــنّى لا الرِّضـا
أخطأتُ فى تَرْكى لِمَنْ * لم أَلْقَ[(1)] منـــه عِوَضا

وكانت عَريب تهوَى إبراهيم بن المدبّر ويهواها، ولهـا معه أخبار وحكايات، وبينهما أشعار وفُكاهات . فمن مُكاتباتها إليه ما رُوِى عن ابن المعتز قال : كتبتْ إليه تدعو له فى شهر رمضان : أفديك بسمعى وبصرى، وأهلّ الله عليك هذا الشهر باليُمن والمغفرة، وأعانك على المُفتَرَض منـه والمُتنفَّل، وبلّغك مثلَه أعواما، وفرّج عنك وعنّى فيه[(2)] . وكتبتْ فى شىء بلَغها عنه : وَهَبَ الله لنا بقاءك مُمتَّعا بالنِّعَم . ما زلتُ أمسِ فى ذكرك، فترةً بمدحك، ومرّةً بأكلك وبذكرك بمـا فيك لَوْنًا لونا . اِجْحَدْ ذنبَك الآن، وهاتِ حُجَجَ الكُتّاب ونِفاقَهم . فأمّا خبرُنا أمسِ فإنا شَرِبنا من فضل نبيذك على تَذكارك رِطْلا، وقد رفعنا حسابنا إليـك، فارفَعْ حسابك إلينا، وخبِّرْنا مَنْ زارك أمسِ وألهـاك، وأىّ شىء كانت القِصّة على جهتها . [ولا تُخطرِف[(3)] فتُحوِجَنا إلى كَشْفك والبحث عليك وعن حالك[(4)]]، وقل الحق، فمن صدق [نجا]. وما أحوجك إلى تأديب، فإنك لا تُحسِن أن تودَّ[(5)] . [والحقّ أقول إنه يعتريك كُزاز[(6)]

(١) كذا فى الأغانى (ج ١٨ ص ١٨٤ طبع بلاق) . وفى الأصل * لم ألف عنه معرضا *
(٢) فى الأصل : «فيك» . (٣) تخطرف الشىء : جاوزه . (٤) التكملة عن الأغانى .
(٥) كذا فى الأغانى (ج ١٩ ص ٢٢ ؛ طبع بلاق) . وعبارة الأصل : « وما أحوجك الى تأديب فانك لاتحسن أن تؤدبه » . (٦) الكزاز : تشنج يصيب الإنسان من البرد الشديد .

شـديد يجوز حدّ البَرْد . وكفاك بهذا من قولى عقوبةٌ . وإن عُدْتَ سمعتَ أكثر منه][1] . والسلام .

ولمـا نَكَب عبـد الله بن يحيى بن خاقان آبنَ المدبّر وحبسه ، كتبتْ إليه كتاباً تتشوّقه وتُخبره آستيحاشها له وآهتمامها بأمره ، وأنها قد سألت الخليفة فى أمره فوعدها ما تحبّ . فأجابها عن كتابها ، وكتب فى آخر الجواب :

لَعَمْرُكَ ما صـوتٌ بديعٌ لمَعْبَدٍ * بأحسنَ عندى من كتاب عَرِيب
تأمّلتُ فى أثنـائه خطَّ كاتبٍ * ورِقّةَ مُشْـتاقٍ ولفظَ خَطِيب
وراجعنى من وَصْلها ما آستفزّنى * وزهّدنى فى وصل كلِّ حبيب
فصِرتُ لها عبـدًا مُقِرًّا بمِلْكِها * ومُسْتَمْسكًا من وُدّها بنصيب

وقال أبو عبد الله بن حمـدون : اجتمعتُ أنا وإبراهيم بن المدبّر وآبن ميّادة والقـاسم بن زرزر فى بستان بالمَطِيرة فى يوم غَيم ورَذاذ يقطـر أحسن قَطْر ونحن فى أطيب عيش وأحسن يوم ، فلم نشعُر إلا بعَرِيب قد أقبلتْ من بعيـد ، فوثب إبراهيم من بيننا فخرج حافياً حتى تلقاها ، وأخذ بِركابها حتى نزلت ، وقبّل الأرض بين يديها . وكانت قد هجرته مدّةً لشىء أنكرته عليه . فجاءت وجلستْ وأقبلت عليه متبسمة ، ثم قالت : إنما جئتُ إلى مَنْ هاهنا لا إليك . فآعتذر وشفَعنا له فرضيت . وأقامت عندنا يومئذ وباتت ، وآصطبحنا من غد وأقامت عندنا . فقال إبراهيم :

بأبِى مَنْ حَقّق الظنَّ به * وأتانا زائرًا مُبتَـدِيَا
كان كالغيث تَرَاخَى مُدّةً * وأتى بعد قُنُوط مُرْوِيَا
طاب يومانِ لنا فى قُرْبِهِ * بعد شهرينِ لهجرٍ مَضَيَا
فأقرّ الله عينى وشَـفَى * سَقَمًا كان لجسمى مُبْلِيَا

---

(١) التكملة عن الأغانى .

وقال فيها أيضا :

أَلَا يا عَرِيبُ وُقِيتِ الرَّدَى * وجَنَّبَـكِ اللهُ صَرْفَ الزَّمَنْ
فإنّكِ أصبحتِ زَيْنَ النساء * وواحدةَ النّاسِ فى كلّ فَنّْ
فَقُـرْبُكِ يُدْنِى لذيذَ الحياةِ * وبُعْـدُكِ يَنْفِى لذيذَ الوَسَنْ
فنِعْمَ الأنيسُ ونعم الجليسُ * ونعم السميرُ ونعم السَّكَنْ

وقال أيضا فيها وفى جاريتَيْنِ بِدْعة وتُحْفة :

إنّ عَرِيبًا خُلِقتْ وَحْدَها * فى كلّ ما يَحْسُنُ من أمرِها
ونعمـةٌ للهِ فى خَلْقِـهِ * يُقَصِّرُ العالَمُ فى شُكْرِها
أشهـدنى جاريتـاها على * أنهمـا مُحسـنَتَا دهرِهـا
فبِـدْعةٌ تُبْـدِعُ فى شَجْوِها * وتُحْفـةٌ تُتْحِف فى زَمْرِها
يارَبِّ أمتِعْها بمـا خُوِّلتْ * وآمدُدْ لها ياربِّ فى عمرِها

وقال علىّ بن العباس بن أبى طلحة الكاتب : كنت عند إبراهيم بن المدبّر، فزارته بِدْعة وتُحْفـة ، وأخرجتا رقعة من عَرِيبَ، فقرأها فإذا فيهـا : بنفسى أنت وسمعى وبصرى ،وقَلّ ذلك لك. أصبح يومنا هذا طيبا — طيّب الله عيشَك — قد آحتجبت سماؤه ، ورق هواؤه، وتكامل صفاؤه ، وكأنه أنت فى رِقّة شمائلك وطِيب مَحْضرك ومَخْبَرِك،لا فقدت ذلك أبدًا منك ! ولم يُصادِف حسنُه وطِيبُه منّا نشاطًا ولا طَرَبًا لأمور صدّتنى عن ذلك، أكره تنغيصَ ما أشتهيه لك من السرور بشرحها . وقد بعثتُ إليكَ بِدْعة وتُحْفة لتؤنساك وتُسَرّ بهما . سرّك الله وسرّ بك ! . فكتب إليها :

كيف السرورُ وأنتِ نازحةٌ ، عَنّى ! وكيف يسوغُ لى الطربُ !
إن غبتِ غاب العيشُ وآنقطعتْ أسبابُه وألحّتِ الكُرَبُ

وأنفذ الجواب [اليها][1] . فلم تلبث أن جاءت على حمار مِصْرىّ، فبادر إليها وتلقاها حافيًا حتى جاء بها إلى صدر المجلس، يطأ الحمارُ بِساطَه وما عليه، حتى أخذ بِركابها فأجلسها فى مَجْلِسه وجلس بين يديها. ثم قال :

أَلَا رُبَّ يومٍ قَصَّرَ اللهُ طُـولَهُ * بقُرْبِ عَرِيب، حَبّذا هو من قُرْب
بها تحسُن الدّنيا ويَنْعَمُ عيشُها * وتجتمع السَّرّاء للعين والقلب

وقال إبراهيم بن اليزيدىّ : كنتُ مع المأمون فى بلد الروم. فبينما أنا أسير فى ليلة مظلمة شاتية ذات غَيْم وريح وإلى جانبى قُبّة، إذ بَرَقتْ بَرْقةٌ فإذا فى القُبّة عَرِيب. فقالت : يا إبراهيم بن اليزيدىّ. فقلت : لَبّيك ! قالت : قل فى هذا البرق أبياتا مِلَاحًا لأُغَنّى فيها. فقلت :

ماذا بقلبى من أليم الخَفَقِ * إذا رأيتُ لَمَعانَ البَرْقِ
من قِبَلِ الأُرْدُنّ أو دِمَشْقِ * لأن مَنْ أهوَى بذاك الأُفْقِ
فارقتُـــه وهو أعزُّ الخَلْقِ * علىّ والزُّورُ خِلافُ الحقّ
ذاك الذى يَمْلِكُ منّى رِقّى * ولستُ أبغى ما حَيِيتُ عِتْقى

فتنفّستْ نَفَسًا ظننتُــه قد قطَع حَيَازِيمَهَا، فقلت : وَيْحَـكِ ! على مَنْ هــذا التنفس ؟ فضحكت ثم قالت : على الوطن. فقلت : هيهات ! ليس هذا كله على الوطن. فقالت : ويلك ! أظننتَ أنك تَسْتَفِزّنى ! والله لقد نظرتُ نظرةً مُرِيبةً فى مجلس فادّعاها أكثرُ من ثلاثين رئيسا، والله ما علم أحدٌ منهم لمن كانت إلى هذا الوقت.

---

[1] فى الأصل : «وانشأ الجواب فلم تلبث». والتصويب والزيادة عن الأغانى (ج ١٩ ص ١٢٥ طبع بلاق).

وقال أبو العُبَيْس بن حمدون: غضِبتْ عريب على بعض جواريها، فجئتُ إليها وسألتها أن تعفو عنها؛ فقالتْ — فى بعض ماتقوله مما تعتدّ به عليها من ذنوبها — : يا أبا العباس، إن كنتَ تشتهى أن ترى زِنَاىَ وصَفَاقةَ وجهى وجُرْأتى على كلّ عظيمةٍ أيّام شبابى، فٱنظُرْ إليها وٱعرِفْ أخبارها. قال: وكانت فى شبابها يُقَدَّم إليها البرذونُ فتَطْفِر عليه بلا رِكاب.

وقال أبو العبّاس بن الفُرات: حدّثتنى بِدْعة جارية عريب: أنّ عريب كانت تجد فى رأسها بَرْدًا وكانت تُغَلِّف رأسها بستين مِثقالًا مِسكا وعنبرا، وتغسله من جمعة إلى جمعة، فإذا غسلته جدّدت غيره، وتقتسم الجوارى غُسَالةَ رأسها.

وقال علىّ بن المنجّم: دخلت يومًا على عريب مُسَلِّما عليها، فلما جلستُ هطلت السماء بمطر عظيم. فقالت: أقِم عندى اليوم حتى أُغَنِّيك أنا وجوارىّ، وابعَثْ إلى من
(٤٩) أحببتَ من إخوانك، فأمرتُ بدوابّى فرُدّت، وجلسنا نتحدّث. فسألتنى عن خبرنا بالأمس فى مجلس الخليفة ومن كان يُغنّينا، وأىّ شىء ٱستحسنّاه من الغناء. فأخبرتها أنّ صوت الخليفة كان لَحْنًا صنعه بنان من الماخورىّ. فقالت: وما هو؟ فقلت:

نَجَافَى ثم تَنْطبِقُ * جُفُونٌ حَشْوُها الأرَقُ
وذِى كَلَفٍ بكى جَزَعًا * وسَفْرُ القومِ مُنْطلِقُ
به قَلَقٌ يُمَلْمِلُهُ * و... وما به قَلَقُ
... على خَطَرٍ * ... تحترِقُ

... ... وأمرت بخلع فاخرة خُلِعتْ
... ... من الصوت فغنّاها إياه.
... ...

أجاب الوابلُ الغَـدِقُ * وصاح النَّرْجِسُ الغَـرِقُ
وقـد غَنَّى بنانُ لنـا : * "جُفُونٌ حشوُها الأَرَقُ"
فهـاك الكأسَ مُتْرَعةً * كأنّ خِتـامَها حَـدَقُ

قال : فما شربنا بقيّة يومنا إلا على هذه الأبيات .

وأخبار عريب كثيرة، قد وضع عبد الله بن المعتز فيهـا ديواناً . وفيما أوردناه من أخبارها كفايةٌ لا تحتمل المختصرات أكثرمنها . والله تعالى أعلم .

ذكر أخبار محبـوبة

قال أبو الفرج : كانت مولَّدة من مولدات البَصْرة، شاعرة، سريعة الخاطر، مطبوعة، لا تكاد فَضْلُ الشاعرة اليمانية تتقدّمها، وكانت أجمل من فضل وأعفّ، وكانت تغنّي غناءً غير فاخر .

وقال عليّ بن الجَهْم : كانت محبوبةُ لعبـد الله بن طاهر أهداها إلى المتوكّل فى جمـلة أربعمائة جارية. وكانت بارعة الحسن والظَّرْف والأدب، مغنّيةً محسنة، فحَظِيتْ عند المتوكل حتى كان يُجْلِسها خلف السّتارة وراء ظهره إذا جلس للشُّرب، فيُدْخِل رأسه إليها فيراها ويحدّثها فى كل ساعة .

وقال عليّ بن يحيي المنجِّم : كان عليّ بن الجهم يقرب من أنس المتوكل جِدًّا، فلا يكتُمه شيئا من سِرّه مع حُرَمه وأحاديث خَلَواته . فقال له يوماً : إنّى دخلتُ على قبيحة فوجدتُها قد كتبت آسمى على خدّها بغالية، فلا والله ما رأيت شيئا أحسنَ من سواد تلك الغاليةِ على بياض ذاك الخـدّ، فقل فى هذا شيئا — قال : وكانت محبوبة حاضرة الكلام من وراء الستارة — فدعا عليّ بن الجَهْم بدواة، فإلى أن أُتِيَ بها وابتدأ يفكّر قالت محبوبة على البَدِيهة من غير فِكرة ولا رَوِيّة :

وكاتبةٍ فى الخدّ بالمِسْـك جعفرًا * بنفسى مَخَطّ المسك من حيثُ أثَّرا
لئن كتبتْ فى الخدّ سَطْرًا بكَفِّها * لقدأودعتْ قلبى من الحبّ أسطُرا
فيامَنْ لمملوكٍ لِمَلْكٍ يَمِينِـهِ * مُطيعٍ له فيما أسرّ وأظهـرا!
ويا مَنْ هواها فى السريرة جعفرٌ * سَقَى اللهُ من سُقْيَا ثَنَايَاكِ جعفرا

قال : فبقِى علىّ بن الجَهْم واجمًا لا ينطق بحرف ، وأمر المتوكّل بالأبيات فبُعِثتْ إلى عَرِيب وأمرها أن تغنّى فيها . قال علىّ بن الجهم : فتحيّرتُ والله وتقلّبت خواطرى ، فوالله ما قَدَرتُ على حَرْف واحدٍ أقوله .

وقال أيضا : غاضب المتوكل يوما محبوبة وهجرها ومنع جواريها جميعا من كلامها ، ثم نازعته نفسه إليها وأراد ذلك ، ثم نازعته العِزّة منها وامتنع من ابتدائها ، وامتنعت من ابتدائه دَلَالًا عليه لمَحَلّها منه . قال علىّ : فبكّرت إليه يوماً ، فقال لى : يا علىّ ، إنى رأيت البارحةَ فى نومى كأنّى صالحتُ محبوبة . فقلت : أقرّ الله عينك يا أمير المؤمنين وأنامك على خير وأيقظك على سرور ! أرجو أن يكون هذا الصلح فى اليقظة . فبينا هو يحدّثنى وأحدّثه إذا بوصيفة قد جاءت فأسرّت إليه شيئا ، فقال : (٥٠) أتدرى ما أسرّت إلىّ هذه؟ قلت لا . قال : حدّثتنى أنها آجتازت بمحبوبة الساعة وهى فى حجرتها تغنّى ، أفلا تعجب من هذا ؟ أنا مُغَاضِبها وهى متهاونةٌ بذلك ، لا تبدؤنى بصلح ثم لا ترضى حتى تغنّى فى حُجرتها ؛ قُمْ بنا حتى نسمع ما تغنّى . ثم قام وتبعته حتى آنتهى إلى حجرتها ، وإذا هى تغنّى :

أدورُ فى القَصْر لا أرى أحدًا * أشكو إليـه ولا يكلّمـنِى
حتى كأنّى أتيتُ مَعْصِيةً * ليست لها توبةٌ تُخلِّصنِى
فهـل لنا شافعٌ إلى مَلِكٍ * قد زارنى فى الكَرى وصالحنى
حتى إذا ما الصَّباحُ لاح لنا * عاد إلى هجـره فصارَمنى

فعجب المتوكل ، وأحسّتْ بمكانه فأمَرتْ بخدمها فخرجوا وتَنَحّينا ، وخرجت إليه فحدّثته أنها رأته فى منامها فأنتبهت وقالت هذه الأبيات وغنّت فيها ؛ فحدّثها هو أيضا رؤياه وٱصطلحا . فلما قُتل المتوكل سَلَاه جميع جواريه غيرها ؛ فإنها لم تزل حزينةً هاجرة لكل لذّة حتى ماتت . ولها فيه مَراثٍ .

حكى أبو الفرج : أنّ وَصِيفًا بعد قتل المتوكل أحضرها يومًا وأحضر الجوارى ، فجئن وعليهن الثياب الملونة المُذْهَبة والحُلِيّ وقد تَزَيَّنّ وتعطّرن ، وجاءت محبوبةُ وعليها ثيابٌ بِيض غير فاخرة حزنًا على المتوكل . فغنّى الجوارى جميعًا وشَرِبن ، وطَرِب وصيف وشَرِب . ثم قال : يامحبوبة ، غَنّى ؛ فأخذت العود وغنّت وهى تبكى :

أىُّ عيشٍ يَطِيبُ لى * لا أرى فيــه جعفرا
ملِــكًا قــد رأته عيـ * ـنى قَتِيـــلًا مُعَفَّرا
كلُّ من كان ذا هُيا * مٍ وحُـــزن فقد بَرَا
غـير محبــوبة التى * لوترى الموتَ يُشْتَرى
لٱشـــترته بملكِها * كلّ هــذا لِتُقْبَرَا
إنّ موت الكئيبِ أصـ * ـلحُ مِنْ أن يُعَمَّرا

فاشتدّ ذلك على وصيف وأمر بقتلها ؛ فٱستوهبها بُغَا منه فوهبها له . فأعتقها وأمر بإخراجها وأن تكون حيث تختار من البلاد . فخرجت إلى بغداد و[illegible] سُرَّ مَنْ رأى ، وأخملت ذكرها طول عمرها ، فلم يسمع فيها أحد ، رحمها الله .

ذكر أخبار عُبَيدة الطُّنْبورية

قال أبو الفرج الأصفهانى : كانت [illegible]
فى الصَّنْعة والأدب ، [illegible]

بشهادته . قال : وكان أبو حشيشة يعظّمها ويعترف لها بالرياسة والأستاذيّة . وكانت من أحسن الناس وجهًا وأطيبهم صوتا، وكانت لا تخلو من عشق . قال : ولم يُعْرَف فى الدنيا آمرأةٌ أعظم صنعةً منها فى الطُّنبور . وكانت لها صنعة عجيبة . فمنها فى الرمل :

كُنْ لى شفيعًا إليكا * إن خَفَّ ذاك عليكا
وأَعْفِنِى من سُـؤالى * سـواك ما فى يديكا
يا مَنْ أُعِزُّ وأهوَى * مالِى أهونُ لديكا

قال : وحضرت يومًا عند علىّ بن الهيثم اليزيدىّ وعنده عمرو بن مَسْعَدة وهارون بن أحمد بن هشام ، فجاءه إسحاق بن إبراهيم الموصلى فأخبره خبرهم . فقال له إسحاق : إنى كنتُ أشتهى أن أسمـع عُبَيْدة، ولكنها إن عرفتْنى وسألتمونى أن أغنّى بحضرتها آنقطعتْ ولم تصنع شـيئا ، فدعوها على جِبِلّتها[1] ، فوافقوه على ذلك ، ودخل وكتموها أمره، وكانت لا تعرف إسحاق . وقُدِّم النبيذ، فغنّت لحنًا لها :

قَرِيبٌ غير مُقْتَرِبِ * ومُؤْتَلِفٌ كَمُجْتَنِبِ
له وُدِّى ولِى منـهُ * دَوَاعى الهمِّ والكربِ
أُواصِـلُه على سَبَبٍ * ويهجُرنى بِلا سببِ (٥١)
ويظلمنى على ثقـةٍ * بأنْ إليه مُنْقَلَبى

قال : فطرِب إسحاق وشرب نِصْفا ، ثم تغنّت وشرب ، حتى وَالَى بين عشرة أنصاف ؛ قال علىّ بن الهيثم : وشربنا معه . وقام إسحاق ليصلّى ؛ فقال لها هارون : ويحك يا عُبَيدة ! ما تُبالين والله مَتَى مُتِّ ! قالت : ولم ؟ قال : أتدرين مَن المستحسِنُ غناءك والشاربُ عليه ما شرِب؟ قالت : لا والله . قال : إسحاق بن إبراهيم، فلا

(١) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : «فدعوها على حملتها» .

تُعرِّفيه أنك قد عرَفتيه . فلما جاء إسحاق ابتدأت تغنّى فلَحِقتها هيبةٌ له واختلاط، فنقصتْ نقصاناً بيّناً . قال : أعرَفتموها من أنا؟ فقلت : نعم، عرّفها هارون . فقال إسحاق : تقوم إذًا فننصرف؛ فإنه لا خير فى عِشرتكم الليلة ولا فائدةَ لى ولا لكم؛ وقام فانصرف .

وقال مُلَاحظ غلام أبى العبّاس : اجتمع الطُّنْبوريّون عند أبى العباس بن الرشيد يومًا وفيهم المَسْدُود وعبيدة . فقالوا للسدود : غَنّ؛ فقال : لا والله، لا تقدّمتُ على عبيدة وهى الأستاذ؛ فما غنّى حتى غنّت . وقال محمد بن عبد الله بن مالك الخُزَاعىّ : سمعت إسحاق يقول : الطنبور إذا تجاوز عُبَيدة هَذَيان .



هذا ما أمكن إيراده فى هذا الباب من أخبار مَن آشتهر بالغناء، وأخبار القيان، وهو مختصر مما أورده أبو الفرج الأصفهانى — رحمه الله تعالى — فى كتابه المترجم بالأغانى من أخبارهم . ولم نلتزم آستيعابهم بل ذكرنا أكثرهم وأشهرهم بالغناء، وذكرنا من أخبارهم ما فيه كفاية . فلنذكر خلاف ذلك .

البـاب السـابع

من القسم الثـالث من الفنّ الثـانى

فيما يحتاج إليه المغنّى ويُضطرّ إلى معرفتـه، وما قيـل فى الغناء، وما وُصفت به القِيـان، ووصف آلات الطَّرَب

ذكر ما يحتاج إليه المغنّى ويضطرّ إلى معرفته وما قيل فى الغناء والقيان من جيّد الشعر

قال مالك بن أبى السَّمْح : سألت آبن أبى إسرائيل عن المُحْسِن المصيب من المغنّين، فقال : هو الذى يُشبِع الألحان، ويملأ الأنفاس، ويُعَدِّل الأوزان، ويفخّم الألفـاظ، ويعرِف الصواب، ويُقيم الإعراب، ويستوفى النَّغَم الطِّوال، ويُحسن مقاطع النَّغَم القصار، ويُصيب أجناس الإيقاع، ويختلس مواضع النَّبَرات، ويستوفى ما يشاكلها من النَّقَرات . فعرضتُ ما قال على مَعْبَد، فآستحسنه وقال: ما يقال فيه أكثر من هـذا . وقد رُويتْ هذه المقالة عن ابن سُرَيج. وقال إبراهيم الموصلىّ : الغناء على ثلاثة أضرب : فضربٌ مُلْهٍ مطربٌ يحرِّك ويَستخِفّ، وضربٌ ثانٍ له شَجًى ورقّة، وضربٌ ثالث حكمة وإتقان صنعة . وقال : كان هذا كله مجموعا فى غناء ابن سُرَيج . وقال أبو عثمان الناجم : بُحُوحة الحَلْق الطيِّب تُشبه مَرَض الأجفان الفـاترة .

⁂

وأمّا ما قيل فى الغناء وما وصفت به القِيان .

حكى أنّ بعض المُحْدَثين سمع غناءً بخُراسان بالفارسيّة، فلم يَدْرِ ما هو غير أنه شوقه لشجاه وحُسْنه؛ فقال فى ذلك، وقيل إنه لأبى تمّـام :

حَمِدْتُكِ ليلةً شَرُفَتْ وطابت * أقام سُـــهادُها ومضى كَرَاها
سمعتُ بها غِنـاءً كان أولَى * بأن يقتـادَ نفسى مِن عنَاها
ومُسمِعةٍ يحارُ السَّمْعُ فيهـا * ولم تُصْمِمْهُ، لايَصْمَمْ صَدَاها
مَرَتْ أوتارَها فشفَتْ وشاقتْ * فلو يَسـطِيع حاسِـدُها فَدَاها
ولم أفهمْ مَعَانِيَها ولكِن * ورتْ كَبِدى فلم أجهَلْ شجاها
فكنتُ كأنّنى أعمَى مُعَنًّى * بِحُبّ الغـانياتِ وما رآهـا

وقال كُشَاجم فى بُحّة حَلْق المغنِّى :

أشتهى فى الغناء بُحّـةَ حَلْقٍ * ناعِمِ الصوتِ مُتْعَبٍ مَكدودِ
كأنينِ المُحِبِّ أضعفه الشو * قُ فضاهَى به أنينَ العُـودِ
لا أُحِبُّ الأوتارَ تعلو كما لا * أشتهِى الضربَ لازمًا للعمودِ
وأُحِبّ المحنـبات[1] كحُبِّى * للبـادِى موصولةً بالنَّشـيدِ
كهُبوبِ الصَّبا توسّط حالًا * بين حالَينِ شِـدّةٍ وركُود

وقال الناجم :

شَذْوٌ ألذُّ من ٱبتدا * ءِ العَـيْنِ فى إغفائها
أحلَى وأشهَى من مُنَى * نَفْسٍ وصِدْقِ رجائها

وقال محمد بن بشير :

وصوتٍ لبنى الأحرا * رِ أهلِ السِّيرةِ الحُسْنَى
شَجٍ يسـتغرق الأوتا * رَ حتى كلُّها تفنَى
فما أدرى اليدُ اليُسْرَى * به أشقَى أم اليُمْنَى؟

(١) فى ديوان كشاجم طبع بيروت وفى نسختين مخطوطتين منه أيضا محفوظتين بدار الكتب المصرية : « وأحب المجنبات » .

وقلنــا لمغنّيــه * وقــد غَنَّى على المَثْنَى
ألَا يا ليتَ هذا الصو * تَ حتى الصُّبْحِ لا يَفْنَى
فقــد أيقظَتِ اللذّا * تُ عينًا لم تزل وَسْنَى
وما أفهــم ما يعــنِي * مُغَنّيــهِ إذا غَــنَّى
ولكنّيَ من حُبِّي * له أسـتحسن المعنَى

وقال الثّعالبيّ :

غِناؤك يَهْزِم جيشَ الكُرُوبِ * وعيناك للناس عُذْرُ الذنوبِ
فويلُ القُلوبِ إذا ما رَنَوْت * وإمّا شَدَوْت فويلُ الجُيوب

وقال أيضا :

وسائلةٍ تسائل عنــك قلنــا * لها فى وصفك العَجَبَ العَجِيبَا
رَنَا ظَبْيًا وغَــنَّى عَنْــدَلِيبًا * ولاحَ شَـقَائقًا ومَشَى قَضِيبا

وقال عُكاشة يصف قَيْنة :

مِنْ كَفِّ جاريةٍ كأنّ بَنانَهــا * من فِضّــةٍ قد طُــرِّفتْ عُنّابا
وكأنّ يُمنــاها إذا نطقتْ به * تُلْقِى على يدها الشِّمالِ حِسَابا

وقال ابن الروميّ :

وقيانٍ كأنهــا أمّهاتٌ * عاطفاتٌ على بَنِيهــا حَوَانِى
مُطْفِلات وما حَمَلن جَنِينًا * مُرْضِعات واسن ذاتَ لِبَانِ
كُلُّ طِفْلٍ يُدْعَى بأسماء شَتَّى * بين عُــودٍ ومِزْهَرٍ وكِرَان (١)
أُمُّهُ دهرَها تُتَرْجِمُ عنــه * وهو بادى الغِنَى عن التَّرْجُمانِ

---

(١) فى الأصل : « دكران » وهو تحريف .

وقال أيضا :

كأنما رِقــةُ مسـموعِها * رِقَّةُ شكوَى سبقتْ دَمْعَهْ

غنّتْ فلم تَحْتَجْ إلى زامرٍ * هل تُحْوِجُ الشمسُ إلى شَمْعَهْ

كأنما غنّت لشمسِ الضُّحَى * فألبستها حُسْنَهَـا خلْعَــه

وقال الناجم :

ما صدحتْ عاتِبٌ ومِزْهَرُها * إلّا وثِقْنا باللّهــو والفَــرَج

لهـا غِناءٌ كالبُرْءِ فى جَسَــدٍ * أضناه طولُ الســّقامِ والتَّرَح

تعبُدها الرّاحُ فهى ما صَدَحتْ * إبريقُنـا ساجدٌ على القَــدَح

وقال أيضا :

ما تغنّت إلّا تكشّــفَ همٌّ * عن فؤادٍ وأقشعتْ أحــزانُ

تفضُلُ المُسْمِعِين طِيباً وحُسْناً * مثـلَ ما يفضُلُ السَّماعَ العِيانُ

وقال أبو عُبادة البُحْتُرِىّ : (٥٣)

وأشارتْ عــلى الغِناءِ بألحـا * ظِ مِرَاضٍ من التّصابِى، صِحَاحِ

فطَرِبْنـا لهنّ قبــلَ المَثَـانِى * وسَــكِرنا لهنّ قبــلَ الراح

وقال كشاجم وهو أبو الفتح محمود :

أفدِى التى أهــدتْ لنـا * شمسَ الضُّحَى والليلُ حَالِكْ

ممــلوكةٌ جلّتْ فلبد * ـس تَفِى بِقيمتِها المَمَالِكْ

عرضتْ فأعطتْ عُودَها * ضَرْباً يُعَــرِّضُ للمهـالِك

وتَبِعتُهــا فتصــرّفتْ * بالضَّرْبِ فى كلّ المسالِك

ويئستُ من إدراكِهـا * فجعلتُ صَوْتِى عنـد ذلك،

قَصُرَتْ يدِى عنـك الغدا * ةَ ، فكيف لى بِيَــدٍ تنالُكْ

وقال أيضا :

بدتْ فى نِسوةٍ مثــل آلـ * ـمَهَا أُدْمِجْنَ إدماجا
يُجَاذِبْنَ من الأردا * فِ كُثْباناً وأمواجا
ويســترن من الأبشا * رِ فى الدِّيبــاج دِيبــاجا
وقُضْباناً من الفِضّـ * ـةِ قــد أثمرت العاجا
وقــد لاثَتْ من الكور * على مَفْــرِقها تاجا
فلمــا طُفْنَ بالمجلـ * ـس أفرادًا وأزواجا
تجــاوبن فغَنَّين * ـك أرْمالًا وأهْزاجا
وحرّكن من الأوتا * رِ إمســاكا وإدماجا
فــلا لومَ عــلى قلبـ * ـك إن هُيِّــج فاْهتاجا

وقال علىّ بن عبد الرحمن بن يونس المنجّم فى عوّادة :

غنّتْ فأخفتْ صوتَها فى عُودِها * فكأنمــا الصوتانِ صوتُ العود
غيــداءُ تأمر عودَها فيُطيعُهــا * أبدا ويَتْبَعُها آتّبــاعَ وَدُودِ
أنْدَى من النُّوّارِ صُــبْحًا صوتُها * وأرَقُّ من نَشْرِ الثّنَــا المعهــودِ
فكأنمــا الصوتانِ حين تَمَازَجا * ماءُ الغَمامةِ وآبنــةُ العُنقُــودِ

وقال أبو عَوْن الكاتب :

تشــدو فيُرقِصُ بالرءو * سِ لها ويُزْمِرُ بالكئوس

وقال الناجم :

طِفقتْ تُغَنّينا نخِلْنا أنّها * لسرورنا بغنائهــا تَغْنينا

وقال أبو هِلَال العسكرىّ :

وهَيّجتْ لِىَ من شَجْوٍ ومن فَرَحٍ * أيْدٍ نَثَرْنَ على الأوتارِ عُنّــابا
لاعيبَ فى العيشِ إلّا خَوْفَ غَيْبتِكم * إنّ السرورَ إذا ما غِبتمو غابا

وقال هارون بن علىّ المنجّم :

غُصْنٌ على دِعْصٍ تَقًا مُنْهالِ * سعَى بكأسٍ مثل لَمْعِ الآلِ
وفاتنات الطَّرْفِ والدَّلالِ * هِيفِ الخُصورِ رُجَّحِ الأكفالِ
يأخُذْنَ من طرائف الأرْمالِ * ومُحْكَمِ الخِفافِ والثِّقالِ
تجرِى مع النّاس بلا انفصالِ * مثلَ اختلاط الخمر بالزُّلالِ
تدعو إلى الصَّبْوةِ كلَّ سالِ * تَصْرَعُ كلَّ فاتِكٍ بَطّالِ
بين حَرامِ اللّهوِ والحلالِ * أكرمْ من مَصارِع الأبطالِ

وقال شاعر يذمّ مُغَنِّيا :

ومُغَنٍّ باردِ النَّغْ * ـمةِ مُخْتَلِّ اليَدَيْنِ
ما رآه أحـدٌ فى * دار قومٍ مرّتينِ
صوتُه أقطع لِلّذّا * تِ من سَطْوةِ بَيْنِ

وقال ابن الرومىّ :

فظلْتُ أشربُ بالأرطالِ لا طَرَبًا * عليه بل طَلَبًا للسُّكْرِ والنَّوْمِ

ذكر ما قيل فى وصف آلات الطرب

(٥٤)

فمن ذلك ما وُصِف به العود . نظم أبو الفتح محمود المعروف بكُشاجم قول الحكماء : إنّ العود مُركّب على الطبائع الأربع ، فقال :

شَدَتْ بِخَلَتْ أسماعَنا بمُخَفَّفٍ * يُحَدِّثها عن سرِّها وتُحَدِّثُهْ
مُشاكِلةٌ أوتارُه فى طِباعها * عَناصِرَ منها أحدثَ الخَلْقَ مُحْدِثُهْ (١)
فللنار منه الزّيرُ والبَمّ أرضُه ، وللريح مَثْناه وللماءِ مَثْلَثُهْ

(١) فى ديوان كشاجم : « ألف الخلق » .

وكلُّ آمرئٍ يرتاح منــه لِنَغْمةٍ * على حَسَب الطَّبْع الذى منه يبعثُهْ
شكاضَرْبَ يُمْنَاهافظَلَّتْ يَسارُها * تُطَوِّقه طــورًا وطورًا تُرَعِّثُــهْ
فــا بَرِحتْ حتى أرَتْنا مُخَارِقًا * يُحَاوِبُه فى أحسن النَّقْر عَثْعَثُهْ
وحتى حسبت البابِلِيِّينِ (٢) أَلقَيَا * على لَفْظِها السِّحْرَالذى فيه تَنْفُثُهْ

وقال آخر :

جاءتْ بعُودٍ تُنَاغِيه فيُسْــعِدُها * أُنظُــرْ بدائعَ ما تأتى به الشَّجَرُ
غَنَّتْ على عُودِهِ الأطيارُ من طَرَبٍ * رَطْبًا، فلما ذَوَى غنّت به البَشَرُ
فلا يزال عليــه أو بِهِ طَــرَبٌ * يَهِيجُه الأعجمان : الطــيرُ والوَتَرُ

وقال آخر :

سقى الله أرضًا أنبتت عودَك الذى * ذكتْ منه أنفاسٌ وطابت مَغَارِسُ
تغنّت عليــه الوُرْقُ والعُودُ أخضرٌ * وغنّت عليــه الغِيدُ والعودُ يابِسُ

وقال آخر :

لاتحسَبِ العودَ إن غنّتك شادنةٌ * جاءتك بالطَّيْف فيه نَغْمةُ الوَتَرِ
وإنمــا الطيرُ ألقتْ عنده خَبَرًا * فعــذَّبوه فنَمّ العودُ بالخــبر

وقال آخر :

فكأنه فى حِجْرِها ولدٌ لهــا * ضَمّتــه بين تَرائبٍ ولَبَــانِ
طَوْرًا تُدَغْدِغُ بطنَه فإذا هفا * عَرَكتْ له أُذُنًا من الآذان

وقال الناجم :

إذا آحتضنت عودَها عابث * وناغتــه أحسنَ أن يُعْرِبا
تُدَغْدِغُ فى مَهَلٍ بطنَــهُ * فيُسْمِعُنا مُضْحِكًا مُعْجِبا

---

(١) يريد هاروت وماروت اللذين ورد ذكرهما فى القرآن الكريم .

وقال الحمدونى :

وناطقٍ بلسانٍ لا ضميرَ له * كأنه فَخِذٌ نِيطتْ إلى قَدَمِ
يُبْدِى ضميرَ سواه فى الحديث كما * يُبْدِى ضميرَ سواه الخطُّ بالقلمِ

وقال كشاجم :

جاءت بعــودٍ كأنَّ نَغْمَتَهُ * صوتُ فتاةٍ تشكو فِراقَ فتَى
مُخَفَّفٌ خَفَّتِ النفوسُ بهِ * كأنمـا الزَّهْرُ حــولَه نَبَتَـا
دارتْ مَلَاوِيه فيه واختلفت * مثلَ اختلاف الكَفَّيْنِ شُبِّكَا
لو حَرَّكتْه وراءَ مُنْهَزِمٍ * على بَرِيدٍ لَعَاجَ والتفتا
ياحسنَ صَوْتَيْهما كأنَّهما * أُختان فى صَنْعةٍ تَرَاسلتا
وهو على ذا ينوبُ إن سكتتْ * عنها، وعنه تنوب إن سكتا

وقال أيضا :

وجاريةٍ مثــل شمسِ النهـارِ * أو البَدْرِ بين النجوم الدَّرارى
أتتك تَمِيسُ بِقَدِّ القَضيبِ * وترنو بعينِ مَهَاةِ القِفَـار
وتَرْفُــلُ فى مُصْمَتٍ أبيضٍ * تلوّن من خَدِّها الجُلَّنَارِى
وتحمــلُ عودًا فصيحَ الجواب * يُشارِكُ أرواحَنا فى المَجَارى
له عُنُــقٌ كذراعِ الفتــاةِ * ودَســتانةٌ بمكان السِّــوَارِ
فجـادتْ عليــه وجادتْ له * بعَسْفِ اليمين ولُطْفِ اليَسَـارِ (٥٥)
فمــا أمهلتْــه ولا نَهْنَهَتْـــه * من الظُّهْر حتى تَقَضِّى النهار
ولمـا تغنّتْ غِنـاءَ الوَدَاع * بكيتُ وقلتُ لبعض الجوارى :
لئن عِشْتُ عند هزار اللِّقـاء * لقد مُتُّ عنـــد هزار الإزار

وقال أيضا :

وكثيرةِ النَّغَماتِ تحسَبها * فى كلّ عُضْوٍ أوتيَتْ حَلقا
غنّتْ فظلتُ إخالُنى طَرِبًا * أسمو إلى الأملاك أو أرقَى
وتكلّمتْ أوتارُها فأنا * فيها أُخَبِّرُ بالذى ألقَى
تحكِى أنينى وهى شاكيةٌ * مما أُجِنّ وتشتكى عِشقا
وترى لها عودًا تُعانِقُهُ * وكلامه وكلامها وَفْقا
لو لم تُحَرِّكْهُ أنامِلُها * كان الهواء يُفيده نُطْقا
جَسّته عالمةً بحالته * جَسَّ الطبيب لمُدْنَف عِرْقا
فحسبت يمناها تحرّكه * رَعْدًا، وخلتُ يسارَها بَرْقا

وقال أيضا :

تَميسُ من الوَشْى فى حُلَّةٍ * تُجرّر من فضل أذيالها
وتحمل عودًا فصيحَ الجواب * يُضاهِى اللُّحونَ بأشكالها
له عُنُقٌ مثلُ ساق الفتاةِ * ودَستانةٌ مثلُ خَلْخالِها
فظلّتْ تُطارِح أوتارَهُ * بأهزاجها وبأرمالها
وتعمَلُ جَسًّا بجسّ العروق * وتلوِى المَلاوِى بأمثالِها

وقال آخر يصف الطُّنبور :

مُخْطَفُ الخَصْرِ أجوفُ * جِيدُه نصفُ سائرِهْ
أنطقتْه يَدَا فتًى * فاتِرِ اللَّحظ ساحرِهْ
فجَلَا عن ضميره * ما حَوَى فى خواطرِهْ

وقال سيف الدين المشدّ فى دُفّ :

وطاريّةٍ قَـرَعتْ طارَهـا * وغنّت عليه بصوتٍ عجيبِ
فعاينت شمس الضُّحَى أقبلتْ * وبَدْرٌ تقَـدّمها عن قريبِ

وقال أيضا يصف شبّابة :

وعاريةٍ من كلّ عيب ، حبيبةٍ * إلى كل قلب بات بالبين مجـروحا
لهـا جسـدٌ مَيْتٌ يعيش بنفـخةٍ * متى داخلته الريحُ صارت به رُوحا
تُعيـــد الذى يُلْقَى عليهـا بـلذّةٍ * تَزِيد فـؤادَ الصّبّ وجدًا وتبريحا
وتنطق بالسحر الحلال عن الهوى * وتُوحى إلى الأسماع أطيَبَ ما يُوحَى

القسم الرابع من الفنّ الثـانى

فى التهانى والبشائر والمراثى والنوادب والزهد والتوكل والأدعية

وفيــه أربعــة أبــواب

البـاب الأوّل

من هذا القسم فى التهانى والبشائر

والتهانى تنقسم إلى قسمين وتُحاز فى جهتين : خصوص وعموم . فالخصوص هو ما يتعلّق بالرجل من مَنْصِب يليه ، ونعمةٍ تواليه ، وولد رُزِقه ، وشفاء من مرض أقلقه وأرّقه ، وقدوم من سَفَر ، وزواج قضى به الأرَبَ والوَطَر . والعموم هو ما يتعلّق بالجمهور ، ويتساوى فيه الملك والمملوك والآمر والمأمور : من آنصباب [٥٦] غيث عمّ الرُّبا والوِهاد ، وجَرَيانِ نيل شمِل برِيّه البلاد وآمن العباد ، وهزيمة عدوّ زاد فى عُدْوانه وتمادى فى طُغْيانه ، وفتوح حِصْن أمِن أهلُه بتشييد أركانه وإتقان بيانه .

ذكر شىء ممـا هُنِّئ به وُلاة المناصب

كتب بعض الفضلاء تهنئة بخلافة فقال :

أمّا بعد ، فإن أولى النعم بالدوام ، وأرجاها للبقاء والتمام ، وأجدرها بالخلود ، وأقربها إلى المزيد ، وأحراها بالسلامة على نوب الأيام وتصاريف الأحداث ، نعمة نشأت بفنائه ، وسكنت ذَرَاه فحمِدتْ مثواه ، وساسها أولياؤها بحسن المجاورة وكرم المصاحبة سياسةَ الحانى الشفيق ، وكَفَلوها كفالةَ الحَدِب الرفيق . فنَمَتْ وتمّتْ ، وخَصّتْ وعَمّتْ ؛ ثم آعترضها من ريب الزمان ما هاج سواكنَها ، وأزعج [illegible] ،

وأصارها إلى الوحشة بعد الأنس، والنُّفْرة بعد الإلف، تتقلقل تقلقلَ العوادِي، وتَشْرُد شرودَ الضوالّ، لافظةً لها الأقطار ونابيةً بها المحالّ؛ إلى أن أعادها الله تعالى بلُطفه إلى مَغْناها المعروف، ورَبْعِها المألوف؛ واستقرّت بعد الاضطراب، وفاءت بعد الاغتراب. وتلك نعمة الله عند سيِّدنا أمير المؤمنين، لما جدّد له من كرامته، واصطفاه له من خِلافته، وطوّقه إياه من إمامته؛ وردّه إليه من تدبير الملك، واعتمد عليه من سياسة الأنام؛ فأحيا به السُّنَن القاصرة، وأزال به الرسوم الجائرة؛ ونَهَج به سبيل العدل، وأقام به منار الفضل.

وقال طُرَيح بن إسماعيل الثَّقَفيّ في المنصور لما أفضت الخلافة إليه:

لمّا أتى النّاسَ أنّ مُلْكَهُمُ * إليك قد صار أمرُه سجدوا
واستبشروا بالرضا تَبَاشُرَهم * بالخُلْد لو قيل إنهم خَلَدوا
كنتُ أرى أنّ ما وجدتُ من الفَرْ * حة لم يلقَ مثلَه أحَدُ
حتى رأيتُ العبادَ كلَّهُمُ * قد وجدوا فيك مثلَ ما أجِد
قد طلب الناسُ ما بلغتَ فما * نالوا ولا قاربوا ولا جَهَدوا
يرفعك الله بالتَّكرُّم والتق * وى فتعلو وأنت تقتصد

وقال زيد السِّنْدِيّ يهنئ الوزير يعقوب بن كِلِّس بوزارة العزيز بمصر:

إنّ الوزارةَ لم تَزَل بك صَبّةً * تهواك لم يخطُر سواك ببالها
خُطِبتْ فلم تُعْطِ القِيادَ لطالبٍ * وأبَتْ على طُلّابها بِوِصالها

وقال ابن بشر الصِّقِلّيّ الكاتب يهنئ الحسن بن إبراهيم التُّسْتَرِيّ بوزارة مصر، وقد وَزَر للمستنصر في سنة أربع وخمسين وأربعمائة:

بيومك طارتْ في البلاد البشائرُ * وطابتْ بمرجوع الحديث المحاضرُ
وأصبحتِ الأمصارُ أمْنًا وغِبْطةً * أسِرّتها مُهْتَزّة والمنابرُ
وقام خطيبُ الحمدِ في كل مَوْقِفٍ * يعدِّد ما تُمْلِي عليه المآثرُ

ومنهـا :

لقد عاشرتْ منك الوزارةُ ما جداً * له كَنَفٌ لا يَحتـــوِيه المُعَـاشِرُ
فسيحُ آمتـــدادِ الظّلِّ بين رِحَابهِ * وبين المعـالى آهـــلُ الرَّبع عامرُ
"فألقتْ عصَاها وآستقرّ بها النّوَى * كما قـــرّ عَيْنًــا بالإيابِ المســافرُ"
وما زلتَ ملحوظًا لهـا ومُؤَهّـلًا * لِذا الأمرِ مذ شُدّتْ عليك المآزر (٥٧)

وقال آخر :

كُلّمـا رمتُ أن أُهَنّيك وقتًا * بمَحَـلٍّ من العُـلَا ترتقيهِ
شِمتُ مقدارك الذى أعجز الوا * صفَ أعلى من الذى أنت فيهِ

وكتب الحمدونى أخو صاحب التّذكرة يُهَنِّئُ بالسلامة من حريق وقع فى دار الخلافة :

الدّنيا — أعزّ الله أنصارَ الخدمة الشريفة — دارُ الامتحان والاختبار، ومجاز الابتلاء والاعتبار؛ ولله فيما نَزّله فيها إلى عباده من نِعَمه، وتخوّلهم من مَوَاهبه وقِسَمه، عاداتٌ يقتضيها بالغُ حِكمته، وماضى إرادته ومشيئته؛ ليستيقظ الذاهل، ويعترف الجاهل؛ ويزداد العالم اللبيب آعتبارا، ويستفيد العاقل الأريب تفكّرا وآستبصارا؛ فلا يغفُل عن واجب الشكر إذا سِيقتْ النعمةُ إليه، ولا يلهو عن آستدعاء المزيد منها بالاعتراف إذا أُسبِغتْ عليه؛ وهو أن البارى سبحانه إذا تابع آلاءه إلى عبد ووالاها، [وجرّدها][1] له من الشوائب وأخلاها، أماط عن مَشَاربها أكدارَ الدنيا المطبوعة على الكَدَر، وغَمَر مساربها بالأمْن من طوارق الغِيَر؛ خِيف عليها الآنتقاض والزوال، وتُوُقِّع لهـا الآنتهاء والآنتقال . ومن ذلك الخبر المروىّ : أنه لمـا أنزل الله تعالى (ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَامَ دِينًا) آبتهج الصحابة رضى الله تعالى عنهم إلا عمر بن الخطّاب رضى الله عنه فإنه بكى ، فقالوا :

(١) زيادة يقتضيها سياق الكلام . ولعل هذه الكلمة أو ما فى معناها سقطت من الناسخ .

ما يُبْكيك وقد أكمل الله لنا ديننا برحمته ، وأتمّ لنا سابغ نعمته ؟ فقال : يُبكيني أنه ماتمّ أمرٌ إلا بدا نقصُه . فقُبِض رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قريب . وإذا كانت مشوبة برائع يتخلّل صَفْوَها ، وطارقٍ يتّهجّم فى بعض الأوقات عَفْوَها (١) ؛ كان ذلك صارفًا عنها عينَ الكمال ، مُؤذِنًا بطول الآجال ؛ حاكمًا لها بتراخى عمر البقاء ، دالًّا على الصعود بها إلى دَرَج المُكْث الطويل والارتقاء ؛ وحكمه حكمُ المرض الذى تَصِحّ به الأجساد ، وتُمَحَّص ذنوبُ من يُسلَّط عليه من العباد :

فلا يُبْهِج الأعداءَ سوءُ ظنونهم * فللّه صُـنْعٌ فى الذى ساء ظاهرُ
فكم طالب شيئًا به الشرُّ كامنٌ * وكم كارهٍ أمرًا به الخـيرُ وافرُ

فللّه الحمد الذى جعل ما جرت به الأقدار من الألم الواقع ظاهرُه ، الوجِل لوقعِهِ ناظرُه ؛ لعنايته جلّت عظمته عُنْوانا ، وعلى دوام نعمته دليلًا واضحًا وبرهانا . وإليه الرغبة فى أن يجعل الديارَ وساكنيها ، والنـاس فى أقاصى الدّنيا وأدانيها ؛ لشريف الحوزة التى بها صلاحُ العالم فداء ، وعنها للمكروه وِقاء . فكل حادثٍ مع دوام هـذه الأيام الزاهرة جَلَل ، وكل غَمْرٍ (٢) من نوائب الدهر مادافع لطفُ الله عنها وَشَل .

وقال أبو عُبَادة البُحْتُرىّ يهنئ الفتح بن خاقان بسلامته من الغَرَق :

بِعَدُوّك الحَدَثُ الجليلُ الواقعُ * ولمن يُكايدك الحِمـامُ الفاجِـعُ
قلنا : لَعًا لمـّا عَثَرْتَ ولا تزلْ * نُوَبُ الليالِى وهى عنك رواجعُ
ولربمـا عثَرَ الجـوادُ وشأوُهُ * متقـدِّمٌ ونبا الحُسَامُ القاطعُ
لن تظفَرَ (٣) الأعداءُ منـك بزَلّةٍ * واللهُ دونك حاجزٌ ومُدَافِـعُ
إحدى الحوادثِ شارفتْك فردّها * صُـنْعُ الإلهِ ولطفُه المتتـابع

(١) العفو : الفضل والمعروف وخيار الشىء وأجوده .
(٢) الغمر : الماء الكثير . وفى الأصل : «وكل عم» وهو تحريف ؛ لأنه يريد المقابلة بينه وبين «وشل» بعده .
(٣) كذا فى ديوان البحترى . وفى الأصل : «إن تطفر» .

حتى برزتَ لنا وجأشُك ساكنٌ * من نجدة وضياءُ وجهك ساطعُ
ماحال لونٌ عنـد ذاك ولا هفَا * عزمٌ ولا راع الجـوانح رائع

وقال المتنبّى يهنّئ بعافية :

المجدُ عُوفِىَ إذ عُوفيتَ والكَرَمُ * وزال عنك إلى أعدائك الألَمُ
وما أُخُصُّـك فى بُرْءٍ بتهنئـةٍ[1] * إذا سَلِمتَ فكلُّ الناس قد سَلِموا (٥٨)

ومما هنّئ به مَن اتّصل بزوجة ذات جمال وحسب، وأصالة وأدب .

وقلما تقع التهنئة بذلك إلا بين صديقين صحّ بينهما الائتلام، وسقطت بينهما مئونة الاحتشام، وتساويا فى الرتبة، واتحدا فى الصحبة .

فمن ذلك ما كتب به الوزير أبو الحسن العامرىّ إلى بعض إخوانه وقد ابتنى بأهْل :

بأيْمَنِ طائرٍ وأتمِّ سَـعْدٍ * يكون من الكريمين اجتماعُ

أمَا إنّه المجد اليَفَاع، والحسن المُطاع، تعارفت الطباع، فالتأمت الأنفس الشَّعَاع؛ كما التقى الثُّريّان، واقترن النيِّرانِ ؛ كما حاصر الرِّئمَ الضيغم، وهاصر النسيمُ الغصنَ المُنَعّم؛ كما راق فوق المِعْطَف الصارم العَضْب، كما التقت الصهباء والبارد العَذْب؛ بل كما فازت القِدَاح، ونُظِم الوِشاح؛ واعتنق شَنٌّ طَبَقه، واعتنق الرَّوض عَبَقه . فحبّـذا النَّسَب شابَكَه الصِّهْر، والحَسَب عاقَده التُّقَى والبِرّ؛ على حين جرت الأيامِن، واكتُنِف الحَرَم الآمن . وبالبنين والرِّفاء، والنعيم والصَّفاء، والثروة والنماء والزمن الرَّغْد والعِـزّة القعساء الشمّاء، على الوِفاق، والوِئام والاتّساق ؛ والحظـوظ والجـدود، والفُسْطاط الممدود ، وهَصْر العيش الأُملود، والالتئـام وتتابُع البشرى بالفارس المولود . ومالى تأودتُ أعطافا، وتأنّقتُ أوصافا! وتهلّلت جَذَلا، و بسطتُ فى الدعاء مَذِلا! هَنانى الأرَب[2]، أم صَفَا لى المَشْرَب! وقد غِبت عن اليوم المشهود،

(١) كذا فى ديوان المتنبى . وفى الأصل : «وما أحصك فى قوله» . (٢) كذا فى الأصل .

وعَطَّلت سُــدَّةَ الإذن للوفود، ولم أَقُمْ فى السِّماط، سافرًا عن وجه الاغتباط؛ أتلقّ الوالج بمبرور التحيّة، وأُفدّى الخارج بحكم السرور والأريحيّة؛ وأتخدّم رفعَ الوحى والإيمـاء، وأتقدّم من المصافاة والموالاة فى الغفير الجمّـاء، كلا ! ولا شهدت ليلةَ الزِّفاف، وما حلت من محاسـنها الأفواف؛ حيث دارت المنى سُـلَافا؛ وصارت العُلَا دَوْحةً ألفافا؛ وأبدى رَوْنَق السيف جِلَاء، وأبرز عقيلةَ الحىّ هِدَاء؛ هنالك حلّت النعماء، ونهلت الأظماء؛ فياله منظرًا، ووعدًا منتظرا؛ لو ناجيته من كثَب، وكرعت منه فى المنهل الأعذب! بلى! إنه وَقَع[1]، فشفى ونَفَع؛ والرّكب سَنَح، فنعم مامنح؛ أهداها حَمَلَا، فكأنما أسداها أَمَلا؛ أثلج الفؤاد، وأورَى الزِّناد، وَفَى بالنفس أوكاد؛ وملّت[2] عن قِراه، نفس جذِلت بسراه، وأرجت لذكراه. ولله ما أحظاه مَقْـدَما وأعلاه فى الإحسان قَدَما، لو وهبت لمقتضاه من الكرامة دما. وقد كان فى الحق أن أهاجر، وأعصِى الناهىَ والزاجر؛ فابْسُطْ لى عُذْرا، وأعِدَّنى لك ذخرا، وطِبْ مَدَى الدهر خَبَرًا وخُبْرا.

وممـا هنئَ به مَنْ رزقه الله ولدا وزاده به قوّة وعددا. من ذلك ماكتب به الأستاذ آبن العميد فى فصل يهنئ عضد الدولة بن بُوَيْهِ وقد وُلد له آبنان توءمان :

وصـل كتابُ الأمير بالبشرى التى أبت النعمةُ بهـا أن تقع مُفردة، وآمتنعت العارفة فيها أن تَسْنَح مُوحدة، حتى تيسّرت مِنْحَتانِ فى وَطَن، وآنتظمت مَوْهبتانِ فى قَرَن، وطلع من النجيبينِ أبى القاسم وأبى كاليجار — أدام الله عِزّهما — طالعَا مُلْك، ونجما سعد، وشهابا عِزّ، وكوكبا مجد؛ فتأهلت بهما رِباع المحاسن، ووُطّئت لهما أكناف المكارم، وآستشرفت اليهما صدورُ الأسِرّة والمنابر. وفهمته وشكرت

(١) فى الأصل : «ان» وهو غير واضح.
(٢) وردت هذه الكلمة هكذا بالأصل ؟

الله تعالى شُكْرَ مَنْ نادى الامالَ فأجابته مُكَتّبة[1]، ودعا الأمانى بجاءته مُصْحِبة[2]، وحمدته حمـدًا مكافِئًا جسيم ما أتاح وعظيم ما أفاد؛ وآكتنفنى من السرور ما فَسَح مناهج الغِبطـة ، وسهّل موارد البهجة؛ وأشعُتُ ما ورد إشاعةً شرحتْ صدور الأوليـاء (٥٩) بمَسَارّها، وأزعجت قلوب الأعداء عن مَقَارّها؛ وسألت الله إتمام ما آذن[3] به الأميران السيّدان من سعادة لا يهتـدى إليها الاختيار علوّا، ولا ترتقى اليها الأفكار سمـوّا؛ وسلطانٍ تضيق البحار عن اتساعه، وتنخفض الأفلاك عن آرتفاعه؛ ويُبَلِّغهما أفضلَ ما تقسِمه السعود، وتعلو به الجدود، حتى يستغرقا مع السابقين إخوتهما مساعِىَ الفضل ، ويَشِيـدا قواعد الفخر ، ويَرُدّا صروف الدهر ، ويَضْـبُطا أطرافَ الأرض، وهو تعالى قريب مجيب .

ومن كلام الوزير الفقيه أبى القاسم محمد بن الجدّ الأندلسىّ :

إنّ أحقّ ما آنبسط فيه للتهنئة لسان، وتصرّف فى ميادين معانيه بيان وبنان؛ أملٌ رُجِّى فتأبَّى زمانا ، وآستُدْعِى فلَوَى عِنَانا ؛ وطاردته الأمانىّ فأتعبها حِينا، وغازلته الهمم فأشعرها حنينا؛ ثم طلع غيرَ مُرْتَقَب، ووَرَد من صحبة المناجح فى عسكرٍ لَجِب؛ وكان كالمشير إلى ما بعده من مواكب الآمال، والدليلِ على ماوراءه من كواكب الإقبال؛ أو كالصُّبْح آفترّتْ عن أنوار الشمس مَبَاسِمه، والبَرْقِ تتابعت إثْرَ ومِيضه غمائمه. وفى هذه الجملة مادلّ على المولود، المؤذِن بترادف الحظوظ وتضاعف السعود. فياله نجمَ سعادة، طلع فى أُفق سِيادة؛ وغُصْنَ سَنَاء، تفرّع عن دَوْحة عَلَاء. لقد تهلّلت وجوه المحاسن باستهلاله، وأقبلت وفود الميامن لآستقباله؛ ونُظمت له قلائدُ التمائم، من جواهر المكارم؛ وخُصّ بالثُّدِىّ الحوَافل، بِلبان الفضائل . وما كان مَنْبِت الشرف بإفراد

(١) فى الأصل : «بجملته» .
(٢) مصحبة : منقادة .
(٣) فى الأصل : «ما أدنا» .

تلك الأَرومة الكريمة إلا مُقْشَعِرّ الرُّبا، مُغْبَرّ الـثرى، متهافت أغصان الرضا. فأمّا وقد ٱهتزّ فى أيكة السِّيادة قضيب، ونشأ من نَبْتة النَّجابة نَجيب، فأَخْلِق بذلك المَنْبِت أن تعاودَه نَضْرتُه، وترِفّ عليه حَبْرته، ويُراجعه رَوْنَقُه وبهاؤه، وتضاحكه أرضه وسماؤه. فٱلحمد لله على ما أتاحه من ٱنتشاء الأمل من جِمَاحه، وٱختيال الجَذَل فى حَلْبة غُرَره وأوضاحه. وهو المسئول أن يهبك منه صَنَعا يحسُنُ فى مثله الحسد، ويُتَمَنَّى لفضله النسلُ والولد، بعزّته.

وقال أبو هِلَال العسكرىّ:

قــد زاد فى عدد الكرام كريمُ * مَحْضٌ صريحٌ فى الكرامِ صَمِيمُ
عَالِى المَحَــلَّةِ لا يزال كأنه * للفرقدينِ وللسِّماكِ نديمُ
فلأمره التتميمُ كيف تَصَرّفتْ * حالاته، ولشأنه التفخيــمُ
فٱبشِرْ فقـد وافاك يومَ رُزِقْتَهُ * حظٌّ بتخليـد السرور زعيــمُ
فرْعٌ تكفَّلَ دهرُه بتمامه * حتى يكرّ الدهرُ وهو أرُومُ
إنّ الهلال يصيــر بدرًا كاملًا * ويَهُدُّ ســدَ اللّيل وهو بهيــمُ
وهو الوجيه إذا تبـدّى وجهُهُ * وغـــدًا إذا نزل العظيمُ عظيم
فلأهـــله شرَفٌ به مُتَوَطِّـدٌ * ولهـــم به شرفٌ أشمٌّ عميــم
فٱقـرَرْ به عينًا فإنّ خِلالَه * تصفو وتَسْلَسُ أو يُقال نسيـم
ولجَدّه التصميمُ حيث تَلَاحقتْ * أقــرانُه ولشأوِه التّقْــديم

(٦٠) ومن كلام الصاحب بن عبّاد تهنئة ببنت:

أهلًا وسهلًا بعَقِيلة النساء، وأُمّ الأبناء، وجالبة الأصهار، وأولاد الأطهـار، والمبشِّرة بإخوة يتنافسون، ونُجْباء يتلاحقون.

فلو كان النِّســاءُ كمثلِ هــذى * لفُضِّلَت النِّســاءُ عــلى الرِّجال

وما التأنيثُ لاسمِ الشمسِ عيبٌ * ولا التذكيرُ فخرٌ للهلالِ

فادَّرِعْ يا سيِّدى اغتباطا، واستأنف نشاطا؛ فالدنيا مؤنّثة والرجال يخدُمونها، والذكور يعبدونها؛ والأرضُ مؤنّثة ومنها خُلقت البرية؛ وفيها كثُرت الذُّرِّيّة؛ والسماء مؤنّثة وقد تَزَيّنت بالكواكب، وحَلِيَتْ بالنجم الثّاقب؛ والنّفس مؤنّثة وهى قِوام الأبدان، ومِلاك الحيوان؛ والجنّة مؤنّثة وبها وُعِد المتّقون، وفيها ينعَم المرسلون. فهنيئًا هنيئًا ما أُولِيت، وأوزعك الله شكرَ ما أُعْطِيت؛ وأطال بقاءك ما عُرِف النسلُ والولد، وما بَقِى الأبد، وكما عُمِّر لُبَد.

ومن كلام أبى المكارم بن عبد السلام من شعراء الخريدة :

هذا شُعَيبٌ النبيّ بابنته صَفُوراء استأجر موسى كليم الله . وهذا سيِّد المرسلين، أبقى الله بفاطمة ابنته نسلَه إلى يوم الدِّين . وهذه أمّ الكِتاب سُمِّيت الفاتحةَ، وهى لأبواب مُناجاة الرحمن فاتحة . وهذه مُحْكَمات القرآن، بها ثبتت شرائع الإيمان . وهذه سورة النساء وسُمِّيت بهنّ وهى من الطِّوال، ولا سورةَ من القِصار سُمِّيت بالرجال . على أنّ الدّنيا بأسْرها مؤنّثة والملوكُ من خُدّامها، والشّمسُ مؤنّثة والضِّياءُ والبهاءُ من تَمامها؛ والنفس تؤنّث وبها فُضِّل الناس، والحياة تؤنّث وهى أساس الحواس؛ والعين تؤنّث وبها يُتوسّل الى علم الدقائق؛ واليد تؤنّث وهى المتصدّية لتحبير الأشياء، والعَضُد تؤنّث وبها استعانة سائر الأعضاء؛ والسماء تؤنّث وهى تُزْجِى الأمطار، والأرض تؤنّث وهى مجمع أطايب الثّمار، والجنّة تؤنّث وبها وُعِد الأبرارُ الأخيار؛ والعين (أعنى الذهب) تؤنّث وبها يُدْفَع المُلك، والقَوْسُ تؤنّث وبها عِزُّ المُلْك.

ومما هُنِّئَ به فى المَوَاسم والقدوم — قال ابن الرومى تهنئة بعيد الفطر :

قد مضى الصَّوْمُ صاحبًا محمودا * وأتى الفِطْرُ صاحبًا مَوْدُودا
ذهب الصَّوْمُ وهو يَحْكِيك نُسْكًا * وأتى الفطرُ وهو يَحكِيك جودا

وقال آخر :

رأى العيدُ وجهَك عيدًا له * وإن كنتَ زِدتَ عليه جَمَالَا

وكَبَّرَ حين رآك الهلالُ * كفعلِك حين رأيتَ الهِلَالَا

رأى منكَ ما منــه أبصرتَه * هِــلالًا أضاء ووجهًا تَلَالَا

وقال ٱبن الرومىّ يُهَنِّئ بعيد أضحى وهو يوم نَوْرُوز :

عِيدَانِ : أضحى ونَوْرُوزٌ كأنهما * يومَا فِعَالِك من بُؤْسٍ وإنعــامِ

كذاك يَوْمَاكَ : يومٌ سَيْبُهُ دِيَمٌ * على العُفَاةِ ، ويومٌ سيفُه دامِى

وقال أبو إسحاق الصّابى :

يا سيِّدًا أضحى الزما * نُ بأُنْسِه منه رَبِيعا

أيّامُ دَهْرِكَ لم تَزَلْ * للنّاس أعيادًا جميعا

حتى لأوشــك بينَها * عِيدُ الحقيقة أن يضيعا

وقال الشّريف الرِّضىّ تهنئةً بقُدوم :

قَدِم السّرورُ بقَدْمةٍ لك بَشَّرتْ * غُرَرَ العــــلا وعَوَالِىَ التِّيجانِ ٦١

قَلِقَتْ ظُبَا الأسيافِ مِنك بفرحةٍ * فتكاد تُنْهِضها من الأجفانِ

قد كان هذا الدهرُ يَلْحَظ جانبى * عن طَرْفِ لَيْثٍ ساغِبٍ ظمآنِ

فالآن حين قَدِمتَ عُذْنَ صُروفُهُ * يَرْمُقْنَنى بنواظــر الغِزْلانِ

ومما قيل من شَوَاذِّ التهانى وهى الجمع بين التهنئة والتعزية ، والبِشارة والتسلية ـــ فمن ذلك ما قاله عبد الملك بن صالح للرشيد ، وكان من يحسُــده قد قال للرشيد عنه : إنه يُعِدّ كلامه . فأنكر الرشيد ذلك وقال : بل هو طبع . وجلس فى بعض الأيام ودخل عبد الملك ؛ فقال الرشيد للفضل : قل له : وُلِدَ لأمير المؤمنين

فى هذه الليلة آبنٌ ومات له آبن . فقال الفضل له ذلك . فدنا عبد الملك وقال : يا أمير المؤمنين، سَرّك الله فيما ساءك، ولا ساءك فيما سَرّك، وجعلها واحدةً بواحدة، ثوابَ الشاكر وأجرَ الصابر . فقال الرشيد : أهذا الذى زعموا أنه يتصنّع الكلام ! ما رأى الناس أطبع من عبد الملك فى الفصاحة .

ومن ذلك ما حكاه ثُمَامة بن أشْرَس قال : لمّا دخل المأمون بغداد بعد قتل الأمين دخلت عليه زُبَيْدة بنة جعفر أمّ الأمين، فجلست بين يديه وقالت : الحمد لله! إن أُهَنِّئك بالخلافة فقد هنّأتُ بها نفسى قبل أن أراك، و إن كنتُ فقدتُ آبنًا خليفةً لقد آعتضتُ آبنًا خليفة . وما خَسِر من آعتاض مثلك، ولا ثَكِلتْ أُمٌّ ملأتْ عينَها منك . وأنا أسأل الله أجرًا على ما أخذ، و إمتاعًا بما وَهَب . فقال المأمون : ما تَلِد النساء مثلَ هذه، ما تراها أبقت فى الكلام لبلغاء الرجال !

وقال عبد الله بن الحسن الجعفرىّ السمرقندىّ يُهَنِّئ العزيز بخلافة مصر و يرثى أباه المُعِزّ :

قد أصبح الجَوْهَرُ العُلْوِىّ منتقِلا * فى خيرِ مَنْ كان مِنْ خيرِ الوَرَى بَدَلَا
يا مِنْحةً كملتْ فى مِحْنــةٍ عَظُمتْ * لولاكَ فى الدهرِ ما نال آمرؤٌ أَمَــلَا
صُنْعٌ من الله فى خَطْبٍ أُتِيحَ لنـا * عمّ البــلادَ وعمّ السَّهْلَ والجَبَــلا
كان الزمانُ بمن أبقَى ومَنْ أخذتْ * صُروفُه مُذْنِبًا طـــورًا ومُتَّصِلا
قام العــزيزُ بمـا أفضى المُعِــزّ به * إليـــه مُضْطَلِعًا بالعِبْء مُحْتَمِـــلا
فقام أحفظَ مُسْــتَرْعًى رَعَى فكَفَى * من بعد خيرِ إمامٍ قَوّم المَيَـلا
كالسيف مُنْصَلِتًا والبحرِ مُنْدَفِقًـا * والبَــدْرِ مُؤْتَلِقًـا والغَيْثِ مُحْتَفِـلا

ومنهـا :

فى طلعة البدرِ من شمس الضُّحَى عِوَضٌ * وظُلْمةُ اللَّيـلِ يجلو جُنْحَها آبنُ جَلَا

وما الأئمـــةُ إلا أنجـــمٌ زُهُـــرٌ * يبـــدو لنـا كوكبٌ إنْ كوكبٌ أفَلا
إنّ المُعِـــزَّ الذى لا خَلْقَ يُشْبِهُهُ * إلّا العزيز ابنه إنْ قال أو فعلا
مَلْكٌ وجدنا التُّـقَى والعَـــدْلَ عُدَّتَه * إذا الملوكُ آستعدّوا الكيدَ والحِيَلا
(٦٣) سَمَتْ الى العالَمِ النّورِىّ هِمَّتُـــهُ * ففارَق القَــتَمَ الأرضىَّ وآنتقـــلا
وراجعت نفسُه فى القُدْسِ عُنْصُرَها * ولم يـــزل بحبال الله مُتَّصِـــلا
لم يَرْضَ خَلْقًـا من الدُّنيـا يُجاوِرُه * إلّا الملائكَ فى الفِرْدَوْسِ والرُّسُـلا
لولا نِزَارٌ وعينُ الله تَحْـرُسُهُ * كنّا بفقـــد مَعَـــدٍّ أُمّةً هَمَـــلا
فإنْ مَضَى كافِلُ الدُّنْيا[1] وما ضَمِنَت * فَذَا آبنُـــه كافلٌ عنـــه بما كَفَلا
وإن هَوَى الجبلُ الراسى فذا جَبَلٌ * رَاسٍ لنـا بعـده ، أَعْظِمْ به جَبَـلا !
عمّتْ خِلافَتُـــه الدُّنيـا برونَقِها * كأنه الشَّمسُ فيهـا حَلّتِ الحَمَـلا
مُلْكٌ أغَـــرُّ وأيّامٌ مُحَجَّـــلَةٌ * ودولةٌ كلَّ وقتٍ تَقْهَـرُ الدُّوَلا
أضحتْ ملوكُ بنى الدُّنيـا له خَوَلًا * وما حَوَتْ كلُّ دارٍ منهـــمُ نَفَـــلا
يأيّهـا الملك المأمـــولُ نائـــلُهُ * ومَنْ هو الغاية القُصْـوَى لنـا أملا
كان السريرُ سريرُ المِلْكِ منحفضًا * حتى آرتقيتَ ذُرَاه فآرتقى وعَـــلَا

ومن ذلك ما كتب به عامل الى المصروف به :

قد قُلِّدتُ العملَ بناحيتِـك ، فهنأك الله بتجـدّد[2] ولايتك ، فأنفـذتُ خليفتى لخلافتك ، فلا تُخْلِه من هِدَايتك ، إلى أن يَمُنّ الله بزيارتك .

فأجابه : ما آنتقلت عنّى نعمةٌ صارت إليـك ، ولا خلوتُ من كرامة آشتملت عليـك . وإنى لأجد صَرْفى بك ولايةً ثانية وصلة وافية ؛ لمـا أرجو لمكانك من حسن الخاتمة ومحمود العاقبة . والسلام .

(١) فى الأصل : "كامل الدنيا" . (٢) فى الأصل : «تجدد» من غير حرف الجر .

(٦٣) وكتب إبراهيم بن عيسى الكاتب يُهَنِّئ إبراهيم بن المدبّر بالعَزْل عن عمل :

لِيَهْنِئْ أبا إسحاق أسبابُ نِعْمةٍ * مُجَــدَّدةٍ بالعَزْلِ ، والعزلُ أنبل
شَهِدتُ لقد مَنُّوا عليك وأحسنوا * لأنك بعد العَزْلِ أعلى وأفضل

آخــــر :

إنّ الأميرَ هو الّذى * يُضْحِى أميرًا عند عَزْلِهْ
إن زال ســلطانُ الوِلا * يَةِ فهو فى سُلطان فَضْلِهْ

وكتب أبو إسحاق الصّابى الى رجل زوّج أمّه :

قد جعلك الله — وله الحمد — من أهل التحصيل، والرأى الأصيل ؛ وصحّة الدِّين، وخُلُق ذى اليقين . فكما أنّك لا تتّبِــع الشهوةَ فى محظور تَحِــلُّه ، فكذلك لا تُطيع الأنَفَــة فى مُباح تحظُره . وتأدّى إلىّ من اتّصال الوالدة — يسّر الله لهــا فى مُدّتك ، وأحسن بالبقيّة منها إمتاعَك — بأبى فلان، أعزّه الله ، ما علمتُ فيه أنّك بين طاعة للدِّيانة تَوخَّيْتَها، ومَشقّةٍ تَجشَّمْتَهَا ؛ وأنّك جَدَعتَ أنفَ الغَيْرةِ بها ، وأضْرعتَ خَدّ الحَمِيّة فيها ، وأسخطت نفســك بإرضائها ، وعَصَيت هواك لرأيها . فنحن نُهَنِّيك بعزيمة صــبرِك، ونُعزِّيك عن فائت مُرادك ؛ ونسأل الله الخِــيَرَةَ لك فيه، وأن يجعلَها أبدًا معك فيما شِئتَ وأبَيتَ، وتجنَّبت وأتيتَ .

وقال كاتب مُتَقَدِّم فى مثل ذلك :

الرضا بمــا يُبيحه حكمُ الله أولى من الامتعاض فيما تحظُره أَنَفَةُ الحَمِيّة . ولا قُبْحَ فيما أحلّ الله، كما لا جمالَ فيما حرّم الله . فعرّفك الله الخِــيَرَةَ فيما آختارته من طهــارة العَفاف ونُبْــل الحَصَانة، وعطفك من بِرِّها على ما تُؤَدِّى به حقَّها ، وما لزمك من المعروف فى مُصاحبتها .

وكتب الصّاحب بن عبّاد تهنئةً بزواج أُمّ وتعزيةً بموت أب، فقال :

الأيّام — أطال الله بقاءك — تجـرى على أنحاء مختلفـة ، وشُعَب متفرّقة ؛ وأحكامها تتفاوت بيننا بمـا يسوء ويَسُرّ، وينفع ويَضُرّ. وبلغنى من نفوذ قضاء الله فى شيخك — رحمه الله — ما أزعجنى، وأبهم طُرُقَ السـلوةِ دونى ، وإن كان مَنْ خَلَفك غيرَ خارج عن مَزِيّة الأحياء، ولا حاصلٍ فى زُمْرة الأموات . والله يأسو كَلْمَك ، ويَسُـدّ ثَلْمَك . وقد فعل ذلك بأن أتاح الله لك بعـد أبيك أبًا لا يَقْصُر عنه شفقةً عليك وحُنُوًّا، وإيثارًا لك وبِرًّا . وقد لعمرى وُفِّقتَ حين وصلتَ بحبلك حبـلَه ، وأسكنت الكبيرةَ — حَرَسها الله تعالى — ظِلَّه ؛ لِئلا تَفْقِد من المـاضى — عفا الله عنه — إلّا شخصَه . فالحمد لله الذى أرشدك لمـا يُعيد الشَّمْلَ مُجْتمِعًا بعد فِراقه، والعَدَدَ موفورًا بعد انتقاصه ؛ حمدًا يقضى لك بالمَسَرّة ، ويَحْسِم دونك مَرَادَ الوَحْشة ، ويُلَقِّيك ثوابَ ما قَضَيتَه من الحق ، وتحمّلتَه فيـه من الأَوْق[1]؛ إنه فَعّال لمـا يريد .

فهذه نبذة كافية فى التهانى الخاصة؛ فلنذكر العامّة .

ذكر نبذة من التهانى العامّة والبشائر التامّة

ولنبدأ من ذلك بمـا قيل فى البِشارة بوفاء النيل، لمـا فيه من عموم المنافع الشاملة ، وشُمول النِّعم الكاملة ، والخِصْب الذى يتساوَى فى الانتفـاع به الغَنِيّ والفقير، والمأمور والأمير .

فمن ذلك ما كتب به المولى الفاضل، الصدر الكبير الكامل، ذو المناقب والمآثر، والفضائل والمفاخر، شهاب الدين محمود الحلبىّ :

---

(١) الأَوْق : الثقل .

وسَرّه بنبأ النيل الذى عمّ نَيلا، وجرّ على وجه الأرض مُلاءة مِلائه، فشمّر المَحْل للرِّحْلة ذَيْلا ، وجرّد على الجدب سيفَ خِصْبه فسال مُحْمَرُّ دمِه على وجه الصَّعيد سَيْلا ، وجرى وسَرَى فى ضياء إشراقه وظُلْمة تَراكُمه إلى الأرض التى بارك به حولها ، جَلَّ من أجراه نهاراً وسبحانَ من أسْرَى به ليلا . صَدَرتْ هذه المكاتبةُ إليه — أعزّه الله تعالى — ونِعَمُ الله قد عَمّتْ ، وآلاؤه مع تحقّق المزيدِ قد تمّتْ، ومَوادّ فضلِه قد أمّت الأقطارَ فقامت صَلاةُ الصِّلات إذ أمّتْ؛ وكلمة الخِصب قد نَمَتْ فى الآفاق، فوَشَتْ بمكنون حديثها للأرض ونَمّتْ؛ والخِصْبُ قد أقبل على الجَدْب فلم يكن له بمقاومته قِبَل ، وطُوفان الرَّحْمة قد طَبق الوِهَاد، فلم يُغْنِ المَحْلَ أن قال : سآوى منه إلى جبل . والسيلُ قد بلغ فى تَتَبُّع بقايا القَحْطِ الزُّبَى ، والنِّيل قد عمّ بنَيْله الأرضَ حتى كَلَّل مَفارِقَ الآكام وعَمَّم رءوسَ الرُّبَا ؛ وحَمَى الأرضَ من تَطَرُّق المُحُولِ إليها فأصبحت منه فى حَرَم ، وظهرت به عجائب القدرة ، ومنها أنّ ٱبنَ الستة عشرَ بلغ إلى الهرَم ، وبثّ جُودَه فى الوجود فلو صوّر نفسَه لم يزِدها على مافيه من كَرَم ؛ وتَلقّت منه النفوسُ أبهج محبوبٍ طَرَدَ ممقوتا ، ووَثِقت من حُمرته بالغِنَى والمُنَى إذ لم تَدْرِ أياقوتاً تُشاهد منه أم قُوتا . وجرى فى الوفاء (٦٤) على أكمل ما أُلِف من عادته ، وظهر بإشراقه وعمومِ نَفْعه ظهورَ الشمس فألقَى على الأرض أشِعّةَ سعادته ؛ وأقبلت به على الخَلْق بوادرُ الإقبال ، وركب الناسُ منه فى سُفن النجاح والنجاةِ فهى تجرى بهم فى مَوْج كالجبال . وبَلّغ الله به المنافع فزعزع الشّم ولم يتجاسر على الجسور ، وأمن الناس به طروقَ المحل المطرود به عنهم فضُرِب بينهم بسُور ، وأقطع الخِصْب الأرضَ كلهـ ولله و كل بُقْعة مِثالٌ مَرْقِيّ ومنشور منشور ، وبعث إلى كل عمل من سَرَايا جُوده ... مُعْصَبا على المحل ما يخطر إلا وسيفُه مشهور ؛ وأودع بطن الثَّرى مودّ... بوجه ما تأمّله امرؤ

صادى الجوانح إلا آرتَوَى من مائه ، وأظهر الله به مثال ما سلَف من كرامة أصفيائه ؛ إذ جعل تحت كل نخلةٍ من سراه سريّا ، وجَلّا به عن الأُمّة ظُلَمَ الغُمّة إذ أطلع منه فى أوّل مَطالعه المرتَقَبة مُحيًّا بَدْريًا . وذلك أنه لما كان فى اليوم الفلانىّ وفّى النيلُ المباركُ ستةعشر ذراعا ، ومدّ بحُسْن صُنْع الله إلى مصالح البلاد يدًا صَنَاعا ؛ وركبنا إلى المِقياس الذى تُعلَم به مواقعُ الرحمة فى كلّ يوم ، وتُهْدَى منه واردات السرور إلى كلّ قوم ؛ ووقفنا به لابسين من رحمة الله تعالى أحسن لِباس ، آنسين من أنوار رحمة الله التى أزالت اليأس وأذهبت الباس ، ناظرين إلى أثر رحمة الله التى أحيت الأرضَ بعد موتها ، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس . وجرى الأمر فى التخليق على أجمل عادات البدور ، وعُلّقت ستارةُ المِقْيَاس لا للإخفاء على عادة الأستار ، بل للإشاعة والظهور ، وآستقرّ حكمُ المَسرّة على السَّنَن المعهود ، وعاد للناس عيدُ سرورهم إذ ذاك يومٌ مجموعٌ له النـاس وذلك يومٌ مشهود . وركب مولانا السلطان إلى سدّ الخليج والمـاء قد آستطال عليه ، وسَرَتْ سرايا أمواجه إليه ، وصَدَمه بقوّة فاندفع منكسرًا بين يديه ؛ فآنجبرت القلوبُ بكسره ، واستوفت الأنفُس السُّرورَ بأسره ، وأيقن كل ذى عُسْر بحصول يُسْره ؛ وساق الله به المـاء إلى الأرض الجُرُز فأحياها وحيّاها ، ورقّ لوجهها المُغْـبَرّ فستر بردائه المحمرّ صفحةَ مُحيّاها . كل ذلك وهو — بحمد الله تعـالى — آخذٌ فى الآزدياد ، جارٍ على وَفْق المُراد إلى حَدّه المعتاد ، سالكٌ ببلاغه سبيلَ أهـل البلاغة إذ يَهيمُون فى كلّ واد . وها هو الآن يرتفع إلى كلّ رَبْوة على جَنَاح النَّجاح ، ويُخيف السُّـبُلَ وما عليه حَرَجٌ ويَقْطَع الطُّرُقَ وليس عليه جُناح . فليأخذ مولانا حظّه من هذه البُشْرَى التى عمّ بِشْرُها ، ووجب على كل مؤمن شُكْرُها ؛ ويتحقق أنّ هذه بوادرُ خير تَسْرى إليه فى ركائب السّحائب ، وطلائعُ خِصْب هى لديه أقرب غائب وأسرع آئب . والله تعالى يُعزّ أنصاره ، ويُوالى مَبارّه ، بمحمد وآله .

وكتب أيضا فى مثل ذلك :

ضاعف الله نعمة المجلس العالى، وبشّره بما أجرى الأئمة عليه من عوائد كَرَمه، وسَره بما يَسّره من خصوص بِرّه وعموم نِعمه ، وهنّاه بما سنّاه(١) من هَرَب جيش المَحْل بعد قِدَم وثَباته وثَبَاتِ قَدَمه، وأورد على سمعه من أنباء نُصْرة الخِصْب ما يتحقّق به أنْ لم يبقَ فى الأرض عَلَمٌ إلا تحت عَلَمه ، وأنه ذَبح الجَدْب بسيف مَدَده الذى أنبأ بحُمرة عَنْدَمه عن دمه ، وبثّ سراياه فى الأقطار ، على مُتون القِطار ، مُرهِفًا على بقايا المَحْل سيوفَ بُرُوقه ونِبالَ دِيَمه ، وضرب قِبابَ موجه على المسالك ، فلو هَبّت بينها عاصفةُ جَدْبٍ تَعثّرتْ بأطناب خِيَمه ، ولَعِب على ما شَمَخ من الرُّبا ، فعَجَبٌ له من كاملٍ يلعَب وقد بلَغ إلى هَرَمه ! صدرتْ هذه المكاتبةُ تَقُصُّ عليه من نِعَم الله أحسنَ القَصَص، وتُهْدِى إليه من مَوَادّ فَضْله ما يَخُصّ الشام وأهلَه منه بأوفى الأقسام وأوفر الحِصَص ، وتَحُثّه على شكر الله تعالى الذى به ينتهز من مزيد بِرّه أعظمَ الحظوظ وأفضلَ الفُرَص ، وتُعلِم أنّ الله نصَر جيش الرخاء بمَدَد لُطفه على اليأس الذى تولّى الشيطانُ أمرَه فلمّا تراءتِ الفِئتانِ نَكَص، وأنعم على خَلْقه بما أرخَصتْه عزائم كَرَمه بهم، فوجب أن تُقَابَلَ نِعَمُه بعزائم الشكر دون الرُّخَص؛ وذلك أن الله تعالى أجاب دعوة المضطرّ ، وأفاض بِرّه العميمَ (٦٥٠) على الغنىّ والفقير والقانع والمعترّ؛ وأحيا الأرض بعد موتها ، وتداركَ برحمته دنيا الدَّهْماء بعد أن أشرفت على فَوْتها؛ وأجرى الخَلْقَ على عوائد كَرَمه، وأجرى لهم بقدرته من حُجُب الغيب مَوَادّ نِعَمه، وأعلى لديهم مواردَ نيلهم حتى كاد مايَشْرَب بفرُوق ساقه يتناول الماءَ بفَمه؛ وأمرَ البحرَ فأقبل بالفَرَج القريب من الأمد البعيد، وأذِن له فى الترفُّع من محَلّه فسجَد على التُّرْب شكرًا وتَيَمّم الصعيدَ و إن لم يبقَ به الآنَ على وجه

(١) سناه : يسره وسهله .

الأرض صـعيد، وأسرى منه ركائب السرور إلى الأقطار ففى كلّ نادٍ من هَـديره حاد وفى كل بَرٍّ من بروره بَريد، وذَكَّر بإحياء الأرض بعد موتها إحياء أمواتها، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾، ونشَر ألويته على الثَّرى لأهل الأرض بُشْرًا بين يَدَىْ رَحْمته، ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾؛ وأقبل بعد نقص عامه المـاضى بوجه عليه حُمرةُ الخَجَل، وعَزْمٍ سَبَق سَيفُه إلى المَحْل العَـذَلَ بل الأجَل، وحَزْمٍ أدرك الجَدْبَ بوجه قبـل أن يقول: سآوِى إلى جبل، وآستظهارٍ على كلّ ما عَلَا من الأرض حتى إن الهَرَمَيْن باتا منـه على وَجَل؛ ومَهَّـد الأرضَ التى كانت تَرَقَّبه فهو لهـا المنتظَر على الحقيقـه، ووَطِئ بطنَ القُرى فنتج الخِصْبُ بينهما وذُبح المَحْلُ فى العقيقه؛ وقطَع الطُّرُق فأمن بذلك كلُّ حاضر وباد ورائح وغاد، وآتَّبعـه الرِّىّ لا الرَّوِىّ حتى أضحى كالشعراء يهيم فى كل واد، وعمت بركاته على الأرض "فتركن كل قَرارة كالدرهم" من الخصب مرتعا، وأربى على رِيّه فيما سلف من السنين[(١)]، فأضحى كهوى آبن أبى ربيعة "يقيس ذراعا كلما قسن إصبعا"؛ وتجعّد على الآكام فخُيِّل للعيون أنها تسـيل، وشَيَّب معارقَ الرُّبا ببياض زَبَده، وعادةُ بيـاض الشيب أن يُخْضَب بورق النيل. وكأنّ ما بقى من المَحْل قد جعل بينه وبينه سَدّا، وتستّر منه وراه وهو يُمْلِى ويَعُـدّ له عَدّا؛ فصدَمه بقلبه وجعـله دكّا إذ جاء أمرُ ربه وأدركه وملَكه، وسفَك دمَه فجرى مستطيلا إذ سفكه؛ ووفَى بمـا وَعَد من ظَفَرِه، وأتى لنُصْرة الخِصْب من مكانٍ بعيدٍ فأسفر عن النُّجْح وجهُ سَـفَرِه، وأسبل على مقياسه ستر السرور لإخفاره ذمّةَ الجَدْب لا لِخَفَره، وبشّر مصره بنُصْرة سرَايَا السحائب

(١) فى الأصل: «وأربى على ريه ، سلف من السنين» وظاهر أنه غير مستقيم. ويجوز أن يكون الأصل: «وأربى ريه على ما سلف» فحدث فيه تقديم وتأخير من الناسخ.

فى أقطار الممالك لأنها من أشياعه ونَفَره . ولمـا كان اليوم الفلانى عُلِّق الستر وخُلِّق المقياس ، وكُسِر الخليجُ فكان فى كسْره جَبْرٌ للخليقة ومنافعُ للناس ؛ وذلك بعـد أن وفّى النيـل المبارك ستة عشر ذراعا ، وصرف فى مصالح البلاد يدا تَضِنّ بالبذل خُرْقا وتكفى بحُسْن التدبير ضياعا ، [وبثّ فى أرجاء الأعمال بحارا تحسب بتلاطم الأمواج ركاما وبمضاعفة الفجاج سراعا](١) . وهو بحمد الله آخذٌ فى آزدياده إلى حدّه ، جارٍ على آعتياده فى المشى على وجه الثرى وخدّه ؛ يتتبّع أدواء المَحْل تتبُّعَ طبيبٍ خبير ، ويعكس بيت أبى الطَّيِّب فتمْسِى وبُسطها تراب ، ويُصَبِّحها وبُسطها حرير . وقد وثِقت الأنفس بفضل الله العَميم ، وأصبح الناس بعـد قطوب اليأس تعرف فى وجوههم نَضْرةَ النَّعيم ؛ تَيَمُّنًا ببركة أيّامنا التى أعادت إليهم الهجوع ، وأعاذتهم مما آبْتُلِى به غيرُهم من الخوف والجوع . فليأخذ المجلس العـالى حظَّه من هـذه البشرى التى خَصَّت وعَمَّت ، ووَثِقت النفوس بمزيد النعمة إذ قيل : تَمَّت ؛ ويُذيعها فى الأقطار ، ويعرّفهم قدر ما منح الله جيوش الإسلام من فضله الذى يُعْجِب الزُّرَّاع ليغيظ بهم الكُفّار ؛ ويستقبل نعم الله التى سَيَسِم الأرضَ وَسْمِيُّها ويُولى النعم وَلِيُّها ويأتى بالبركات أَتِيُّها حتى تَغَصّ بالنعم تلك الرِّحاب ، ويُظَنّ لعموم رِىّ البلاد الشاميّة أنّ نيل مصر وصل إليها على السَّحاب ؛ ويقيم منارَ العَدْل الذى هو خير بالأرض من أن تُمْطَر ، ويُعفّى آثارَ الظلم حتى لا تكاد تَظْهَر .

وممـا قيل فى التهانى بالفتوحات ، وهزيمة جيوش الأعداء .

فمن ذلك ما كتب به المُهَلَّب بن أبى صُفْرة إلى الحجّاج بن يوسف الثقفى فى حرب الأزارقة :

(١) وردت هذه الجملة هكذا بالأصل !

أمّا بعــدُ، فالحمــد لله الذى لا تنقطع موَادّ نعمته من خلقه حتى تنقطع موَادّ الشكر. وإنّا وعدوّنا كنّا على حالتين: يسُرُّنا منهم أكثرُ ممــا يسوءنا، ويسوءهم منّا أكثرُ مما يسُرُّهم؛ فلم يزل الله عز وجل يزيدنا وينقُصهم، ويُعِزُّنا ويُذِلُّهم، ويؤيّدنا ويخذُلهم، ويمحّصنا ويمحَقُهم؛ حتى بلغ الكتابُ أجلَه، فقُطِع دابرُ القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين.

(٦٦) وكتب الحارث بن عبد الله بن أبى ربيعة حين وُلّى العراق من قِبَــل عبد الله آبن الزبير إليــه يُخْبره بهزيمة الخوارج: أمّا بعــد، فإنا مذ خرجنا نؤُمّ هــذا العدوّ فى نعم من الله متّصلة علينا، ونقمةٍ من الله متتابعة عليهم؛ نُقْدِم ويُحْجِمون، ونَحِلّ ويرحَلون، إلى أن حللنا بسوق الأهواز. والحمد لله رب العالمين.

ثم كتب إليه بعد هذا الكتاب[1]: أمّا بعد، فإنا لقينا الأزارقة بجِدّ وحَدّ، وكانت فى الناس جولةٌ ثم ثاب أهلُ الحِفاظ والصبر بنيّاتٍ صادقة وأبدان شــداد وسيوف حِداد؛ فأعقب الله خير عاقبة، وجاوز بالنعمة مقدار الأمل، فصاروا دَرِيئةَ رماحنا وضَرِيبةَ سيوفنا، وقتل الله أميرهم آبن المــاحُوز؛ وأرجو أن يكون آخر هذه النعمة كأوّلها. والسلام.

وكتب طاهر بن الحسين إلى المأمون لمّــا فتح بغداد وقتل محمدا الأمين:

أمّا بعد، فإن المخلوع وإن كان قسيمَ أمير المؤمنين فى النسب واللُّحمة، لقد فرّق الله بينهما فى الولاية والحُرْمة؛ لمفارقته عصمةَ الدين، وخروجِه عن الأمر الجامع للسلمين. قال الله عز وجل: ﴿يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غيرُ صَالِحٍ﴾. ولا صلةَ لأحد فى معصية الله، ولا قطيعةَ فى ذات الله. وكتبتُ إلى أمير المؤمنين وقد قُتِل المخلوع

---

(١) فى الكامل للبرد (ص ٦٤٠ طبع أوربا): أن هذا الكتاب من المهلب الى الحرث.

وردّاه الله رداءَ نكْبة، وأحمدَ لأمير المؤمنين أمرَه، وأنجز له ما كان ينتظر من صادق وعده . والحمد لله المتولّى لأمير المؤمنين بنعمته، والراجع إليه بمعلوم حقّه، والكائد له ممن ختر عهده ونكث عقده؛ حتى ردّ له الألفة بعد تفريقها، وأحيا الأعلام بعد دروس أثرها، ومكّن له فى الأرض بعد شتات أهلها .

ولمّا فتح المعتصم عَمُّورِيّة أكثر الشعراءُ من ذكر هذا الفتح؛ فمن ذلك قول أبى تمام حبيب بن أوس الطائى من قصيدته التى يقول فى أوّلها :

السيفُ أصدقُ إنباءً من الكُتُبِ * فى حَدّه الحدُّ بين الجدّ واللّعِبِ
بِيضُ الصفائح لا سود الصحائف فى * متونهنّ جَلَاءُ الشكّ والرِّيَبِ
والعلمُ فى شُهُب الأرماح لامعةً * بين الخميسَيْنِ لا فى السبعة الشُّهُبِ

جاء منها :

فتحُ الفتوح تعالى أن يُحِيطَ به * نظمٌ من الشّعر أو نثرٌ من الخُطَبِ
فتحٌ تَفَتَّحُ أبوابُ السماء له * وتبرزُ الأرضُ فى أثوابها القُشُبِ

ومنها :

وبرزةُ الوجه قد أعيَتْ رياضتُها * كسرى وصدّت صدودًا عن أبى كَرِبِ
بِكْرٌ فما افترعتها كفُّ حادثة * ولا ترقَّتْ إليها هِمّةُ النُّوَبِ
من عهد إسكَنْدرٍ أو قبل ذالك فقد * شابت نواصِى اللّيالى وَهْىَ لم تَشِبِ
حتى إذا مَخَضَ اللهُ السنين لها * مَخْضَ الحليبة كانت زُبْدَةَ الحِقَبِ
أتتهمُ الكُرْبَةُ السوداءُ سادرةً * منها وكان اسمُها فرّاجةَ الكُرَبِ
لمّا رأت أُختَها بالأمس قد خَرِبَتْ * كان الخرابُ لها أعْدَى من الجَرَبِ

أشار فى هذا البيت إلى فتح أنقرة .

ومنهـا :

لَبَّيْتَ صـــوتًا زِبَطْـرِيًّا هَرَقتَ له * كأسَ الكَرَى ورُضَابَ الخُـرَّدِ العُرُبِ

(٦٧) قيـل : كانت الروم لمّـا فتحت زِبَطْرة صاحت آمرأة من المسلمين : وامحمداه ! وامعتصماه! فلما بلغه الخبر ركب لوقته يؤمّ الشام، وصاح : لبَّيْكِ! لبيك! ولم يرجع إلى أن فتح أنْقِرة وعَمُّورِيّة . ومنها :

خليفــةَ الله جازى الله سَعْيَكَ عن * جُرثومة الدِّين والإسلام والحَسَبِ

إن كان بين صُروف الدهر مِن رَحِمٍ * موصــولةٍ أو ذِمَامٍ غـــير مُنْقَضِبِ

فبين أيامِكَ اللاتى نُصِرتَ بهـا * وبين أيام بَدْرٍ أقْـــربُ النَّسبِ

وكتب أبو عبيد [عبـد] الله البكرى إلى المعتمد على الله المؤيَّد بنصر الله يهنِّئه بالفتح الذى كان فى سنة سبع وسبعين وأربعمائة :

أطال الله بقاء سيِّدى ومولاى الجليل القدر، الجميل الذكر، ذى الأيادى الغرّ، والنعم الزُّهر، وهنأه ما مُنِحَه من فتح ونصر، وآعتلاءٍ وقهر . بطالع السعد يا مولاى أُبْت، وبسانح اليُمن عُدْت، وبكَنَف الحِرْز عُذْت، وفى سبيل الظَّفَر سِرْت، وبقدم البِرّ سَعَيْت، وبجُنَّة العصمة أتَيْت، وبسهم السَّداد رميتَ فأصميت . صَدَرٌ عن أكرم المقاصد وأشرف المشاهد، وعود بأجلّ ما ناله عائد وآب به وارد ؛ فتوح أضحكت مَبْسِم الدهر، وسَفَرت عن صفحة البِشر، وردّت ماضىَ العُمْر، وأكْبَتْ(١) وارىَ الكُفْر، وهزّت أعطاف الأيام طربا، وسقت قِداحَ السرور نَخبا، وثَنَتْ آمال الشرك كَذِبا، وطوت أحشاء الطاغية رهَبا، [illegible] زادُ الراكب، وراحة اللاغب، ومُتْعة الحاضر، وقُفْلة المسافر .

---

(١) أكبت : جعلته [illegible] ولعله تحريف من [illegible] .

بها تُنْقَضُ الأحلاسُ فى كلِّ منزل * وتُعْقَد اطرافُ الحبال وتُطْلَق

شملت النعمة وجبرت الأمة ، وجلَت الغُمّة ، وشفَت المِلّة ، وبرّدت الغُلّة ، وكشفت العِلّة .

كان داءَ الإشراك سيفُك وٱشتـ * ـدت شكاةُ الهُدى وكان طبيبا

فغدا الدِّينُ جديدا ، والإسلام سعيدا ، والزمانُ حَميدا ، وعَمود الدين قائما ، وكتابُ الله حاكما ، ودعوة الإيمان منصورة ، وعَين الملك قريرة . فهنّأ الله مولانا وهنّأنا هذه المِنَح البهيّةَ مطالعُها ، الشهيّة مواقعُها ، المشهورةَ آثارُها ، المأثورةَ أخبارُها ؛ ونصر الله أعلامَه ففى البِرّ تُحَلّ وتُعقَد ، وعضَد حُسامه فبالقسط يُسَلّ ويُغمد ؛ وأيّد مذاهبه فبالتّحزّم تُسْدَى وتُلحَم ، وأمرّ كتائبه ففى الله تُسْرَج وتُلجم . فكم فادح خَطْب كفاه ، وظلامِ كَرْبٍ جَلاه ، وميّتِ حقّ أحياه ، وحىٍّ باطلٍ أرداه ! وكم جاحم ضلالةٍ أطفأ نارَه ، وناجمِ فتنةٍ قلّم أظفارَه ، ومفلول سُنّة أرهَفَ شِفارَه ، ومستباح حُرْمة حَمَى ذِمارَه . فلله هذه المساعى الكريمة والمنازع القويمة ، المتبلّجة عن ميمون النّقيبة ومحمود العزيمة ؛ فقد تمثّل بها العهد الأوّل والقرن الأفضل الذى أُخْرِج للناس يأمُرون بالمعروف وينْهَوْن عن المنكر ، والذى سطع هذا السّراج ، وٱنتهج هذا المنهاج ؛ فلا زالت الفتوح تتوالى عليه ، وصنائع الله تتّصل لديه ، إدالةً من مشاقّيه وإذالةً لمحاربيه ، وإبادةً لمناويئه . وإن أجلّ هذه النعم فى الصدور ، وأحقّها بالشكر الموفور ، ما منّ الله به من سلامة مولاى التى هى جامعةٌ لعزّ الدّين وصلاح كافّة المسلمين ، بعد أن صَلِي من الحرب نيرانَها ، فكان أثبتَ أركانها وأصبرَ أقرانها :

وقفتَ وما فى الموت شكٌّ لواقف * كأنّك فى جفن الردى وهْو نائمُ
تمرُّ بك الأبطالُ كَلْمَى هَزيمةً * ووجهُك وَضّاحٌ وثغرُك باسمُ
هنيئًا لضرب الهامِ والمجدِ والعُلا * ووجهِك والإسلامِ أنّك سالمُ

فللّه الحمــد والإبداعُ والإلهام، وله المِنّة وعلينا متابعة الشكر والدوام. وقد فازت الكفّ الكليم، بأعلى قــداح المكلوم لدى المَقام الكريم ؛ وإنها لهى التالية للإصبع الدامية فى المنزلة العالية.

بَصُرْتَ بالراحة العُليا[(١)] فلم تَرَهـا * تُنَـال إلا على جِسْرٍ من التَّعب

(٦٨) ومن كلام القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانىّ جواب كتاب ورد عليه يُخْبَر فيه بانتصار المسلمين. ابتدأه بقوله عز وجل : (يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللّهِ وفَضْلٍ وَأَنَّ اللّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ المُؤْمِنِينَ). وصلت بُشرى المجلس السامى — أعلاه الله وشيّده، وأسعده وأصعده، وشكر مشهَده وأنجح مقصِــدَه، وملأ بالحسنات أمسَه ويومَه وغده، وأهلك وعادى أعداءه وحُسَّدَه، وآجتبّ بسيفه زرع الكفّار وذَرَاه وحصده — بما منّ الله سبحانه من نُصْرة المسلمين عند لقاء عدوّهم؛ وما وَلِيهم الله من القوّة والإظهار، وما قذف فى قلوب الكفر من الخوف والحِــذار، وشرح القضيّة شرحًا شَرَح الصدور، وآستوى فيهـا الغُيّاب مع الحضور، فكانت البِشارةُ منـه وكانت المباشَرَةُ له ، وما كلّ من بَشّر باشر، ولا كلُّ من غار غاوَرَ ؛ ولا كلّ من خبّر عن السيوف لقيها بوجهه ، ولا كلّ من حدّث عن الرماح عانقها بصــدره . فنفعه الله بالإسلام كما نفع الإسلام به، وأتمّ النعمةَ عليه كما أتمّها فيه ؛ وتقبّل جهاده الذى جلا فيه الكُرُبات، وآبتغى فيه القُرُبات. ويُتوقّع إن هان العدوّ فى العيون، وظهر منه غيرُ ما كان فى الظنون، أن يكسر الله بكم مَصافّه، ويفتح عليكم بلاده، ويُطهّر بسيوفكم الشام، ويسرّ بنصركم الإسلام، ويشرّف بيوم نصركم الأيّام. والخير يُغْتَنَم إذا عَنّتْ فُرَصُه، ويُصاد إذا أمكن الصائدَ قنصُه، والجهاد فرض على المُطيق تقتضيه عزائمه ولا تقتضيه رُخَصُه . وقد حضر المولى وحضر كلّ خير، وحضر من رأيه ما يكفى

(١) فى ديوان أبى تمام : « الكبرى » .

أمرَ العدوّ ولو لم يكن إلا رأيه لا غير؛ فكيف وفى يده من العَضْب، مثل ما فى صدره من القلب؛ كلاهما حديدٌ لا تكِلّ مضاربه، ولا تخونه ضرائبه، ولا تفنَى إذا عُدِّدت عجائبه . فكم له من يوم أغرّ محجّل الأطراف ، وليلةٍ فى سبيل الله دهماء الأهوال بيضاء الأوصاف ؛ والنفوس واثقة بأن الظَّفَر على يده يجرى ، والمبشِّر من جهته يسرّ ويَسْرِى . وَاللهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِين .

وكتب أيضا فى مثل ذلك : ورد كتاب المجلس — نصر الله عَزْمَتَه، وشكر همّته، وأتمّ عليه نعمته ، وصَرَف به وعنه صَرْفَ كلّ دهرٍ ومُلِمّته ومؤلمته، وأعان أولياءه على أن يُؤَدّوا خدمته ، ويستوهبوا له فضل الله ورحمته ، وأجزل قِسْمه من الخير الذى يُحْسِن بين محبّيه قِسْمتَه — سافرًا عن مثل الصباح السافر، متحدِّثا عن روض أفعاله بلسان النسيم السَّحْرِىّ الساحر، حاملًا حديثَ بِيضه وسُمْره حديث السامر . وهنّأ بالفتح وهو المهنّأ به ، وكيف لا يُهنّأ بالفتح من هو فاتحُه ! وكيف لا يشرح خبره من هو فاتح كلّ صدر وشارحُه ! ولقد دعا له لسان كلّ مسلم وساعدت لسانَه جوارحُه؛ وعلم أنه باشر الحربَ وتولّى كِبرها، وأخمد جمرها ، ولقى أقرانها، وآفترس فُرسانها، وجَبّن شجعانها، وشجّع جبانها؛ وأنفق الكريمين على النفس: النّفْسَ والمـال، وحفظ على الإسلام الطَّرَفَيْنِ: الفاتحةَ والمآل . وإذا تأمل المجلس الدنيا علم أن الذى يبقى بهـا أحاديث ، وإذا نظر إلى المـال علم أن الذى فى الأيدى منـه مَوَاريث؛ فالحازم من ورث ماله ولم يُورثه لغيره ، والسعيد من لم يرض لنفســه من الحديث إلا بخيره . وما يخفى عن أحد ما فعله ، ولا ما بذله ، ولا ما هان عليه ، ولا ما أهان اللهُ كرائمَ المـال بيديه؛ ولقــد حلّت نعمة الله فى محلّهـا لديه، وكان كفأها الكريمَ الذى أصدقها ما فى كفّيْه .

هـــذا ثنائى وهاتيكم مَنَاقِبُكــم * يا أعينَ النّاسِ ما أبعدت إسهادى

(وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا)، بل هو سبحانه يُوفى عباده مثاقيل الذّرّ، وللصابرين عنـده الأجر بغير حساب بجلالة قدْر الصبر . والمجلس صبّر نفسه على المشقّات فلْيُبشر بثوابهـا ، وكثّر أعمال البِرّ فهو يدخل الجنّة بفضل الله من جميع أبوابها . وكما يُهنّأ المجلس بالافتتاح فهو يُهنّأ بالجراح ؛ ولا يغْسل ثوبَ العمل إلا الدمُ المسفوح ، وكل جُرْح إنما هو باب إلى الجنة مفتوح . والحمد لله على أن أمتع الأمّة بنفسه التى بذلها، وقد باعها له وأبقاها لنا وقبِلها . (وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ) . (٦٩)

وكتب المرحوم علاء الدين علىّ بن القـاضى محيى الدين بن الزكىّ إلى أخيه بهاء الدين مُبَشّرا بفتح صَفَد، وكان هذا الفتح فى يوم الجمعة ثامن عشر شوّال سنة أربع وستين وستمائة، على ما نذكره إن شاء الله تعالى فى أخبار دولة الترك فى أيام الملك الظاهر ركن الدين بيبرْس :

يقبّل اليد الكريمة، ويبُثّ ما يعالجه من لواعج الأشواق التى تركته بين الأصحاب مُدَلّها ،وسلبت لُبّه فلا أعلم عليه مَنْ دلّها، وينْهى أن المملوك فارق كريم جنابه وتوجّه إلى صَـفَد المحروسة فوصل إليها فى تاريخ كذا ، ووافاها والحِصنُ قـد تزعزعت أركانُه، والكفرُ قد انهدم بُنيانُه، وشمّر عن ساق الهزيمة شـيطانُه ، وحُمَاةُ الحرب قد وقفت فى مراكزها، وكُماة الهيجاء قد آستعدّت لأخذ فُرَص النصر ومناهزها ؛ والرماحُ قد آهتزّت شوقا لى لقائهم، والسيوفُ قد آلت أنها لا توافق على مُقامهم، والمجانيقُ تزور حِماهم وتلك الزيارة لشقائهم ؛ وتُدَمّر بحجارتها عليهم تدميرا، وترِيهم من بأسها يوما عبوسًا قمْطرِيرا ، وتصير بهم إلى الهلاك وتعِدُهم جهنّم وساءت مصيرا ؛ والقِسِىّ تُرسل إليهم النّبْل فى أجنحة السهام ، وقد أحدقت بهم كماة الترك كأنها ظِباءٌ

بأعلى الرقمتين قِيام؛ فمِنْ نازعٍ بقوسه وهو لمُهَج الكافرين مُنازع، ومن متدرِّع بنحره نحو المنايا يسارع، ومن واردٍ مَنْهلَ المنيّــة وآخر فى إثره كارع، ومن متدرِّع وحاسِر عَلِما أن ليس لقضاء الله دافع؛ وما زادهم إلا إيماناً وتسليما، وما سلك بهم إلا صِراطًا مستقيما، وما اشــترى أنفسهم وأموالهم إلا بالجنّة وأعدّ لهم أجرا كريمــا. والسلطان — عزّ نصره — قد شحَذ شبَوات عزمه، وفوّق سديد سهمه ليفوز بجزيل سهمه؛ وهو يرتّب عساكره، ويهيّئ ميامنه ومياسره، وينُفذ أوائله ويقدّم أواخره، ويحُثّ صناديده، ويُثبّت رعاديده، ويُسْعِر هِمّة مَساعِره، ويُذْكى نارَ الحرب فى مَجامِره؛ ويقــابل الأبراج ببروج يَهدِمونها، ويَكِلُ بالنُّقوب نُقباء يحفِرونها، ويَعِــد للمؤمنين مغانمَ كثيرةً يأخذونها؛ ويُعِدّ لكل مقامٍ رجالا، ويرتّب لكل مُقاتِلٍ من المسلمين قِتالا، ويبسُط لهم بقتــل الكافرين آمالا؛ حتى قامت الحــربُ على ساق، وضاق بأهل الشقاق الخِناق؛ وبلغت الأرواح منهم التَّراق، ودارت عليهم كؤوسُ المنــايا فأنتشى المَسْقِىّ والساقى؛ وأحدقت بهــم الجياد تَصْهِل، وسُحُب القِسِىّ تَهْطِل، وكواذب الآمال تَعِدهم وتَمْطُل؛ وخرَصوا لأنفسهم الفرَجَ فكذّبتهم أسنّة الخُرْصان، ونظــروا إلى الحياة بعين الطمع فكحّلتهم بنات الحَنِيّة المِرْنان؛ فلمــا أُشرِب(١) العجزَ نفوسُهم، وآســتوى فى الشُّورَى مرءوسهم ورئيسُهم؛ ومُنُوا بالمنايا من كل جانب، وسَمح كلٌّ منهم بالمــال والذهب مذ عَلِم أنّه ذاهب؛ وتحقّقوا أن لا ملجأ من السيف إلا إليه، ولا مُعَوّل بعد المعوّل إلا عليــه، وتيقّنوا أن لا مُقامَ لهم ولا مَقرّ، وقال الكافر يومئذ أين المَفَرّ. والمسلمون مثابرون على العمل الصالح يرفعونه، ومبادرون أجَلَ عدوّهم يمزّقون منــه كل ما يرقَعونه؛ وإذا بصَيْحة كالصيحة التى تأخذهم وهم ينظرونها، أو الصعقة التى ينتظرونها، إذ أُمِرّت السيوفُ على رِقابهم وهم يُبصرونها؛

(١) فى الأصل: «اشراب» وهو غير واضح.

فٱرتجّت أرْجاء الحِصن بالأصطخاب، ووقع الأختلاف بينهم والأضطراب؛ وقيل: إن الكافرَ قد طلب الأمان، وإنه ركب ظهر المَذَلّة مذ ناوله الجَزَعُ العِنان، وإن الكفر قد ذلّ للإيمان، وإن شيطانه قد نكَص على عَقِبه لما تراءت الفئتان؛ فأمسكت المجانيق عن ضربها، وكفّت الحَنَايا عن إرسال شُهبها، وأقصرت ليوث الحروب الضارية عن وَثْبها. فما كان إلّا هُنَيهة وقد خرج رسول منهم حيث لا تنفع الرسائل، وٱخترق وشِيجَ القنا وشوكَ النّصال وظُبَا المَناصل، ورأى كثرةً هالته فكادت تنقدّ تحت الذعر منه المفاصل، ومشى إلى السلطان خاضعا وأعيا على السِّماطين يقوم كلما عوّجته الأفاكل. ٧٠

وقبّـل كُمًّا قبّـل التُّربَ قبلَه * وكلُّ كَمِيٍّ واقفٌ مُتَضائِـلُ

وأدّى الرسالة وإذا هى كما قال أبو الطيب دروع، ورجع إلى أهله وفى قلبه من جيش الإسلام — كثره الله — صدوع.

فأقبلَ من أصحابه وهو مُرْسَلٌ * وعاد إلى أصحابه وهو عَاذِلُ

فأبَوْا لنصيحته قبُولا، وقالوا: قاتلك الله رسولا؛ لقد خرجتَ عن سُنّة إخوانك، وألقيتَ إلى المسلمين فاضلَ عِنانك، ولم ترقُب رِضا أقِسّتك[1] ورهبانك. والرعب قد خرج به عن قومه وآله، وهو يُناشدهم اللهَ فى أموالهم وأنفسهم ويُنشدهم بلسان حاله:

أمرتُهُم أمرى بمُنعَـرَج اللّوى * فلم يَستبِينوا الرُّشدَ إلا ضُحَى الغدِ

فلمـا ٱستحكمت مِرّة عِصيانهم، وأبَوْا إلا مغالاةً فى طُغيانهم؛ ولم يسمَحوا بتسليم ذلك الحِصن الحصين، وقالوا: إنه على حفظ أرواحنا لقوِىٌّ أمين؛ أُرسلت عليهم من المجانيق حجارةٌ كالمطر، إلا أنها ترمى بشَرَرٍ كالقصر فتهدِم قصوراً كالشرر؛

(١) فى الأصول: «أقساتك» وهو تحريف.

فزعزعت منها بُرُوجًا وبُدنا، وقالت : هذا جزاؤكم وإن عُدْتم عدنا، ولَنُتْبِعنّ بعدها آثارَكم ونقلعَ منكم قِلاعًا ومُدنا . فلما أكذبهم الحِصنُ فى آمالهم، وأراهم الله قُـرْب آجالهم ؛ وكان ذلك فى اليـوم الأغرّ يوم الجمعـة والفتح ، سلكوا فى التسليم عادةً لم يسلُكوها، ورأوا من الجزَع خُطّةً ملكتهم ولم يملِكوها ؛فأجمعوا أمرهم وشركاءهم إلا أنه كان عليهم غُمّة ،وطلبوا الذِّمام ومن قبلها كانوا لا يرقبون فى مؤمنٍ إلّا ولا ذِمّة ؛ فألقَوْا إلى الإسلامِ يومئذ السلَم ، ورأَوْا نور الله الظاهرَ أشهرَ من نار على علَم ؛ فخرجوا من الحصن زَرَافاتٍ وأوْزاعا ، مُهطِعين إلى الداعى كيـوم يخرجون من الأجداث سِراعا . فلو تراهم نحو المنايا يركُضون ، ﴿ كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِى كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ .

جرت الرياحُ على مَقَرِّ ديارِهمْ * فكأنمـا كانوا عـلى ميعادِ

وصدق الله المؤمنين وعده ، وكان بصـدق وعده حقيقا ، ﴿ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِـم الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾ . فلما كان يوم السبت نادى فيهم السيفُ بالرحيل ، ولم يتزوّدوا من متاع الدنيا إلا القليل ؛ وقام النصر على منابر الهامات خطيبا ، وكثُر القتل فصار المهنّـد الصقيل خَضيبا ؛ وأجرى أوديةً من دِمائهم ، ولم يغادر بقيّةً من ذَمَائهم ؛ وآستوى العبيد منهـم والأرباب ، وصار فُرسانهم فرائسَ الذئاب ، وآستمرءوا المرْعَى الوخيم فرعاهم الذباب ؛ ووجدوا غِبَّ البغى علينا ، وقلنا : ﴿ هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ﴾ ؛ وآب المسلمون بخير عميم ، وفتح عظيم وأجر كريم ؛ وجعل الله الجنّـة جزاء للسالمين منهم والذاهبين ، ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ . فليأخذ حظّه من هذه البشرى فإن لهـا من النصر العزيز ما بعدها ، ومن المغانم الكثيرة ما يُنجز للأمّة المحمديّة وعدها ؛ ويثق بأن

له إن شاء الله من ثواب هــذه الغزوة أوفرَ نصيب، وأن سهــم عزمه فى نحور الأعداء إن شاء الله مصيب؛ فقــد رُوى عن النبي صلى الله عليــه وسلم أنه قال : "إن بالمدينة قوما ما سِرْتم مَسِيرا ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم" . والله لا يُخليــه من أجرها، ولا يَحرِمه وافرَ بِرّها؛ ويُتحفه من مقربات التهانى بمـا تكون له هــذه بمنزلة العنوان فى الكتاب، والآحاد فى الحساب؛ وركعةِ النافلة بالنسبة إلى الخمس، والفجرِ الأوّل قبــل طلوع طلعة الشمس؛ وأن يُديم على الإســلام والمسلمين حياةَ مولانا السلطان الملك الظاهر ركن الدنيا والدين، ويؤيّده بالملائكة المقربين، ما دامت السموات والأرضون، إن شاء الله تعالى .

ومن إنشاء المولى المرحوم محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر كتاب كتبه عن السلطان الملك الأشرف خليل إلى الملك المظفَّر يوسف بن عمر صاحب اليمن قرين كتاب السلطان الملك المنصور المسيّر إليه بالهناء بفتح طرابلس الشأم :

(٧١) أعز الله نُصرة المقــام وأوفد عليه كلّ بشرى أحسن من أختهــا، وكل تهنئة لا يُجلّيها إلا هو لوقتها، وكل مُبْهِجة يعجِز البيان والبنان عن ثبتها ونعتها، وتتبلّج فتودّ الدُّرَر والدرارى لو زُفّت هذه إلى تَرَاقيها وسَمَتْ هذه إلى سَمْتها؛ وصبّحه منها بكل هاتفةٍ أسجعَ من هواتف الحمائم، وبكلّ عارفة أسرعَ من عَوَارف الزّهر عند عزائم النسائم، وبكل عاطفةٍ أعنّــةَ الإتحاف بالإيجاف الذى شكرت الصِّفَاحُ منه أعظمَ قادرٍ والصحائفُ أكرمَ قادم، والغزو الذى لا تُخَصّ تهامةُ ببُشراه بل جميع النجود والتهائم، وذوو الصوارم والصرائم، وأولو القُوى والقوائم، وكلّ ثغر عن ابتهاج أهل الإسلام باسم، وكلّ بَرٍّ بَرٍّ بتوصيل ما ترتّب عليه من ملاحم، وكلّ بحر عَذْبٍ يَمُونُ كلّ غازٍ لا يحبس عن جهاد الكفار فى عُقْر الدار الشــكائم، وكلّ بحر مِلْحٍ كم تغيّظ من مجاورة أخيه لأهل الشرك ومشاركتهم فيه فراح وموجه المتلاطم . المملوك يجدّد

خدمةً يقتفى فيها أثرَ والدِه ، ويجرى فى تبليغها على أجمل عوائده ، ويستفتح فيها آستفتاحًا تَحُفّ به من هنا ومن هنا تُحَفُ محامده ؛ ويصف ولاءً قد جعله أجمل عقوده وأكمل عقائده ، ويشفعهما بإخلاص قد جعله ميلُه أحسن وسائله وقلبُه أزين وسائده ؛ ويُطلع العِلم الكريم أن من سجايا المتعرضين إلى الإعلان بشكر الله فى كلّ ما يعِرض للسلمين من نَصر، ويُفْرَض لهم من أجر غزوِكم قعد عنه مَلِكٌ فيما مضى من عصر، أن يقدُروا تلك النعمةَ حقّ قدرها من التحدّث بنعمتها ، والتنبيه لسماع نَغْمتها، وإرسال أعِنّة الأقلام فى ميادين الطروس، وإدارة حِرْباء وصف خير حربٍ إلى مُواجهة خير الشموس. ولما كانت غزوات مولانا السلطان ملك البسيطة الوالد — خلّد الله سلطانه — قد أصبحت ذكرى للبشر، ومواقفُه للنصر فكم جاءت هى والقدرُ على قَدَر ؛ وقد صارت سِيَرُها وسيرُها هذه شَذْو الأسمار، وهذه جادّةٌ يستطيب منها حسنَ الحَذْو السُّفّار، فكم قاتلت من يليها من الكفّار، وكم جعلت من يُواليها وهو منصورها منصورا بالمهاجرين والأنصار . ولما أذلّ الله بلمسها طوائف التتار فى أقاصى بلاد العجم ، وجعل حظّ قلوبهم الوجع من الخوف ونصيبَ وجوههم الوجَمَ ، وأخلى الله من نسورهم الأوكارَ ومن أُسودهم الأَجَم، وقصُرت بهم هممهم حتى صاروا يخافون الصبح إذا هجم والظن اذا رجَم، وصارت رؤيةُ الدماء تُفزعهم فلو آحتاج أحدهم لتنقيص دم لمرِض لأحجم من خوفه وما آحتجم. وأباد الله الأرمن فل بالنّيل منهم الويل، وما شمّر أحد من الجنود الإسلامية عن ساعد إلا وشمّر هو من الذُّل الذّيْل، ولا أثارت الجياد من الخيل عِثْيَرًا منعقِدًا إلا وظنّوه مساءً قد أقبل أو ليل. وآنتهت نوبة القتل بهم والإسار إلى «التّكْفُور ليفون» ملك الأرمن الذى كان يحمى سَرْحَهم ويمّرد صَرْحَهم ، ويستنطق هَتْفَ التّار ويسترجع صَدْحهم ؛ وتعتزّ طرابُلس الشام بأنه خال إبرنسها الكافر، ولسان مشورته السفير ووجه تدبيره

السافر؛ وطالما غرّ وأغرى، وجرّ وأجرى، وضرّ وأضرى؛ فلما توكّل مولانا السلطان وعزم وعزم فتوكّل، وتحقق أن البلاء به قد نزل، وما تشكّك أن ذلك فى ذهن القَـدَر قد تصوّر وتشـكّل؛ وأنّ يومه فى الفتك سيكون أعظم من أمسه وأعظم منهما معاداة عِدِه، وأن نصر الله لن يُخلفه صادقُ موعده، أكل يده ندامةً على ما فرّط فى جَنْب الله؛ وساق الحَتْف لنفسه بيده فعمَر الله بروحه الخبيثة الدّرَكَ الأسفل من النار، وسقاه الحَتْف كأسا بعد كأس لم يكن لهـا غيرَ الهُلْك من خُمار. وكانت طرابلس هى ضالّة الإسلام الشريدة، وإحدى آبقاته من الأعوام العديدة؛ وكلما مرّت شمخت بانفها، وتأنّقت فى تحسين منازه مبازهها وتزيين رَيْحانها وعَضْعها، ومرّتْ وهى لا تُعازل مَلِكا بطرْفها وكلما تقادم عهدها تكثرت بالأفواج والأمواج من بين يديها ومن خلفها؛ إذ البحر لها جِلْباب والسحاب لها خِمار، وليس بها من البَرّ إلا بمقـدار ساحة الباب من الدار؛ كأنها فى سِيف ذلك البحر جبلٌ قد آنحطّ، أو مَيْل آستواء قـد خرج عن الحط، وما قصد أحدٌ شطّها بنكاية إلا شطّ وآشتط؛ قدّر الله أن صرف مولانا السلطان إليها العِنان، وسبق جيشه اليها كلّ خبر وليس الخبر كالعِيان، وجاءها بنفسه النفيسة والسعادةُ قد أحرسته عيونَها وتلك المخاوف كلّهن أمان، وقد آتخذ من إقدامه عليها خير حبائل ومن مفاجآته لهـا أمدّ عِنان؛ وفى خدمته جنود لا تستبعد مَفَازة، وكم راحت وغدتْ وفى نفوسها للأعداء حَزازة؛ فآمتطَوْا بخيولهم من جبال لُبنان تيجانًا لهـا صاغتها الثلوج، ومعارجَ لا تُرافق بها غير الرياح الهُوج؛ وآنحطّت تلك الجيوش من تلك الجنادل، آنحطاط الأجادل، وآندفعوا فى تلك الأوعار آندفاع الأوعال، ولم يَحفِل أحد منهم بسَرَبٍ لاصق ولا بجبل شاهق فقال: هذا منخفضٌ أو عالٍ؛ وشرعوا فى التحصيل لما يُوهى ذلك التحصين، وآبتناءِ كلِّ سُور أمام أسوارها من التدبير الحسن والرأى الرصين؛ فما لبثوا إلا مقدار ما قيل

لهم: دونكم والآحتطاب، ونقل المجانيق على الخيل وعلى الرقاب؛ حتى جرُّوها بأسرعَ من جرّ النَّفَس، وأجْرَوْها على الأرض سفائنَ وكم قالوا: السفينةُ لا تَجْرى على يَبَس. وفى الحال نقلت إليها فرأوا من مُتَوقِّلها(١) من يمشى بها على رجلين ومنهم من يمشى على أربع، ووجّهت سهامُها وجوهَها إلى منافذها فما شوهدت منها عينٌ إلا وكان قُدّامها منها إصبع؛ وأُلقيت العداوة بين الحجارة من المجانيق وبين الحجارة من الأسوار، فكم نَقَبت ونقّبت عن فِلْذة كَبِدها عن أسرار؛ وأُوقِدت نِيرانُ المكايد ثمّ فكم حولها من صافن ومن صافر، وكم رمتهم بشرر كالقصر فوقع الحافر كما يقال على الحافر. وما برحت سُوق أهل الإيمان فى نَفَاق على أهل النِّفاق، وأكابرهم تساقُ أرواحهم الخبيثة إلى السِّياق. وكان أهل عَكّاء قد أنجدوهم من البحر بكلّ بَرّ، ورموا الإسلام بكل شَرَرٍ وكل شرّ؛ فكان السهم الذى يخرج منها لا يخرج إلا مقترنا بسهام. وشُرُفات ذلك الثغر كالثنايا ولكنها لكثرة من بها لا تفترّ عن آبتسام؛ وما زالت جنود الإسلام كذلك، ومولانا السلطان لا تُرَى جماعةُ مُقْدِمَةٍ ولا متقدِّمةٌ إلا وهو يُرَى بين أولئك. وآستمرّ ذلك من مُستهلّ شهر ربيع الأول إلى يوم الثلاثاء رابع شهر ربيع الآخر، فزحف عليها فى بُكْرة ذلك النهار زَحْفًا يقتحم كلَّ هَضْبة ووَهْده، وكلّ صُلْبة وصَلْده، حتى أنجز الله وعدَه، وفتحها المسلمون مجازا وفى الحقيقة فتحها وحدَه؛ وطلعت سناجق الإسلام الصُّفْر على اسوارها، ودخلت عليهم من أقطارها، وجاست الكتّابة حِلال ديارها؛ فآحتازها مولانا السلطان لنفسه مِلْكا، وما كان يكون له فى فتحها شريك وقد نفى عنها شِرْكا؛ وكلما قيل: هذه طرابُلُس فُتِحت قال النصر بمن قتل فيها من النُّجُد الواصلة وأكثر عكا(٢) وأهل عكا؛ وأعد لله فوة الكفر بها أنكاثا.

(١) توقل فى الجبل: صعد.

(٢) كذا وردت هذه الكلمات بالأصل، وهى كما يظهر قلقة غير واضحة.

وكان أخذُها من مائة سنة وثمانين سنة فى يوم ثلاثاء وآستُرِدّتْ فى يوم الثلاثا . ولما عمّت هـذه البشائر[و] وكَل بها مولانا السلطان إلى كلّ من يستجلى حسان هـذه العرائس، ويستحلِي نفيس هذه النفائس؛ سيّر مولانا السلطان إلى مولانا بُشْرى فقعقع بهـا البريد، لتُتلَى بأمر مولانا على كل من ألقى السمع وهو شهيد ، وكما عمّ السرور بذلك كلّ قريب قصد أن يعُمّ الهناءُ كل بعيد . وأصدر المملوك هذه الخدمة تحجّب بين يدى نجواها، ويتوثّب بعد هذه المفاتحة لكلّ سانحةٍ يحسن لدى المولى مستقرّها ومثواها . لا برح المقـام يستبشر لكُماة الإسلام بكل فضل و بكلّ نُعْمَى، و يفرح لسَرْح الكفر إذا آنْتُهِك ولسفح المُلْك إذا يُحْمَى، ولسمع الشِّرك إذا يُصَمّ ولقلبه إذا يُصْمَى .

وكتب المولى محيي الدين أيضا عن نفســه مطالعةً إلى السلطان الملك المنصور يهنّئه بهذا الفتح :

هُنِّئتَ يا مـلكَ البَسـيطهْ * فتحًا به النُّعمَى مُحِيطـه
وبَقِيتَ يا خـير المـلو * ك بسيفك الدّنيا محُوطَـه

يقبّل الأرض و يبتهل إلى دُعاءٍ صالحٍ يقدّمــه بين يدى بِشْره و بُشْراه، وكلّ مقام محمود من الإجابة يحوّله فى سِرّه ونجواه ؛ و يُهَنّىء بهـذا الفتح الذى كم مضى مَلِكٌ وفى قلبه منه حَسْره، وما آدّخر الله إلا لمولانا السلطان أجرَه وفخرَه . فالحمد لله على هذا النصر العزيز وهذا الفتح المبين، والظفر الذى أعطاه الله إيّاه فى شهر وقد أقامت جموعُ الكفر حتى حازت بعضَه فى مُدّة سبع سنين . وله الشكر على أن جعل الكفر من بعد قوةٍ أنكاثًا ، وجعل أخذ مدينة طرابُلس من الكفّار فى يوم الثلاثاء وكان أخْذُها من المسلمين فى يوم الثلاثاء؛ وله المِنّة فى ردّ هـذه الأخِيذة ، وجعلها بين يدى مولانا السلطان مَنْبوذة . ثم المنّة لله على أن سطر فى سيرة مولانا السلطان هذه

(٧٣)

السَّنَة، وجعلها ما بين نومة عين وآنتباهتها فى أقرب من سِنَة، وردّ إباقها على المسلمين بعد أن أقامت هاربة عند الكفار مائةَ سنة وستًّا وثمانين سنة؛ والله يلحق بها فى الفتح أخواتِها من المدن، ولا يلبث إن شاء الله هاديا بها بعدها مثل عَكّاء وصُور وصَيْدَا حتى يراهنّ الى قبضته قد عُذْن، إن شاء الله تعالى .

وكتب إلى الأمير حسام الدين طرنطاى عن الأمير بدر الدين بيدرا فى ذلك :

المملوك يهنئ بهذا الفتح الذى كادت به هذه الغزوة تزهو على غيرها من الغزوات وتتيه، وأشرقت الأرضُ بنور ربها آبتهاجًا بما أمضاه الله منه وما سيُمضيه، وبما سيُعطيه حتى يُرضيه، وذلك أن فتح طرابُلُس التى طالما شمَخت بأنفها على الملوك، وكم أبتْ على مستفتِح فما قال لغيره إباؤها : لله أبوك ؛ وأخّر الله مدّتها إلى خير الأزمان، وفتحها على يدى سلطاننا الذى حقّق الله به آمالًا تنفُذ إلا منه بسلطان. فالحمد لله الذى عضَد هذا الملك من مولانا بخير من دبّره، وحماه منه بأقطع حُسامٍ جرّده الله لنقض ما أمَرّه؛ وما من فُتوح ولا أمر ممنوح إلا ومولانا مُنَضِّد عقودِه، ومجهِّز بَرِيدِه، ومطلع سعودِه، ورافع علمه، ومُمْضِى سيفه ومُرضِى قلمه . فأمتع الله الأمة من مولانا السلطان بسلطان يستردّ لهم الحقوق ويتقاضى الديون ، وأمتع الله سلطانها من مولانا بمن آراؤه أقفال الممالك وسيوفه مفاتيح الحصون .

ومن إنشاء المولى شهاب الدين محمود الحلبى ما كتب به عن الأمير سيف الدين سلّار نائب السلطنة الشريفة إلى النائب بقلعة الجبل عند كسرة التتار بمَرْج الصُّفَّر فى شهر رمضان سنة آثنتين وسبعمائة :

وبشّره بالفتح الذى أعاد الله به الأمة خَلْقًا جديدا ، والنصرِ الذى أنزل الله فيه من الملائكة أنصارا للملّة وجنودا، والظفرِ الذى أطفأ الله به من نار الكفر ما لم يكن

يرَهَب خُمودا ، والغزوةِ التى زلزل الله بها جبالَ أهل الشرك وقد تدفّقت على الأرض أمثال البحار عددا وعديدا . المملوك يقبّل اليد العالية التى لها من هذه النُّصرة و إن لم تبلغها أجرُ الرامى المسدِّدِ سهمَه ، المعجِّلِ من التهانى غُنْمَه ، الموفِرِ من المحامد الجزيلة قِسمَه ؛ ويهَنِّىء المولى بهـذا الفتح الذى مدّ الله به على الأمة جناح رحمته وفضله ، ومنّ على أيّامنا الزاهرة فيه بالشأم وأهله ، وبَرَز فيـه الإسلامُ كلّه للشرك كلّه . ولله الحمد الذى أعز دينَه ونَصَرَه ، وحصَد بسيوف الإسلام عدوَّ دينه بعد أن حَصَره ؛ وأباد جيوشَ الشِّرك وهم مائة ألف أو يزيدون ، وأفنى أحزاب أهل الكفر وكانوا أمثالَ الرمال لا يُعَدّون ؛ ويُنْهِى أنّ علمه الكريم قد أحاط بمـا كان من أمر هذا العـدوّ المخذول ودخوله إلى البلاد المحروسة بجيوشه وكتائبـه وجُموعه وجُنوده من أشياع أهـل الكفر وأحزاب الشرك . ولمـا تواصلت الأخبارُ بقُربه ، وآستعدادِه بحزبه ، ومهاجمتِه البلاد ، و إيقاعِ الرُّعب فى قلوب أهلها بالتنوّع فى الفساد ؛ ساق الرّكابُ الشريف فى طلبه يَطْوِى المَرَاحل ، ويقطَع فى كلّ يوم منزلتين بل منازل . ولمـا حَلّ الركاب الشريف بمَـرج الصُّفَّر على مَرْحلة من دمشق المحروسة فى يوم السبت مستهلّ شهر رمضان المعظَّم زُيِّنَتِ العساكرُ المنصورة لِلقاء حال وصولهـا ، وآستعدّت للحرب دون تشاغُلٍ بأسباب نُزولها ؛ فوافى العدوّ المخذولُ فى مائة ألف من جيوش تسيل كالرمال ، وتعلو الجبالَ بأشدَّ من الجبال ؛ وحين وصلوا حَملوا على الميمنة بجُملتهم ، وقصـدوا إزاحتَها عن موقفها بحملتهم ؛ فتلقّتهـم الجيوشُ المنصورة بنفوس قد بايعت اللهَ على لقاء عدوّ الله وعدوِّها ، ووثِقت بمـا أعد الله لهـا من الجزاء فى رواحها فى سبيله وغُدُوِّها ؛ وصَدَمتهم صدمةً كسرت حدَّهم ، وأوهنت شِدّتهم وشَدَّهم ؛ وأزالت طمَعَهم ، وأبانت ظَلَعهم ؛ وسالَت[1] عليهم الجيوشُ المنصورةُ من (٧٤)

(١) فى الأصل : «وأسالت» .

كلّ جانب، وحَمِيت الحرب بين الكتائب الإسلاميّة وبين تلك الكتائب؛ ودخل الليل ونار الحرب تشتعل، والجياد من المحاجر تَحْفَى وبالجماجم تَنْتَعِل ؛ فأووْا إلى جبال آعتصموا بهضابها، وآحتَمَوْا بتوعّر مسالكها وضيق عِقَابها؛ وأحاطت بهم الجيوشُ المنصورةُ لحَوْسهم[(١)] لا لحِفْظهم، وتَضُمّ أطرافَهم لا لحُبّهم بل لبُغْضهم؛ فكانوا — بعد كثرةِ مَن قُتِل منهم فى المعركة الأولى أو فَرّ من أوّل الليل — جمعًا يناهز الأربعين ألف فارس، فأصبحوا يعاودون القتال، وينزلون إلى أطراف الجبال للنّزال؛ والجيوشُ المنصورة تلزَمهم من كل جانب، وتُحَكِّمُ فى أبطالهم القنَا والقواضب. وجرت فى أثناء ذلك حَمَلاتٌ ظهَر فى كلّ منها خَسارُهم، وشهِد عندهم بما يكابدون قتلُهم وإسارُهم؛ وبعد ذلك نزلوا من جانب واحد يطلبون الفِرار، ويتوقّعون القتل إن تعذّر الإسار؛ فساقت خلفهم الجيوش المنصورة تتخطّفهم رِماحُها، وتتلقّفهم صِفاحُها؛ وتقاذفت بمن نجا منهم الفَلَوات، وغرّقتهم أمواج السَّراب قبل أمواج الفُرات؛ فأُخِذُوا قَنْصا باليد من بطون الأودِية ورءوس الشِّعاب، ولم يحصُل أحد منهم على الغنيمة بالإياب؛ وقُتِل أكثر مقدّمى التمانات[(٢)] وفرّ كبيرهم وأنَّى له الفِرار، وبين يديه مفاوز إن سلك منها تناولته بأرماح من العطش القِفار. فليأخذ المولى حظّه من هذه البُشْرى التى تُنْبِىء عن الفتح العظيم والفضل العميم، والنُّصرة التى حفِظ الله بها على الإسلام البلادَ والثغورَ والأموالَ والحريمَ؛ ويكتُبْ إلى البلاد بمضمونها، ويَسُرّ قلوب أهل الثغور بمكنونها؛ ويستنهض المولى الأُمّة لشكر الله عليها، ومن ذا الذى يقوم بشكر ذلك! ويعرِّفْهم مواقع هذه النُّصرة التى أنجد الله فيها الإسلام بالملائك؛ ويَتَقدَّمْ أمرُه بضرب البشائر بكلّ مكان، ويَشْهَر فى جميع الثغور أن عدوّ

(١) فى الأصل : «لحرسهم» بالراء . والحوس : القتل .

(٢) فى أحد الأصول : «التومانات» .

الله وعدوُّ الإسلام دخل فى خبرِ كان؛ وأن الله تعالى كسرَ جيوش التتار كسْراً لا يُجبَر صَدْعُه، ولا يتأتّى إن شاء الله تعالى جَمْعُه. والله تعالى يُسمعه من التهانى كلّ ما يَسُرّ الإسلامَ وأهلَه، و يشكر قولَه فى مصالح الإسلام وفعلَه؛ إن شاء الله تعالى .

البـاب الثـانى

من القسم الرابع من الفن الثـانى

فى المـــراثى والنـــوادب

والمراثى إنما جُعلت تسليةً لمن عضّته النوائب بأنيابها ، وفرّقت الحوادث بين نفسه وأحبابها؛ وتأسيةً لمن سبق الى هذا المَصْرَع ، ونهِل من هذا المَشْرَع؛ ووثُوقا باللّحاق بالمـاضى ، وعلمًا أنّ حادثة الموت من الديون التى لا بدّ لها من التقاضى؛ وأنه لا سبيل إلى الخلود والبقاء ، ولا بدّ لكلّ نفس من الذّهاب ولكلّ جسد من الفناء . قال الله تعالى فى محكم تنزيله مخاطبة لرسوله : ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَائِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾. فليَرْضَ من فُجِع بخليله وشقيقه ، وصاحبه وصديقه ، وأهله وولده ، وجمعه وعَدَده ، وماله ومدده ، نفسَه الجـامحة فى ميادين أسفها وبكائها ، الجانحةَ إلى طلب دوائها من مَظَانّ أدوائها ، بزِمام الصبر الجميل ، لينال الأجرَ الكريم والثوابَ الجزيل ؛ فقد أثنى الله تعالى على قومٍ بقوله : (وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ) ؛ وقال تعالى إخبارا عن لُقْمَان فى وصيّته لابنه : (وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) . وليسترجعْ مَنْ أصابته مصيبة أو نزلت به بليّة ، وطَرقته حادثةٌ أو ألمّتْ به رزيّة ؛ لمـا جعل الله تعالى للمسترجع بفضله ومنّه ، من صَلاته عليه ورحمتــه ؛ قال الله عز وجل :

﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ . وليتأسّ الفاقد برسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد جعل الله فيه أسوةً حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر، وليَقْتَدِ بأصحابه رضى الله عنهم ليفوز بثواب الصابر ويحوز أجر الشاكر .

(٧٥) وباب الرِّثاء فهو باب فسيح الرِّحاب والنوادى، فصيح اللسان فى إجابة المنادى ذى القلب الصادى؛ متباين الأسلوب، مختلف الأطراف متباعد الشعوب؛ منه ما يُضْمِى القلوب بنِباله، ومنه ما يُسَلِّيها بلطيف مَقاله؛ ومنه ما يبعثها على الأسف، ومنه ما يَصرِفها عن موارد التلَف . وقد أكثر الشعراء القول فى هذا الباب، وآرتقَوْا الذِّروة العلياء من هــذه الهِضاب؛ ووجدوا مكان القول ذا سعةٍ فقالوا، وأصابهم هجير اللوعة فمــالوا إلى ظِلّه وقالوا . قال الأصمعىّ : قلت لأعرابىّ : ما بالُ المراثى أشرف أشعاركم؟ قال : لأنا نقولها وقلوبنا محترقة . وعلى الجملة فالموت هو المصيبة التى لا تُدْفَع، والرزيّة التى لا تُرَدّ بكثرة الجموع ولا تُمنع؛ والحادثةُ التى لا تنصرف بالفِــداء وإن جلّ مقــدارُه، والنازلةُ التى لا تتأخر عن وقتها بالدعاء وإن عظُمت فى غيرها آثاره؛ وهو أحد الأربعة التى فُرِغ منها، وصُرِفت وجوهُ المطامع عنهــا .

وقد قالت الحكماء : أعظم المصائب كلِّها آنقطاع الرجاء . وقالوا : كل شىء يبــدو صغيرا ثم يعظُم إلا المصيبة فإنها تبــدو عظيمةً ثم تصغُر . وقالوا : لا يكون البكاء إلا من فضل، فإذا آشتدّ الحزن ذهب البكاء . قال شاعر :

فلئن بكَيْنــاه لَحَــقّ لنــا * ولئن تركنا ذاك للصّــبْرِ
فلمثــله جَرَتِ العيونُ دَمًا * ولمثــله جَمُــدَت فلم تجْــرِ

وقيل : مرّ الأحنف بآمرأة تبكى ميّتا ورجلٌ ينهاها؛ فقال : دعها فإنها تندُب عهــدًا وسفَرًا بعيدا . قيل لأعرابيّــة مات آبنها : ما أحسنَ عزاءَك ؟ قالت :

إنّ فقدى إيّاه آمننى كلَّ فقدٍ سواه، وإنّ مُصيبتى به هوّنتْ علىّ المصائبَ بعــده؛ ثم أنشأت تقول :

كنتَ السوادَ لمُقْلتى * فعَمِى عليكَ النّـاظرُ
مَنْ شاء بعدَك فلْيَمُتْ * فعليـك كنتُ أحاذرُ
ليتَ المنـازلَ والدّيا * رَ حفـائرٌ ومَقَــابِرُ
إنِّى وغَـيرى لا محـا * لةَ حيثُ صِرتَ لصائرُ

وقد نقل أبو الفرج الأصفهانى : أن بعض هذا الشعر لإبراهيم بن العباس بن محمد بن صُولٍ يرثى آبْنًا له فقال :

أنت السوادُ لمقــلةٍ * تَبْكِى عليــك وناظرُ
مَنْ شاء بعدكَ فليَمُتْ * فعليـكَ كنتُ أُحاذِر

ولم يزد على هــذين البيتين شيئا . أخذ الحسن بن هانىء معنى البيت الأول فقــال فى الأمين :

طوى الموتُ ما بينى وبين محمدٍ * وليس لـما تطوى المنيّةُ ناشرُ
وكنت عليه أحذرُ الموتَ وحدَهُ * فـلم يبقَ لى شىء عليـه أُحَاذِرُ
لئن عَمَرَتْ دورٌ بمن لا نُحبّه * لقــد عَمَرت ممّن نُحِبّ المقـابر

وقيل : من أحسن ما قيل فى التّعازى أنّ أعرابيًّا مات له ثلاثة بنين فى يوم واحد فدفنهم وعاد إلى مجلسه، فجعــل يتحدّث كأن لم يفقِد أحدا؛ فَلِيم على ذلك، فقال : ليسوا فى الموت ببديع، ولا أنا فى المصيبة بأوحد، ولا جَدْوَى للجزع، فعَلَامَ تلومونى، وهذه ثلاثة الأقسام لا رابع لها! . وعزّى أعرابىّ رجلا فقال : لا أراك الله بعــد مصيبتك ما يُنْسِيكَها . وقيل : لـمّـا دفن على بن أبى طالب رضى الله عنه فاطمةَ رضى الله عنها تمثّل على قبرها بهذين البيتين :

لكل آجتماعٍ من خليلين فُرْقــة * وكلُّ الذى دون المــات قليلُ
وإن آفتقادى واحدًا بعد واحد * دليــلٌ على ألّا يدومَ خليـــلُ

(٧٦) وعزّى علىٌّ بن أبي طالب رضى الله عنــه الأشعثَ بن قيس عن آبنه فقال : إن تحزَنْ فقد آستحقّتْ ذلك منك الرَّحِم ، و إن تَصْبِر ففى الله خَلَفٌ من كلّ هالك ، مع أنك إن صبَرت جرى عليــك القدرُ وأنت مأجور ، و إن جَزِعت جرى عليــك القدر وأنت موزور؛ سرّك الله وهو بلاءٌ وفِتنة ، وحزَنَك وهو ثواب ورحمة .

وعزّى أكثم بن صَيْفِيّ حكيمُ العرب عَمرو بن هند الملك عن أخيه فقال : أيها الملك ، إنّ أهل هذه الدار سَفْر لا يحلُّون عُقَدَ الرحال إلا فى غيرها ، وقد أتاك ما ليس بمردودٍ عنك، وآرتحل عنك ما ليس براجع إليك ، وأقام معك مَنْ سَيَظْعَن و يدعُك؛ فمــا أحسنَ الشكرَ للنعم والتسليم للقادر! وقد مضت لنا أصول نحن فروعها، فما بقاء الفرع بعد أصــله ! وآعلم أن أعظم من المصيبة سوءُ الخَلَف منها ، وخيرٌ من الخير مُعطيه، وشرٌّ من الشر فاعلُه .

وقال آبن السَّماك : المصيبة واحدة ، فإن كان فيهــا جَزَعٌ فهى آثنتان . وقال أبو على الرّازى : صَحِبتُ الفُضَيْل بن عِيَاض ثلاثين سنة ما رأيته ضاحكا ولا متبسّما إلا يوم مات آبنــه علىّ؛ فقلت له فى ذلك ؛ فقال : إنّ الله أحبَّ أمرًا فأحببتُ ما أحبَّ الله . وقال صالح المُرِّىّ : إن تكن مصيبتُك فى أخيك أحدثتْ لك خشيةً فنعم المصيبةُ مصيبتُك ، و إن تكن مصيبتك بأخيك أحدثت لك جَزَعاً فبئست المصيبةُ مصيبتُكَ . وقال علىّ بن موسى للفضــل بن سهل يعزّيه : التهنئــةُ بآجل الثواب أولى من التعزية على عاجل المُصيبة . وعزّى رشيدَ رجل فقال : كان لك الأجرُ يا أمير المؤمنين لا بك، وكان العزاءُ لك لا عنك . أخذه الآخر فقال :

كن المُعَــزَّى لا المُعزِّى به * إن كان لا بُدَّ من واحد

وقال عمر بن عبـد العزيز لابنه عبـد الملك وقد اشتدّ به الألمُ : كيف تجِدُك يا بُنىّ؟ قال : أجدنى فى الموت، فاحتسِبْنى، فإنّ ثواب الله خيرلك منى . قال : والله يابُنىّ لأن تكون فى ميزانى أحبُّ إلىّ من أن أكون فى ميزانك . قال : وأنا والله لأن يكون ما تُحِبُّ أحب إلىّ من أن يكون ما أُحِبُّ .

وعزّى شبيب بن شبّة أبا جعفر المنصور بأخيـه أبى العباس السفّاح فقال : جعـل الله ثواب ما رُزِئْتَ لك أجرا ، وأعقبك عليه صَبْرا، وختم لك بعافية تامّة، ونعمة عامّة؛ فثوابُ الله خيرٌ لك منه ، وأحقُّ ما صُبِر عليه ما ليس إلى تغييره سبيل .

ودخل البَلَاذُرِىّ على علىّ بن موسى الرِّضَا يعزّيه بابنه فقـال : أنت تَجِلّ عن وصفنا ، ونحن نقصُر عن عِظَتِك، وفى علمك ما كفاك، وفى ثواب الله ما عزّاك .

فهذه نُبذة فى التعازى كافية، وجُنّة لمن تحصّن بها من ذوى الفجائع واقيـة . فلنذكر المراثى .

ذكر شىء من المراثى والنوادب

ولنبدأ من ذلك بمـا قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم، و بشىء ممـا قيل عند (٧٧) وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم . فمن ذلك ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم وفاة ولده إبراهيم عليه السلام : "يا إبراهيم لولا أنه أمرٌ حَقٌّ ووعدٌ صِدْقٌ وأن آخِرَنا سيَلْحَقُ أوّلَنا لَحَزِنّا عليك حزنا هو أشدّ من هذا و إنّا بك يا إبراهيم لمحزونون تَبْكى العينُ و يحزَن القلب ولا نقول ما يُسْخِط الربّ" . ذكره الجوّانىّ النسّابة فى شجرة الأنساب، وذكره غيره مختصرا .

ومنه ماروى أنّ فاطمة رضى الله عنها وقفت على قبره صلى الله عليه وسلم وقالت :

إنّا فقــدناك فَقْــدَ الأرضِ وابلَها * وغاب مذ غِبْتَ عنّا الوحى والكُتُبُ
فليت قبــلك كان الموتُ صادفَنــا * لمّـا نُعيتَ وحالت دونك الكُثُبُ

ووقف علىّ رضى الله عنه على قبره صلى الله عليه وسلم ساعة دُفن وقال : إنّ الصبر لجميلٌ إلّا عنك، و إن الجَزَع لَقبيحٌ إلا عليك، و إنّ المصاب بك لجليل، و إنه قبلك و بعدك لجَلَل . وقد ألمّ الشعراء بهذا المعنى؛ فقال إبراهيم بن إسماعيل فى علىّ ابن موسى الرِّضا :

إنّ الرزيّة يا ٱبن موسى لم تَدَعْ * فى العين بعدك للمصائب مَدْمَعا
والصبرُ يُحْمَــدُ فى المواطن كلّها * والصــبرُ أن نبكى عليك ونَجْزَعا

ووقف أعرابىّ على قبر رســول الله صلى الله عليه وســلم فقال : قلتَ فقبلنا، وأمرت فحفظنا، وقلتَ عن ربّك فسمعنا : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا اللهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾، وقد ظلمنا أنفسنا وجئناك فٱستغفر لنا، فمـا بقيت عينٌ إلا سالت .

ودخل عمر بن الخطاب على أبى بكر الصِّدّيق رضى الله عنهما فى مرض موته، فقال : يا خليفة رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، لقــد كلّفتَ القوم بعدك تَعَبا، وولّيتهم نَصَبا، فهيهات مَنْ شقّ غُبَارَك! وكيف باللّحاق بك! .

وقالت عائشة أمّ المؤمنين رضى الله عنها وأبوها يُغَمَّض :

وأبيض يُسْتَسْقَى الغَمَامُ بوجهه * ثِمـالُ اليتامى عِصْمةٌ للأرامل

فنظرَ إليها وقال : ذاك رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم أُغْمِى عليه، فقالت :

لَعَمْرُك ما يُغْــنِى الثَّرَاءُ عن الفــتى * إذا حَشْرَجَتْ يومًا وضاق بها الصدرُ

فنظر إليها كالغضبان وقال : قولى : ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ

مِنْهُ تَحِيدُ﴾ . ثم قال : ٱنظروا مُلاءَتَىَّ فٱغسلوهما وكفِّنونى فيهما ، فإن الحىَّ أحوجُ إلى الجـديد من الميِّت . ووقفتْ رضى الله عنها على قبره رضى الله عنه فقالت : نضّر اللهُ وجهك، وشكر لك صالح سَعيك ؛ فقد كنتَ للدنيا مُذِلاًّ بإدبارك عنها ، وكنتَ للآخرة مُعِزاًّ بإقبالك عليها ؛ ولئن كان أجلُّ الحوادث بعد رسول الله صلى الله عليـه وسلم رُزءك ، وأعظمُ المصائب بعـده فقدك ؛ إن كتاب الله لَيَعِدُ بحسن الصبر فيك وحسن العِوَض منك ؛ فإنا لنتنجّز موعودَ الله بحسن العَزَاء عليك ، وأستعيضه منك بالاستغفار لك . أَمَا لئن كانوا أقامُوا بأمور الدنيا لقد قمتَ بأمر الدِّين حين وَهَى شَعْبُه ، وتفاقم صَدْعُه ، ورَجَفت جوانبه . فعليك السلام ورحمة الله توديعَ غير قاليةٍ لك ، ولا زاريةٍ على القضاء فيك . ثم ٱنصرفت .

ولمـا قُبض رضى الله عنه سُجِّى عليـه بالثوب ، فٱرتجّت المدينة بالبكاء ودَهِش القوم كيومَ قُبِض رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ؛ (٧٨) وجاء علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه باكيًا مسرعا مُسْتَرجِعا حتى وقف بالباب وهو يقول : رحمك الله أبا بكر، كنتَ والله أوّلَ القوم إسلاما ، وأخلصَهم إيمانا ، وأشدَّهم يقينا ، وأعظمَهم غَنَاء ، وأحفظَهم على رسول الله صلى الله عليـه وسلم ، وأحدبَهم على الإسلام ، وأحناهم على أهـله ، وأشبَهَهم برسول الله صلى الله عليه وسـلم خُلُقًا وفضلًا وهَدْيًا وسَمْتا ؛ فجزاك الله عن الإسلام وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم خيرا ، صدّقتَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم حين كذّبه الناس ، وواسيتَه حين بَخِلوا ، وقمت معه حين قعدوا ، وأسماك الله فى كتابه صِدّيقا فقال : ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ ، يريد محمدا ويريدك . كنت والله للإسلام حصنا وعلى الكافرين عذابا ، لم تُفْلَلْ حُجّتُك ، ولم تضعُف بصيرتُك ، ولم تجبُن نفسُك . كنت كالجبل الذى لا تحرّكه العواصف ولا تُزيله القواصف . كنت كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ضعيفًا فى بدنك ،

قويًّا فى أمر الله، متواضعًا فى نفسك، عظيمًا عند الله ؛ جليلًا فى الأرض، كبيرًا عند المؤمنين. لم يكن لأحد عندك مَطْمَعٌ ولا لأحد عندك هَوَادة ؛ فالقوى عندك ضعيف حتى تأخذَ الحقّ منه ، والضعيفُ عندك قوىّ حتى تأخذ الحقّ له . فلا حرمَنا اللهُ أجرك، ولا أضلّنا بعدك .

فانظر إلى هذا الأسلوب العجيب ، وتأمّل هذا النّمط الغريب ؛ الذى جمع بين سلاسة الألفاظ و إيجازِها ، و إصابة المعانى و إعجازها . ولا يُستكثر على من أُنزِل القرآن بلغتهم، أن يكون هذا القول من بَدِيهتهم .

* * *

ولنذكر لُمْعَةً من رسائل البلغاء والفضلاء، ولَمْحَةً من أشعار الأدباء والشعراء .

فمن ذلك رسالة كتبها الوزير الفقيه الكاتب أبو القاسم محمد بن عبد الله بن الجدّ، إلى الوزير الفقيه أبى القاسم الهُوزنى يعزّيه عن أخيه ، ابتدأها بأن قال :

لا بُدّ مِن فقـدٍ ومن فاقدِ . هيهات ما فى الناس من خالدِ
كُن المُعَـزَّى لا المعـزِّى به * إن كان لا بُدَّ من الواحد

إذا لم يكن بُدٌّ من تجرُّع الحِمام ، وتَشتُّتِ النِّظام ، وآنصِداع شَمْل الكرام ، فمن الآتفاق السعيد والقدر الحميد أن يرث أعمارَ البِنْيَةِ الكريمة مُشَيِّد عُلاها ، وتَسْلَم من القِلادة وُسْطاها، فمدار الكانة على مُعَلّاها، ونخارُ الحَلْبة مُحْرِز مَداها . وفى هـذه النُّبذة إشارة إلى من فرَط من الإخوة النبلاء، ودرَج من السادة النُّجَباء؛ فإنهم وإن كانوا فى رتبة الفضل صُدورا ، وغَدَوا فى سماء النُّبل بدورا ، فإنّ شمس علائك أبهرُ أضواءً وأزهرُ أنوارًا، وظِلّ جنابك على بنيهم ومُحِبّيهم أندى آصالا وأبردُ أسحارا .

نُعِى إلىّ — أوشك الله سلوانك، ولا أخلى من شخصك الكريم مكانك! — الوزيرُ

أبو فلان، برّد الله ثراه، وكرّم مثواه ؛ فكأنّما طَعَن ناعِيه فى كَبِدى، وظَعَن باكيه بذخيرة جَلَدى . لا جَرَمَ أنّى دُفِعتُ إلى غمرة من التّلَدُّد لو صُدِم بهـا النجمُ لحار، أو دُهِم بها الحَزْم لخار؛ ثم ثابتْ إلىّ نفسى وقد وقَذَها الجَزَع، وعضّها الوجَع؛ فأطلتُ الاسترجاع، وجمعت الجَلَد الشَّعاع؛ وها أنا عند الله أحتسبه جِمَاعَ فضائل، وجمالَ محافل؛ وحديقةَ مكارم صَوَّحتْ، وصحيفةَ محاسن دَرَست وٱمّحت . وما ٱقتصرت من رسم التعزية المألوف، على القليل المحذوف؛ إلا لعلمى بأن المعزَّى لا يُورد عليك غريبا، ولا يُسمعك من مواعظه عجيبا؛ فبك يقتدِى اللّبيب، وعلى مثالك يحتذِى الأديب، وإلى غَرَضك فى كل موطن يُوفِى[1] المُصيب؛ وفى تجافى الأقـدار عن حَوْبائك، وسقوطها دون فِنائك؛ ما يدعو إلى حسن التعزية . لا صدَع الله جمعَك، ولا قرَع بنبأة المكروه سمعَك .

(٧٩) ومن إنشاء القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى :

ورد الخبر بمصرَع فلان الذى عزّ على المعالى، وعُزِّيت به الليالى؛ وسقط به نجمُ الشرف وهَوَى، وجفّ به روض الكَرَم وذَوَى؛ ونقصت الأرض من أطرافها، ورَجَفت الجبال من أعرافها؛ وبكت عليه السماء فإنّ يده كانت من سُحبها، وتناثرت له النجوم فإنّ عزمه كان من شُهُبها؛ واظلمت فى عينى الدنيـا الظالمة، وتجرّعتُ منها كأسا لا تُسيغها النفسُ كاظمة؛ وتقسّمت الأيامُ فريقين فى مودّتى وعداوتى، فآهًا على السالفة ولا مرحبًا بالقادمـة؛ وأصبحت أخوض المـاء وأحشائى تتقطّع غليلا، وأرى الناس كثيرا بعينى وبقلبى قليلا .

وما النّاسُ فى عَيْنِىّ إلّا حجارةٌ * لبينك والأعراسُ إلا مآتِمُ

(١) كذا بالأصول . ولعله محرف عن : «يرمى» .

فقد ٱستوحشت الدنيا لفقــده، وٱرتابت بنفسها مِنْ بعــده، وعلمتْ حلاوةَ قربه بمرارة بُعــده ؛ وٱنصرف ذوو الأبواب عن بابه ، وٱجتنبت الآمال مَغْنَى جنابه ، وبكت الرياض على آثار سحابه .

فإنْ يُمسِ وَحْشًـا بابُهُ فَلَرُبّمـا * تناطح أفواجًا عليــه المواكبُ

ومن إنشائه أيضا رحمه الله تعالى : ما شككتُ — أطال الله بقاءك — حين ورد النعي بالمصائب التي قَصَمت الظهورَ بمكروهها، وحَسَرت فيهـا الحسراتُ عن وجوهها، أنّ السماءَ على الأرض قد ٱنطبقت، وأنّ الأيامَ ما أبْقتْ والسـعادةَ قد أَبِقَتْ، والحياةَ لم يبق فى طولها طائل ، والصـبرَ بهجير اللوعة ظِلٌّ منسوخٌ زائل؛ وشمسَ الفضائل قد غرَبت وكيف بطلوعها، ونفسَ المكارم قد نُزِعت من بين ضلوعها؛ وغابَ الإسلامِ قد غاب منه أىُّ لَيْث، ورياضَ الآمال قد أقلع عن سُقياها أىُّ غيث . فإنّا لله وإنا اليه راجعون، رضًا بحكمه، وتجلُّداً على مارمى به الحادث من سهمه، وطَبًّا للقــلوب على مَضَض البلاء وكَلْمه، وفراراً من الجمع بين مصيبة الفاقد وإثمه. وسقى الله ذاك الضريحَ ما شاء أن يسقيه من سحابٍ كصَوْب يديه، ورحمــه رحمةً تَحُفّ بجانبيه . وآهًا للماء العَذْب كيف ٱرتشفتْه النوازل وأبقت المِلْح، ثم آهًا للصباح الطَّلْق كيف ٱغتالته الأصائل وأطلقت الجُنْح؛ ووا-أسفا لتلك الذخيرة التى فذلكت بها الأيّام ذخائرى، والسريرةِ التى طالمـا صُنتها أن تمرّ بسرائرى؛ شَفَقًا عليها من سهام دهرٍ بالذخائر مُولَعة، وَسترًا لها من عين زمان على السرائر مُوقَعة . ولئن صحب قلبى بعده أضلعى، وتحمّلتُ بعد فقده على ظَلَعى؛ فإنّا غدًا على أثره، وإن كنّا اليوم على خبره . وقصْرُ الحياة الى قُصور، كما أن محصول غرورها غرور . والتأدّبُ بأدب الله أولى ما خفّف به المسلوب عن مَنكبه، وطريقُ السّلوان لابدّ أن يُراجعه عَزْم مُنَكّبه . فأنشُدها الله إلا جعلتْ مصيبتها مصيبةً على الشامت بمـا تلبَسه من صبر يَلْبِس عليه

المصيبةَ فيشبِّهها بنِعْمة، وبما تستشعره من تجلُّد فى النازلة يُنْزِل عليها صلواتٍ من ربِّها ورَحْمة. ولن ترى أعجب من مُصاب لا ترى به إلا مُصابا، وساكنِ تُرْبٍ لم يبق بعده إلا من سقى بدمعه تُرابا؛ اشترك فيه الأُمَّتان العربُ والعجَم، وعُزِّى به العزيزان المجدُ والكرم، وآستباح الدهرُ به الصيدَ فى الحَرَم.

وتَشَابَهَ الباكُون فيه فلم يَبِنْ * دمعُ المُحِقّ لنا من المُتَعَمِّـلِ

وكتب أيضا فى مثـل ذلك : أخّرت مكاتبـة الحضرة — مدّ الله فى عمرها وفى صبرها وفى أجرها، وألهمها التسليم لحكم من هو غالب على أمرها — إلى أن تنقضى نَبْوة الخَطْب، وتضعَ الأنفاسُ أوزارها للحروب، ويُخرِجَ ماءُ الجفن نارَ القلب؛ وتَراجَعَ الخواطرُ إلى عاداتها، وتنظرَ فى الدنيا التى ما صُحِبت إلا على عادياتها ومُعاداتها؛ (٨٠) فتكون الحضرة عرَفت من غير تعريف، ووقفتْ على الحزم من غير توقيف؛ وتوفَّر عليها الثواب بغير مُشارِك، ورجعتْ إلى فهمٍ مُدْرِكٍ وصوابِ مدارِك. وتأخير التعزية عن البادرة خلافُ ما شُرع فيها، ولكن إنما يحتاج أن يُثَبِّت مَنْ صَبْرُه هاف، ويُرَمَّ مَنْ تجلُّده عاف. وقد علم الله آهتمامى وآغتمامى بفقد شيخها رحمـه الله وعدَمِها منه من لا عِوَض عنه إلا ثواب الله الذى يُهوِّن الوقائع، ويُوطِّن على الروائع. وأسباب التعزية غير واحدة، منها أنه إنما دَرَج فى السنّ التى هى مُعتَرَك المنايا، ومنها أنه ما خرج عن الدنيا الى أن رأى منها خَلَفًا يهوِّن الرزايا؛ ومنها أنه لقِى الله بعملٍ صالحٍ هو بمشيئة الله نجاته، ومنها أنه فارقها على الرضا عنها ويكفيها مرضاتُه، وعلى الدعاء المقبول لها ونعمت الجُنَن دعواته.

ولكن للألّاف لا بدّ حسرةً * إذا جعلتْ أقرانُهـا تتقطع

ومنهـا أن الحزن لو أُطيع والجـزع لو أُسيع لمـا أفضى إلى مُراد، ولا أعاد ميِّتا قبل المَعاد. وأحقُّ متروك ما يأثم ذنبه، ويؤجر مجتنبه.

عن الدهر فاْصفحْ إنه غيرُ مُعْتِب * وفى غيرِ مَنْ قد وارت التُّربُ فاْطمعِ

والحضرة تُعْلِمنى من لاحقةِ رجوعها إلى الله بعـد الاسترجاع ، ومن تسليم خاطِر الحزن إلى حكم الله ما يسُرّ خاطر الاستطلاع ؛ وحسبه — أبقاه الله تعالى — من كل هالك ، ولا يجزَعِ المحاسَب مِنْ فَذَالك ، ومثلُه مَنْ أخذ بعزائم الله فيما هو آخذٌ وتارك . جبرَ الله مُصـابَه ، وعظّم ثوابه ، وسقى المـاضى وروّى ترابه ، ولا تذهب النفس حسرةً لمـا شهدت العينُ ذَهابَه .

وتخطّفتْـه يـدُ الرَّدَى فى غَيْبتى * هَبْنِى حضرتُ فكنتُ ماذا أصنَعُ

ومن إنشاء الشيخ ضياء الدين أحمد بن محمد القُرْطُبىّ ما كتب به الى الصاحب شرف الدين الفائزىّ يعزّيه فى مملوك تُوفّى له ، وكان الصاحب قد جزِع لفقده . ابتدأ كتابه بأن قال :

فِدًى لك من يُقَصِّرُ عن مَداكا * فـلا أحدٌ إذًا إلا فِـداكا

إنا لله و إنا إليه راجعون . لقد كان لكم فى رسول الله أُسْوةٌ حَسَنة ، وسُنّة فى الأسى مُسْتَحْسنة ؛ و إنما الأنفُس ودائعُ مُستودَعة ، وعَوارٍ مُسترجَعة ، ومواهبُ بيد الفناء مُستنزَعة .

فالعمر نومٌ والمنيّــة يقظةٌ * والمرءُ بينهما خيالٌ سارِى

وما برِح ذوو العزَمات يتلقّون وارداتِ المصائب بصبرهم ، وما كان لمؤمنٍ ولا مؤمِنةٍ إذا قضى الله ورسولُه أمرًا أن يكون لهم الخِيَرَةُ من أمرِهم . وإنّ يد الله لمليّة بفيض المواهب ، وفى الله عوضٌ من كل بائن وخلفٌ من كل ذاهب . وإذا سلم مولانا فى نفسه وولده ، فلا بأس إذا تطرّقت يد الردى الى مِلك يده .

فأنت جوهرة الأعناق ، ما مَلَكت * كفّاك من طارِفٍ أو تالد عَرَضُ

والحمد لله الذى جعل المصيبةَ عندكَ لا بك، والرزيّةَ لك لا فيك .

* إذا سَلِمتَ فكلُّ الناس قد سلموا *

وإذا تخطّتكما المنيّــة فلها فى ســواكما الخِيار ، ولنــا القِدْحُ المُعَلّى إذا أورى زَنْد هذا الآختيار . ولا بدّ فى مَشْرَع المنيّة من مفقودٍ وفاقد .

كن المُعَــزَّى لا المعــزَّى به * إن كان لا بــدّ من الواحد

وهذا فقــد وهبه الله لمولانا من حيثُ إنه أخذه منه ، وأبقاه له من حيث رآه ذاهبًا عنه ؛ فهو بالأمس عاريّةٌ مردودة ، واليوم ذخيرة موجودة ؛ وكان عطيّةً مسلوبة وهو الآن نعمةٌ موهوبة ؛ كنتَ له وهو الآن لك ، وفزتَ به والسعيدُ من فاز بما ملك . وهذه دارٌ دواؤها دَاؤها ، وبقاؤها فَناؤها ؛ طالبها مطلوب ، وسالبها مسلوب ؛ وإن لنا فيمن سَلَف لعزاء ، ولنا برسول الله صلى الله عليه وسلم آقتداء ؛ ولا بدّ من وُرود هذا المشرع ، وملاقاة هذا المصرع . (٨١)

ومن إنشاء المولى شهاب الدين محمود الحلبى ما كتب به عن بعض النوّاب إلى الأمير عزّ الدّين الحموىّ النائب — كان بدِمَشْق — تعزيةً بولده :

أعزّ الله أنصار المَقرّ الكريم العالى ، ولا هدمت له الخطوب ركنا ، ولا بحات له الحوادث حِمًى ولا طلبت عليــه إذناً ، ولا هصرت أيدى الأقــدار من عروشه الناضرة غُصْنا ، ولا أذاقته الأيّام بعد ما مرّ أسفًا على من يحبّ ولا حُزنا ، ولا سلَبه الجزَع رداء الصّبر الذى يخصّه بجزيل الأجر وإن شَرِكه فى الأسى والأسف كلٌّ منا .

المملوك يقبّل اليد الكريمة ، وينْهِى أنه آتّصل به النبأ الذى صدّع قلبَه ، وشغَل بالبكاء طَرْفه وبالأسف لسانَه وبالحزن لُبَّه ؛ وهو ما قــدّره الله تعالى من وفاة المولى الأمير ركن الدين عمر — تغمده الله برضوانه — الذى آختار الله له ما لديه ، وآرتضى له البقاءَ

الدائم على الفانى فنقله إليه ؛ على أن الدين فقــد منــه رُكْنًا شديدا ، ورأياً سديدا ، وعزمًا وحزمًا مُعينًا مفيدا ، وأميرًا أردنا أن يعيش سعيــدا ، فأبى الله إلا أن يموت شهيدا ؛ فإنا لله و إنا إليه راجعون . لقــد كان للرجاء فى ٱعتضاد الدولة القاهرة به أىُّ مجال ، وللآمال فى الانتظار ببأسه ظنونٌ تُحقِّق أن الغلبة للدِّين دائما مع أن الحروب سِجال ؛ وللواكب بطلوع طَلْعته أىُّ إشراق ، وللعيون عن مشاهدة كماله وأبهة جلاله أىُّ إغضاء وأىّ إطراق . ولله أىّ بدر هوى من أُفُق بروجه(١) عن فَلَكه ، وأىّ شمس ما رأته الجوارى الكُنَّس إلا قلن : حاش لله ما هذا بَشَراً إنْ هذا إلا ملك ؛ وأىّ حِصن كانت منه ثمــار الشجاعة تُجتَنَى ، وأىّ أسد براثنُه الصوارمُ وأجَمَاته القنَا . لقد فَتَّ فى عَضُــد الدين مُصابُه ، وأذهب صحّــةَ الأُنْس به وحلاوةَ وجوده أوصابُ فقــده وصابه ؛ وكادت الصوارمُ أن تَشُقّ عليــه غُمودَها ، والرّاياتُ أن تقطِّع عليه ذوائبَها وتغــيِّر بنودَها ، والرماحُ أن تَعرِض على النار لتَقْصِف لا لتُثَقَّف قــدودَها ؛ والجيادُ أن تتعثّر للحزن بذُيولها ، وتعتاضَ بالنَّوح عن صهيلها . ولو أُنْصِف لأكنَّته القلوب فى ضمــائرها ، ولو قُبِل الفِــداءُ لسمَحَتْ فيه النفوسُ بالنفائس ولو كانت الحياةُ من ذخائرها ؛ أو لو كان الحتف مما يُدَافَعُ بالجنود تحطّمت دونه القنا فى دروع عساكرها ، ولكنه السبيل الذى لا مَحِيدَ عن طريقه ، والمُعَرَّسُ الذى لا بدّ لكل حىّ من النزول على فَرِيقــه ؛ وهو الغاية التى تستَنّ إليها النفوس ٱستنان الجياد ، والحَلْبة التى كّنا نحن وهذا الدارجُ نَركُض إليها ولكنّ السابق كان الجواد ؛ على أن المتأخِّر لا بدّ له من اللَّحاق ، وماذا عسى يسرّ البــدر بكماله وهو يعلم أن وراءه المِحَاق ! وفى رسول الله أسوةٌ حسنةٌ لمن كان يعلم أن كلّ رُزءٍ بعده جَلَل ، و إذا ٱنتقل العبد إلى الله تعالى غيرَ مفتون فى دينه ولا مُثقَل الظهر من الأوزار حمِد فى غَدٍ ما فعل ؛ وغُبِط بقدومه

(١) فى الأصل : « من أفق سروجه » .

على أكرم الأكرمين مسرورا، ولقى الله وقد جعل فى قلبه نورا وفى سمعه نورا وفى بصره نورا . والمولى أعزه الله تعالى أولى مَنْ تَلَقَّ أمر الله بالتسليم والرضا، وقابل أقدارَه بأن الخِيرَةَ فيما قـدّر وقضى ؛ وحمِـد الله على ما وهب من بقاء إخوته الذين فيهم أعظمُ خَلَف، وأجملُ عوض يقال به للدهرِ الذى ٱعتـذر بدوام المسَرّة فيهم : عفا اللهُ عمّا سلف ؛ وعلم أنّ الخطب الذى هدّ ركن الدين بٱحترابه وٱجترامه، قد صرفه إلى الأمد عن الإلمـام بساحة شهابه والتعرُّض إلى حِمَى نحره والنظرِ إلى حىّ صلاحه ؛ ففى بقائهـم ما يُرْغم العـدا، ويُعِزّ حزب الهدى، ويُقيم كلًّا منهم فى خدمة الدولة القاهرة بين يدى المولى مقامَ الشِّبل المنتمِى للأسد، ويُنْهِضهم من مصالح الإسلام مع ما يعلمه منهم من حسن الثَّبات من الوالد وسُرعةِ الوَثَبات من الولد . والله تعالى
(٨٣) يُجزِل له من الأجر أوفاه، ويحفظ عليه — وقـد فعل — أخراه ؛ ويجعله للإسلام ذُخرا، ولا يُسمعه مع طول البقاء بعدها تعزيةً أخرى .

ومن أحسن الرثاء وأشجاه مانطقت به الخَنْساء فى رِثائها لأخيها صَخْر، فمن ذلك قولهـا :

أَلَا يا صخرُ إن أبكيتَ عينى * لقد أضحكتنى دهرًا طَويلَا
دفعتُ بك الجليلَ وأنت حَىٌّ * فمن ذا يَدْفَعُ الخَطْبَ الجليلا
إذَا قَبُـح البكاءُ على قتيـلٍ * رأيتُ بكاءَك الحَسَنَ الجميلَا

وقالت أيضا فيه :

. هَبِلَتْ أُمُّ الذين غَـدَوْا به * إلى القـبر، ما ذا يحمِلون إلى القـبر!
.، ذا يُوارِى القـبرُ تحت تُـرابِه * من الجُود! يا بؤسَ الحوادثِ والدهرِ!
.. نَ المنـايا إذ أصـابك رَيْبُها * لِتَغْـدُ على الفِتْيانِ بعـدَك أو تَسْرِ.

وقالت :

يُذَكِّرنى طلوعُ الشمس صَخْرًا * وأبكيه لكُلِّ غروبِ شمسِ
ولولا كثرةُ الباكِينَ حَوْلِى * على إخوانهم لقتلتُ نفسى
وما يَبْكُون مثلَ أخى ولكنْ * أُسَلِّى النفسَ عنه بالتأسّى

وقالوا : أرثى بيت قالته العرب قول مُتَمِّم بن نُوَيرة فى أخيه مالك ، وكان قد قتله خالد بن الوليد فى الرِّدَّة . وكان متمم قدِم العراق ، فأقبل لا يرى قبراً إلا بكى، فقيل له : يموت أخوك بالمَلَا وتبكى على قبر بالعراق ! فقال :

لقد لامَنى عند القبور على البُكا * رفيقى لتَذْرافِ الدموع السَّوافِكِ
أمن أجل قبرٍ بالمَلَا أنت نائحٌ * على كلّ قبر أو على كلّ هالك
وقال : أتبكى كلَّ قبرٍ رأيتَه * لقبرٍ ثوَى بين اللِّوى فالدَّكَادك
فقلت له : إن الشَّجَا يبعث الشجا * فدعنى فهذا كلُّه قبرُ مالكِ

معناه قد ملأ الأرض مُصابُه عِظَماً، فكأنه مدفونٌ بكلّ مكان . وهو أبلغ ما قيل فى تعظيم ميّت . وقيل أرثى بيتٍ قالته العرب قول المُحْدَث :

على قبره بين القبور مهابةٌ * كما قبلها كانت على صاحب القبر

وقيل : بل قول الآخر :

أرادوا لِيُخْفُوا قبرَه عن عدوِّهِ * فطِيبُ تراب القبرِ دَلَّ على القبرِ

وقالوا : بل بيت غيره :

فما كان قيسٌ هُلْكُه هُلْك واحدٍ * ولكنّه بُنْيانُ قومٍ تهدَّما

وقال الأصمعى : أرثى بيت قالته العرب قول الشاعر :

ومن عَجَبٍ أنّى بِتُّ مستشعر الثرَى * وبتُّ بما زوَّدتَنى متمتِّعا
ولو أننى أنصفتُكَ الودَّ لم أبِتْ * خلافَكَ حتى ننطوى فى الثرى معا

ومن أحسن الرثاء قول حسين بن مُطَير الأسدىّ :

أَلِمَّا بمَعْنٍ ثم قُولَا لقبره : * سقتْك الغوادِى مَرْبعًا ثم مَرْبعا

فتًى عِيشَ فى معروفه بعد موته * كما كان بعد السيل مجراه مرتعا

أيا قبرَ معنٍ كنتَ أوّلَ حُفْرةٍ * من الأرض خُطّتْ للسماحة مَضْجَعا (٨٣)

ويا قبرَ معن كيف واريتَ جُودَهُ * وقد كان منه البَرُّ والبحر مُتْرَعا!

بلى قد وسِعْتَ الجودَ والجودُ ميّتٌ * ولو كان حيًّا ضِقْتَ حتى تَصَدّعا

ولمّا مضى معنٌ مضى الجُود والنَّدى * وأصبح عِرْنِينُ المكارمِ أجْدَعا

قال أبو هلال العسكرىّ : هذه الأبيات أرثى ما قيل فى الجاهلية والإسلام .

وقال بكر بن النّطّاح يَرْثِى معقل بن عيسى :

وحدّثنى عن بعض ما قال أنه * رأت عينُه فيما ترى عينُ نائم

كأن النّدَى يبكى على قبر مَعْقِلٍ * ولم تَرَهُ يبكى على قبرِ حاتم

ولا قبرِ كَعْب إذ يجود بنفسه * ولا قبرِ حِلْف الجود قَيْسِ بن عاصِم

فأيقنتُ أن الله فضّل معقِلًا * على كل مذكور بفضل المكارمِ

وقال آخر :

لعَمْرُكَ ما وارى الترابُ فعالَه * ولكنما وارى ثيابًا وأعظُما

ومثله لمنصور النَّمَرِىّ :

فإن تَكُ أفنته الليالى وأوشكت * فإن له ذكرًا سيَبْقَى اللياليَا

وقال التيمىّ فى منصور بن زياد :

أمّا القبورُ فإنّهنّ أوانِسٌ * بفِناء قبرك والدّيارُ قبورُ

عمّت صنائعُه فعمّ مُصابُه * فالناسُ فيه كلُّهم مأجور

يُثْنِى عليك لسانُ من لم تُولِهِ * خيرًا لأنك بالثناء جدير

رَدّتْ صنائعُه إليـه حياتَهُ * فكأنه من نشرها منشـورُ
فالناس مأتمهم عليـه واحدٌ * فى كل دار رَنّةٌ وزفـيرُ

وقال ابن القزّاز المغربى :

سأبكيك لا أن البكا عَذْلُ لوعتى * ولا أنّ وجدى فيك كُفْءُ تَنَدُّمى
وقلّ لعينى أن تَفيضَ دموعُها * عليك ولو أنّ الذى فاض من دمى

وقال الخُرَيْمِيّ :

وأعددتُهُ ذُخْرًا لكلّ مُلِمّـةٍ * وسهـمُ الرّزايا بالذخائر مُـولَعُ
وإنى وإن اظهرتُ منّى جَلَادةً * وصانعتُ أعدائى عليه لَمُـوجَعُ
ولو شئتُ أن أبكى دما لبكيتُه * عليه ولكن ساحةُ الصبر أوسعُ

وقال أبو هِلال العسكرى :

على الرغم من أنف المكارِم والعُلَا * غدتْ دارُه قَفْـرًا ومَغْناه بَلْقعا
ألم ترأنّ البأسَ أصبح بعـده * أشـلّ وأن الجودَ أصبح أجْدَعا
فمُـرّا على قـبر المُسَوّدِ وانظُرا * إلى المجد والعليـاء كيف تخشّعا
فإن يك واراه الـترابُ فكبّرا * على الجودِ والمعروفِ والفضلِ أربعا
ولا تَسْأما نَوْحًا عليـه مُكـرّرًا * ونَوْحًا لفقـد العارفات مُرَجّعا
فما كان قَيْسٌ هُلْكُه هُلْك واحد * ولكنّه بُنيانُ قوم تَضَعْضَعا
ولا تحسَبا أَنّى أُواريه وحـده * ولكنّنى واريتُـه والنّدَى معا

وقال أيضا :

ألستَ ترى موتَ العُلا والفضائِلِ * وكيف غروبُ النجم بين الجنادلِ!
فما للنايا أغفلت كلّ ناقصٍ * ونقّبن فى الآفاق عن كلّ فاضل!
على الرغم من أنف العُلا سِيقَ للرّدى * بكل كريم الفعـل حر الشمائل

على أنّ من أبقتــه ليس بخــالدٍ * وليس آمرؤ يرجو الخلودَ بعاقــل
رأيت المنـايا بيـن غاد ورائح * فما للبرايا بين ساهٍ وغافـلٍ!
ولم أر كـالدنيـا حبيبـًا مُضِرّةً * ولم أر مثـــل الموت حقًّا كباطل

وقال الرَّقاشيّ فى البرامكة :

ألَانَ آسترحْنا وآستراحت ركابُنـا * وقَلَّ الذى يُجْدَى ومن كانَ يَجْتدى
فقل للطايا : قد أمِنتِ من السُّرَى * وطَيِّ الميافى فَـدْفَدًا بعـــد فَدْفدِ
وقل للنـايا : قـد ظفِرتِ بجعفرٍ * ولن تظفَرِى من بعـده بمُسَوَّد
وقل للعطايا بعد فَضْــل : تَعطَّلى * وقل للرزايا كل يوم : تَجدَّدى
ودونَكَ ســيفًا بَرْمكيًّا مُهَنَّــدًا * أُصيب بسـيف هاشمىٍّ مهنّــدِ

وقال آخر :

سأبكيك للـدّنيـا وللـدّين، إننى * رأيتُ يدَ المعروف بعـدك شَلّتِ
ربيـــعٌ إذا ضَــنّ الغمامُ بمـائه * وليثٌ إذا ما المَشْرفيّـــةُ سُـلّتِ

وقال عبد الله بن المعتزّ :

ألستَ ترى مـوت العُلَا والمحامدِ * وكيف دفنّا الخَلْقَ فى قـــبر واحدِ
وللـدّهرِ أيّامٌ يُسِئْـنَ عَوامِدًا * ويُحسِـنّ إن أحسنّ غيرَ عوامِدِ

وقال أبو الطيّب المتنبّى :

إنى لأعلم — واللبيب خبيـرٌ — * أن الحيـاة و إن حَرصت غُرور
ماكنتُ أعلم قبلَ دفنك فى الثرى[1] * أن الكواكب فى التُّراب تَغــورُ
حرجـوا به ولـكلّ باكٍ حـــوله * صَعَقـاتُ مـوسى يوم دُكّ الطُّورُ

---

(١) كذا فى ديوان المتنبى طبع مطبعة هندية سنة ١٨٩٨ . وفى الأصل : « قبل تنزل فى الثرى » على حذف أن المصدرية .

حتى أتَـوْا جَدَثًا كأنّ ضريحَـــه * فى قلب كلِّ مُوَحِّدٍ محفـــورُ
نبكى عليـــه وما آســـتقرّ قراره * فى اللحـدِ حتى صافحتـــه الحُـورُ

ومنها :

صبرًا على المكروه[1] فيه تَكَرُّمًا * إنّ العظيم على العظيم صَبورُ
ولكلّ مفجوعٍ سواكم مُشْـبِهٌ * ولكلّ مفقود ســـواه نظـيرُ

وقال آخر :

كفى حَزَنًا أنّى تخلّفتُ بعـــده * أدورُ مع الباكين فى عَرَصـاته
وصارت يمينى ما حلَفتُ بقـــره * وكانت يمـــنى قبلهـا بحيـاته

وقال آخر :

وكنتُ أخاف الدّهرَ ما كان باقيًا * فلما تولّى مات خوفى على الدّهر

وقال آخر :

ولمـا دعوتُ الصبرَ بعدك والبُكَا * أجاب البكا طوعًا ولم يُجب الصبرُ
وإن ينقطِعْ منك الرجاءُ فإنه * سيبْقَى عليـك الحزنُ ما بَقِىَ الدهرُ

(٨٥)

وقال آخر :

فوالله لو أسطيعُ قاسمتُـــه الرّدَى * فمُتنَـا جميعًـا أو يُقاسِمُنى عمـرى
ولكنما أرواحُنـا مِـلكُ غـــيرنا * فما لِىَ فى نفسى ولا فيـه من أمر
أُحَمِّـــلُه ثِقْـــلَ التّراب وإنى * لأخشى عليه الثقل من مَوْطِئ الذّرّ
وما أنا بالوافى وقد عشتُ بعـده * وربَّ آعـتراف كان أبلغَ من عُذر

وقال آخر :

يا راحـــلًا لم يُبْـــقِ لى * من بعـــده فى العيش نَفْعا

---

(١) فى الديوان : «صبرا بنى إسحاق فيه تكرما» .

ضــاقت عليّ الأرضُ فيـ * ـك وضِقْت بالإخوان ذَرْعَا
ورعَيْتُ فيــك النَّجمَ يا * من كان يحفَظُني ويَرْعى
أبْكيــك بالشــعر الذى * قد رقّ حتى صــار دمعــا

وقال تاج الملوك بن أيّوب يَرثِي أخاه :

لو كان يَشفِي الدمعُ غُلّةَ واجدٍ * لشَفَى غليلي فيضُ دمعي الهامرِ
هيهاتَ لا بردَ الغليلُ وقد ثوى * من كان من عُدَدِي وخيرَ ذخائرِي
ياللرّجالِ لِنَكْبةٍ قد أذهبت * جَلَدَ الجليدِ وحُسْنَ صَبْرِ الصابرِ
طرَقَتْ فتى المُلْك المعظّم فانْثنى * من بعد بَهجته كرَبْعٍ داثرِ

ومنهــا :

جَبَلٌ هوَى فارتجّت الدنيــا له * فكأنمــا رَكِبتْ جَنــاحَيْ طائرِ

ومنهــا :

مَنْ للنّوائب يوم تفترس الورى * قَسْرًا بأنيــاب لهــا وأظــافر
أضحى وحيــدًا فى التراب كأنّه * ما سار بين مواكب وعساكرِ
قد كان لا تَعْصِي البريّةُ أمرَه * فانقــاد ممتثــلًا لأمر الآمرِ
مــولاى دعــوةُ والهٍ غادرتَه * وَقْفًا على نُوَب الزمان الغــادرِ
هل من سبيل للزيارة عنــدها * هيهاتَ حال الموتُ دون الزائرِ
لو كان خَصْمُك غيرَ حادثة الرّدى * لرددتُه بذوابِــلٍ وبواتــر
أو كان يُدْرَك ثأرُ من أُودى به * رَيْبُ المنون لكنتُ أوّلَ ثائرِ
لكنّه الموت الذى قهَر الورَى * من حيث لا تَثْنيه قدرةُ قادرِ

وقال كمال الدين بن النبيه يرثى الأمير على آبن الخليفة الناصر لدين الله :

النــاس للموت كخَيــلِ الطِّرادْ * فالسابقُ السابقُ منهــا الجــوادْ

والله لا يدعــو إلى داره * إلا مَنْ آستصلح من ذى العبادْ

والمــوت نَقّاد، على كفه * جواهرٌ يختــار منهـا الجيـادْ ٨٦

والمرء كالظــلّ ولا بدّ أن * يزولَ ذاك الظلّ بعــد آمتدادْ

لا تصــلُحُ الأرواحُ إلّا إذا * سرى إلى الأجسام هذا الفسادْ

أرعمتَ ياموتُ أُنوفَ القنـا * ودُسْتَ أعناقَ السيوف الحِدادْ

كيف تخــترمتَ أميرًا وما * أنجده كلُّ طويلِ النّجادْ

مُصيبةٌ أذكت قلوبَ الورى * كأنمـا فى كلّ قلبٍ زِنَادْ

نازلةٌ عمّت فمِنْ أجلهـا * سنّ بنو العباس لُبْسَ السّوادْ

مأتمةٌ فى الأرض لكن لهـا * عُرْسٌ على السبع الطّباق الشّداد

طرقتَ ياموتُ كريمًا فلم * يقنَعْ بغير النفس للضيف زادْ

قصمتَه من سِدرة المُنْتَهى * غُصْنًا فشلّت يدُ أهل العنـادْ

يا ثالثَ السِّبطَيْن خلّفتنى * أهيم من همّىَ فى كلّ وادْ

يا نائمًا فى غمــرات الرّدَى * كحّلْتَ اجفانى بمِيــلِ السُّهادْ

ويا ضجيعَ التُّرب أســقمتنى * كأنمـا فرشِىَ شــوكُ القتادْ

دُفنتَ فى الترب ولو أنصفُوا * ما كنتَ إلا فى صميم الفــؤادْ

خليفــةَ الله آصطبرْ وآحتسِبْ * فمـا وَهَى البيتُ وأنت العمادْ

فى العــلم والحــلم بكم يُقتَــدَى[(١)] * إذا دجا الخطبُ وضلّ الرشادْ

وأنت لجُّ البحر ما ضــرّه * أن سال من بعض نواحيه وادْ

ولمـا مات الإخشيد محمد بن طُغْج رثاه جماعة من الشعراء منهم محمد بن الحسن

ابن زكريا فقال : ٢

(١) كذا فى ديوان ابن النبيه طبع مصر . وفى الأصلين : « فالعلم والحلم » .

في الرزايا روائـعُ الأوجالِ * والـبرايا دَريئـةُ الآجال
وكذا الليلُ والنهارُ اعتبارٌ * للورى في تفكُّر الأحوالِ
كلُّ شيء وإن تمادَى مداه * قَصْـرُهُ للفَـناء أو للزَّوال
وأرى كلَّ عِيشـةٍ لأناسٍ * كونُها مُؤذِنٌ بوَشْك انتقالِ
كل ذى جِدّة — إذا ما الجديدا * ن ألحّا عليـه — مُودٍ بالِ
ما لخَلْقٍ من المنون مَفَـرٌّ * لا ولا دون بطشِها من مآلِ
كان[1] غيث الأيّام إن أخلف الغيـ * ـثُ أطلّتْ سحابُه بانهمال
فجعَتْـنا بواهب لا نـراه * يَخْلُق الوجهُ عنـده بابتـذالِ
فجعتنا ببهجة الأرض فى الأر * ض وشمسِ الضُّحَى وبدرِ الليالى
فجعتنا بمن حَمَى حُرْمـةَ الإسـ * ـلام من حادث ومن ختّال
فجعتنا بالباسـل البَطَـل السا * مى غداةَ الوغَى إلى الأبطالِ
فجعتنا بالواهب المُجـزِلِ المر * تاح حين السؤال للسؤّالِ
عَجَبٌ إذ دنتْ إليـه المنايا * وحِمَى عِزِّه المنيـعُ العـالى
أين من يشترى المدائحَ والشكـ * ـر بأسْنى وَفْـرٍ وأوفى نَوالِ
قطع الموتُ وَصْلَنا منه كرهًـا * والردَى قاطعٌ لكل اتّصالِ
رحمـة الله والسلام عليـه * فى الضُّحَى والعِشاء والاصال
وسقى الله حُفـرةً ضُمّنَتْـهُ * شكرَ واهٍ من الحَيَا هطّالِ

ثم خرج من الرثاء إلى مدح ابنه فقال:

إنْ خبا بدرُه فقد لاح للأمّـ * ـة لمّا خبَا طلوعُ الهـلالِ
نُوره مُشرِقٌ مضىءٌ مدى الدهـ * ـر منـيرٌ وليس ذا اضمحلالِ

(١) فى الأصول: «كل».

وقال أبو الطيب المتنبّى يرثيه :

هو الزمانُ مُشِتٌّ بالذى جمعا * فى كل يوم نرى من صَرْفه بدَعا
لوكان مُمْتَنِعٌ تُغْنِيه مَنْعَتُه * لم يصنع الدهرُ بالإخشيد ماصنَعا
ذاق الحِمامَ فلم تَدْفَع كتائبُه * عنه القضاءَ ولا أغْناه ما جمعا
لقد نَعَى من نعاه كلَّ مفتخرٍ * وكلَّ جُود لأهل الأرض حين نعى
لله ما حلّ بالإسلام حين ثَوَى ! * لقد وهى شَعْبُ هذا الدّين فانصدعا
فمن تراه يقود الخيلَ ساهمةً * سدَّ الفضاءِ ومِلْءَ الأرض ما وَسِعا
ترى الحُتُوفَ عُلُوقًا فى أسِنّته * لدى الوغى وشهابَ الموت قد لَمَعَ
لوكان يسطيع قبرٌ ضمّه لسعى * إليه شوقًا ليلقاه وإن شَسَعا
فليَعْجب الناسُ من لحدٍ تضمّن مَنْ * تضمّن الرزقَ بعد الله فاضْطلَع
لو يعلم اللحدُ ما قد ضَمّ من كرمٍ * ومن نَخَارٍ ومن نَعْماء لاتّسعا
يا لحْدَه إن تَضِقْ عنه فلا عجبٌ * فيه الحِجا والنُّهىٰ والبأسُ قد جُمِعا
يا لحدُ طُلْ إنّ فيك البحرَ مُحتبِسًا * واللّيثَ منهصِرًا والجُودَ مجتمعا
يا يومَهُ لم تُخَصّ الفجعَ أُسْرَتُه * كُلُّ الورى بِرَدَى الإخشيد قد فُجِعَ
يا يومه لم تَدَعْ صبرًا لمصطبرٍ * ولم تدعْ مَدْمَعًا إلا وقد دَمَعا
أردَى الرِّفاقَ رَدَى الإخشيد فانقرضُوا * فما ترى منهُمُ فى الأرض منتجعا
يأيها الملك المُخْلِي مجالسَه * أحْميتَ أعيننا الإغماضَ فامتنعا

ومنها :

لئن مضيتَ حميدَ الأمرِ مُفْتَقَدًا * لقد تركتَ حميدَ الأمرِ مُتَّبَعا

ثم خرج من الرثاء إلى مدح ولد الإخشيد : (٨٦)

ثَبْتُ الجَنان فلا نكسٌ ولا وَرَعٌ * تلقاه مؤتزرًا بالحزم مُدَّرِعا

أعطت أبا القاسم الأملاكُ بيعتَها * ولو أبت أخذت أسـيافُه البيعَا
وٱنقـاد أعـداؤه ذُلًّا لهيبـته * وظَلّ متبوعُهم من خوفه تَبعا
أضحت به هِمَمُ الغِلْمان عاليـةً * كأنّ مولاهُمُ الإخشيدُ قد رَجَعا

وقال مُهَلْهِل بن يَموت يَرْثيه أيضا :

أىّ عزٍّ مضى من الإسـلام! * أىّ ركن أضحى حديثَ ٱنهدامِ!
ذاق موتًا محمد بن طُغـج * هو ليثُ الشّرى وغيثُ الغَمام
فَقَـدَ النـاسُ مُولِىَ الإنعـامِ * فهُـمُ سائمـون كالأنعـامِ
مات ربُّ العُـلَا وراعى الرعايا * والسـرايا وكـافل الأيتـامِ
أين ما كنتَ فيه من عِزِّك البا * ذخ والمُـرْتقَى عزيزِ المُـرامِ!
أين ذاك الحجابُ والمُلك والهيـ * ـبة أين الزِّحامُ وقت الزّحام!
من أميرٍ وقائدٍ وخطـيرٍ * ورئيسٍ وماجـدٍ وهُمـام
كلّهم مطرِقٌ لديك من الهيـ * ـبة خوف الإجلال والإعظـام
أين تلك الخيـامُ حَوْلَك إن عرّست والأسـدُ حول تلك الخيام
من عديد وعُدّة لك ما بيـ * ـن قُعود فيهـا وبين قِيـامِ
لم يُطِقْ جمعُهم دفاعَ الرّدى عنـ * ـك ولم يمنعوك منعَ ٱعتصامِ
أسلمتك الخيولُ قَسْرًا وقـد كنـ * ـتَ عليهـا سُورًا على الإسـلام
خانك السيفُ وهو يصدرُ عن أمـ * ـرك مُسـتعدِيا بغـير ٱحتجام
خـذل الرمحُ وهو عونُك لو حا * ن لقـاءٌ وثار نَقْـعُ قَتَـامِ
لم تَرُدّ القِسِىّ عنـك سـهامَ الـ * ـحتف والحتفُ عندها فى السهام
ما وقتك الحـرابُ حربَ المنـايا * حين وافاك جيشُهـا من أمام

لم يُحَصِّنك ما ٱقتنيتَ من الآ * لات من جَوْشَن ولا من لَامٍ[(١)]

حكَمَ الموتُ فيك من بعد ما كنـ * ـتَ تُرى حاكما على الحُكَّام

فقدَتْك الفُسطاط وجدًا مدى الدهـ * ـر ومن بعــدها بلادُ الشامِ

فُجِعَتْ يَثْرِبٌ ومكَّةُ والبيـ * ـتُ إلى زمزمٍ أجَلْ والمَقَامِ

عمّ فيك المصابُ فٱشترك العا * لَمُ فى الرُّزْء منــه والآلام

حَسْبُنَا اللهُ عزَّ من حَكَمٍ يجـ * ـرى على الحاكمين بالأحكام

كلّ شىء إلى زوال ، ومن ذا * نال ملك الدنيـا بغير ٱخترام

أين أين الملوك فى سالف الدّهـ * ـر دَهَتهــم حوادث الأيّام

أين من قد كانوا يُخافون فى البأ * سِ ويُرْجَون للعطايا الجِسام

ليس يَبْــقى إلا الإله تعالى * من له الملك ثابتًا بالدّوام

أيّهـذا ٱلأمير بل يا أبا القا * سم يآبن السَّمَيْدَع القَمْقام

اِرض حكم الإله فى المَلِك المـا * ضى وسلِّمْ لنافذ الأحكامِ

وهنـاك الذى بلغتَ من الأمـ * ـر وما حزتَه بحسن ٱنتظامِ

ما كمثل الذى رُزِئتَ ولا مثـ * ـل الذى قد مَلَكتَ فى ذا العام

أنت مثل الإخشيد فٱنهض بما مُلِّـ * ـكتَ بالجِدّ منك والإعتزام

وقال بعض الشعراء يَرْثى الوزير يعقوب بن كِلِّس وزير العزيز بن المُعِزّ خليفة مصر : (٨٩)

إن التصبر فى الأمور جميــلُ * إلا عليك فما إليــه سبيلُ

ياحاملًا ثِقَلَ العُلَا وكأنه * لعُلُوّ همّتِــه بها محمــولُ

يا واهبًا فـوق المُنَى وكأنه * لسخائه مما يجـود بخيـلُ

---

(١) لام : مخفف "اللأم" جمع "اللأمة" وهى الدرع .

جاء منهـا :

يا تُرْبُ لا تأكُل لسانًا طالمـا * والَى به التحميـدُ والتهليـــلُ
ياتُرْبُ لا تَعْنُف بكفٍّ طالمـا * قد كان يُؤْلم ظهرَها التقبيـــلُ

ومنهـا :

يادهرُ تعلمُ ماجنيتَ على الورى؟! * خَطْبٌ لعمرُك إن علمتَ جليلُ
ما كان ضرَّك لو مَهَلت بمثله * يادهرُ إنك بعـــدها لعَجُــول

ومن المراثى المشهورة التى عُنى بها، وٱتصلت أسباب الشارحين بسببها، المرثيَة العَبْدونيّة التى نظمهـا الوزير الكاتب أبو محمد عبد المجيد بن عبدون يرثى بهـا بنى مسلمة المعروفين ببنى الأفطس، وهى من أمهات القصائد ووسائط القلائد؛ فإنه ذكر فيها عدّة من مشاهير الملوك والخلفاء والأكابر ممن أبادهم الدهر بحوادثه ونكباته، ووثب عليهم الزمن فما وجدوا جُنَّةً تقيهم من وثباته؛ ودبّت [عليهم](١) الأيام بصروفها، وسقتهم المنيّة بكأس حُتوفها . وها نحن نذكرها ونزيدها تبيانا بشرح من ٱستبهَمت أخباره، وخَفِيت على المُطالع آثارُه .

وأوّل القصيدة :

الدّهرُ يفجَعُ بعـــد العيْن بالأثَرِ * فمـا البكاءُ على الأشـباح والصُّورِ
أنهـاك أنهاك لا آلُوك مَعْـــذِرةً * عن وقفةٍ بين ناب الليثِ والظُّفُرِ
فالدهرُ حربٌ و إن أبدى مُسالَمة * فالبِيضُ والسُّمْرُ مثلُ البيض والسُّمُرِ
ولا هَـوادةَ بين الرأس تأخذه * يدُ الضِّراب و بين الصـارم الذَّكَرِ
فلا تغُرَّنْك من دنيـاك نومتُها * فمـا صناعةُ عينيها سـوى السَّهرِ

---

(١) زيادة يقتضيها السياق .

ما لِلّيالى — أقال الله عثرتنا * من اللّيالى وخانتها يدُ الغِيَرِ —

فى كلّ حينٍ لها فى كلّ جارحةٍ * منّا جِراحٌ وإن زاغت عن البصرِ

تَسُرّ بالشىء لكن كى تَغُرّ به * كالأيْم (١) ثار إلى الجانى من الثمرِ

كم دولةٍ وَلِيتْ بالنصر خدمتَها * لم تُبْقِ منها! وسَلْ ذكراك من خَبَرِ

هوت «بدارا» وفَلّت غَرْبَ قاتله * وكان عَضْبًا على الأملاك ذا أُثُرِ

«دارا» الذى ذكره هو دارا بن دارا آخر ملوك الفرس ؛ وقاتله الإسكندر . وسنذكر إن شاء الله أخبارهما فى فنّ التاريخ .

وآستَرْجعت من بنى ساسانَ ما وهبت * ولم تَدَعْ لبنى يونانَ من أَثَرِ

«بنو ساسان» هم الفرس الأُخَر ولهم دولة مشهورة آنقرضت فى الإسلام . (٩٠)

و «بنو يونان» أيضا من الملوك أرباب الدول المشهورة ، ومن مشاهير ملوكهم الإسكندر بن فيلبس . وسترد إن شاء الله أخبارهم .

وأتْبَعَتْ أُختَها طَسْماً، وعاد على * عادٍ وجُرْهُمَ منها ناقضُ المِرَرِ

أخت «طسم» جَدِيس، وهما أبناء عمّ كثر نسلهما وهم العرب العاربة . وسنذكر أخبارهما إن شاء الله فى وقائع العرب . و «عاد» هم قوم هود . و «جرهم» هو آبن عوف بن زُهَير بن أنس بن الهَمَيْسَع بن حِمْيَر بن سَبَأ الأكبر بن يَشْجُب ابن يَعْرُب بن قَحْطان، وقيل : إن العمالقة من ولد جرهم . أراد بذكرهم أنهم كلّهم أبادهم الموت .

وما أقالت ذوى الهيئاتِ من يَمَنٍ * ولا أجارتْ ذوى الغايات من مُضَرِ

---

(١) الأيم : الأفعى .

«اليمن» كلّهم بآتفاق العلماء بالأنساب من ولد قَحْطان، ومنهم ملوك نذكرهم إن شاء الله فى التاريخ . و «مضر» بن نزار بن معدّ بن عَدْنان . وقد تقدم ذكرهم فى الأنساب .

ومزّقت سَـــبَأً فى كلّ قاصيـةٍ ‏ ‏ ‏ ‏ فما آلتـــقى رائحٌ منهـــم بمُبْتَكِرِ

«سبأ» الذى أشار إليه هو سبأ بن يَشْجُب بن يعرُب بن قحطان، وآسمه عبد شمس، وإنمـا قيـل فيه سـبأ لأنه أول من أدخل بلادَ اليمن السَّبْى . وكان له عشرة أولاد سكن الشام منهـم أربعـة وهم : لَخْم وغَسّان وجُذَام وعامـلة، وسكن اليمن منهم ستة : كِنْدة ومَذْحِج والأزْد وأنْمـار [والأشعر وعمرو](١) ؛ وقـد ذكر الله عزّ وجل تمزيقهم بقوله : (وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ) . وسنذكر أخبار سيل العَرِم وسدّ مأرِب .

وأنفذتْ فى كُلَيب حكمَها ورَمَتْ ‏ * ‏ مُهَلْهِـلا بين سَمع الأرض والبصرِ

"كليب" الذى ذكر هو كليب بن ربيعـة بن الحارث الذى ضرب به المثل فقيل : "أعَزُّ من كُلَيْب وائل" . وأشار آبن عبدون فى هذا البيت إلى ما كان من قتل جسّاس بن مرّة كليبًا وما وقع بين بكر وتَغْلِب من الحروب التى نشرحها إن شاء الله فى وقائع العـرب . وقوله : "ورمت مهلهـلاً بين سمع الأرض والبصر" كأنه أراد ما حكى أنه قتل فى موضع لم يطّلع عليه أحد، وهو مثل؛ يقال : فعـل كذا وكذا بين سمع الأرض وبصرها إذا فعله خاليا .

ولم تَرُدّ عـــلى الضِّلّيـل صحّتَـــه ‏ * ‏ ولا ثَنَت أسـدًا عن ربّها حُجُـــرِ

"الضِّلّيل" الذى أشار إليه هو آمرؤ القيس بن حُجْر بن عمرو، والحارث هو آكل المُرَار، وسُمّى آمرؤ القيس بالضلّيل لأنه ترك ملكه وتوجّه إلى قيصر يطلب منـه

---

(١) التكملة عن قلائد الجمان فى التعـريف بقبائل عرب الزمان للعـلامة القلقشندى مؤلف كتاب صبح الأعشى . وفى الأصل بياض .

جيشا يأخذ به ثأر أبيه من بنى أسـد . وإشارته إلى الصحّة لقول آمرئ القيس فى قصيدته السينيّة :

وبُدِّلْتُ قُرْحًا داميًا بعـد صحّةٍ * لعـلّ منايانا تحوّلْنَ أبْؤُسا

لقد طمَح الطَّمّاحُ من بُعد أرضه * ليُلْبِسنى من دائه ما تلبّسا

و « الطّماح » رجل من بنى أسـد أرسله قيصر إلى آمرئ القيس بحُلّة مسمومة ، فلما لبسها تقطّع ومات بأنقِرة . وإشارته إلى أسـد لأن بنى أسد كانوا قتلوا حُجْـر ابن الحارث يوم ماقِط .

ودوّخت آلَ ذُبْيانٍ وإخوتَهم * عَبْسًا وعضّت بنى بَدْر على النَّهَرِ

أشار إلى ما كان بين عبس وذبيان من الحروب بسبب داحس والغبراء . وسيرد ذلك فى وقائع العرب إن شاء الله تعالى .

وألحقت بعَدِىٍّ بالعـراق على * يد آبنه أحْمَـرَ العينين والشَّـعَرِ

أراد عدىّ بن أيوب بن زيد مناة بن تميم الشاعر . وأحمـر العينين والشـعر هو النّعمان بن المُنذر . وكان عدىّ هـذا ترجمانا لأبْرَويز وكاتبه بالعربيّة ، فلما مات قابوس بن المنذر تلطّف عدىّ وتحيّل على أبرويز حتى ولّى النعمان إمْرة العرب وقدّمه على إخوته وكان أدمّهم ، ثم آتهمـه النعمان أنه وشى به فآحتال عليـه حتى ظفر به وحبسـه ثم قتله بالعراق ؛ فتلطّف آبنه زيد بن عدىّ وتوصّـل حتى خدَم أبرويز على عادة أبيه ، وأوقع بين أبرويز والنعمان حتى قتله أبرويز ، على ما يرد إن شاء الله تعالى فى التاريخ . والله أعلم .

وأشرفت بخُبَيْبٍ فـوق فارعةٍ * وألصقت طَلْحَةَ الفيّاضَ بالعَفَرِ

أشار إلى خبيب بن عدىّ الأنصارىّ وهـو بَدْرِىّ وأُسِر فى السريّة التى خرج فيها مَرْثَد بن أبى مَرْثَد فانطلق به المشركون إلى مكّة وآشتراه حجر بن إهاب التميمىّ

حليف بنى نَوْفل لعقبة بن الحارث بن نوفل ليقتله بأبيه، وكان خبيب قتل الحارث أبا عقبة يوم بَدْر، فصلبه عقبة على خشبة بالتَّنْعيم وقتله . وطلحة الفيّاض هو طلحة آبن عبـد الله التيمىّ أحد العشرة أصحاب رسول الله صلى الله عليـه وسلم، قتل يوم الجَمل، على ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

ومزّقت جعفراً بالبيض ،وآختلست * من غِيلِه حَمْـزَةَ الظَّلَّام للجُـزُرِ

«جعفر» الذى ذكره هو جعفـر بن أبى طالب أخو علىّ رضى الله عنهما قُتل فى غَزْوة مُؤْتة . «حمزة» هو آبن عبد المطلب عمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتل يوم أُحُد قتله وحشىّ علام جُبَيْر بن مُطْعِم؛ وجعله ظلّاما للجزر وصَفَه بالكرم .

و بلغَتْ يَزْدَجِرْدَ الصّينَ وآحتزلتْ * عنه سوى الفُرْس جمعَ التُّرك والخَزَرِ
ولم تَرُدّ مواضى رُسْـتَمٍ وَقَنَـا * ذى حاجبٍ عنه سَعْدًا فى آبنة الغِيَرِ

«يزد جرد» الذى ذكرهو آبن شهريار آخر الملوك الساسانيّة . ورُستُم هو الأرمينىّ وهو الذى قاتل سعد بن أبى وقّاص وقُتِل يوم القادسـيّة ، على ما يأتى شرح ذلك فى مواضعه إن شاء الله تعالى .

وخَضّبت شيبَ عثمانٍ دمًا ،وخَطَت * إلى الزبير ، ولم تَسْتَحْيِ من عُمَـرِ

أشار فى هـذا البيت إلى مقتل عمـر بن الخطاب وعثمان بن عفان والزبير بن العوّام رضى الله عنهم . وسترد إن شاء الله أخبارهم .

وما رَعَتْ لأبى اليَقْظانِ صُحْبَتَـه * ولم تُزَوِّده إلا الضَّـيْحَ فى الغُمَـرِ

«أبو اليقظان» هو عمّار بن ياسر العَنْسىّ قُتل بِصفِّين وكان مع علىّ؛ وعنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "تَقْتل عمّارًا الفِئةُ الباغية" . ولمـا قتل كانت الراية يومئذ بيـده فعطِش فدعا بشربة من المـاء فأُتِى بضَيْحة[1] فشربها ثم قال : أخبرنى

(١) الضيحة : الشربة من لضياح أو الضيح بالفتح فيهما وهو اللبن الرقيق الممزوج بالمـاء .

رسول الله صلى الله عليه وسلم أن اللّبن آخِرُ شَرْبَةٍ أشربها فى الدنيا؛ فقُتل يومئذ رضى الله عنه .

وأجْزَرت سيفَ أشقاها أبا حسنٍ * وأمكنتْ من حسين راحتَىْ شَمِرِ

أشقاها هو عبد الرحمن بن مُلْجَم المُرادِىّ قاتل علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه لقوله صلى الله عليه وسلم : "ياعلىّ، أشقاها الذى يَخْضِب هذه من هـذه" وأشار إلى لحية علىّ ورأسه . والحسين الذى ذكره هو الحسين بن علىّ . وشمر هو شمر آبن ذى الجَوْشَن وهو الذى أرسله عبيد الله بن زياد إلى عمر بن سعد يحرّضه على قتل الحسين؛ وقيل : إن شَمِرًا لم يباشر قتلَ الحسين ، والذى قتله سِنان بن أَنَس[(1)] النَّخَعى، وشَمِرٌ فهو المُجْهِز والمُحَرِّض على قتله ، فلذلك ذكره .

وليتَها إذ فَدَتْ عمـرًا بخارجةٍ * فدَتْ عليًّا بمن شاءت من البشر

عمرو الذى أشار إليه هو عمرو بن العاص بن وائل بن هشام بن سعيد بن سَهْم آبن عمرو بن هُصَيْص بن كعب، أمير مصر لمعاوية بن أبى سفيان . وخارجة رجل من سهم بن عمرو. وكان من خبره أن الخوارج كانت قد آجتمعت على قتل علىّ ومعاوية وعمرو، فكان الذى آنتدب لقتل عمرٍو زادويه مولى بنى العَنْبر، ورَصَـده إلى ليلة المعاد التى آتفقوا على الفتك بهم فيها ؛ فآشتكى عمرو تلك الليلةَ من بطنه ولم يخرج للصلاة وآستخلف خارجةَ ليُصلّى بالناس ؛ فلما قام فى المحراب وثب عليه زادويه وهو يظن أنه عمرو بن العاص فقتله ؛ وأُخِذَ زادويه وأُدخِل على عمرو، فسمِع النّاسَ

(1) كذا فى الطبرى طبع أوربا (ق ٢ ص ٣٦٢ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧) وابن الأثير طبع أوربا (ج ٤ ص ٦٦ — ٦٨) . وفى الأصل : « ابن أبى أنس » .

يخاطبونه بالإمرة، فقال: أوَ ماقتلتُ عمرا؟ قيل له: [لا][1] إنما قتلت خارجة؛ فقال: "أردتُ عمرا وأراد الله خارجة". فلذلك قال:

* وليتها إذ فدت عمرا بخارجة *

وفى ٱبن هند وفى ٱبن المصطفى حسنٍ * أتت بمُعْضِـلة الألبـابِ والفِـكَرِ
فبعضُنا قائلٌ ما ٱغتـاله أحـدٌ * وبعضُنا ساكتٌ لم يُؤْتَ من حَصَرِ

ابن هنـد الذى أشار إليه هو معاوية بن أبى سفيان، أراد ما كان بينه و بين الحسن بن علىّ فى أمر الخلافة . وأراد بالبيت الثانى ما وقع الاختلاف فيه من أن الحسن مات مسمومًا وأنّ معاوية وعدَ زوجة الحسن جَعْدة بنت قيس الكِندىّ بمائة ألف درهم و يزوّجها لابنه يزيد إن قتلت الحسن، ففعلت وسمّته. ولما مات الحسن وفّى لها بالمال وقال: حبٌّ حياة يزيد منعنى تزويجه منك؛ وقيل: مات الحسن حَتْفَ أنفه . والله أعلم .

وعمّمَتْ بالرّدى فَوْدَىْ أبى أنَسٍ * ولم تَرُدّ الردى عنـه قنا زُفَـرِ

أبو أنس هو الضحاك بن قيس الفِهْرى . يُشير إلى ما وقع بينه و بين مروان آبن الحكم بمَرْج راهط، وكان الضحاك يدعو لابن الزبير فقُتل الضحّاك، على مانذكره إن شاء الله فى أخبار مروان . وكان زُفَر بن الحارث الكِلابىّ مع الضحّاك ففرّ عنه .

وأرْدَتِ ٱبنَ زياد بالحسـين فَلَمْ * يَبُؤْ بِشِسْعٍ له قـد طاح أو ظُفُـرِ

أشار إلى عبيد الله بن زياد آبن أبيه عامل يزيد بن معاوية على العراق، وهو الذى جهّز عمر بن سعد لحرب الحسين بن علىّ رضى الله عنهما . وقوله "يبؤ بشسع له" أخذه من قول مهلهل حين قتل بُجَيْر بن الحارث وقال: بُؤْ بِشِسْعِ نعل كُلَيْب .

---

(١) زيادة من شرح القصيدة العبدونية لابن بدرون، طبع ليدن سنة ١٨٤٦ م .

وأنزلتْ مُصْعبًا من رأس شاهقــةٍ * كانت به مهجةُ المُختــار فى وَزَرِ(١)

أشار إلى مصعب بن الزبير بن العوّام وقتله . والشاهقةُ هى الكوفة . جعلها شاهقة لَمنْعتها وكثرة رجالها . وأراد ما كان بين مصعب وعبد الملك بن مروان من الحرب التى قُتِل فيها مصعب . والمختار الذى ذكره هو المختار بن أبى عُبَيْد بن مسعود آبن عمرو الثَّقفىّ . أشار إلى ما كان بينــه وبين مصعب من الحرب وقَتْل المختار . وسنُورد كلّ هذه الوقائع إن شاء الله فى التاريخ .

ولم تُراقِبْ مكان آبن الزبير ولا * راعت عِياذَتَهُ بالبيت والحَجَــرِ

أراد عبدَ الله بن الزبير، وكان يُسَمّى العائذ لأنه كان يقول : أنا العائذ بالبيت، وقتله الحجّاج بن يوسف الثقفىّ لمــا وجّهه عبد الملك لحربه .

ولم تَدَعْ لأبى الذّبّان قاضــيَةً * ليس اللَّطِيمُ لهــا عمــرُو بمُنْتَصِرِ

أبو الذّبّان هو عبــد الملك بن مروان بن الحكم ، سمّى بذلك لبَخَــره . وقوله "قاضيه" لأنه كان مُظَفَّرًا على أعدائه فإنه غلَب من كان يناوئه فى سلطانه مثل عبــد الله ومصعب آبنىْ الزبير ، وعمرو بن ســعيد ، وعبــد الرحمن بن الأشعث ، ما منهم إلا من قُتِل وحكَمَ فيه قاضيه وهو سيفه، ولم يُغْنِ ذلك عنه لمّــا أتته منيّتُه . وأما اللَّطِيم فهو عمرو بن ســعيد الأشْدَق، سمّى بذلك لمَيَلٍ كان فى فمه فقيل له من أجله لَطِيمُ الشيطان، وقتله عبد الملك بن مروان .

وأظْفَرتْ بالوليــد بن اليزيد ولم * تُبْقِ الخــلافةَ بين الكأس والوتر

الوليد هــذا هو الوليد بن يزيد بن عبــد الملك ، وهو الذى يقال له الجبّــار العنيد . أشار إلى ظفر يزيد بن الوليد بن عبد الملك به وقتله . و[قوله](٢) :

---

(١) الوزر : الملجأ والمعتصم .

(٢) من عادته أن يذكر هذه الكلمة . فلعلها سقطت من الناسخ .

... ... ولم * تُبْقِ الخـلافة بين الكأس والوتر

أراد بذلك ما كان عليه الوليد من الاشتهار باللّهو واللّعب .

ولم تعد قُضُب السفّاح نابيـةً * عن رأس مروان أو أشياعه الفُجُرِ

السفّاح هو أبو العباس عبـد الله بن محمـد بن علىّ بن عبـد الله بن عباس ، وهو أوّل خلفاء الدولة العباسـيّة . يُشير إلى ظفره بمروان بن محمد وقتله ، وآنقراض دولة بنى أميّة وقتلهم على يديه .

وأسبلتْ عَبَراتٍ للعيون على * دَمٍ بفَخٍّ[1] لآل المصطفى هَـــدَرِ

أشار فى هـذا البيت إلى ذكر من قُتل بفَخّ وهم الحسين بن علىّ بن حسن بن حسن بن علىّ ، والحسن بن محمد بن الحسن بن الحسن بن علىّ ، وعبد الله بن إسحاق بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن ، على ما نذكره فى التاريخ إن شاء الله تعالى .

وأشرقتْ جعفرٌ والفضـلُ ينظره * والشيخُ يحيى بريق الصارمِ الذَّكَرِ ٣٢٦ ب

أشار فى هـذا البيت إلى قتل جعفر بن يحيى بن خالد بن بَرْمَك ونكبة البرامكة فى أيام الرشيد .

وأخضبتْ [illegible] الأمين [illegible] آنتدبت[2] * جعفـرٌ بآبنـه والأعْبُـدِ الغُـدُرِ

الأمين [illegible] . يشير إلى ما كان بينه وبين أخيه المأمون وإلى العهد الذى كتب الرشيد كتبه بينهما . وجعفر الذى أشار إليه هاهنا هو المتوكل ابن المعتصم ، وما كان من قتل باغر التركى له بمواطاةٍ من آبنه المُنْتَصِر، على ما نُورده فى أخباره .

وروّعتْ كلَّ مأمونٍ ومؤتمنٍ * وأسلمت كلَّ منصـورٍ ومُنْتَصِرِ

(١) فى : وادٍ بمكة .

(٢) كذا فى شرح القصيدة العبدونية لأبن بدرون . وفى الأصل : «وآنتبذت» .

المأمون هو عبد الله بن الرشيد وهو أوّل من لُقِّب بالمأمون، ولُقِّب به بعد ذلك ولدٌ من أولاد المعتمد بن عبّاد ويحيى بن ذى النون صاحبُ طُلَيْطُلة . والمؤتَمن فأوّلُ من لقب به مروان بن الحكم على قول من يقول إنه كان لبنى أميّة ألقاب ، ثم لُقِّب به القاسم بن الرشيد . وكان الرشيد لما كتب العهد بين الأمين والمأمون جعل آبنه المؤتَمن بعد المأمون، وجعل أمرَ المؤتمن إلى أخيه المأمون إذا أفضت الخلافة إليه إن شاء أمضاه وإن شاء خلَعه ؛ فلما أفضت الخلافةُ إلى المأمون أزال المؤتَمن فارتاع لذلك . وتلقّب بالمؤتَمَن محمد بن ياقوت مولى المُعْتَضِد صاحب فارس . وتلقّب به سلامة الطُّولُونى ، وعبد العزيز بن عبد الرحمن بن أبى عامر ثم تسمَّى بالمنصور . وأما المنصور فأوّلُ من لُقِّب به هشام بن عبد الملك بن مروان على تلك الرواية، ثم المنصور أبو جعفر عبد الله بن على العباسى، ثم أبو طاهر إسماعيل آبن القائم بن المهدى صاحب إفريقيّة ، ثم محمد بن أبى عامر بالأندلس. وتلقّب به آبن زيرى الصِّنْهاجى ، وتلقّب به سابور صاحبُ بَطَلْيُوس ، وعبد الله بن محمد آبن مسلمة التُّجيبى ، وحفيده يحيى بن محمد بن عبد الله، وعبد العزيز بن أبى عامر؛ ثم تلقّب به جماعةٌ من الملوك بعد نظم هذه المَرْثِيَة . وأما المنتصر فهو محمد آبن المتوكّل ؛ وممّن تَلقّب بالمنتصر مِدْرار بن اليَسَع صاحب سِجِلْماسة . وكلُّ هؤلاء أبادهم الموت .

وأعثرتْ آلَ عبّاسٍ لَعًا لَهُمُ * بذَيْل زَبَّاء[1] من بِيض ومن سُمُرِ

أشار فى هذا البيت إلى ما كان من تغلُّب الأتراك والدَّيلم على خلفاء الدولة العباسيّة حتى لم يبق لهم إلا آسم الخلافة، على ما سيَرِد فى أخبارهم . وقوله :

---

(١) الزباء : الداهية الشديدة .

* بذيل زباء من بيض ومن سُمر *

تنبيها على كثرة عدد المتغلِّبين على الأمر وقدرتهم على السِّلاح .

ولا وَفَتْ بعهـود المُستعينِ ولا * بمـا تأكّد للمعـتزّ من مِرَرِ

المستعين هو أحمـد بن المعتصم العبّاسى . أشار إلى ما كان من قيام المُعـتزّ على المستعين وهرب المستعين من سَامُرَّا إلى بغـداد . والمعتزّ هو أبو عبد الله محمد بن المتوكّل، وستَرِد أخبارُهم إن شاء الله تعالى :

وأوثقتْ فى عُرَاها كلَّ معتمـدٍ * وأشرقتْ بقَـذَاها كلَّ مُقْتَـدِرِ

المعتمد هو أبو العباس بن المتوكّل، وهو أوّل من لُقِّب بهذا اللقب، وتلقّب به محمد بن عبّاد بإشبيلية . والمقتدِر هو أبو الفضل جعفر بن المعتضِد، وهو أوّل من لُقّب بالمقتدر، ثم لُقّب به أحمـد بن سليمان بن هود الجُذامىّ بِسَرَقُسْطَة . ثم أخذ ابن عبدون فى رثاء بنى الأَفْطَس فقال :

بَنِى المُظَفَّـر والأيّامُ ما بَرِحتْ * مَراحِلًا والورى منها على سَـفَرِ
سُحْقًا ليـومكمُ يومًا ولا حمَلَتْ * بمثـله ليـلةٌ فى مُقْبِـل العُمُرِ ٩٤
مَنْ للأَسِرّة أو مَنْ للأَعِنّة أو * من للأَسِـنّة يُهديهـا إلى الثُّغَـرِ
مَنْ للبراعة أو مَن لليَرَاعةِ أو * من للسماحة أو للنفع والضَّرَرِ
أو رفـعِ كارثة أو دفعِ آزفـةٍ * أو قمعِ حادثةٍ تَعْيَا على القَـدَرِ
من للظُّبَى(١) وعوالى الخطّ قد عُقِدَتْ * أطـرافُ ألسُنها بالعِىّ والحَصَرِ
وطُوِّقتْ بالثنايا(٢) السُّـود بيضُهم * أعْجِبْ بذاك وما منها سوى ذَكَرِ

(١) كذا فى شرح ابن بدرون . وفى الأصل : "من للعدى ..." . (٢) كذا فى شرح ابن بدرون طبع ليدن سنة ١٨٤٦ . وفى الأصلين : "فطوّقت بالثنايا ..." . ولعل المراد بالثنايا ما يعلو السيوف من الصدأ لإهمالها بعد موت أصحابها . وفى هامش شرح ابن بدرون إشارة إلى أنه فى نسخة أخرى "وطوّقت بالمنايا السود ..." الخ .

ويح السّماح وويح الجود لو سَلِما * وحسرةَ الدّين والدّنيا على عمر
سقَتْ ثرى الفضل والعبّاس هامِيةٌ * تُعزَى إليهم سَماحًا لا إلى المطر
ثلاثةٌ ما ٱرتقى النّسران حيث رقُوا (١) * وكلّ ما طار من نَسْرٍ ولم يطِرِ
ثلاثةٌ ما رأى العصران مثلهمُ * فضلًا ولو عُزّزا بالشمس والقمر
ومرّ من كل شيء فيه أطيبُه * حتى التمتع بالآصال والبُكَرِ
مَنْ للجلال الذى عمّتْ مهابتُه (٢) * قلوبَنا وعيونَ الأنجم الزُّهُرِ
أين الإباءُ الذى أرسَوْا قواعدَه * على دعائمَ من عزٍّ ومن ظَفَرِ
أين الوفاء الذى أصفَوْا مشاربَه * فلم يرِدْ أحدٌ منها على كَدَر
كانوا رواسىَ أرض الله منذ نأَوا * عنها ٱستطارت بمن فيها ولم تقِرِ
كانوا مصابيحَها فمذ خَبَوْا غَبَرتْ * هذى الخليقةُ يالله فى سَدَرِ
كانوا شجا الدهر فٱستهوتهمُ خُدَعٌ * منه بأحلام عادٍ فى خُطا الخَضِرِ
مَنْ لى ولا مَنْ بهم إن أطبقَتْ مِحَنٌ * ولم يكن وِرْدُها يُفضى إلى صَدَر
مَنْ لى ولا من بهم إن أظلمت نُوَبٌ * ولم يكن ليلُها يُفضى إلى سَحَر
مَنْ لى ولا من بهم إن عُطّلت سُنَنٌ * وأُخْفِيَتْ ألسُن الأيام والسِّير
على الفضائل إلّا الصبرَ بعدهمُ * سلامُ مُرْتَقِبٍ للأجر (٣) منتظِر
يرجو عسى ، وله فى أختها طمعٌ * والدّهر ذو عُقَبٍ شتّى وذو غِيَرَ
قَرطَتُ آذانَ من فيها بفاضحة * على الحسان (٤) حصى الياقوت والدُّرَر

(١) كذا فى شرح ابن بدرون . وفى الأصل : "رقا" .

(٢) فى شرح ابن بدرون : "عضت مهابته" .

(٣) كذا فى شرح ابن بدرون . وفى الأصل : "مرتقب للأمر" .

(٤) كذا فى شرح ابن بدرون . وفى الأصل : "من الحسان ..." .

ومن أجود الرثاء وأصنعه وأتقنـه وأبدعه مراثى أبي تمـام حبيب بن أوس الطائى؛ فمن ذلك ماقاله يرثى به غالبَ بن السّعْدىّ :

هـــو الدّهر لا يُشْوِى وهنّ المصائبُ * وأكثر آمال الرّجال كواذبُ
فيـا غالبًـا لا غالبٌ لرزيّةٍ * بل الموتُ لا شك الذى هـــو غالبُ
وقلت : أخى، قالوا : أخٌ من قرابة؟ * فقلت لهـــم إن الشُّكول أقاربُ
نسـيبىَ فى رأيٍ وعزْمٍ ومَنْصِبٍ[1] * وإن باعدتنا فى الأصـــول المناسبُ
كأن لم يقل يوما : كأنّ، فتنثنى * إلى قـــوله الأسمـاعُ وهى رَواغب[2]
ولم يَصْـدَع النادى بلفظة فَيْصـلٍ * سِـنانيّـةٍ فى صـفحتيها التّجارِبُ[3]

ومنهـا :

مضى صاحبى واَستخلف البثَّ والأسى * علىّ، فلى من ذا وهذاك صاحبُ
عجبتُ لصـبرى بعـــده وهو ميّتٌ * وكنت آمرأً أبكى دمًا وهـو غائب
على أنّهـا الأيام قـد صِرْن كلُّها * عجـائبَ حتى ليس فيهـا عجـائبُ 

وقال يرثى محمد بن الفضل الحِمْيَرىّ :

ريبُ دهرٍ أصمّ دون العتـابِ * مُرْصَـــدٌ بالأوجال والأوْصـابِ
جفّ درّ الدنيا فقـــد أصبحت تكـ * ـتـال أرواحَنا بغـــير حسابِ
لو بدَتْ سافــرًا أُهِينَتْ ولكن * شغفَ الخــلقَ أنّهـا فى النّقـاب
إن ريب الزمان يُحْسن أن يهـ * ـدى الرّزايا إلى ذوى الأحسـاب
فلهـــذا يجفّ بعـــد آخضـــرارٍ * قبـــل روض الوِهاد روضُ الرَّوابى

(١) فى ديوان أبى تمام : "ومذهب" .
(٢) كذا فى الديوان ، وفى الأصل : "وهى لواعب" . (٣) فى الديوان :
ولم يصـدع النادى بخطبة فيصل * سـنانية قـد دربتها التجارب
وفى الأصل : ويروى ، ثم وضع تحت بعض الكلمات ما هو مذكور فى رواية الديوان .

جاء منها :

ذهبتْ يامحمــــد الغُــرُّ من أيّـ * ـامِــك الواضحـاتِ أىَّ ذَهابِ
عبَّس الحـــدُ والـثرى منـك وجهًا * عــيرَ ما عابسٍ ولا قطَّـابِ
أطفأ الحـــدُ والـــثرَى لُبّك المَسْـ * ـروجَ فى وقت ظُلمـــة الألبـابِ
وتبـــدّلتَ مـــنزلًا ظاهرَ الجَــدْ * ب يُسَمَّى مُقَطّـعَ الأســباب
منزلًا مُوحِشًـا وإن كان معمو * رًا بُجُـــلّ الصـديق والأحبـاب
يا شِهـابًا خبـا لآل عبيـــد الله أعْزِزْ بفقـــد هـــذا الشّهـاب

ومنهـا :

أنزلتـــه الأيّامُ عن ظهرها من * بعـــد إثبـات رِجْـــلِه فى الرِّكاب
حين تمّ الشّـــبابُ(١) وآعتـــدت الدنـ * ـيا إليـــه مفتـــوحـةَ الأبـــوابِ
وحكى الصـارمَ المُحَـــلَّى ســـوى أنْـ * ـنَ حُـــلاه جَــــوْهرُ الآدابِ
قصـــدتْ نحـــوه المنيّـــة حـــتى * وهبت حسن وجهـه للـــتراب

وقال يرثى إسحاق بن أبى رِبْعىّ(٢) :

أىُّ ندًى بين الثرى والجُيوبِ * وسُـــؤددٍ لَدْنٍ ورأْيٍ صليب
يآ بن أبى رِبْعِىّ آســـتُقْبِلتْ * من يومك الدنيا بيومٍ عصيب
شـقّ جيوبًا من أناسٍ لو آسـ * ـطاعوا لشقّوا ما وراء الجيوبِ
كنتَ على البعد قريبًا فقد * صرتَ على قربك غيرَ قريب
راحت وفودُ الأرض عن قبره * فارغةَ الأيدى ملاءَ القلوب
قـد علِمتْ ما رُزِئتْ إنما * يُعرف فقد الشمس بعد المغيب

(١) فى الديوان : « سمى شباب » .
(٢) كذا فى الأصل . وفى بعض نسخ الديوان [illegible]
والجيوب : الأرض الغليظة .

إذا البعيدُ الوطنِ آنتابه * حَلّ إلى نَهْيٍ ووادٍ خصيب
أدنته أيدى العيس من ساحةٍ * كأنها مَسْقِطُ رأس الغريب
أظلمتِ الآمالُ من بعده * وعُرِّيتْ من كل حسن وطيب
كانت خدودًا صُقِلتْ برهةً[1] * واليوم صارت مألفًا للشّحوب
كم حاجةٍ صارت رَكُوبًا به * ولم تكن من قبله بالرَّكوب
حلّ عِقالَيها كما أُطلقت * من عُقَد المُزْنة ريحُ الجنوب
إذا تيمّماه فى مَطْلبٍ * كان قَليبًا ورشاءَ القليب
ونعمةٍ منه تسربلتُها * كأنها طُرّةُ بُرْدٍ قَشيب
من اللواتى إن وَنَى شاكرٌ * قامت لمُسْديها مَقامَ الخطيب
متى تُنَخْ تَرْحَلْ بتفضيله * أو غاب يوما حضرتْ بالمَغيب
فما لنا اليوم ولا للعُلا * من بعده غيرُ الأسى والنّحيب

وقال يرثى أحمد بن هارون القرشىّ :

دأبُ عينى البكاء، والحزنُ دابى * فاتركينى – وُقيتِ مابى – لمابى
سأُجَرّى بقاء أيام عمرى * بين بَثّى وعَبْرتى وآكتئابى
فيك يا أحمد بن هارون خَصّت * ثم عمّت رزيتى ومُصابى
فجعتنى الأيامُ فى الصادق النّطـ * ـق فتى المَكْرُمات والآدابِ
بخليلٍ دون الأخلاّءِ [لا][2] بل * صاحبِ المُصْطفى على أصحابى
أيّما تسربل المجدَ وآجتا * ب من الحمد أيّما مُجْتاب
وتراءته أعينُ النّاظريه * قمرًا باهرًا ورئبالَ غاب

(١) كذا فى الديوان . وفى الأصل : "صقلت مرة" .
(٢) التكملة عن الديوان .

وعلا عارضَيْه ماء النّدَى الجا * رى وماءُ الحيَا وماءُ الشباب
أرسلتْ نحــوه المنيّــةُ عينـًا * قطّعت منـــه أوثق الأسباب

وقال يرثى أبا الصقر :

لو صُحِّح الدمعُ لى أو ناصَح الكمَدُ * لقلّمــا صَحِبانى الرُّوح والجســدُ
حانَ الصفاءَ أخٌ خان الزمانُ له * أخًا فــلم يتخوَّنْ جسمَــه الكَمَــدُ
تساقُطُ الدمــع أدنى ما بُليتُ به * للوجد إذ لم تَسَاقَطْ مهجــةٌ ويدُ
فوالذى رَتَكت(١) تَطْوِى الفِجاجَ له * سفائنُ البرّ فى خَدّ الــثرى تَخِـد
لأَنفَــدَنّ أسًى إن لم أمتْ أسفًا * ويفقد العمر بى أو ينفدَ الأمَــد
عنّى إليكَ فإنى عنــك فى شُــغُلٍ * لى منه يومٌ سيُبْلِى مهجتى وغَــدُ
وإنْ بُجَيْرِيَةٌ(٢) نابت جارتُ لهــا * إلى ذَرَى جَلَدِى فَاستوْهل الجَلَدُ
هى النوائبُ فانْجِى أوقِى عِظَــةً * فإنهــا شجــرٌ أثمــارُها(٣) رَشَــدُ
هُنَّ تَرَىْ قلقًا من تحتــه أرقٌ * يحــدوهما كمدٌ يعنو(٤) له الجســدُ
صمّاءُ سمُّ العِــدا فى جنبها ضَرَبٌ * وشربُ كأس الرّدَى فى ظلّها شَهَدُ
هــاكَ أُمّ النُّهَى لم تُودِ من حَزَنٍ * ولم تَجِــدْ لبنى الدنيا بمــا تَجِــدُ
لو يعــلم الناسُ علمى بالزمان وما * عانت يــداه لمــا ربّوا ولا ولَدُوا
لا يُبْعِــد الله ملحــودًا أقام به * شخصُ الحجا وسقاه الواحد الصَّمَدُ
يا صاحب القبر، دعوى غير مُتَّئِبٍ(٥) * إن قال أودى النّدى والبدرُ والأسدُ ٢٧

(١) رتك (من باب ضرب) : عدا فى مقاربة خطو .
(٢) فى الديوان : "وإن بجيرية" بالتصغير، والبجرية : الداهية .
(٣) فى الديوان : "فإنها فرص" : جمع فرصة وهى موضع الاستقاء .
(٤) كذا فى الديوان . ويعنو : يذل ويخضع . وفى الأصل : "يحنو له الحسد" .
(٥) متئب : مستح أو منخذل .

بات الـثرى بأخى جذلانَ مبتهجًا * وبِتُّ يحكم فى أجفانىَ السَّهَد
لهفى عليك وما لهفى بمُجْدِيةٍ * ما لم يَزُرك بنفسى حَرُّ ما أجِدُ
أمسى أبو الصقر يعفو التربُ أحسنَه * دونى ودَلْوُ الرَّدى فى مائه يَرِدُ
ويلُّ لأمّك أقصِرْ إنه حَدَثٌ * لم يَعتقِدْ مثلَه قلبٌ ولا خَلَدُ (١)
غال الزمانُ شقيقَ الجود لم يَقِه (٢) * أهلٌ ولم يَفْدِه مالٌ ولا ولدُ
حين ارتوى الماءَ واهتزّت شبيبتُه * عن مَضْحَكٍ للعالى ثغرُه بَرَدُ
وقيل: أحمدُها، بل قيل: أمجدُها * بل قيل: أنجدُها إن فرّت النُّجُد
رُؤْدُ الشباب كنصل السيف لا جَعَدٌ * فى راحتيه ولا فى عوده أَوَدُ
سقى الحبيسَ ومحبوسًا ببرزَخه * من السُّمِىّ كميث الوَدْقِ يَطَّرِدُ
بحيث حلّ أبو صقر فودّعه صفوُ الحياة ومن لذّاتها الرَّغَدُ
بحيث حلّ فقيدُ المجد مُغْترِبًا * ومُورِثًا حسرات ليس تُفْتَقَد

وقال يرثى عُمَير بن الوليد:

أعيدى النَّوحَ مُعْوِلَةً أعيدى * وزيدى فى بكائك ثم زيدى
وقُومى حاسِرًا فى حسرت * خَوامِشَ للنُّحور وللخُدودِ
هو الخطبُ الذى آبد [illegible] * وقل لأعين الثقلَينِ جُودى
ألَا رُزِئَتْ خُرَاسانُ [illegible] * غَداةَ ثوى عُمَيرُ بن الوليد
ألَا رُزِئَتْ بمسئول [illegible] * ألا رُزِئَتْ بمِتلافٍ مُفيد
ألَا [illegible] النَّدى و[illegible] * بحيث حلَلْتَ من حُفَرِ الصَّعيد
بنفسى أنت من [illegible] * [illegible] بسهم ردًى سديد

(١) كذا فى الديوان. [illegible]
(٢) فى الديوان: [illegible]

تجلّتْ غَمْـرةُ الهيجاء عنــه * خَضيبَ الوجه من دمه الجَسيدِ
فيابحر المَنُون ذهبتَ منه * بحرِ الجـود فى السَّـنَة الصَّلُودِ
ويا أسـدَ المنون فرَسْتَ منـه * غداةَ فرسـتَه أسـدَ الأسـودِ
أبالبطل النَّجيـد فتكتَ منـه (١) * نعم وبقاتل البطــل النَّجيـدِ
تَرَاءَى للطِّعان وقـد تَراءَتْ * وجوه المـوت من حُمْـرٍ وسُود
فيـاَلكِ وقعــةً جَلَّلا أعادت * أسًى وصـبابةً جلَدَ الجليــدِ
ويالكِ ساعةً أهـدتْ غَليـلًا * الى أكـبادنا أبَدَ الأبيـدِ
ألا أبْلِـغْ مقـالتىَ الإمامَ آلـ * ـخليفة والأمينَ بنَ الرشـيدِ
بأن أمـيرَنا لم يَألُ عدلًا * ونُصْـحًا فى الرَّعايا والجنــود
أفاض نوالَ راحـته عليهـم * وسامح بالطَّـريف وبالتَّليـدِ
وأضحى دونهــم للموت حتى * سقاه الموتُ من مَقِرٍ هبيدِ (٢)
وما ظفِـروا به حـتى قَرَاهم * قَشاعِمَ أنْسُر وضِـباعَ بيــد
بطعنٍ فى نحــورهمُ رشيــقٍ * وضربٍ فى رءوسهـمُ عتيــدِ
فيا يومَ الثـلاثاء آصطبحنـا * غداةً منـك هائـلةَ الورود
ويايوم الثـلاثاء آعتمَـدْنا بفقدٍ فيـك للسَّنَد العَمِـيدِ
وكم أسخَنْتَ فينا من عيونٍ * وكم أعثرتَ فينا من جُدودِ
فما زُجِرتْ طيورُك عن سَنيحٍ ولا طَلَعتْ نجـومُك بالسُّعود
ألا يأيهـا الملكُ المُـرَدّى * رداءَ المـوت فى جَدَثٍ حديدِ
حضرتُ فِناءَ بابك وآعـترانى * شجًى بين المُخنَّـق والوريدِ

---

(١) فى الديوان : "فتكت ما".

(٢) المقر : السم أو الصبر أو شبهه . و هبيد : حنظل .

رأيتُ به مطايا مُهْـمَلَاتٍ * وأفراسًا صَـوافِنَ بالوَصِـيد
فكنتَ عَتَادَ إما فَـكِّ عانٍ * وإما قتـلِ طاغيـةٍ عَنُـود
رأيتُ مؤمِّليـك عدتْ عليهم * عـوادٍ صعَّبَتْهم فى كَئُودِ
وأضحت عنـد غيرك فى هبوطٍ * حظوظٌ كنّ عندك فى صُعُود
وأصبحتِ الوفودُ إليـك وقفًا * على أن لا مُفَادَ لمُسْتَفِيـد
فكلُّهمُ أعـدّ اليأسَ وَقْفًـا * عليك ونصَّ راحلةَ القُعُـود
لقد سَخِنتْ عيـونُ الجود لمّـا * ثويتَ وأُقْصِدتْ غُرَرُ القصيد

وقال يرثى محمد بن حُمَيْد الطُّوسىّ :

كذا فَلْيَجِلّ الخطبُ وليَفْدَحِ الأمرُ * فليس لعـينٍ لم يَفِضْ ماؤها عذرُ
تُوُفِّيتِ الآمالُ بعـد محمـدٍ * وأصبح فى شغلٍ عن السَّفَر السَّفْر
وما كان إلا مالَ من قلّ مالُه * وذُخْرًا لمن أمسى وليس له ذُخر
وما كان يَدرى المُجْتدى جودَ كفِّه * إذا ما آستهلّت أنه خُـلِقَ العُسر
ألَا فى سـبيل الله من عُطِّلت له * فِجاجُ سبيـل الله وأُثْغِرَ الثغـرُ (١)
فتًى كلمـا فاضت عيونُ قبيلةٍ * دمًا ضَحِكت عنه الأحاديثُ والذِّكرُ
[فتًى دهرُه شطرانِ فيما يَنُوبه * ففى بأسه شطرٌ وفى جوده شطر] (٢)
فتًى مات بين الضرب والطعن مِيتةً * تقوم مَقـام النَّصر إذ فاته النَّصر
وما مات حتى مات مَضْرِبُ سيفه * من الشَّلِّ (٣) واعتلّت عليه القنا السُّمْر
وقد كان فوتُ الموت سهلًا فردَّه * عليه الحِفاظُ المُرُّ والخُـلُقُ الوَعْر
ونفسٌ تَعاف العارَ حتى كأنه * هو الكفرُ يومَ الرَّوعِ أو دونه الكُفر

---

(١) الإثغار : [illegible] يلقى [illegible] (٢) [illegible]
(٣) شل الأعداء بسيفه : طردهم [illegible] "من [illegible]"

فأثبتَ فى مُسْتَنقع الموت رِجْـلَه * وقال لها من تحت أخمصك الحشرُ
غدا غُـدوةً والحمـدُ نسجُ ردائِه * فلم ينصرف إلا وأكفانُه الأجرُ
تردّى ثيابَ الموت حُمْـرًا فما أتى * لها الليل إلا وهى من سندسٍ خُضْر
كأنّ بنى نَبْهانَ يوم وفاته * نجـومُ سماء خرّ من بينها البدر
يُعزّون عن ثاوٍ تُعزّى به العُلا * ويَبْكى عليه الجُود والبأس والشعر
وأنّى لهم صـبرٌ عليـه وقد مشى * إلى الموت حتى آستُشْهِدا هو والصّبر!
فتًى كان عذبَ الروح لا عن غَضَاضةٍ * ولكنّ كِبرًا أن يكون له كِبْرُ(١)
فتًى سلبته الخيلُ وهو حِمًى لها * وبزّته نارُ الحرب وهو لها جَمْـرُ
وقد كانت البِيضُ المآثير فى الوغى * بواترَ فهى الآن من بعـده بُتْرُ
أمن بعـد طىّ الحادثات محمـدًا * يكون لأثواب العلا أبدا نَشْرُ!
[إذا شَجَرات العرف جُذّتْ أصولُها * ففى أىّ فرع يُوجد الورقُ النّضْر!](٢)
لئن أبغضَ الدهرُ الخئونُ لفقده * لَعَهْدى به ممّن يُحَبُّ له الدهر
لئن غدرتْ فى الرّوع أيامُه به * لَمَا زالت الأيامُ شيمتُها الغـدر
لئن أُلْبِسَتْ فيـه المصيبـةَ طيّئٌ * لَمَا عُرّيَتْ منها تميمٌ ولا بَكْر
كذلك ما ننفكّ نفقـد هالكًا * يُشاركنا فى فقـده البـدو والحَضْر
سقى الغيثُ غيثًا وارتِ الأرضُ شخصَه * وإن لم يكن فيها سحاب ولا قَطْر
وكيف آحتمالى للسّحاب صنيعةً * بإسقائها قبرًا وفى لحـده البحرُ
ثوى فى الثّرَى من كان يحيا به الثّرى * ويغْمُرُ صرفَ الدهر نائلُه الغَمْرُ

(١) رواية الديوان :
٢ فتى كان عذب الروح لا من عضاضة * ولكن كبرا أن يقال به كبر
(٢) زيادة من الديوان .

مضى طاهرَ الأثواب لم تَبْقَ رَوضةٌ * غداةَ ثوى إلا اشتهت أنها قبرُ
عليك سلامُ الله وقْفًا فإننى * رأيتُ الكريم الحرَّ ليس له عمر

وقال يرثى إدريس بن بدر السّامىّ :

دموعٌ أجابت داعىَ الحزن هُمَّعُ * تَوَصَّلُ منا عن قلوب تَقطَّعُ
عَفاءٌ على الدنيا طويلٌ فإنها * تَفَرَّقُ من حيث ابتدت تَتَجَمّعُ
تبدَّلَتِ الأشياء حتى لَخِلْتُها * ستَثْنِى غروبَ الشمس من حيث تَطْلُع
لها صَيْحةٌ فى كل رُوح ومهجةٍ * وليست لشىء ما خلا القلبَ تُسْمِعُ
ألإدريسُ ضاع المجدُ بعدَك كلُّه * ورأىُ الذى يرجوه بعدك أضيَعُ
وغُودِر وجهُ العُرْف أسودَ بعد ما * يُرَى وهو كالبِكر الكَعاب تَصَنَّعُ
وأصبحتِ الأحزانُ لا لمَبرّةٍ * تُسَلِّمُ شَزْرًا والمعالى تُوَدِّعُ
وضلّ بك المُرْتاد من حيث يَهْتدى * وضرّتْ بك الأيامُ من حيث تنفعُ
وأضحت قَرِيحاتُ القلوب من الجَوى * تَقيظُ(١) ولكن المدامعَ تَرْبَعُ(٢)
عيونٌ حفظن الليلَ فيك محرَّمًا * وأعطينك الدمعَ الذى كان يُمْنَعُ
وقد كان يدعى لابِسُ الصبر حازمًا * فأصبح يُدْعَى حازمًا حين يَجْزَع
وقالوا عزاءً : ليس للموت مَدْفَعٌ * فقلت : ولا للحزن للمرء مَدْفعُ
لإدريسَ يومٌ ما تزال لذكره * دموعى وإن سكّنتُها تتفرّع
ولما نضا ثوبَ الحياة وأوقعت * به نائباتُ الدهر ما يُتوقَّعُ
غدا ليس يَدْرى كيف يَصنَع مُعْدِمٌ * درَى دمعُه من وجده كيف يَصنع
وماتت نفوس الغالبِيِّين كلهم * وإلا فصبرُ الغالبيّين أجمعُ

(١) تقيظ : يشتد حرها . وفى الأصل والديوان : "تقاط" .

(٢) تربع : تخصب .

غَـدَوْا فى زوايا نعشــه وكأنمـا * قريشٌ قريشٌ حين مات مُجَمِّعُ (١)
ولم أنْسَ سَعْىَ الجود خلفَ سريره * بأكسفِ بالٍ يَستقيم ويَظْلَع
وتكبيرَه خَمْسًا عليــه مُعالِنًا * وإن كان تكبيرُ المصلِّين أربَعُ
وما كنت أدرى يعــلم الله قبلها * بأن النَّـدى فى أهله يتشيَّعُ
وقمنا فقلنا بعد أن أُفْرِدَ الثَّرى * به ما يُقـال فى السَّــحابة تُقْلِع

– هذا مأخوذ من قول مسلم :

فاذهبْ كما ذهبتْ غَـوادى مُزْنَةٍ * أثــنى عليها السهلُ والأوعارَ
ألم تك تَرْعانا من الدَّهرِ إن سطا * وتحفَظُ من أموالنا ما نُضَيِّعُ
وتبسُطُ كفًّا فى الحقوق كأنما * أناملُها فى البأس والجـود أذرُعُ
وتَلْبَسُ أخلاقًا كِرامًا كأنها * على العِرْض من فرط الحَصانة أدْرُعُ
وتربِطُ جأشًا والكُماةُ قلوبُهم * تَزَعْزَعُ خوفًا من قنًا تتزعزعُ
وأمنيَّةُ المرتاد يحصُرك النَّدى * فيَشْفَع فى مثل العلا فيُشَفَّعُ (٢)
فأنطِق فيه حامدٌ وهو مُفحَمٌ * وأفحِمَ فيه حاسدٌ وهو مِصْقَعُ
ألا إنّ فى ظُفُر المنيَّة مُهجةً * تَظَلّ لها عينُ العُلا وهى تدمَعُ
هى النفس إن تبْكِ المكارمُ فقدَها * فمن بين أحشاء المكارم تُنزَعُ
ألا إنّ أنفًا لم يَعُدْ وهو أجدع * لفقدك عند المكرمات لأجدَعُ
وإن امرأً لم يُمْسِ فيك مُفجَّعًا * بملحوده، فى عقله لمُفَجَّعُ

وقال يرثى القاسم بن طَوْق بن مالك :

حوًى ساورَ الأحشاءَ والقلبَ وغلُّه * ودمعٌ يَضِيم (٣) العينَ والخدَّ هَمَلُهْ

(١) مجمع : لقب قصى بن كلاب بن مرة وهو الجد الخامس لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، سمى بذلك لجمعه قريشا . مرحلس : رحبة صف ورحله شتة . (٢) فى الأصول : «فيشفع فى مثل الملا فيشفع» . (٣) كذا بالأصل ، ولعله محرف عن «يغيم» بمعنى ...

وفاجعُ موت لا عدوٌّ يخافــه * فيُبقِي ، ولا يُبقِي صـديقًا يُجامِلُهْ
وأىُّ أخى عِزٍّ[(١)] وذى جَـبَرِيَة * ينـابذه أو أىُّ رامٍ يناضِـلُهْ
إذا ما جرى مَجْرى دم المرء حُكْمُه * وبُثَّت على طُرق النفوس حَبَائلُهْ !
فـلو شاء هـذا الدهرُ أقصَرَ شرُّه * كما أقصرتْ عنَّا لُهَاهُ ونائـلُهْ
سنشكوه إعلانًا وسرًّا ونيَّـةً * شكيَّةَ من لا يستطيع يُقاتِلُهْ
فمن مبلغٌ عنِّى ربيعـةَ أنَّه * تقشَّعَ طَلُّ الجُـود عنهـا ووابلُهْ
وأنَّ الحِجَا منها ٱستطارت صُدوعه * وأنَّ الندى منهـا أصيبت مَقَاتِلُهْ
مضى للزِّيالِ القاسمُ الواهبُ اللُّهَى * ولـو لم يُزَايلنا لكنَّا نُزَايِلُهْ
ولم يعلموا أنَّ الزمان يريده * بفجع ولا أنَّ المنايا تُرَاسِـلُهْ

ومنهـا :

طـواه الرَّدى طَىَّ الرِّداء وغُيِّبَت * فضائلُه عن قومه وفَوَاضِـلُهْ
طوى شِيَمًا كانت تروحُ وتغتـدِى * وسائلَ من أعيتْ عليـه وَسَائلُهْ
فيا عارضًا للعُـرْف أقلَـعَ مُزْنُهُ * ويا واديًا للجُـود[(٢)] جَفَّت مَسايِلُهُ

وقال يرثى محمد بن حُميد وأخاه قحطبة[(٣)] :

بأبى وغيرِ أبى — وذاك قليلُ — * ثاوٍ عليـه ثرى النُّبـاج مَهِيلُ

---

(١) فى الديوان : «وأى أخى عزاء أو حرية» .

(٢) كذا فى الديوان . وفى الأصل : « ويا واديا للعرف» .

(٣) كذا فى الجزء الثالث من شرح ديوانه لأبى بكر محمد بن يحيى الصولى المحفوظ بدار الكتب المصرية تحت رقم (٥٧٣ أدب) وكان محمد هو الأكبر والآخر قحطبة . وفى الأصل : «وقال يرثى محمد بن حميد ويسمى قحطبة ، وقيل : قحطبة أخوه» والصحيح ما أثبتناه وهو أن قحطبة أخوه ويؤيد هذا قول أبى تمام من مرثية أخرى يرثى بها بنى حميد الطوسى :

ذكرت أبا نصر فقد محمـد * وقحطبة ذكرى طويل البلابل

ومنها .

لعمـرك ما كانوا ثلاثة إخوة * ولكنهـم كانوا ثلاث قبائل

حَذَلتْه أسرته كأنّ سَراتَهم * جهلوا بأن الخاذلَ المخذولُ
أكّالُ أشلاءِ الفوارس بالقَنا * أضحى بهنّ وشِلْوُهُ مأكول (١٠١)
كُفّى، فقتلُ محمدٍ لِىَ شاهدٌ * أن العزيزَ مع القضاء ذليلُ

ومنها :

هيهات لا يأتى الزمانُ بمثله * إنّ الزمانَ بمثله لَبخيلُ
ما أنتَ بالمقتولِ صبرًا إنّما * أَمَلِي غداةَ نَعِيِّك المقتولُ

ومنها :

من ذا يحدّث بالبقاء ضميره! * هيهات ! أنت على الفَناء دليلُ
ياليت شعرى بالمكارم كلِّها * ماذا، وقد فقدت نداك، تقول؟

ومنها :

يا يومَ لخطبةٍ لقد أبقيتَ لى * حُرَقًا أرى أيّامها ستطولُ
ليثٌ لو أنّ الليث قام مَقامه * لانصاعَ[1] وهو يَراعةٌ إجْفيلُ
لمّا رأى جمعًا قليلا فى الوغَى * وأولو الحِفاظ من القليل قليلُ
لاقى الكريهةَ وهو مُغْمِدُ رَوْعه * فيها ولكنْ بأسُه[2] مسلولُ
ومشى إلى الموت الزُّؤام كأنما * هو من محبّته إليه خليل

ومنها :

أضحتْ عِراصُ محمدٍ ومحمدٍ * وأخيهما وكأنهنّ طُلولُ
أبى حُمَيدٍ ليس أوّلَ ما عفا * بعد الأسود من الأسود الغِيلُ
مازال ذاك الصبرُ وهو عليكُمُ * بالموت فى ظلّ السيوف كفيلُ
مستبسلون كأنّما مُهجاتُهُم * ليست لهم إلا غداةَ تسيلُ

---

(١) انصاع : انفتل راجعا مسرعا. (٢) كذا فى الديوان . وفى الأصل : "ولكن سيفه".

أَلِفوا المنايا فالقتيلُ لديهـــمُ * من لم يُخَلِّ(١) العيشَ وهو قتيــلُ
إن كان ريبُ الدهرِ أثكلنيكُمُ * فالموتُ أيضـا ميّتٌ مثـكولُ

وقال يعزّى مالك بن طَوْق :

أمالكُ إنّ الحزنَ أحلام حالِمٍ * ومهما تدُمْ فالحزنُ ليس بدائِمِ
أمالكُ إفراطُ الصـبابة تاركٌ * حِجًا واعوجاجًا فى قناة المكارمِ
تأمّلْ رُوَيْدًا هل تَعُدّنّ سالمًـا * إلى آدمٍ أم هل تعدُّ ٱبنَ سالمِ!
متى تُرِعِ هذا الموتَ عينًا بصيرةً * تَجِدْ عادلًا منـــه شبيهًا بظالِمِ
فإن تكُ مفجوعًا بأبيضَ لم تكن * تشُـــدُّ على جدواه عقدَ التمائمِ
بعارس دُغْمِيٍّ وهَضْـبةِ وائلٍ * وكوكبِ عتّابٍ وحمزةِ هاشِمِ
شَجَا الريحَ فازدادتْ حنيناً لفقده * وأحدثَ شَجْوًا فى بُكاء الحمـائمِ
فمن قبــله ما قد أصيب نبيًّا * أبو القاسم النورُ المبينُ بقاسِمِ
وخُبِّرَ قَيْسٌ بالجليّـــةِ فى آبــه * فلم يتـغيّر وجهُ قيس بن عاصِمِ
وقال علىٌّ فى التعازى لأشعثٍ * وخاف عليه بعض تلك المآثم :
أتصـبر للبلوى عزاءً وحِسبةً * فتُؤْجَرَ، أم تسلو سلوَ البهائم؟
خُلِقنا رجالًا للتجلُّد والأَسَى * وتلك الغَوَاني للبُكَا والمآتِمِ
وأىُّ فتًى فى الناس أحرَضُ(٢) من فتًى * غدا فى خِفَارات الدموع السَّواجِمِ
وهل من حكيمٍ ضيّعَ الصبرَ بعدما * رأى الحكماءُ الصبرَ ضربةَ لازِمِ
فلا بَرِحت تسطو ربيعةُ منكم * بأرقَمَ عطّافٍ وراء الأراقِمِ

(١) فى نسخة من الديوان : "من لا تخلى الحرب وهو قتيل" وفى نسخة أخرى منه : "من لم يخل الحـــرب ..." .

(٢) من حرض ككرم : طال همه وسقمه وفسد .

فأنت وصنواك الشقيقانِ إخوة * خُلقتم سَعُوطًا للا نوف الرواغم (١٠٢)
ثلاثة أركان، وما آنهدّ سؤددٌ * إذا ثبتت فيه ثلاثُ دعائم

وقال يرثى عُمَيْر بن الوليد :

كفُّ الندٰى أمستْ بغير بَنانِ * وقناتُه أضحت بغير سِنانِ
جبلُ الجبال غدتْ عليه مُلِمَّةٌ * تركته وهو مهدَّم الأركانِ
أَنعَى عُمَيْرَ بن الوليد لغارةٍ * بِكْرٍ من الغارات أو لَعَوانِ
أنعَى فتى الفِتْيانِ غيرَ مكذَّبٍ * قولى، وأنعَى فارس الفُرسانِ
عَثَر الزمانُ ونائباتُ صروفِه * بمُقيلنا عثراتِ كلِّ زمانِ
لم يترك الحَدَثانُ يوم سطا به * أحدًا نَصُول به على الحَدَثانِ
قدكنتَ حَشْوَ الدرع ثم أراك قد * أصبحتَ حشوَ اللحدِ والأكفانِ
شُغِلت قلوبُ الناس ثم عيونُهم * مذ مِتَّ بالخفَقانِ والهَمَلانِ
وآستعذبوا الأحزانَ حتى إنّهم * يتحاسدون مَضاضةَ الأحزانِ
ما يرعَوِى أحدٌ الى أحدٍ ولا * يشتاق إنسانٌ الى إنسانِ
أأصاب منك الموتُ فرصةَ ساعةٍ * فعَدَا عليك وأنتما أخَوانِ!
فَمَن الذى أُبقِى ليومِ تكرُّم * ومن الذى أبقى ليوم طِعانِ! (١)

وقال يرثى آبنا له :

كان الذى خِفتُ أن يكونا * إنّا إلى الله راجعونا
أمسى المُرَجَّى أبو علىٍّ * مُوسَّدًا فى الثرى يمينا
حين آستوى وآنتهى شباباً * وحقَّق الرأىَ والظنونا

(١) كذا بالأصل . والذى بالديوان :
من الذى يُبقَى ليوم كريهة * ومن الذى يُدعَى ليوم طعان

أُصِبْتُ فيــه وكان عندى * على المصيبـاتِ لى مُعينـا
كنتُ كثيرًا به عزيزًا * وكنتُ صَــبًّا به ضَنينا
دافعتُ إلا المَنُونَ عنـــه * والمـرءُ لا يدفع المنـــونا
آخِرُ عهــدى به صريعًا * للموت بالداء مُســتكينا
إذا شَــكَا غُصَّــةً وكَرْبًا * لاحَظَ أو راجَــعَ الأنينا
يُدِير فى رَجْعِــه لسانًا * يمنعــه الموتُ أن يُبِينا
يَشْـخَصُ طورًا بناظرَيْهِ * وتارةً يُطْبِــق الجُفُــونا
ثم قضَى نَحْبَــه وأمسَى * فى جَــدَثٍ للثرى دفينـا
باشَرَ بَرْدَ الــثرى بوجهٍ * قد كان من قبــله مَصُونا
بَعِيــد دارٍ قريب جارٍ * قــد فارق الإلف والقَرِينا
بُنَيَّ يا واحــدَ البنينـا * غادرتَنى مُفْــردًا حزينـا
هوَّن رُزْئى بــك الرزايا * علىَّ فى النــاسِ أجمعينا
(١٠٣) آليتُ أنسـاك ما تجــلَّى * صُــبحُ(١) نهـارٍ لمُصْبِحينا
وما دعا طـائرٌ هَــدِيلًا * ورجَّعتْ والِهٌ حَنِينـا
تصرَّف الدهرُ بى صُروفًا * وعاد لى شأنُه شُــؤونا
وحــزَّ فى اللحم بــل بَرَاه * وأجتثّ من طلحتى فُنُونا
أصاب مــنِّى صميمَ قلبى * وخِفتُ أن يقطع الوَتينـــا
والمــرء رهنٌ بحالتيه * فشِــدّةً مرّةً ولِينـــا

(١) كذا فى الديوان . وفى الأصل : "شمس نهار" .

ومما قيل فى شواذّ المراثى :

من ذلك ما قالته جَلِيلة بنت مُرّة أخت جَسّاس زوج كُلَيْب لما قتل أخوها جسّاس زوجها كليبا ؛ وكان نساء الحىّ لما اجتمعن للمأتم قلن لأخت كليب : رَحّلِى جليلة عنك فإن قيامها فيه شماتةٌ وعار علينا عند العرب ، فقالت لها : أخرجى عن مأتمنا ، فأنت أخت واترنا وشقيقة قاتلنا ، فخرجتْ وهى تجرّ أعطافها ؛ فلقيها أبوها مُرّة فقال لها : ما وراءكِ ياجليلة؟ فقالت : ثُكْل العَدَد ، وحزن الأبد ، وفقدُ حليل ، وقتل أخ عن قليل ؛ و بين ذلك غَرْس الأحقاد[1] ، وتفتّت الأكباد . فقال لها : أَوَ يَكُفُّ ذلك كرمُ الصَّفح و إعلاء الدِّيَات ؟ فقالت جليلة : أُمنيةٌ مخدوع وربِّ الكعبة ، ابالبُدْن تَدَعُ لك وائل دم ربِّها[2] ! قال : ولما رحلت جليلة قالت أخت كليب : رِحلَةَ المعتدى وفراقَ الشامت ! ويلٌ [عداً][3] لآل مُرّة ، من الكرّة بعد الكرّة ! وبلغ قولها جليلةَ فقالت : وكيف تشمَت الحُرّة بهتك سِترها وترقّب وِتْرِها ! [أسعد الله أختى ، ألا قالت : نَفْرةَ الحياء وخوفَ الأعداء][3] ثم أنشأتْ تقول :

يا ابنةَ الأقوام إن لمتِ فلا * تَعْجَلى باللوم حتى تسألى
وإذا أنتِ تبينتِ الذى * يُوجب اللوم فلُومى واعذُلِى
إن تكن أخت امرئ لِيمَتْ على * جزَعٍ منها عليه فافعلى
جلّ عندى فعلُ جَسّاس فيا * حسرتا عما انجلت أو تنجلى
فعل جسّاس على ضَنّى به * قاطعٌ ظهرى ومُدنٍ أَجَلى

---

(١) كذا فى الكامل لابن الأثير (ج ١ ص ٢١٦ طبعة بلاق) . وفى الأصل : « وبين رزأين : عرس الأحقاد ... » .

(٢) فى الكامل لابن الأثير : « تدع لك تغلب ... » .

(٣) زيادة من الكامل لابن الأثير .

لو بعينٍ فقئت عينٌ سوى[1] * أختها وٱنفقأت لم أحفِـــل
تحمِـــلُ العينُ قَـذَى العين كما * تحمِـــلُ الأمّ أذَى ما تفتـــلى[2]
إنّـــنى قاتـــلةٌ مقتـــولةٌ * فلعـــلّ الله أن يرتاحَ لى
يا قتيـــلًا قـوّض الدهرُ به * ســقفَ بيتَىّ جميعًـا من عَلِ
ورمانى فقـــده من كَثَبٍ * رَميـةَ المُصْمَى به المُستأصَـلِ[3]
هـــدم البيتَ الذى استحدثتُهُ * و بدا فى هَـــدْم بيتى الأوّلِ[4]
يا نسائى دونَكُنّ اليوم قد * خصّـنى الدهرُ بُرزءٍ مُعضِـلِ
مسّـــنى فقـــدُ كُلَيْبٍ بلظًى * من ورائى ولظًى مُســـتقْبلِ
ليس من يبـــكى ليومين كمن * إنمـا يبكى ليـــوم ينجَـــلى
دَرَكُ الثـــائرِ شافِيـــه وفى * دَرَكى ثارِىَ ثُكْـلُ الثُكلِ[5]
ليتَـــه كان دَمِى فاحتَلَبـــوا * دِرَرًا منـــه دما من أكحَـــلى

(١٠٤) ولـما مات معاوية بن أبى سفيان ٱجتمع الناس بباب يزيد فلم يقدروا على الجمع بين التهنئة والتعزية، حتى أتى عبد الله بن همّام فقال : يا أمير المؤمنين، أجرل الله أجرك على الرزّية . و بارك لك فى العطيّة، وأعانك على الرعية؛ فقد رُزئت عظيما، وأُعطِيتَ جسيما؛ فٱشكر الله على ما أُعطيت ، وٱصبر على ما رُزيت ، فقد فقـــدت خليفة الله، وأُعطيت خلافة الله ؛ ففارقت جليـــلا ، وأُعطيت جزيلا ؛ إذ قضى معاوية نحبه؛ ووليت الرياسة، وأُعطيت الســـياسة ؛ فأورده الله موارد السرور، ووفّقك فى جميع الأمور :

(١) فى رواية أخرى أشار اليها هامش الأصل : « فديت عين سوى » .
(٢) أفتلى الصعبي : رباه . (٣) فى رواية أشير اليها فى هامش الأصل : «ورمانى قتله ...» .
(٤) فى الكامل لابن الأثير (ح ١ ص ٣٨٩ طبع أوربا) : « واشى فى هدم ... » .
(٥) فى الكامل لابن الأثير : « يشفى المدرك بالثأر وفى ... » .

فاشكر يزيدُ فقد فارقتَ ذا مِقَةٍ * واشكر حِباءَ الذى بالملك حاباكا (١)

[أصبحت تملك هذا الخلق كلَّهمُ * فأنت ترعاهمُ والله يرعاكا] (٢)

لا رُزْءَ أعظمُ فى الأقوام قد علموا * مما رُزِئتَ، ولا عُقْبَى كعُقباكا

وفى معاويةَ الباقى لنا خَلَفٌ * إذا نُعيتَ ولا نسمعْ بمَنْعاكا

ففتح للناس باب الرثاء وجَرَوْا على منواله .

وقال أبو نُوَاس الحسن بن هانىء يعزِّى الفضل بن الربيع عن الرشيد ويهنّئه بالأمين :

تَعَزَّ أبا العبّاس عن خير هالكٍ * بأكرمِ حىٍّ كان أو هو كائنُ

حوادثُ أيام تدور صروفُها * لهنّ مَسَاوٍ مرّةً ومحَاسِنُ

وفى الحىّ بالميْت الذى غيّب الثرى * فلا أنت مغبونٌ ولا الموت غابِنُ

وقال أبو تمام يرثى المعتصم ويهنىء الواثق :

ما للدموع تروم كلّ مَرَامِ * والجفنِ ثاكلَ هَجْعةٍ ومَنامِ

يا حفرةَ المعصوم تربُكِ مُودَعٌ * ماءَ الحياةِ وقاتلَ الإعدامِ

إن الصفائح منكِ قد نُضِدت على * ملقى عظام لو علمتِ عظامِ

فتق المدامع أن لحدك حلّه * سكنُ الزمان ومُمْسِكُ الأيامِ

ومصرِّف لُملك الجَموح كأنه * قد زُمّ مُصْعَبُهُ له بزِمامِ

هدمتْ صروفُ الدهر أرفعَ حائط * ضُرِبت دعائمه على الإسلامِ

دخلتْ على مَلِك الملوك رِواقَه * وتسرّبتْ لُمقوِّم القُوّامِ

(١) رواية الكامل للمبرد : (ص ٧٨٥ طبع ليبزج سنة ١٨٦٤) :

اصبر يزيد فقد فارقت ذا ثقة * واشكر بلاء الذى بالملك أصفاكا

(٢) زيادة من الكامل .

مفتاحُ كلِّ مدينــةٍ قد أُبهِمت * غَلَقًا ومُخْلِى كــلِّ دارِ مُقــامِ
ومُعرِّف الخلفاء أنّ حظوظها * فى حـــيِّز الإسراج والإلجامِ
أخذ الخلافةَ عن أســلافه التى * منعتْ حِمَى الآباء والأعمــامِ
فلسُورة الأنفال فى مِـــيراثه * آثارُهــا ولسُـــورة الأنعــامِ
ما دام هارونُ الخليفةَ فالهُدَى * فى غِبْطة موصـــولةٍ بدوامِ
إنّا رحَلنا واثقيــن بواثقٍ * بالله شمس ضُحًى وبدرِ تَمَامِ
(١٠٥) لله أىّ حياةٍ انبعثت لنــا * يوم الخميس وبعــد أىّ حِمــامِ
أودى بخير إمامٍ اضطربت به * شُعَب الرجال وقام خــيرُ إمامِ
تــلك الرزيّةُ لا رزيّةَ مثلُهــا * والقِســمُ ليس كسائر الأقسامِ

جاء منها :

نقضٌ كرَجع الطَّرْف قد أبرمتَه * يابن الخــلائف أيّمــا إبرام
ما إن رأى الأقوامُ شمسًا قبلها * أَفَلَتْ فـــلم تُعقبهُمُ بظَـــلام
أَكْرِمْ بيــومِهِمُ الذى مَلَّكتَهُمْ * فى صــدره وبعامهم من عامِ

ثم أخذ فى مدح الواثق .

وفى هذه الواقعة يقول ابن الزيّات :

قد قلتُ إذ غيّبوك واصطفقتْ * عليــك أيدٍ بالتُّرْب والطينِ
اذهب فنعم المعينُ كنتَ على الدنيــا ونعـــم الظهير للدينِ
لن يجبُرَ الله أمّــةً فقــدتْ * مثلَك إلا بمثــل هارونِ

ومن أشدّ الرثاء صعوبةً على الشاعر وأضيقه مجالًا أن يرثى امرأة أو طفلا .

وقد أُخِذ على المتنبّى فى قوله يرثى أمّ سيف الدولة بن حمْدان :

ســلامُ الله خالقِنا حَنُــوطٌ * على الوجه المُكَفَّن بالجمالِ

وقالوا : ماله ولهذه العجوز يصف جمالها! ووبخه الصاحب بن عبّاد فى قوله فيهـا :

رواق العـز فوقك مُسْبَطِرٌّ * ومُلْكُ علىٍّ ٱبنـك فى كمال

قال أبو الحسن علىّ بن رَشيق الأزدى فى كتابه المترجم بالعمدة و بالأغانى (١) أيضا : أشدُّ ما هُجّن هذه اللفظة وجعلها مقام قصيدة من الهجاء أنه قرنها "بفوقك" فجاء عملا تامّا لم يبق فيه إلا الإفضاء . و إن يكن المتنبى أخطأ فى هذا فلقد أجاد فى غيره؛ والفاضل من عُدّت سَقَطاته، وحُفِظت هَفَواته وفَلَتاته؛ وٱنظر إلى قوله فى أخت سيف الدولة :

يا أخت خيرِ أخٍ يابنتَ خير أب * كناية بهما عن أشرف النسب
أُجِلُّ قدرَكِ أن تُدْعَىْ مُؤَنَّثـةً * ومن يَصِفْكِ فقد سمّاكِ للعـرب

وقوله أيضا :

ولو كان النساء كمن فقدْنا * لفُضِّلت النساء على الرجالِ
مَشىِ الأُمراءُ حوليْها حُفَاةً * كأن المَرْوَ من زِفّ الرئال (٢)

ومن جيّد ما رُثِى النساء به وأشدّه تأثيراً فى القلب و إثارةً للحزن قول ٱبن عبد الملك ابن الزيّات فى أمّ ولده :

أَلا مَن رأى الطفل المفارِقَ أُمَّـه * بُعَيْـدَ الكَرى عيناه تبتدرانِ
رأى كلَّ أُمٍّ وٱبنَهـا غيرَ أُمِّـه * يبيتانِ تحت الليـل يَنْتجيانِ (١٠٦)
وبات وحيـدًا فى الفراش تحثّـه * بلابـلُ قلب دائم الخَفَقانِ

---

(١) لم يذكر أبو الفرج فى النسخ التى تحت أيدينا من كتابه الأغانى شيئا عن المتنبى مع أنه كان من معاصريه . (٢) الزف : ريش النعام . والرئال : جمع رأل، وهو ولد النعام .

ومنها بعد أبيات .

ألا إنَّ سَجْلًا واحدًا قد أرقتُه * من الدمع أو سَجْلين قــد شَـفَيانِى
فلا تَلْحَيانِى إن بكيتُ فإنمــا * أُداوى بهـــذا الدمـــع ما تريان
وإنّ مكاناً فى الثَّرى خُطَّ لحــدُه * لمن كان من قلبى بكلّ مكان
أحقُّ مكانٍ بالزيارة والهـــوى، * فهــل أنتمــا إن عُجْتُ منتظران؟
فهَبْنِى عزمتُ الصبْرَ عنها لأنّنى * جَلِيدٌ فمن بالصـــبر لابن ثمَــان
ضعيف القُوَى لايعرف الأجرَ حِسبةً * ولا يأتَسِى بالنــاس فى الحَدَثانِ
ألا مَنْ أُمَنِّيــه المُنَى وأُعِدُّهُ * لعَـــثْرة أيامٍ وصَرْفِ زَمانِ
ألا مَن إذا ما جئتُ أكرمَ مجلِسى * وإن عبتُ عنــه حاطَنى ورعانى
فــلم أر كالأقدار كيف تُصيبنى * ولا مثلَ هــذا الدهرِ كيف رمانى

وقال أبو تمّــام يرثى جارية له :

ألم ترنى خلَّيْتُ عينى وشانَهــا * ولم أحفِلِ الدنيا ولا حَدَثانَهــا
لقد خوّفتْنى النائباتُ صروفَهــا * ولو أمّنتـــنى ما قبِلتُ أمانَهــا
وكيف على نار الليالى مُعَرَّسِى * إذا كان شيبُ العارضَيْنِ دُخانَها
أُصِبتُ بخَوْد سوف أغبُرُ بعدها * حليفَ أسًى أبكى زمانى زمانَها
عِنانٌ من اللذّات قد كان فى يدى * فلما مضى الإلفُ استردّتْ عِنانها
منحتُ الدُّمَى هجرى فلا مُحْسِناتها * أوَدُّ ولا يهوَى فؤادى حِسانَهــا
يقولون: هل يبكى الفتى لخريدةٍ * متى ما أراد اعتاض عشْرًا مكانَها!
وهل يستعيضُ المرءُ من خَمس كَفّه * ولو صاغ من حُرّ اللُّجَين بنانَها!

وقال أبو الفتح كُشاجم يعزِّى بآبنة :

تأسّ يا أبا بكــرٍ * لموت الحُــرّة البِكْرِ

فقــد زوّجتَها القبرَ * وما كالقبر من صِهْرِ
وعُوِّضتَ بها الأجرَ * وما كالأجر من مَهْرِ
زِفافٌ أُهديت فيــه * من الخِدْر إلى القبرِ
فتــاةٌ أســبغ الله * عليها أفضــل السِّترِ
ورزْءٌ أشــبهَ النعمــ * ـة فى الموقِع والقَدْرِ
وقد يُختار فى المكرو * هِ للمــرء وما يدرى
فقابِلْ نعــمةَ الله * وما أولاك من شكرِ
وعَزِّ النفسَ عمّا فا * ت بالتسليم والصــبر

وقال أبو مروان بن أبى الخصال الأندلسىّ فى مثل ذلك :

ألا ياموتُ كنت بنا رَءوفاً * فجدّدت الحياة لنــا بزَوْرَهْ (١٠٧)
حمِدتُ لفعلك المأثور لمّــا * كفيتَ مؤونةً وسترتَ عَورهْ
فأنكَحْنا الضريحَ بغــير مَهْر * وجهّزْنا الفتاةَ بغير شَــوْرهْ

وقال أبو تمّام حبيب بن أوس الطائىّ فى ٱبنين لعبد الله بن طاهر ماتا صغيرين فى يوم واحد من قصيدة :

نجمــان شــاء الله ألّا يطلُعا * إلا ٱرتدادَ الطَّرْف حتى يأْفُلَا
إنّ الفجيعةَ بالرياض نواضراً * لأجَلُّ منهــا بالرياض ذوابِلَا
لو يُنْسَآنِ لكان هــذا غارباً * للمكرُماتِ وكان هــذا كاهِلَا
لَهفى على تلك الشواهد فيهما * لو أُمْهِلتْ حتى تكونَ شمائلَا
لَغَــدا سكونهما حِجًا وصِباهما * حِلْمًا وتلك الأرْيَحيَّــةُ نائلَا
إنّ الهلالَ إذا رأيتَ نُمُوَّه * أيقنتَ أن سيكونُ بدرًا كاملَا

وقال أبو الحسن الأنبارى فى محمد بن بقيّة وزير عزّ الدولة بختيار بن معزّ الدولة آبن بُوَيْهِ لمـا صلبـه عَضُدُ الدولة بن رُكن الدولة بن بُوَيْهِ عنـد خلع بختيار، وهى من نوادر المراثى :

عُلُوٌّ فى الحيـاةِ وفى المـاتِ * لَحَقٌّ أنت إحدى المُعجـزات
كأنّ الناسَ حولك حين قاموا * وفودُ نَدَاكَ أيّامَ الصِّـلاتِ
كأنّك قائمٌ فيهـمْ خطيبًـا * وكُلُّهـمُ قيـامٌ للصّـلاةِ
مَدَدْتَ يديْك نحوَهُمُ جميعًا[1] * كمـدِّهما إليهـمْ بالهِبَـاتِ
ولمـا ضاق بطنُ الأرض عن أنْ * يَضُمَّ عُلَاكَ من بعـد المَمَـاتِ
أصاروا الجوّ قبرَك وآستنـابوا * عن الأكفانِ ثوبَ السافياتِ
لعُظْمِك فى النفوس بَقِيتَ تُرْعَى * بحُـرّاس وحُفّـاظ ثِقـاتِ
وتُشْعَلُ عنـدك النيرانُ ليـلًا * كذلك كنتَ أيّامَ الحيـاةِ
ولم أرَ قبلَ جذْعك قطُّ جذعًا * تمكّنَ من عِناقِ المكْرُماتِ
ركبتَ مطيّةً من قبلُ زيدٌ * عَلَاها فى السنين الذاهباتِ

أشار فى هذا البيت إلى زيد بن الحسن بن علىّ بن أبى طالب لمّا قُتِلَ وصُلِب فى أيّام هشام بن عبد الملك .

ومما يدخل فى هـذا الباب ويلتحق به ما يطرأ من الحوادث التى تعُمّ بها البليّة، وتشمل بسببها الرزيّة ؛ كآستيلاء أهل الكفر على بلد من بلاد الإسلام، وهزيمتهم لجيشه اللُّهام؛ فمن ذلك ما كتب به القاضى الفاضل عبد الرحيم البَيْسانى (١٠٨)
إلى الأمير عزّ الدين سامة لمـا آستعاد الفِرنْج ــ خذلهم الله تعالى ــ مدينة بيروت :
ابتدأ كتابه بأن قال بعد البسملة : قال الله سبحانه فى كتابه العزيز مُسلّيًا لنبيّه الكريم

(١) كذا بالأصل . وفى احدى النسخ : "اقتفاء" وهو محرف عن "احتفاء" .

صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ ﴾ ، فإذا كان من الناس من خان الله ورسوله صلى الله عليه وسلم فكيف لا يخون الناسُ الناس ! وأين المُوفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرون فى البأساء والضرّاء وحين الباس :

وقد كانوا إذا عُدُّوا قليــلًا * فقد صاروا أقلّ من القليل

والمولى — أعزّه الله بنصره ، وعوّضه أحسن العِوَض من أجره ، وكتب له ثوابَ تسليمه إليــه وصبره — ليس بأوّل من وَثِق بمن خان ، وقضيّةُ بيروت بأوّل مقدور قال الله له : كن فكان ؛ والقــدر السابق لا يدفعه الهمّ اللاحق ، ومن الخَجَلات المستعارة خَجلة الواثق ، والموثوقُ به لائقٌ به الخجلُ الصادق ؛ ومعاذ الله أن ينكّس المجلس رأسَه حياء ، أو أن يَتسخّط لله قضاء ، أو أن يأسَف على مال نقله من مُودَعه الذى لا يُؤمَن من الآفات عليه ، إلى مُودَع الله الذى يحفظه إلى أن يأتيَه به أحوجَ ما كان إليه ؛ والحمــد لله الذى جعل مصائبَنا فى الدنيا فوائدَنا فى الأُخرى ، ثم الحمد لله الذى جعل البادرةَ للعُدوان والعاقبــةَ للتقوى . وقــد علم الله أنى مُقَاسِمه ومُساهِمه ، ومُضمِرٌ من الهمّ بمـا آتفق من هذا المقدور ما مُقدّره عالمه ؛ غير أنه لا حيلةَ لمن لا حيلة له إلا الصبر ، وإن صبَر جرى عليــه القدَر وجرى له الأجْر ، وإن لم يصبر جرى عليه القدَر وكُتِب عليه الوِزْر ؛ وكل ما ذهب من صاحبه قبل أن يذهب صاحبُه فقــد أنعم الله عليــه ، حيث أخرج ما فى يديه وأبقى يديه ؛ والمــال غاد ورائح ، والمــال بالحقيقة هو العمل الصالح ؛ وإن آجتمع مُوصلها بحضرته فهو يُنْهِى ما عندى ، ويُؤَدّى حقيقةَ وُدّى ؛ ورأيه الموفّق .

وقال أبو المظفَّر الأَبِيوَرْدِىّ[(١)] لمـا آستولى الفِرِنْج على البيت المقدّس فى سنة آثنتين وتسعين وأربعمائة قصيدة منها :

(١) وتنسب هــذه الأبيات أيضا فى النجوم الزاهرة (ج ٥ ص ١٥١ طبع دار الكتب المصرية) للقاضى زين الدين أبى سعد الهروىّ .

مَزَجنا دماءً بالدموع السَّــواجِمِ * فلم يبقَ منا عُرضــةٌ للمَراجم
وشرُّ سـلاحِ المــرءِ دمعٌ يُفيضُهُ * إذا الحربُ شبّت نارُها بالصوارِمِ
فإيهـًا بنى الإسـلام ! إن وراءكم * وقائعَ يُلحِقنَ الذُّرى بالمَنَاسِـمِ
أتَهويمةً فى ظِـلِّ أمْنٍ وغِبطة * وعيشٍ كنُوّار الخميـلةِ ناعِـمِ !
وكيف تنام العينُ مِـلْءَ جُفونهـا * عـلى هَبَوات أيقظتْ كلَّ نائم
وإخوانُكم بالشام يُضحِى مَقيلُهُـمْ * ظهورَ المَـذَاكِى أو بطونَ القَشَاعِمِ
يسومُهُــمُ الرومُ الهوانَ وأنتمُ * تجــرُّون ذيلَ الخَفضِ فعلَ المُسالِمِ
وكم من دماءٍ قد أُبيحتْ ، ومن دُمًى * تُوارِى حياءً حُسْــنَها بالمعاصِمِ
بحيث السيوفُ البيضُ مُحْمَرَّةُ الظُّبَى * وسُمْــرُ العَوالِى داميـاتُ اللَّهَاذِمِ
وبين اختلاسِ الطعنِ والضربِ وقعةٌ * تَظَلُّ لهـا الوِلْدانُ شيبَ القَوادِمِ
وتلك حروبٌ مَن يَغِبْ عن غِمارها * ليسلـم يَقْرَعْ بعــدها سِنَّ نادمِ
سَلَلْنَ بأيدى المسلمين قَواضِباً * ستُغْمَد منهـم فى الطُّلَى والجمـاجم
يكادُ بهنّ المُستجِنّ بطَيْبـــةٍ * ينادى بأعلى الصوت : يا آل هاشم
أرى أُمّتى لا يشرعون إلى العِـدا * رماحَهُمُ والدِّينُ واهى الدعائم
ويجتنبون النـارَ خوفًا من العِـدا * ولا يحسـبون العـارَ ضربةَ لازمِ ١٠٩
أترضى صناديدُ الأعاريبِ بالأذَى * وتُغضِى عـلى ذُلٍّ كُماةُ الأعاجم !
فليتهُــمُ إذ لم يَذُودوا حَمِيَّــةً * عن الدينِ ضنُّوا غَيْرةً بالمحارمِ
وإن زَهِدوا فى الأجرِ إذ حَمِيَ الوَغَى(١) * فهـلّا أتَوه رغبــةً فى المغـانم !

---

(١) فى الأصـل : "جش" ولعلها محرفة عن "حمس" بالحاء والسين المهملتين وهو (بالتخفيف والتشديد) بمعنى اشتداد الأمر واصطرام النار ، وهى رواية ابن الأثير . وما أثبتناه رواية النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى .

لئن أذعنت تلك الخياشيم للثرى * فلا عَطَسوا إلا بأجدعَ راغم
دعوناكُمُ والحربُ ترنو مُلِحّةً * إلينا بألحاظ النسور القشاعم
تُراقِبُ فينا غارةً عربيّةً * تُطيل عليها الرومُ عضّ الأباهم
فإن أنتُمُ لم تغضَبوا عند هذه * رمتنا إلى أعدائنا بالجرائم

وقال عَلاء الدين علىّ الأوتارىّ الدمشقىّ فى مثل ذلك لما آستولى التتار على دِمشق فى سنة تسع وتسعين وسبعمائة :

لك عِلْمٌ بما جرى يا سُهَادى * من جفونى على آفتقاد رُقادى
لم أجد عند شِدّتى مُؤنساً لى * غيرسُهْدى مُلازماً لسَوادى
وحبيبُ العين الرقادُ جفاها * مُذ رآها خليفةَ الأنكادِ
أحسن الله يا دِمَشْقُ عَزَاكِ * فى مَغَانيكِ يا عمادَ البلادِ
وبرُسْتاق نَيْرَبيكَ مع المِزْ * زَةِ مع رَوْنَقٍ بذاك الوادى
وبأُنْس بقاسِيُونَ وناسٍ * أصبحوا مَغْنَمًا لأهل الفسادِ
طَرَقتهمْ حوادِثُ الدهر بالقتـ * ـلِ ونَهْبِ الأموال والأولادِ
وبنات مُحَجّبات عن الشمـ * ـسِ تناحت بهنّ أيدى الأعَادى
وقُصُور مُشَيّدات تَقَضّتْ * فى ذَرَاها الأيام كالأعيادِ
وبيوت فيها التّلاوةُ والذكـ * ـرُ وعالى الحديث بالإسنادِ
حَرَقُوها وخرّبوها وبادَتْ * بقضاء الإله ربِّ العبادِ
وكذا شارعُ العُقَيْبَة والقصـ * ـر وشاغُورُها وذاك النادى
أصبحوا اليومَ مثلَ أمسِ تَقَضّى * وبكَتهم سماؤهم والغَوَادى
ولَكَمْ سُورُها حَوَى مِن مُعَنًى * مُفْرَحِ القلبِ والحشى والفُؤادِ
إن بكى لا يُفيده أو تَشَكَّى * وَجدَ المُشتكى حليفَ سُهادِ

يشتكى فوق ما اشتكاه بأضعا * ف فيغــدو وهمــه فى ازدياد
فالغلا والجلا مع الجوع والعُر * ى ونهب الأقوات والأزواد
والحصارُ الشديدُ والحبسُ والخو * فُ مع السادة العُراة المكادى(١)
وبوزن الأموال من غير وِجد * باعتساف العُتْم(٢) الغلاظ الشداد
كاتُرْ آيقا كَبْرخوار أنت باغيه * لمحمود غازان قاآن البـــلاد(٣)
يا تُرى هل لكربنا من مُجيرٍ * أم لتشديد أسرنا من مُفادى
لهف نفسى على جيوش تولّت * ثم ولّت جريحــةَ الأكباد
كل نَـدْبٍ عَضْب حَمِىٍّ كَمِىٍّ * أمجد أصيَد شجاعٍ جَوادِ
(١١٠) إن سطا فى هِباته كان بحــرًا * أو سطا خلته من الآساد
أو بَدا حاملًا تَحَــلْ عنتريًّا * أو غدا سابق الجوادِ فغادى
إنْ أتانى مبشّر بلقاهم * حاز رُوحى ومُهْجتى وقيادى
ولثمت التراب شُــكرًا وعفّــر * ت خدودى على بلوغ مُرادى
لست أرجو غير البشير شفيعًا * عنــد ربى فى المَنّ بالإنجاد
فهـــو الصادق الذى وعد الدِيـ * ـنَ بنصــرٍ جارٍ عـلى الآباد
غيرَ أنّ الفسادَ يكسب ذُلًّا * ويعمّى الفســادُ طُرقَ السَّداد
وارتكاب الفسادِ يُورث فقرًا * وخرابُ البيوتِ عُقبى الفســادِ
ياحبيبَ الإلٰهِ لا تتخــلَّ * عن عُصاة غمرتَهم بالأيادى

(١) المكادى : جمع "مكدى" اسم مفعول من كداه بمعنى حبسه . (٢) العتم : جمع أعتم وهو من لا يفصح . (٣) عرضنا هذا البيت على العالم الجليل موسى افندى جار الله نزيل القاهرة الآن فشرحه بما يأتى : كاتر : هات . آيقا : النقود . كبرخوار : كافر حقير غير كانى . باغيه : العدو الباغى . قاآن : كبير الملوك . ومعنى البيت : هات أيها الكافر الحقير الجارح أنت عدو لقاآن (خاقان) البلاد محمود غازان . وهذا البيت لا تتفق أوزانه مع التفاعيل الشعرية .

ياحبيبَ الإلٰهِ قــد مسَّنا الضـ * ـرّ فجُــدْ بالإسـعاف والإسعادِ
ياحبيب الإلٰهِ تُبْنـا إلى اللـ * ـه وأنت العِـمادُ حتّى المَعَـادِ
مَنْ لأسْرَى كَسْرَى حَيَارى دَهَتْهم * دَهَمتهم جِيـادُ أهـــلِ العِنادِ
واضع اللقط فى الحساب عناه * ـاو يعش ـ حصرُ كثرةِ الأعدادِ
منهُـمُ الطفـلُ والصبيَّةُ والشا * بُّ يُنَـادى، فمن يجيب المنادى!
ويُنَـادَى عليهـــم برغيف * وبنَزْرٍ بَخْس بسُـوق الكَسَادِ
عُوِّضوا عن سرورهم بغرور * وقصورِ البلاد سُكْنَى البَوَادى
وبأهـــل الوداد شـــرَّ أناس * وبِلِينِ المِهـادِ شـوكَ القتَـادِ
أىُّ عين عليهـــمُ ليس تبكى * أىُّ قلب عليهـــمُ غيرُ صادى!
فلأنت الرحـــيم قلبًا ولُبًّـا * ولأنت الهـادى لسُبْلِ الرَّشَـادِ
ولأنت البـــديعُ خَلقا وخُلْقـا * ولأنت الســـميع للإنشـا د
ولأنت الطِّرازُ فى كلّ معـنًى * ولسيف المقال شـــبهُ النِّجاد
ولأنت الحاوى فُنُونَ صِفاتٍ * دون حصرِ لهـا فَنَاءُ المِدَادِ
ولأنت الممدوح من فوق عرشٍ * بعــدُ ماذا يقول قُسُّ الإيادى
جُلُّ قَصْدِ الفصيح بالنظم معنًى * نَشْرُ فضل الممدوح بين العبـادِ
فإذا كان مُنشئ المدحِ ربِّى * عاد مدحُ الفصيح جمعَ سَوَادِ
فعليـكَ الصلاةُ يرجو بها الأمـ * ـنَ علىٌّ من سائر الأنكاد

وحيث انتهينا من المراثى والنوادب إلى هذه الغاية، فلنذكر نُبْذة من الزهد والتوكُّل .

البـاب الثـالث

من القسم الرابع من الفن الثانى فى الزهد والتوكل

وهذا البـاب — وفّقنا الله وإياك لقصـدنا، وألهمنا سلوكَ سبيل رشـدنا؛ وآستعملَنا فى مَرَاضيـه، وجنّبنا عن الالتفات بالقول والفعل إلى معاصيه — من هذا الفنّ هو واسطة عِقْده، وعضُد زَنْده، وقائم مُرْهَفه وحَدّ فِرِنْده، وشَبَا سِنَانه، (١١١) ومَثْنَى عِنانه، و إنسانُ حَدَقته، وحدقة إنسانه؛ وكيف لا وهو للنفس دُرّة تاجِها، وطبيبُ عِلاجها، وواضح مِنْهاجها؛ ودليلها المُرْشِـد إذا ضلّ الدليل، ومُنْجِيها من الهول الأعظم إذا فرّ المرء من الأخ والأمّ والأب والآبن والصاحبة والخليل . فتأمله أيها المُطالع بعين قلبك قبل ناظرك، وآتخذه من أحصن جُنّتك وأعدّ عُدَدك وأنفس ذخائرك؛ ورُضْ به نفسـك إذا جَمحتْ، وسكّن به آمالك إذا مالت إلى المطامع وجَنَحتْ . وآعلم أن الدنيا ظلٌّ زائل، وعدوٌّ قد نَصب لك الشِّباك ومدّ الحبائل، وأنك لا بدّ مسئول عما آكتسبتَه منها، فليت شعرى ما أعددتَ لجواب المُسَائل؟ فهى العـدوّ الذى أشبه بالصديق، والغـادر المـاكر الذى ما أخوفنى أنّ مَكْرَه بى وبك سيَحيق . فآقتصر على القليل منها، وآعلم أنك سترحل فى غد عنها؛ وأن الموت نازلٌ بك فلا ينفعك ما جمعته من مال وخَوَل، ولا يصحبك من الدنيا إلا ما قدّمته لآخرتك من صالح العمل؛ وأنّ مالك سيقتسمه من لعـلّه لا يشكرك عليـه، وماذا ينفعك شكره أن لو فعل ! وغاية ما ينالك من دنياك ، و إن بلغتَ منها مُناك، وطال بها مَدَاك، أن تتمتّع بزَهْرتهـا، وتنال من لذّتها؛ وقد علمتَ بالمشاهـدة من حالك وحال غيرك ما يؤول أمر مَلَاذّها إليه فى العاجل ، وما يُتَوَقَّع لمن آقتصر من دنياه عليها فى الآجل؛ فالمأكل والمَشْرب صائران إلى ما علمته و إنمـا تحصل اللذّة

بهما قبل الازدراد ، والمَنْكح والمركب فأنت وهما فى الموت والفَنَاءِ على مِيعاد ، والملابس فستُخْلِقها الأيام بعد الجدّة ، والمساكن فستُعَفِّى الليالى آثارَها ولو بعد مُدّة . فإذا علمت أنْ مآل الدنيا إلى الزوال ، وقُصَاراها إلى الانتقال ، وملاذّها إلى هذه الغاية ، والعمر فيها وإن طال سريعُ النهاية ؛ فتقلَّل منها حسب طاقتك ، واقتصر على ما تسُدّ به بعض خَلّتك وفاقتك ، واعمل لآخرتك التى لا ينقضى أَمَدُها ، ولا يفنَى من النعيم الدائم مَدَدُها . وقد أمرتك الخير وليتنى به لو ائتمرت ، وأوضحتُ لك سبيل الرشاد وليتنى به لو مَرَرت .

أمرتُكَ الخيرَ لكن ما ائتَمَرْتُ به * وما استقمتُ فما قولى لك : استقم !

وسأورد إن شاء الله على سمعك من هذا الباب ما إن تمسّكت به كان سببا لإرشادك ، وذخيرةً تجدها فى يوم مَعَادِك .

ذكر بيان حقيقة الزهد

قال الإمام الأوحد العالم زين الدين حجّة المتكلّمين أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالىّ الطُّوسىّ رحمه الله تعالى فى كتابه المترجم بإحياء علوم الدين : إعلم أن الزهد فى الدنيا مقام شريف من مقامات السالكين . وينتظم هذا المقام من علم وحال وعمل كسائر المقامات ؛ لأن أبواب الإيمان كلَّها كما قال السلف ترجع إلى عقْد وقول وعمل . وكأن القول لظهوره أقيم مقام الحال ، إذ به يظهر الحال الباطن ، وإلا فليس القول مرادًا بعينه ؛ وإذا لم يكن صادرا عن حال سُمّى إسلاما ولم يسمّ إيمانا . والعلم هو السبب فى الحال يجرى مَجْرى المُثْمِر ، والعمل يجرى مجرى الثمرة .

فأما الحال فنعنى بها ما يُسمّى زهدا ، وهو عبارة عن انصراف الرغبة عن الشئ إلى ما هو خير منه ؛ فكلّ من عدل عن شئ إلى غيره بمعاوضة وبيع وغيره فإنّما عدل

عنه لرغبته عنه، وإنما عدل إلى غيره لرغبته فيه . فحاله بالإضافة إلى المعدول عنه يُسَمَّى [زهدا، وبالإضافة إلى المعدول إليـه يسمى](١) رغبةً وحباً . فإذًا يستدعى حال الزهد مرغوبا عنه ومرغوباً فيه(٢) هو خير من المرغوب عنه . وشرط المرغوب عنه أن يكون هو أيضا مرغوبا فيه بوجه من الوجوه؛ فمن رغب عما ليس مطلوبا فى نفسه لا يسمَّى زاهدا، فتارك التراب والحجارة والحشرات لا يسمَّى زاهدا، لأن ذلك ليس فى مَظِنَّـة الرغبة، وإنما يسمَّى زاهـدا تاركُ الدراهم والدنانير . وشرط المرغوب فيه أن يكون عنده خيراً من المرغوب عنه حتى تغلب هذه الرغبة؛ فالبائع لا يُقْـدِم على البيع إلا والمُشْتَرَى عنـده خيرٌ من المَبِيع، فيكون حاله بالإضافة إلى المبيع زهدًا فيه، وبالإضافة إلى العِوَض رغبةً وحبًّا، ولذلك قال الله تعالى : ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ وشَرَوْه بمعنى باعوه، ووصف إخوة يوسف بالزهد فيه إذ طمعوا أن يخلُوَ لهم وجه أبيهم، وكان ذلك عندهم أحبَّ إليهم من يوسف فباعوه طَمَعًا فى العِوَض. فإذًا كلُّ من باع الدنيا بالآخرة فهو زاهد فى الدنيا، وكلُّ من باع الاخرةَ بالدنيا فهو أيضا زاهـدٌ ولكن فى الاخرة ؛ ولٰكنّ العادة جارية بتخصيص آسم الزهد بمن زهد فى الدنيا؛ كما خُصِّص آسم الإلحاد بمن يميل الى الباطل خاصّـة، وإن كان هو الميل فى وضع اللسان . قال : ولما كان الزهد رغبةً عن محبوبٍ بالجملة لم يُتَصوَّر إلا بالعدول إلى شىء هو أحبّ منه، وإلا فتركُ المحبوب بغير الأحبّ محال . والذى يرغب عن كلّ ما سوى الله تعالى حتى الفِرْدَوس ولا يحبّ إلا الله تعالى فهو الزاهد المطلق . والذى يرغب عن كل حظٍّ يُنَال فى الدنيا ولم يزهد فى مثل تلك الحظوظ فى الآخرة بل طمع فى الحُور العِين

---

(١) زيادة عن الإحياء .

(٢) كذا فى الإحياء . وفى الأصل : «إليه» .

والقُصور والفواكه والأنهار فهو أيضا زاهد ولٰكنّه دون الأوّل . والذى يترك من حظوظ الدنيا البعض دون البعض، كالذى يترك المال دون الجاه، أو يترك التوسُّعَ فى الأكل ولا يترك التجمُّل فى الزينة، فلا يستحقّ اسم الزهد مطلقا؛ ودرجته فى الزّهاد درجة من يتوب عن بعض المعاصى فى التائبين ، وهو زهدٌ صحيح كما أن التوبة عن بعض المعاصى صحيحة ؛ فإنّ التوبة عبارة عن ترك المحظورات، والزهد عبارة عن ترك المباحات التى هى حظّ النفس . والمُقْتصر على ترك المحظورات لا يسمّى زاهدا، وإن كان زهد فى المحظور وانصرف عنه، ولٰكنّ العادة تخصّص هذا الاسم بتارك المباحات . فإذًا الزهد عبارةٌ عن رغبةٍ عن الدنيا عُدُولًا إلى الآخرة أو عن غير الله عدولًا إلى الله، وهى الدرجة العليا . وكما يُشْتَرط فى المرغوب فيه (١) أن يكون خيرًا عنده، فيُشْتَرَط فى المرغوب عنه أن يكون مقدورًا عليه، فإنّ ترك ما لا يُقْدَر عليه محال ، وبالترك يتبيّن زوال الرغبة ؛ ولذلك قيل لابن المبارك : يا زاهد؛ فقال : الزاهد عمر بن عبد العزيز، إذ جاءته الدنيا راغمةً فتركها، وأما أنا ففيم زهدتُ !

* * *

وأمّا العلم الذى هو المُثْمِر لهذا الحال فهو العلم بكون المتروك حقيرًا بالإضافة إلى المأخوذ، كعلم التاجر بأن العِوَض خيرٌ من المَبِيع فيرغب فيه؛ وما لم يتحقّق هذا العلم لا يُتَصَوَّر أن تزول الرغبة عن المَبِيع ، فكذلك من عرف أن ما عند الله باق وأن الآخرة خيرٌ وأبقى ، أى لذّتها خيرٌ فى نفسها وأبقى . فبقدر قوّة اليقين والمعرفة بالتفاوت بين الدنيا والآخرة تقوَى الرغبةُ فى البيع والمعاملة ؛ حتّى إنّ من قوِىَ يقينه يبيع نفسه وماله ، كما قال الله عزّ وجلّ : ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ

(١) كذا فى الإحياء . وفى الأصل : «المرغوب اليه» .

وأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الجنَّةَ...) الآية، ثم بيّن أن صَفْقتهم رابحة فقال تعالى: (فاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِى بَايَعْتُمْ بِهِ) . فليس يُحتاج من العلم فى الزهد إلا إلى هذا القدْر وهو أنّ الآخرة خيرٌ وأبقى ؛ وقد يعلم ذلك من لا يقدر على ترك الدنيا إمّا لضعف علمه ويقينه، وإما لاستيلاء الدنيا والشهوة فى الحال عليه ولكونه مقهورًا فى يد الشيطان، ١١٢ وإما لاغتراره بمواعيد الشيطان فى التسويف يومًا فيومًا إلى أن يختطفه الموتُ ، ولا يبقى معه إلا الحسرة بعد الفَوْت . قال : وإلى تعريف خَسَاسة الدنيا الإشارة بقوله تعالى: (قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا)، وإلى تعريف نَفَاسة الآخرة الإشارة بقوله عزّ وجل : (وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ)؛ فنبّه على أنّ العلم بنفاسته هو المُرَغّب عن عِوَضه . قال: ولمّا لم يُتَصَور الزهد إلا بمعاوضةٍ ورغبةٍ عن محبوب فى أحبّ منه قال رجل : اللّهمّ أَرِنِى الدنيا كما تراها ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لَا تَقُلْ هذا ولٰكنْ قل اللّهمّ أَرِنى الدنيا كما أَرَيْتَها الصالحين من عبادك" . وهذا لأن الله يراها حقيرةً كما هى، وكلّ مخلوق فهو بالإضافة إلى جَلاله حقير، والعبد يراها حقيرةً فى حقّ نفسه بالإضافة إلى ما هو خير له[1]، ولا يُتَصَوَّر أن يرى بائعُ الفرس وإن رغب عن فرسه كما يرى حشرات الأرض [مثلا][2] ، لأنّه مستغن عن الحشرات أصلا وليس مستغنيًا عن الفرس ؛ والله تعالى غنىٌّ بذاته عن كلّ ما سواه، فيرى الكلّ فى درجة واحدة بالإضافة إلى جلاله ، ويراها متفاوتة بالإضافة إلى غيره، والزاهد هو الذى يرى تفاوتها بالإضافة إلى نفسه لا إلى غيره .

---

(١) كذا فى الإحياء . وفى الأصل : "إلى ما هو خير منه" .

(٢) زيادة عن الاحياء .

⁂

وأمّا العمل الصادر عن حال الزهد فهو تَرْكٌ وأَخْذ، لأنه بيعٌ ومعاملة واستبدالُ الذى هو خير بالذى هو أدنى. فكما أنّ العمل الصادر من عقد البيع هو ترك المَبِيع و إخراجه عن اليد وأخْذ العِوَض، فكذلك الزهد يوجب ترك المزهود فيه (١) بالكُلِّيّة وهى الدنيا بأسرها مع أسبابها ومُقَدماتها وعلائقها، فيُخْرِج من القلب حبّها ويُدخل حبَّ الطاعات ويُخرج من اليد والعين ما أخرجه مِن القلب، ويُوَظّف على اليد والعين وسائر الجوارح وظائف من الطاعات، وإلّا كان كمن سلّم المَبِيع ولم يأخذ الثمن. فإذا وفّى شرطَ الحالتين فى الأخْذ والترك فليَسْتبشر ببيعه الذى بايع به، فإن الذى بايعه بهذا البيع وَفِىٌّ بالعهد؛ فمن سلّم حاضرا فى غائب وسلّم الحاضر وأخذ يسعى فى طلب الغائب سُلِّم إليه الغائبُ حين فراغه من سعيه إن كان العاقد ممن يُوثَق بصدقه وقُدْرته ووفائه بالعهد. وما دام مُمْسِكا للدّنيا فلا يصح زهده أصلا، ولذلك لم يصف الله تعالى إخوة يوسف بالزهد فى بنيامين وإن كانوا قد قالوا: ﴿ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا ﴾؛ وعزموا على إبعاده كما عزموا على إبعاد يوسف حتى شفع فيه أحدهم فتُرِكَ، ولا وصفهم أيضا بالزهد فى يوسف عند العزم على إخراجه إلا عند التسليم والبيع. فعلامة الرغبة الإمساك، وعلامة الزهد الإخراج. فإن أخرجت عن اليد بعض الدنيا دون البعض فأنت زاهدٌ فيما أخرجت فقط، ولست زاهدا مطلقا؛ وإن لم يكن لك مال ولم تساعدك الدنيا لم يُتَصَوَّر منك الزهد، لإنّ ما لا تقدر عليه لا تقدر على تركه. وربما يستهويك الشيطان بغروره ويخيّل [إليك] (٢) أنّ الدنيا وإن لم تأتك فأنت زاهدٌ فيها، فلا ينبغى أن تتدلّى بحبل

(١) كذا بالإحياء. وفى الأصل: «هو بذل البيع».

(٢) زيادة عن الإحياء.

غروره دون أن [تستوثق و] (١) تستظهر بموثق غليظ (٢) من الله تعالى؛ فإنك إذا لم تجرب حال القدرة فلا تثق بالقدرة على الترك عندها؛ فكم من ظانٍّ بنفسه كراهةَ المعاصى عند تعذُّرها فلما تيسّرت له أسبابها من غير مكدِّر ولا مخوف من الخلق وقع فيها. وإذا كان هذا غرور النفس فى المحظورات فإيّاكَ أن تثق بوعدها فى المباحات. والموثق الغليظ الذى تأخذه عليهـا أن تجربها مرّة بعـد مرّة فى حال القدرة، فاذا وفَتْ بما وعدت على الدوام مع انتفاء الصوارف والأعذار ظاهرًا وباطنًا فلا بأس أن تثق بها وثوقا ما، ولكن تكون من تغيُّرها على حذَر، فإنها سريعة النقض للعهد، قريبةُ الرجوع إلى مُقتضَى الطبع. وبالجملة فلا أمان منهـا إلا عند الترك بالإضافة إلى ماتركت فقط وذلك عند القدرة. قال: وليس مِنَ الزهد بذل المـال على سبيل (١١٤) السخاء والفُتُوَّة وعلى سبيل آستمـالة القلوب ولا على سبيل الطمع، فـذلك كلّه من محاسن العادات ولا مدخل له فى العبادات، إنمـا الزهد أن تترك الدنيا لعلمك بحقارتهـا بالإضافة إلى نفاســة الآخرة. [فأمّا كل نوع من الترك فإنه يُتصوّر ممن لا يؤمن بالآخرة] (١) فذلك قد يكون مُروءة وفتوّة وسخاء وحسن خُلُق، وحسنُ الذكر وميْل القلوب من حظوظ العاجلة، وهى ألذّ وأهنأ من المـال؛ بل الزاهد من أتته الدنيا راغمــةً عفوًا وصفوًا وهو قادرٌ على التنعُّم بهـا من غير نقصانِ جاه وقبح آسم وفوات حظٍّ للنفس، فتركها خوفًا من أن يأنس بها فيكون آنسا بغير الله ومحبًّا لمـا سوى الله، ويكون مُشركا فى حبِّ الله غيرَ الله؛ أو تركها طَمَعًا فى ثواب آخرَ فترك التمتُّع بأشربة الدنيا طمعًا فى أشربة الجنّــة، وترك التمتُّع بالسرارى والنسوان طمعًا فى الحُور العين، وترك التفرُّج فى البساتين طمعًا فى بساتين الجنّة وأشجارها، وترك التزيُّن والتجمُّل بزينــة الدنيا طمعاً فى زينة الجنّــة، وترك المطاعم اللذيذة طمعًا

(١) [illegible] الإحياء. (٢) كذا فى الإحياء. وفى الأصل: «بموثق عليك».

فى فواكه الجنّة وخوفًا من أن يقال له : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا ﴾ فآثر فى جميع ذلك ما وُعِد به فى الجنّـة على ما تيسّر له فى الدنيا عفوًا صفوًا ، لعلمه بأن ما فى الآخرة خيرٌ وأبقى ؛ وما سوى هذه فمعاملات دُنيويّة لا جَدْوَى لها فى الآخرة أصلا . وحيث قدّمنا هـذه المقدّمة من أحوال الزهد فى الحال والعلم فلنذكر بيان فضيلة الزهد وذم الدنيا .

ذكر فضـيلة الزهـد وبغض الدنيـا

قال الله تعالى : ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ . وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ ، فنسب الزهد الى العلماء ووصف أهله بالعلم ، وذلك غاية الثناء . وقال تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا ﴾ جاء فى التفسير : على الزهد فى الدنيا . وقال تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ . قيل : معناه أيّهم أزهد فى الدنيا ، فوصف الزهد بأنه من أحسن الأعمـال . وقال تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ ﴾ ... إلى قوله : ﴿ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ . وقال رسول الله صـلى الله عليـه وسلم : "مَن أصبح وهمُّه الدُّنيا شتّت اللهُ عليه أمرَه وفرّق عليـه ضَيْعته وجعل فقرَه بين عيْنَيه ولم يأته من الدنيا إلا ما كُتِبَ له ومن أصبح وهمُّـه الآخرةُ جمع اللهُ له أمرَه وحفظ عليه ضَيْعَتَه وجعل غِناه فى قلبِه وأتته الدنيا وهى راغمة" . وقال صلى الله عليه وسـلم : "إذا رأيتم العبدَ قد أُوتِيَ[1] مَنْطقًا وزهـدًا فى الدنيا فاقتربوا منه فإنه يلقّن الحكمة" . وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ ؛ ولذلك

---

(١) الذى فى الإحياء : «اذا رأيتم العبد وقد أعطى صمتا وزهدا فى الدنيا فاقتربوا منه فانه يلقى الحكمة» .

قيل : من زهد فى الدنيا أربعين يوماً اجرى الله ينابيعَ الحكمةِ فى قلبـه وأطلق بها لسانه . وقال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : "إن أردت أن يحبـك الله فازهدْ فى الدنيا" فجعـل الزهد سبباً للمحبّة؛ فمن أحبّه الله فهو فى أعلى الدرجات، فينبغى أن يكون الزهد فى أفضل المقامات . ولمـا سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعـالى : ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ وقيل له : ما هذا الشرح ؟ قال : "إن النور إذا دخل القلب آنشرح له الصدر وآنفسح" . قيـل : يا رسول الله ، هل لذلك من علامة ؟ قال : "نَعَمْ التجافى عن دار الغرور والإنابةُ إلى دار الخلود والآستعداد للموت قبل نزوله" . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "استَحْيُوا من الله حقّ الحياء" قالوا : إنا نستحيي من الله، فقال : "[ليس كذلك][1] تبنون ما لا تسكنون وتجمعون ما لا تأكلون" . فبيّن أن ذلك يناقض الحياء من الله . وقدم وفدٌ على رسـول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : إنّا مؤمنون . قال : (٤١٥) "وما علامة إيمـانكم ؟" فذكروا الصبرَ على البـلاء، والشكر على الرخاء، والرِّضا بمواقع القضـاء ، وتَرْكَ الشماتة بالمصيبة إذا نزلت بالأعداء . قال : "إن كنتم كذلك فلا تجمعوا ما لا تأكلون ولا تبنوا ما لا تسكنون ولا تَنَافَسُوا فيما عنـه ترحَلون" ؛ فجعل الزهد تكملةَ إيمانهم . ورُوِى أن رسول الله صـلى الله عليه وسـلم مرّ فى أصحابه بإبلٍ عِشار حُفَّل وهى الحوامل ، وكانت من أحبّ أموالهم إليهـم وأنفَسِها عندهم، لأنها تجمع بين اللحم واللبن والوبر والظَّهْر، فأعرض عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم وغضّ بصرَه . فقيل له : يارسول الله ، هـذه أَنْفَسُ أموالنا، لم لا تنظر إليها؟ فقال : قد نهانى الله عن ذلك، ثم تلا قوله تعالى : ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ

(١) التكملة من الإحياء .

خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ . وروى مسروق عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : قلت : يارسول الله، ألا تستطعم الله فيُطعِمك ؟ قالت: وبكيت لِمَا رأيت به من الجوع. فقال: "ياعائشة والذى نفسى بيده لو سألت ربّى أن يُجْرِىَ معى جبالَ الدنيا ذَهَبًا لأجراها حيثُ شئتُ من الأرض ولكن آخترتُ جُوع الدنيا على شِبَعها وفقر الدنيا على غِناها وحزن الدنيا على فرحها ياعائشــة إنّ الدنيا لا تنبغى لمحمد ولا لآل محمــد ياعائشة إن الله لم يرضَ لأُولى العزم من الرسل إلا الصبرَ على مكروه الدنيا والصبر عن محبوبها ثم لم يرض إلا أن يُكلّفنى ما كلّفهم فقال ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ واللهِ مالى بُدٌّ من طاعته وإنّى والله لأصبِرَنّ كما صَبَرُوا جهدى ولا حَوْلَ ولا قُوّة إلا بالله" .

وروى عن عمر بن الخطّاب رضى الله عنه أنه حين فُتِحَ عليه الفتوحاتُ قالت له آبنته حفصة : اِلْبَس لَيِّنَ الثياب إذا وفَدَت عليك الوفود من الآفاق، ومُرْ بصَنْعة طعام تَطْعَمُه وتُطعم مَنْ حضر. فقال: ياحفصة، ألستِ تعلمين أنّ أعلم الناس بحال الرجل أهل بيته ؟ قالت بلى . قال : ناشدتُكِ الله، هل تعلمين أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لبِث فى النبوّة كذا وكذا سنةً لم يشبَع هو ولا أهل بيته غُدْوَةً إلّا جاعوا عشيّةً، ولا شبِعوا عشيّةً إلا جاعوا غُدْوة؟ وناشدتك الله، هل تعلمين أن النبىّ صلى الله عليه وسلم لبِث فى النبوّة كذا وكذا سنةً لم يشْبَعْ من التمر هو وأهله حتى فتح الله عليه خيبر؟ وناشدتك الله، هل تعلمين أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قرّبتم إليه [يوما][1] طعامًا على مائدة فيها آرتفاع فشقّ ذلك عليه حتى تغيّر لونُه ثم أمر بالمــائدة فرُفِعت ووُضِع الطعامُ على دون ذلك أو وُضِع على الأرض؟ ناشدتك الله، هل تعلمين أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينام على عَبَاءة مَثْنِيّة فثُنِيَت له ليلةً أربعَ

(١) زيادة عن الإحياء .

طاقات قام عليها، فلما آستيقظ قال: "منعتموني قيام الليلة بهذه العباءة ائتوها بأثنتين كما كنتم تثنونها" ؟ وناشدتك الله ، هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يضع ثيابه لتغسل فيأتيه بلال فيؤذنه بالصلاة فما يجد ثوبا يخرج به إلى الصلاة حتى تجف ثيابه فيخرج بها إلى الصلاة ؟ وناشدتك الله، هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صنعت له آمرأة من بني ظفر كساءين إزاراً ورداء وبعثت إليه بأحدهما قبل أن يبلغ الآخر، فخرج إلى الصلاة وهو مشتمل به ليس عليه غيره قد عقد طرفيه إلى عنقه فصلى كذلك ؟ فما زال [يقول](١) حتى أبكاها ، وبكى عمر رضي الله عنه وآنتحب حتى ظننا أن نفسه ستخرج . وفي بعض الروايات زيادة من قول عمر وهو أنه قال : كان لي صاحبان سلكا طريقا ، فإن سلكت غير طريقهما سلك بي طريق غير طريقهما ، وإني والله سأصبر على عيشهما الشديد لعلي أدرك معهما عيشهما الرغيد . وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لقد كان الأنبياء قبلي يبتلى أحدهم بالفقر فلا يلبس إلا العباءة وإن كان أحدهم ليبتلى بالقمل حتى يقتله القمل وكان ذلك أحب إليهم من العطاء إليكم".

وعن آبن عباس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لما ورد موسى عليه السلام ماء مدين كانت خضرة البقل ترى في بطنه من الهزال" . وفي حديث عمر رضي الله عنه أنه لما نزل قوله تعالى :﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ الآية ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "تباً للدنيا ! تباً للدينار والدرهم ! " فقلنا : نهانا الله عن كنز الذهب والفضة فأي شيء ندخر؟ فقال صلى الله عليه وسلم : "ليتخذ أحدكم لساناً ذاكرا وقلباً شاكرا وزوجة صالحة تعينه على أمر آخرته" . وفي حديث حذيفة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : "من آثر ١١٦

(١) زيادة من الإحياء .

الدنيا على الآخرة ٱبتلاه الله تعالى بثلاث : همًّا لا يُفارق قلبه أبدًا وفقرًا لا يستغنى أبدا وحِرْصًا لا يشبعُ أبدا" . وقال صلى الله عليه وسلم : "لا يستكمل العبدُ الإيمانَ حتّى يكون ألّا يُعْرَفَ أحَبَّ إليـه مِن أن يُعْرَفَ وحتى تكون قِلةُ الشيء أحبَّ إليه من كثرته" . وقال المسيح عليه السلام : الدنيا قَنطرةٌ فاعبُروها ولا تعمُروها . وقيل له : يانبيَّ الله، لو أمرتنا أن نبتنى بيتًا نعبُدُ الله فيه ! قال : اذهبوا فٱبنُوا بيتًا على المـاء . فقالوا : كيف يستقيم بُنْيانٌ على المـاء ! قال : وكيف تستقيم عِبادةٌ مع حُبِّ الدنيا ! . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنّ ربِّى عَرَض علىّ أن يجعل لى بَطْحاء مكة ذهبـا فقلت لا يا ربِّ ولكن أجُوع يوما وأشبَعُ يوما فأمّا اليوم الذى أجوع فيـه فأتضرّعُ إليك وأدعوك وأمّا اليوم الذى أشبع فيه فأحمَدُكَ وأُثْنِى عليـك" .

وعن ٱبن عبّاس رضى الله عنهما قال : "خرج رسول الله صلى الله عليـه وسلم ذات يوم يمشى وجبريلُ معه فصعِد على الصّفا، فقال له النبىّ صلى الله عليه وسلم : والذى بعثك بالحقّ ما أَمْسَى لآل محمد كفُّ سَوِيق ولا سَـفّةُ دقيق . فلم يكن كلامه بأسرَعَ من أن سمِـع هدّةً من السماء أفظعتْه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمر الله القيامة أن تقوم ؟ قال : لا ، ولكن هذا إسرافيلُ قد نزل إليك حين سمع كلامك . فأتاه إسرافيلُ فقال : إنّ الله عز وجلّ سمِـع ما ذكرتَ، فبعثنى بمفاتيح الأرض وأمرنى أن أَعْرِض عليك إنْ أحببتَ أن أُسـيِّر(١) معك جبالَ تهامة زُمُرُّدًا وياقوتًا وذهبا وفِضّة فعلتُ، وإن شِئتَ نبيًّا ملِكًا وإن شئتَ نبيًّا عبدًا . فأومأ إليه جبريلُ أن تواضَعْ لله . فقال : "نَبيًّا عبدا" ثلاثا . وقال صلى الله عليه وسلم : "اذا أراد الله بعبد خيرًا زَهّده فى الدنيا ورَغّبه فى الآخرة وبَصّره بعيوب نفسه" . وقال صلى الله عليه وسلم : "من أراد أن يُؤْتيه الله علما بغير تَعَلُّم وهُدًى بغير هِدَاية فليَزْهَدْ فى الدنيا" .

(١) كذا فى الإحياء، وفى الأصل : « أن تسير ... » .

وقال صلى الله عليه وسـلم : "من اشتاق إلى الجنّة سارع إلى الخيرات ومن خاف من النار لَهَا عن الشهوات ومن ترقّب الموت ترك اللذّات ومن زَهِد فى الدنيا هانت عليه المصائب" . والأحاديث فى ذلك كثيرة وفيما ذكرناه منها كفاية . فلنذكر ما جاء من ذلك فى الأثر .

قيل : جاء فى الأثر : لا تزال لا إله إلّا الله تدفع عن العباد سخط الله ما لم يَسْألوا ما نقص من دُنياهم . وفى لفظ آخر: ما لم يُؤْثِروا صفقة دنياهم على دِينهم فإذا فعلوا ذلك وقالوا : لا إله إلا الله قال الله تعالى : كذبتم لستم بها صادقين . وعن بعض الصحابة رضى الله عنهم أنه قال : تابعنا الأعمالَ كلَّها فلم نر فى أمر الآخرة أبلغ من زُهد الدنيا . وقال بعض الصحابة لصدر التابعين : أنتم أكثر أعمالاً واجتهاداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسـلم وكانوا خيرا منكم . قيل : ولم ذاك؟ قال : كانوا أزهدَ فى الدنيـا منكم . وقال عمر رضى الله عنه : الزهادة فى الدنيـا راحةُ القلب والجسد . والآثار أيضا فى ذلك كثيرة فلا نُطوِّل بسردها .

ذكر بيان ذمّ الدنيا وشىء من المواعظ والرقائق الداخلة فى هذا الباب

وقد ورد فى كتاب الله عزّ وجلّ كثيرٌ فى ذمّ الدنيا وصَرْف الخلق عنها ودَعْوتهم إلى الآخرة، وهــو أيضا مقصود الأنبيـاء ولذلك بُعِثُوا، فلا حاجةَ إلى الاستشهاد بالايات لظهورها . فلنذكر نُبْـذة من الأخبار والآثار الواردة فى ذلك، وذلك من جملة ما اختاره الغزالىّ رحمه الله فى كتابه المترجم بإحياء علوم الدين . فمن ذلك ما رُوِىَ (١١٧)
عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه مرّ على شاة ميّتة فقال : "أتَرَوْنَ أن الشاة هيّنةٌ على أهلها" ؟ قالوا : مِن هَوَانِها عليهم ألْقَوْها . قال : "والذى نفسى بيده للدنيا أهون على

الله من هــذه الشاة على أهلها ولو كانت الدنيا تعدل عند الله جَناح بعُوضة ما سَقَى كافراً منها شربة [ماء](١)". وقال صلى الله عليه وسلم : "الدنيا ملعونةٌ ملعونٌ ما فيها إلا ما كان لله منها". وقال صلى الله عليه وسلم : "حُبُّ الدنيا أُسُّ كلِّ خَطيئة". وقال صلى الله عليــه وسلم : "يا عَجبًا كلَّ العَجب لِلْمُصَدِّق بدار الخُلود وهو يسعَى لدار الغرور!".

ورُوِى أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف على مَزْبَلة فقــال : "هَلُمُّوا إلى الدنيا وأخذ خِرَقًا قد بَلِيَتْ على تلك المزبلة وعظامًا قد نَخِرت فقال هذه الدنيا" وهــذه إشارةٌ إلى أن زينتها ستحلق مثل تلك الخِرَق، وأن الأجسام التى تُرَى بها ستصير عظاما باليــة. وقال عيسى بن مريم عليــه السلام : لا تتّخــذوا الدنيا ربًّا فتتّخِذكم عبيدا، اِكنِزُوا كَنْزكم عند من لا يُضيِّعه، فإنّ صاحب كنز الدنيا يخاف عليه الآفة وصاحب كنز الله لا يخاف عليه الآفة. وقال أيضا : يا معشر الحَوَارِيِّين، إنى قــد كَبَبْتُ لكم الدنيا على وجهها فلا تُنعِشوها بعــدى، فإنّ من خبث الدنيا أن الله عُصِى فيها، وإن من خبث الدنيا أن الآخرة لا تُدْرَكُ إلا بتركها. ألَا فاعبُرُوا الدنيا ولا تعمرُوها، واعلموا أن أصلَ كلِّ خَطيئة حبُّ الدنيا. وربَّ شهوة أورثتْ حُزْنًا طويلا. وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إن الله جلّ ثناؤه لم يخلُق خلقًا أبغضَ اليه من الدنيا وإنه منذ خَلَقها لم ينظر اليها". وقال صلى الله عليه وسلم : "ألهاكم التكاثُر يقول ابن آدم مالى مالى وهل لك من مالك إلا ما أكلتَ فأفنيتَ أو لبستَ فأبليت أو تصدّقت فأبقيتَ!". وقال صلى الله عليــه وسلم : "الدنيا دارُ من لا دارَ له ومالُ من لا مالَ له ولها يجمع من لا عقلَ له وعليها يُعادِى من لا علمَ له وعليها يَحْسُد من لا فِقْهَ له ولها يسعى من لا يَقِينَ له". وقال صلى الله

(١) التكملة عن الإحياء.

عليه وسلم : "من أصبح والدنيا أكبرُ همِّه فليس من الله فى شئ وألزم الله قلبه أربعَ خِصال همًّا لا ينقطع عنه أبدا وشُغْلًا لا يتفرّغ منه أبدا وفقرًا لا يبلغ غناه أبدا وأملًا لا يبلغ منتهاه أبدا" . وقال أبو هُريرة رضى الله عنه : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يا أبا هُريرة ألَا أُرِيك الدنيا جميعا بما فيها"؟ قلت : بلى يارسول الله. فأخذ بيدى وأتى بى واديًا من أودية المدينة، فإذا مَزْبلة فيها رءوس ناس وعَذِرات وخِرَقٌ وعظام، ثم قال : "يا أبا هريرة هذه الرءوس كانت تحرِصُ كحِرْصِكم وتأمُلُ آمالكم هى اليوم عظامٌ بلا جِلْد ثم هى صائرة رمادًا وهذه العَذِرات هى ألوان أطعمتهم آكتسبوها من حيث آكتسبوها ثم قَذَفُوها فى بطونهم فأصبحت والناس يتحامَوْنَها وهذه الخِرَق البالية كانت رِياشَهم ولباسَهم فأصبحت الرياح تُصَفِّقها وهذه العظام عظام دَوَابِّهم التى كانوا ينتجعون عليها أطرافَ البلاد فمن كان باكيا على الدنيا فليبكِ". قال : فما بَرِحْنا حتى آشتدّ بكاؤنا . وقال صلى الله عليه وسلم : "الدنيا موقوفة بين السماء والأرض منذ خلقها الله تعالى لا ينظر إليها وتقول يوم القيامة : ياربِّ آجعلنى لأدنى أوليائك نصيبًا اليـــوم فيقـــول اسكُتى يالا شئ إنى لم أرْضَكِ لهم فى الدنيـــا أأرضاكِ لهم اليوم"! وقال صلى الله عليه وسلم: "لَيَجيئَنَّ أقوامٌ يوم القيامة وأعمالهم كجبال تِهامة فيُؤْمَرُ بهم إلى النار". قالوا : يارسول الله، مصلين؟ قال : "نعم [كانوا] (١) يُصَلُّون و يصومون و يأخذون هَنَـــةً من الليـــل فإذا عرض لهم من الدنيا شئ وَثَبُوا عليه" . وقال صلى الله عليه وسلم فى بعض خُطَبه : "المؤمن بين مخافتين بين أجلين بين أجل قد مضى لا يدرى ما الله صانعٌ فيه وبين أجلٍ قد بقِى لايدرى ما الله قاضٍ [illegible] فيه فليتزود العبدُ من نفسه لنفسه ومن دنياه لآخرته ومن حياته لِمَوْته ومن شبابه

(١) من الإحياء.

لهرَمه فإنّ الدنيا خُلِقَتْ لكم وأنتم خُلِقتم للآخرة والذى نفسى بيده ما بعد الموت مُسْتَعتب ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنّة أو النار" .

قال صلى الله عليه وسلم: "احذروا الدنيا فإنها أسحرُ من هارُوتَ ومارُوتَ" .

وقال عليه السلام لأصحابه : "هل منكم مَن يريد أن يُذْهِب الله عنه العَمَى ويجعله بصيرا ألَا إنه من رغب فى الدنيا وطال أمله فيها أعمى الله قلبَه على قَدر ذلك ومن زَهِد فى الدنيا وقَصُر أملُهُ فيها أعطاه الله علمًا بغير تَعَلُّم وهُدًى بغير هداية ألا إنه سيكون بعدكم قوم لا يستقيم لهم المُلْك إلا بالقتل والتَّجَبُّر ولا الغنى إلا بالفَخْر والبُخْل ولا المحبّة إلا باتِّباع الهوى ألَا فمن أدرك ذلك الزمانَ منكم فصَبَرَ للفقر وهو يقدِر على الغِنَى وصَبَرَ على البَغْضَاء وهو يقدِر على المحبّة وصَبَرَ للذُّل وهو يقدِر على العِزّ لا يريد بذلك إلا وجهَ الله تعالى أعطاه الله ثواب خمسين صِدِّيقا" . (١١٨)

وقال عيسى بن مريم عليه السلام : وَيْلٌ لصاحب الدنيا ! كيف يموت ويتركها ، ويأمَنُها وتَغُرّه ، ويَثِق بها وتخذله ! ؛ وويلٌ للمغترّين ! كيف أرتْهم ما يكرهون وفارقهم ما يحبُّون ، وجاءهم مَا يُوعَدون ! وويلٌ لمن الدنيا هَمُّه ، والخطايا عملُهُ كيف يفتضح غداً بذنبه ! . وقيل له : علِّمنا علماً واحداً يحبّنا الله عليه ، قال : أبغضوا الدنيا يحبكم الله .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لو تعلمون ما أعلم لضَحِكتم قليلاً ولبكيتم كثيرا ولهانت عليكم الدنيا ولآثرتم الآخرة" .

ومن الآثار فى ذلك ما حكاه داود بن هلال قال : مكتوبٌ فى صحف إبراهيم عليه السلام : يادنيا ، ما أهونَك على الأبرار الذين تصنّعتِ وتزيّنتِ لهم ! إنى قذفتُ فى [illegible] بك والصدودَ عنك ، وما خلقتُ خَلْقاً أهونَ علىّ منك ، كلُّ شأنك صغير، و [illegible] تصيرين ، قضيتُ عليك يوم خلقتُك ألّا تدومى لأحد ولا يدوم أحدٌ لك

وإن بخِل بك صاحبُك وشحّ عليك. طوبى للأبرار الذين أطلعونى من قلوبهـــم على الرضا، ومن ضميرهم على الصدق والاستقامة! طوبى لهم! مالهم عندى من الخير إذا وفدوا إلىّ من قبورهم [إلا][1] النورُ يسعى أمامهم والملائكةُ حافُّون بهم حتى أبلّغهم ما يرجُون من رحمتى .

وقال عمّار بن سعيد : مرّ عيسى بن مريم عليه السلام بقرية فإذا أهلُها موتى فى الأفنية والطرق ، فقال : يا معشر الحواريّين، إن هؤلاء ماتوا عن سَخْطة، ولو ماتوا عن غير ذلك لَتدافنُوا . فقالوا : يارُوح الله، وَدِدْنا أنّا علمنا خبرهم، فسأل اللهَ تعالى فأوحى اليه : إذا كان الليل فنادِهم يُجيبوك . فلما كان الليل أشرف على نَشَز، ثم نادى يا أهلَ القرية،فأجابه مُجيب:لَبّيْكَ يارُوح الله. فقال : ما حالكم وما قِصّتكم؟ قال[2] : بِتْنا فى عافية وأصبحنا فى الهاوية. قال : وكيف ذاك؟ قال : لحُبّنا الدنيا وطاعتِنا أهل المعاصى . قال : وكيف كان حبُّكم للدنيا؟ قال : حُبّ الصبىّ لأمّه، إذا أقبلت فرِح بها، وإذا أدبرت حزِن وبكى عليها . قال : فما بال أصحابك لا يُجيبونى ؟ قال : لأنهم مُلْجَمون بلُجُم من نار بأيدى ملائكةٍ غِلاظٍ شِداد. قال : فكيف أجبتنى من بينهـــم ؟ قال : لأنى كنت فيهم ولم أكن منهم، فلمــا نزل بهم العذاب أصابنى معهم، فأنا مُعلَّق على شَفير جهنّم لا أدرى أنجو منها أم أُكَبُّ فيها . فقال المسيح للحواريّين : لَأَكْلُ الخــبز الشعير بالملح الجَرِيش ولُبْس المُسُوح والنوم على المزابل كثيرٌ مع عافية الدنيا والآخرة .

قيل : وأوحى الله تعــالى إلى موسى عليه الســـلام أن يا موسى لا تركَنَنّ إلى حبّ الدنيا فلن تأتينى بكبيرة هى أشدُّ منها .

(١) زيادة عن الإحياء (ج٣ ص ١٨٨)

(٢) فى الأصل وفى الإحياء : «قالوا» والسياق يقتضى الإفراد .

وقال لُقْمان لأبنه : يا بُنَىّ ، إن الدنيا بحر عميق وقد غرِق فيه ناسٌ كثير، فلتكن سفينتُك فيها تَقْوى الله عز وجل، وحَشْوُها الإيمان بالله تعالى ، وشِراعُها التوكُّل على الله عز وجل، لعلك تنجو وما أراك ناجيا .

وقال بعض الحكماء : إنك لن تُصبح فى شىء من الدنيا إلا وقد كان له أهلٌ قبلك ويكون له أهلٌ بعدك ؛ وليس لك من الدنيا إلا عَشَاءُ ليلةٍ وغَدَاءُ يوم ، فلا تهلِكْ فى أَكْلة، وصُم [عن](١) الدنيا وأَفْطِر على الآخرة ، وإن رأس مال الدنيا الهوى ورِبْحها النار .

وقيل لبعضهم : كيف ترى الدهر ؟ قال : يُخْلِق الأبدان، ويُجَدِّد الآمال، ويُقَرِّب المنيّة، ويُبْعد الأُمنيّة . قيل : فما حال أهله ؟ قال : من ظفِر به تَعِب، ومن فاته نَصِب . وفى ذلك قيل :

ومَنْ يَحْمَدِ الدنيا لعيش يَسُرُّه * فسوف لعمرى عن قريب يَلُومُها
إذا أَدْبرتْ كانت على المرءِ حَسْرَةً * وإن أقبلتْ كانتْ كثيراً هُمُومُها

وقال بعض الحكماء : كانت الدنيا ولم أكن فيها ، وتذهب الدنيا ولا أكون فيها، فلا أسكن إليها ، فإنّ عيشَها نكَد ، وصفوها كَدَر، وأهلَها منها على وَجَل، (١١٩) إمّا بنعمة زائلة، أو بليّة نازلة، أو منيّة قاضية .

وقال أبو حازم : إيّاكم والدنيا، فإنّه بلغنى أنه يُوقف العبدُ يوم القيامة إذا كان مُعَظِّمًا للدنيا فيقال : هذا عظَّم ما حقَّره الله .

وقال ابن مسعود : ما أصبح أحدٌ من الناس إلا وهو ضَيْفٌ ومالُه عارية ، فالضيف يرتحل والعارية مردودة . وفى ذلك قيل :

وما المالُ والأهلون إلّا وديعةٌ * ولا بُدّ يوماً أن تُرَدَّ الودائعُ

(١) الزيادة عن الإحياء .

فبئس القوم أنتم ! ما حقّقتم إيمانكم بما يُعْرَف به الإيمان البالغ فيكم . فإن كنتم فى شكٍّ
(١٤٠) ممـا جاء به محمد صلى الله عليه وسلم فأتونا لنبيِّن لكم ولنريكم من النور ما تطمئنّ اليه قلوبكم . والله ما أنتم بالمنقوصــة عقولُكم فنعــذرَكم؛ إنكم لَتَبَيَّنُون صواب الرأى فى دنياكم وتأخذون بالحزم فى أموركم . ما لكم تفرحون باليسير من الدنيا تُصيبونه وتحــزَنون على اليســير منها يفوتكم ، يتبين ذلك فى وجوهكم ويظهر على ألسنتكم ، وتسمُّونها المصائب وتُقيمون فيها المآتم ، وعامّتكم قــد تركوا كثيرا من دينهــم ثم لا يتبيّن ذلك فى وجوهكم(١) ولا يتغيّر حالٌ بكم ! . إنى لأرى الله قد تبرّأ منكم . يلقى بعضكم بعضًا بالسرور ، وكلكم يكره أن يستقبل صاحبَه بمـا يكره مخافةَ أن يستقبله صاحبُه بمثـله ، فاصطحبتم(٢) على الغِـلّ ، ونبتت مراعيكم على الدِّمَن ، وتصافيتم على رفض الأجل . ولَوَدِدْتُ أن الله أراحنى منكم وألحقنى بمن أُحبّ رؤيته ، ولو كان حيًّا لم يصابركم . فإن كان فيكم خير فقــد أسمعتكم ، وإنْ تطلبوا ما عنــد الله تجدوه يسيرا . واللهَ أستعين على نفسى وعليكم .

وكتب الحسن البصرىّ إلى عمر بن عبد العزيز رحمهما الله تعالى :

أمّا بعد، فإن الدنيا دار ظعن ليست بدار إقامة ، وإنما أُنزل آدمُ عليه السلام من الجنّة إليها عقوبة ؛ فاحذَرْها يا أمير المؤمنين ؛ فإنّ الزاد منها تركُها ، والغنَى منها فقرها ؛ لها فى كلّ حين قتيل ؛ تُذِلّ من أعزّها ، وتُفقر من جمعها ؛ هى كالسمّ يأكله من لا يعرفه وهو حتفه . فكن فيها كالمُداوِى جراحتَه ، يحتمى قليــلا مخافةَ ما يكره طويلا ، ويصبر على شدّة الدواء مخافة طول الداء . فاحذر هذه الدار الغدّارة الختّالة الخدّاعة التى قد تزيّنت بخُدَعها وفتنت بغرورها ، وحلّت بآمالها ، وسوّفت بخطّابها ؛

(١) كذا فى الإحياء . وفى الأصلين : « ثم لا يتبين ذلك فى وجوههم » .

(٢) كذا فى الإحياء . وفى الأصل : « فأصبحتم على الغل ... » .

فأصبحت كالعروس المجلوّة[1]، فالعيون إليها ناظرة، والقلوب عليها وَالهة، والنفوس لها عاشقة، وهي لأزواجها كلّهم قالية؛ فلا الباقي بالماضي معتبِر، ولا الآخر بالأول مزدجِر، والعارف بالله عزّ وجلّ حين أخبره عنها مذكِّر؛ فعاشقٌ لها قد ظفر منها بحاجته فٱغترّ وطغى ونَسِيَ المعاد، فشغل لبّه حتى زلّت [به][2] قدمه، فعظُمت ندامته، وكثُرت حسرته، وٱجتمعت عليه سكرات الموت وتألُّمه، وحسرات الفوت بغُصّته؛ وراغبٌ[3] فيها لم يدرك فيها ما طلب، ولم يروّح نفسه من التعب؛ فخرج بغير زاد، وقدِم على غير مِهاد. فٱحذَرْها يا أمير المؤمنين، وكن أسرّ ما تكون فيها أحذرَ ما تكون لها؛ فإنّ صاحب الدنيا كلما ٱطمأنّ فيها إلى سرورٍ أشخصته إلى مكروه؛ السارّ فيها أهلَها غارّ، والنافع فيها غدّار[4] ضارّ؛ وقد وُصل الرخاءُ فيها بالبلاء، وجُعل البقاء فيها إلى فناء، فسرورها مشوبٌ بالأحزان. لا يرجع منها ما ولّى وأدبر، ولا يُدْرَى ما هو آتٍ فينتظر؛ أمانيها كاذبة، وآمالها باطلة، وصفوها كَدَر، وعيشُها نكد، وٱبن آدم فيها على خطر، ومن البلاء على حَذَر. فلو كان الخالق لم يُخبر عنها خَبَرا، ولم يضرب لها مثلا، لكانت الدنيا أيقظت النائم ونبّهت الغافل، فكيف وقد جاء من الله عزّ وجلّ عنها زاجر وفيها واعظ! فما لها عند الله جل ثناؤه قَدْر، وما نظر إليها منذ خلقها. ولقد عُرِضت على نبيّك صلى الله عليه وسلم بمفاتيحها وخزائنها لا يَنْقصه ذلك عند الله جَناحَ بَعُوضة فأبى أن يقبلها إذ كَرِه أن يُخالف على الله أمره، أو يُحِبّ ما أبغض خالقُه، أو يرفع ما وَضع مليكُه. فزَوَاها[5] عن الصالحين ٱختبارا. وبَسطها

(١) في الأصل: «المجلية» والمعل واوى كما في القاموس. (٢) زيادة عن الإحياء.

(٣) كذا في الإحياء. وفي الأصلين: «ومن راغب بزيادة «من» والسياق يأباها.

(٤) كذا في الإحياء. وفي الأصلين: «والنافع فيها عدا ضارّ».

(٥) زواه زَيًّا وزُوِيًّا: نحّاه.

لأعدائه اغترارا، فيظنّ المغرور والمقتدر عليها أنه أُكْرِم بها، ونسِيَ ماصنع الله عز وجل بمحمد صلى الله عليه وسلم حين شدّ الحجر على بطنه . ولقد جاءت الرواية عنه عن ربّه عز وجل أنه قال لموسى عليه السلام : إذا رأيت الغِنَى مُقبلًا فقل : ذَنْبٌ عُجِّلت عقوبته ، وإذا رأيت الفقر مقبلا فقل : مرحبًا بشِعار الصالحين . فإن شئت اقتديت بصاحب الروح والكلمة عيسى بن مريم عليه السلام فإنه كان يقول : إدامى الجوع، وشِعارى الخوف، ولباسى الصوف، وصِلائى فى الشتاء مشارق الشمس، [١٢١] وسراجى القمر، ودابّتى رجلاى ، وطعامى وفاكهتى ما تُنبت الأرض، أبيت ليس لى شىءٌ وأُصبح وليس لى شىءٌ وليس على الأرض أغنى منّى .

وقال بعضهم لبعض الملوك : إن أحقّ الناس بذمّ الدنيا وقِلاها مَن بُسِط له فيها وأُعطى حاجته منها ، لأنه يتوقّع آفةً تعدو على ماله فتجتاحه ، أو على جَمْعه فتفرِّقه ، أو تأتى سلطانَه فتهدمه من القواعد ، أو تدِبّ إلى جسمه فتُسْقمه ، أو تَفْجَعه بشىء هو ضنين به من أحبابه . فالدنيا أحقّ بالذمّ ، هى الآخذة لما تُعطى ، الراجعة فيما تَهَب . بينا هى تُضحِك صاحبها إذ أضحكت منه غيرَه ، وبينا هى تبكى له إذ بكت عليه ، وبينا هى تبسُط كفَّه بالإعطاء إذ بَسَطتها بالاسترداد . تعقِد التاج على رأس صاحبها اليوم وتُعَفِّره فى التراب غدا ؛ سواء عليها ذَهاب ما ذهب وبقاء ما بقى ، تجد فى الباقى من الذاهب خَلَفا ، وتَرْضَى بكُلٍّ من كلٍّ بدلًا .

وعن وهب بن مُنَبِّه أنه قال :

لمّا بعث الله عز وجلّ موسى وهارون عليهما السلام إلى فرعون قال : لا يَرُوعنّكما لباسُه الذى ليس من الدنيا ، فإنّ ناصيته بيدى ليس ينطِق ولا يطرِف ولا يتنفّس إلا بإذنى ، ولا يُعجبنّكما ما مُتِّع به منها فإنما هى زَهْرة الدنيا وزينة المُتْرَفين . فلو شئتُ أن أُزَيِّنكما بزينة من الدنيا يعرف فرعون حين يراها أنّ قدرته

تعجِزُ عمّا أُوتيتما لفعلت ، ولكنّى أرغب بكما عن ذلك فأَزْوِى ذلك عنكما، وكذلك أفعل بأوليـائى، إنى لأذودهم عن نعيمها كما يذود الراعى الشفيق غنمه عن مراتع الهَلَكَة ؛ وما ذاك لهوانهم علىّ ولكن ليستكملوا نصيبهم من كرامتى سالمًـا مُوَقَّرا . إنمـا يتزيّن لى أوليائى بالذُّلّ والخضوع والخوف والتقوى تَنْبُتُ فى قلوبهم فتظهر على أجسادهم، فهى ثيابهـم التى يلبَسون، ودِثارهم الذى يُظهرون، وضميرُهم الذى يستشعرون، ونجاتُهم التى بها يفوزون ، ورجاؤهم الذى إيّاه يأْمُلون، ومجدهم الذى به يفخَرون، وسيماهم التى بهـا يُعْرَفون . فإذا لَقِيتَهم فٱخفِضْ لهم جَناحك وذلِّلْ لهم قلبك ولسانك . وٱعلم أنّ من أخاف لى وليًّا فقـد بارزنى بالمحاربة، ثم أنا الثائر له يوم القيامة .

وخطب علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه يوما [خطبة(١)] فقال فيها :

اِعلموا أنكم ميّتون، ومبعوثون من بعد الموت وموقوفون على أعمالكم ومجزِيُّون بها ، فلا تَغُرَّنّكم الحياة الدنيا؛ فإنّها بالبلاء محفوفة، وبالفَناء معروفة ، وبالغَدْر موصوفة؛ وكلّ ما فيها إلى زوال، وهى بين أهلها دُوَلٌ وسِجَال؛ لاتدوم أحوالهـا، ولا يسلَم من شرها نُزّالها؛ بينا أهلُها فى رخاءٍ وسرور، إذا هم منها فى بلاءٍ وغرور؛ أحوال مختلفة، وتارات متصرِّفة؛ العيش فيها مذموم، والرخاء فيها لا يدوم. وإنمـا أهلها فيها أغراضٌ مُستهدَفةٌ ترميهم بسهامها، وتُقْصيهم بحِمامها؛ وكلٌّ حتفُه فيها مقدور، وحظُّه فيها موفور . وٱعلموا عبادَ الله أنكم وما أنتم فيه من هذه الدنيا على سبيلِ مَنْ قد مضى ممن كان أطولَ منكم أعمارا، وأشدّ منكم بَطْشًا وأَعْمر دِيارا، وأبعد آثارا؛ فأصبحت أصواتهم هامدةً وخامدةً من بعد طُول تقلُّبها، وأجسادُهم بالية، وديارهم خالية، وآثارهم عافية؛ استبدلوا بالقصور المشيَّدة، والسُّرُرِ والنمارق الممهَّدة، الصخورَ (٣٣)

(١) زيادة عن الإحياء .

والأحجارَ المُسَنَّدة، فى القبور اللاطئة المُلْحَدَة؛ فمحلُّها مُقترِب، وساكنُها مُغترِب، بين أهل عِمارةٍ مُوحشين، وأهل مَحَلَّةٍ مُتشاغلين؛ لا يستأنسون بالعُمْران، ولا يتَواصلون تواصُلَ الجيران والإخوان؛ على ما بينهم من قرب المكان والجوار، ودنوّ الدار. وكيف يكون بينهم تواصلٌ وقد طحنهم بكَلْكَله البِلَى، وأكلتهم الجنادل والثرى؛ وأصبحوا بعد الحياة أمواتا، وبعد غضارة العيش رُفاتا؛ فُجِع بهم الأحباب، وسكنوا التراب، وظعنوا فليس لهم إياب. هيهات هيهات! كلّا إنها كلمةٌ هو قائلها ومن ورائهم برزخٌ إلى يومِ يُبْعَثون؛ فكأنْ قد صِرْتم إلى ما صاروا إليه من البلى والوحدةِ فى دار المثوى، وارْتُهِنتم فى ذلك المَضْجَع، وضمّكم ذلك المُستودَع؛ فكيف بكم لو قد عاينتم الأمور، وبُعْثِرت القبور، وحُصِّل ما فى الصدور؛ ووُقِفْتم للتحصيل، بين يدى الملك الجليل؛ فطارت القلوب، لإشفاقها من سالف الذنوب؛ وهُتكت عنكم الحجب والأستار، وظهرت منكم العيوب والأسرار؛ هنالك تُجْزَى كلُّ نفسٍ ما كسبت. إن الله عز وجلّ يقول: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾؛ وقال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾. جعلنا اللهُ وإيّاكم عاملين بكتابه، متّبعين لأوليائه، حتّى يُحِلّنا وإيّاكم دارَ المُقامة من فضله، إنه حميد مجيد.

وممّا يلتحق بهذا الفصل ويدخل فيه، خطبة قَطَرِيّ بن الفجاءة وسترد فى كلام البلغاء فى باب الكتابة.

وقال بعضهم: يأيها الناس، اعملوا على مَهَل، وكونوا من الله على وَجَل، ولا تغترّوا بالأَمَل ونسيان الأجل؛ ولا تركَنوا إلى الدنيا فإنها غدّارة خدّاعة،

قد تزخرفتْ لكم بغُرورها ، وفَتنتكم بأمانيها ، وتزينت لخُطّابها ، فأصبحت كالعروس المجلوّة ؛ العيونُ إليها ناظرة ، والقلوبُ عليها عاكفة ، والنفوسُ لها عاشقة . فكم من عاشقٍ لها قتلتْ ، ومطمئنٍّ إليها خَذلتْ . فانظروا إليها بعين الحقيقة فإنّها دار كثرت بوائقُها ، وذمّها خالقها ؛ جديدها يبلَى ، وملكها يفنَى ، وعزيزُها يَذِلّ ، وكثيرها يقِلّ ، وحيّها يموت ، وخيرها يفوت . فاستيقظوا من غفلتكم ، وانتبهوا من رقدتكم ؛ قبل أن يقال : فلانٌ عليل ، أو مُدْنَفٌ ثقيل ، فهل على الدواء من دليل ، أو على الطبيب من سبيل ؛ فيُدْعَى لك الأطبّاء ، ولا يُرْجَى لك الشفاء ، ثم يقال : فلان أوصَى ، ولماله أحصَى ، ثم يقال : قد ثقُل لسانه فما يكلّم إخوانه ، ولا يعرِف جيرانه ؛ وعرِق عند ذلك جبينُك ، وتتَابع أنينُك ، وثبت يقينُك[(١)] ، وطَمَحت جفُونك ، وصدَقت ظنونك ، وتلجلج لسانُك ، وبكى إخوانك ، وقيل لك : هذا ابنك فلان ، وهذا أخوك فلان ، ومُنِعْتَ الكلام فلا تنطق ، ثم حلّ بك القضاء ، وانتُزِعت نفْسُك من الأعضاء ، ثم عُرِج بها الى السماء ، فاجتمع عند ذلك إخوانك ، وأُحْضِرَت أكفانك ، فغسّلوك وكَفّنوك ، فانقطع عُوّادك ، واستراح حُسّادك ، وانصرف أهلك إلى مالك ، وبقيت مُرْتَهَنًا بأعمالك .

وقال بعض الحكماء : الأيام سِهام ، والناسُ أغراض ، والدهر يرميك كلَّ يوم بسهامه ، ويخترمك بلياليه وأيّامه ، حتّى يستغرق جميع أجزائك ؛ فكم بقاءُ سلامتك مع وقوع الأيّام بك ، وسرعةِ الليالى فى بدَنك ! لو كُشِف لك[(٢)] عما أحدثت الأيامُ فيك من النقص لاستوحشتَ من كلّ يوم يأتى عليك ، واستثقلت ممرّ الساعات بك ؛ ولكنّ تدبير الله فوق تدبير الاعتبار ، وبالسلوّ عن غوائل الدنيا وُجِد طعمُ لذّاتها ، وإنّها (١٢٣)

(١) كذا فى الإحياء . وفى الأصلين : «وثبت نفسك ... » .
(٢) كذا فى الإحياء . وفى الأصل : « لو كشفت عما ... » .

لأمرٍ من العَلْقَم إذا عَجَمها الحكيم، وقد أعيت الواصفَ لعيوبها بظاهرِ أفعالهـا، وما تأتى به من العجائب أكثر مما يُحيط به الواعظ . اللهم أرشدنا للصواب .

وخطب عمر بن عبد العزيز رحمه الله فقال : أيها الناس، إنكم خُلِقتم لأمرٍ إن كنتم تصدِّقون [به](١) فإنكم حَمْقَى، وإن كنتم تكذِّبون به إنكم لهَلْكَى(٢)، إنما خُلِقتم للأبد، ولكنكم من دارٍ الى دارٍ تُنْقَلون . عباد الله، إنكم فى دارٍ لكم فيها من طعامكم غَصَص، ومن شرابكم شَرَق، لا تصفو نعمةٌ تُسَرُّون بها إلا بفراق أُخرى تكرهون فِراقها، فاْعمـلوا لمـا أنتم صائرون إليه خالدون فيه . ثم غلبه البكاء ونزل .

ذكر بيان الزهد وأقسامه وأحكامه

فأمّا درجاته فقد قال الغزالىّ رحمه الله : إنها تتفاوت بحسب تفاوت قوته على درجات ثلاث :

الأولى وهى السفلى منها : أن يزهدَ فى الدنيا وهو لها مُشتهٍ، وقلبه إليها مائل، ونفسه إليها ملتفتةٌ ولكنّه يجاهدها ويَكُفُّها، وهذا يسمَّى التزهُّد، وهو مبدأ الزهد فى حقّ من يصل الى درجة الزهد بالكسب والاجتهاد . والمتزهِّد يُذيب أوّلا نفسَه ثم كسبه، والزاهد يُذيب أوّلا كسبَه ثم يُذيب نفسـه فى الطاعة لا فى الصـبر على ما فارقه . والمتزهِّد على خَطَر، فإنه ربمـا تغلبه نفسُه وتجذبه شهوته فيعود إلى الدنيا وإلى الاستراحة بها فى قليل أو كثير .

الثانية : الذى يترك الدنيا طوعاً(٣) لاستحقاره إياها بالإضافة إلى ما طمِـع فيه كالذى يترك درهمـا لأجل درهمين فإنّه لا يشُقّ عليـه ذلك وإن كان يحتاج

---

(١) زيادة عن الإحياء . (٢) الذى فى الإحياء : «وإن كنتم تكذبون به فإنكم هلكى» .

(٣) كذا فى الإحياء . وفى الأصل : «طاعة» .

إلى انتظار قليل . ولكن هذا الزاهد يرى لا محالة زهده ويلتفت إليه ، كما يرى البائع المبيع ويلتفت إليه ، فيكاد يكون مُعْجَبًا بنفسه وبزهده ، ويظنّ بنفسه أنّه ترك شيئا له قدر لما هو أعظم قدراً منه ؛ وهذا أيضا نقصان .

الثالثة وهى العليا : أن يزهد طوعا ويزهد فى زهده فلا يرى زهده ، إذ لا يرى [illegible] إذ عرف أن الدنيا لا شىء ، فيكون كمن ترك خَزَفَةً وأخذ جوهرة فلا يرى ذلك معاوضةً ولا يرى نفسه تاركا شيئا . [والدنيا بالإضافة إلى الله ونعيم الآخرة أخسّ من خزفة بالإضافة إلى جوهرة](١) ؛ فهذا هو الكمال فى الزهد ، وسببه كمال المعرفة . وأما أقسامه فمنها ما هو مضاف إلى المرغوب فيه والمرغوب عنه ؛ فأما المرغوب فيه فهو على ثلاث درجات :

الأولى وهى السفلى : أن يكون المرغوبُ فيه النجاة من النار ومن سائر الآلام كعذاب القبر ومناقشة الحساب وخطر الصراط وسائر ما بين يدى العبد من الأهوال كما وردت به الأخبار . وفى الخبر : "إن الرجل لَيُوقَف فى الحساب حتى لو وردتْ مائةُ بعيرٍ عطاشًا على عَرَقه لصَدَرَتْ رِوَاءً" ؛ فهذا زهد الخائفين وكأنّهم رَضُوا بالعدم لو أُعْدِموا فإنّ الخلاص من الألم يحصل بمجرد العدم .

الدرجة الثانية : أن يزهد رغبةً فى ثواب الله ونعيمه واللّذّات الموعودة فى جنّته من الحُور والقصور وغيره ، وهذا زهد الراجين ، فإن هؤلاء ما تركوا الدنيا قناعةً بالعدم والخلاص من الألم بل طمِعوا فى وجودٍ دائم ونعيمٍ سَرْمَدٍ لا آخر له .

الدرجة الثالثة وهى العليا : ألا يكون له رغبة إلا فى الله وفى لقائه ، فلا يلتفت قلبه إلى الآلام ليقصد الخلاص منها ، ولا إلى اللذّات ليقصِد نَيْلَها والظفرَ بها ،

---

(١) زيادة من الإحياء .

بل هو مستغرق الهمّ بالله تعالى، وهو الموحّد الحقيقيّ الذى لا يطلب غير الله تعالى، لأنّ من طلب غير الله فقد عبده؛ وكلّ مطلوب معبود، وكلّ طالب عبد بالإضافة إلى مطلبه، وطلبُ غير الله من الشرك الخفيّ؛ وهذا زهـد المحبّين وهم العارفون، (١٢٤) لأنه لا يحبّ الله تعالى خاصّة إلا من عرفه؛ وكما أنّ من عرف الدينار والدرهم وعلم أنّه لا يقدر على الجمع بينهما لم يحبّ إلا الدينار، فكذلك من عرف الله تعالى وعرف لذّة النظر الى وجهه الكريم، وعرف أن الجمع بين تلك اللذّة وبين لذّة التنعُّم بالحُور العين والنظر الى نقش القصور وخضرة الأشجار غـير ممكن، فلا يحبّ إلّا لذّة النظر ولا يُؤْثِر غيره. قال: ولا تَظُنَّنّ أن أهل الجنّة عنـد النظر إلى وجه الله تعالى يبقى للذّة الحُور والقُصور مُتَّسعٌ فى قلوبهم، بل تلك اللذّة بالإضافة إلى لذّة نعيم الجنّـة كلذّة مُلْك الدنيـا والاستيلاء على أطراف الأرض ورقاب الخَلْق بالإضافـة إلى الاستيلاء على عُصفور واللعب به؛ والطالبون لنعيم الجنـة عند أهل المعرفة وأرباب القلوب كالصبيّ الطالب للّعب بالعصفور التارك للّذة الملك، وذلك لقصـوره عن إدراك لذّة الملك لا لأن اللعب بالعصفور فى نفسه أعلى وألذّ من الاستيلاء بطريق الملك على كافة الخلق.

وأمّا المرغوب عنه، فقد كثرت فيه الأقاويل.

قال الغزالىّ رحمـه الله: لعلها تزيد على مائة قـول، وأشار إلى كلام محيـط بالتفاصيل فقال: المرغوب عنه بالزهد له إجمال وتفصيل، ولتفصيله مراتب بعضها أشرح لآحاد الأقسام وبعضها أجمع للجمل.

أما الإجمال فى الدرجة الأولى: فهو كلّ ما سوى الله فينبغى أن يزهد فيه حتّى يزهد فى نفسه أيضا.

والإجمال فى الدرجة الثانية : أن يزهد فى كل صفة للنفس فيها مُتعة ، وهذا يتناول جميع مقتضيات الطبع من الشهوة والغضب والكِبْر والرياسة والمال والجاه وغير ذلك .

وفى الدرجة الثالثة : أن يزهد فى المال والجاه وأسبابهما ، إذ إليهما ترجع جميع حظوظ النفس .

وفى الدرجة الرابعة : أن يزهد فى العلم والقدرة والدينار والدرهم [والجاه][1]، إذ الأموال وإن كثرت أصنافها فيجمعها الدينار والدرهم ، والجاه وإن كثُرت أسبابه فيرجع إلى العلم والقدرة . قال : وأعنى به كلّ علم وقدرة مقصودهما ملك القلوب؛ إذ معنى الجاه هو ملك القلوب والقدرة عليها ، كما أن معنى المال ملك الأعيان والقدرة عليها . قال : فإن جاوزتَ هذا التفصيل إلى شرح وتفصيل أبلغ من هذا فتكاد تخرج ما فيه الزهد عن الحصر. وقد ذكر الله تعالى فى آية واحدة سبعة منها فقال : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَاتِ مِنَ ٱلنِّسَاءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَاطِيرِ ٱلْمُقَنْطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَامِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ . ثم ردّه فى آية أخرى إلى خمسة فقال : ﴿ ٱعْلَمُوا أَنَّمَا ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَالِ وَٱلْأَوْلَادِ ﴾ . ثم ردّه فى موضع آخر إلى آثنين فقال : ﴿ وَمَا ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ﴾ . ثم ردّ الكلّ فى موضع آخر إلى واحد فقال : ﴿ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾؛ فالهوى لفظ يجمع جميع حظوظ النفس فى الدنيا، فينبغى أن يكون الزهد فيه .

قال : فالحاصل أن الزهد عبارة عن الرغبة عن حظوظ النفس كلّها .

---

(١) زيادة عن الإحياء .

وقال أبو سليمان الدارانى : سمعنا فى الزهد كلاما كثيرا ، والزهد عندنا ترك كلّ شى يشغلك عن الله عز وجلّ ، وقرأ قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ ، قال : هو القلب الذى ليس فيه غير الله . فهذا بيان أقسامه بالإضافة إلى المرغوب فيه وعنه .

وأما أحكامه فتنقسم إلى فرض ونفل وسلامة . فالفرض هو الزهد فى الحرام ، والنفل هو الزهد فى الحـلال ، والسلامة هو الزهـد فى الشبهات . فهذه درجاته وأقسامه وأحكامه على سبيل الآختصار .

ذكر بيان تفصيل الزهد فيما هو من ضروريات الحياة

قال الغزالى رحمه الله : اعلم أنّ ما الناسُ منهمكون فيه ينقسم إلى فضول وإلى مهمّ ؛ فالفضول كالخيل المسوّمة — إذ غالب الناس إنما يقتنيها للترفّه بركوبها وهو قادر على المشى — وغيرِ ذلك مما لا ينحصر . ثم حصَر المهمّ الضرورى فتميّز ما عداه أنّه فضُول . قال : والمهمّ أيضا يتطرّق إليه فضول فى مقداره وجنسه(١) وأوقاته على ما يشرحه من قوله . قال : والمهمّات ستّة أمور ، وهى : المطعم ، والملبس ، والمسكن وأثاثه ، والمنكح ، والمـال ، والجاه يطلب لأغراض . (١٢٥)

فالمهمّ الأوّل المطعم . ولا بدّ للإنسان من قوتٍ حلالٍ يُقيم صُلبه ، ولكن له طول وعرض ووقت . فأما طوله فبالإضافة إلى جملة العمر فإن من يملك طعام يومه قد لا يقنع به . وهو لا يقصُر إلا بقصر الأمل ، وأقلّ درجات الزهـد فيه الآقتصار على قدر دفع الجوع عند شدّته وخوف المرض . ومن هذا حاله فإذا آستقل بمـا تناوله لم يدّخر(٢) من غدائه لعشائه ؛ وهذه الدرجة العليا .

(١) كذا فى الإحياء . وفى الأصل : « وحسنه ... » .
(٢) كذا فى الإحياء . وفى الأصل : « ولم يدخر » بالواو .

والثانية : أن يدّخر لشهر أو أربعين يوما .

والثالثة : أن يدّخر لسنة فقط، وهذه رتبة ضعفاء الزهّاد . ومن آدّخر لأكثر من ذلك فتسميته زاهدًا محال؛ لأنّ من أمّل بقاءً أكثر من سنة فهو طويل الأمل جدًا فلا يتمّ منـه الزهد إلا إذا لم يكن له كسب ولم يرضَ لنفسه الأخذ من أيدى الناس، كداود الطائىّ فإنه ورث عشرين دينارا فأمسكها وأنفقها عشرين سنة، فهـذا لا يضادّ الزهد إلا عند من جعل التوكل شرط الزهد .

وأمّا عَرْضه فبالإضافة الى المقـدار، وأقل درجاته فى اليوم والليـلة نصف رطل، وأوسطه رطل، وأعلاه مُدّ — وهو ما قدّره الله تعالى فى إطعام المساكين فى الكفّارة — وما وراء ذلك فهـو آتساع وآشتغال بالبطن . ومن لم يقـدِر على الآقتصار على مُدّ لم يكن له من الزهد فى البطن نصيب .

وأمّا بالإضافة إلى الجنس فأقلّه ما يَقوت وهو الخبز من النُّخالة، وأوسطه خبز الشـعير والذرة، وأعلاه خبز البُرّ غير منخول؛ فاذا مُيِّزت النُّخالة منه وصار حُوَّارَى فقد دخل فى التنعُّم وخرج عن آخر أبواب الزهد فضلا عن أوائله .

وأمّا الأُدْم، فأقلّه الملح أو البقل والخلّ، وأوسطه الزيت أو يسيرٌ من الأدهان، وأعلاه اللحم وذلك فى الأسبوع مرّة أو مرّتين؛ فإن صار دائما أو أكثر من مرّتين فى الأسبوع خرج من آخر أبواب الزهد فلم يكن صاحبه زاهدا فى البطن أصلا .

وأمّا بالإضافة إلى الوقت فأقلّه فى اليوم والليـلة مرّة وهو أن يكون صائما ثم يُفطر فى وقت الإفطار؛ وأوسطه أن يصوم ويشرب ليلةً ولا يأكل، ويأكل ليلة ولا يشرب؛ وأعلاه أن ينتهى إلى أن يَطْوِىَ ثلاثة أيام وأسبوعا وما زاد عليـه .

وآنظر الى أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فى كيفيّة زهدهم فى المطاعم وتركهـم الأُدم وآقتصارهم على ما يُمسك الرَمَق . قالت عائشة أمّ المؤمنين رضى الله

عنها : كانت تأتى علينا أربعون ليـلة وما يُوقَد فى بيت رسول الله صـلى الله عليه وسلم مصباحٌ ولا نار . قيل لها : فبم كنتم تعيشون؟ قالت : بالأسودَين التمر والماء. وجاء أهل قُبَاء إلى النبيّ صلى الله عليـه وسلم بشربة من لبن مَشُوبةٍ بعسل، فوضع القـدحَ من يده وقال : "أَمَا إنِّى لست أُحرِّمه ولكنّى أتركه تواضعاً لله تعالى" . وأُتِى عمرُ بن الخطّاب رضى الله عنه بشربة من ماء بارد وعسل فى يومٍ صائف فقال: اعزِلوا عنِّى حسابها . وقال يحيى بن مُعاذ الرازىّ . الزاهد الصـادق قوتُه ما وجَد، (١٣٦) ولباسـه ما سَتر، ومسكنه حيث أدرك، الدنيا سجنه، والقـبر مضجَعه، والخلوة مجلسه. والاعتبار فكرته، والقرآن حديثه، والربّ أنيسه، والذكر رفيقه، والزهـد قرينه، والحزن شأنه، والحياء شِعاره، والجوع إدامه، والحكمة كلامه، والتراب فراشـه . والتقوى زاده . والصمت غنيمته ، والصـبرُ مُعتَمده، والتوكّل حسبه، والعقل دليله، والعبادة حِرفته، والجنّة مَبلَغه إن شاء الله تعالى .

المهم الثانى الملبس. وأقلّ درجاته ما يدفع الحَرّ والبرد ويستر العورة، وهو كساء يتغطّى به، وأوسطه قميصٌ وقَلَنْسُوة ونعلان، وأعلاه أن يكون معه مِنديل وسَرَاويل . وما جاوز هذا من حيث المقدار فهو مُجاوِز حدّ الزهد . وشرط الزهد ألّا يكون له ثوبٌ يلبسه إذا غسل ثوبه بل يلزمه القعود فى البيت، فإذا صار صاحب قميصين وسراويلين ومنديلين فقد خرج من جميع أبواب الزهد . هذا من حيث المقدار . وأما الجنس، فأقلّه المُسُوح الخشنة، وأوسطه الصوف الخشن، وأعلاه القطن الغليظ .

وأما من حيث الوقت ، فأقصاه ما يستُر سـنَةً. وأقلُّه ما يبقَ يوما، وقد رقع بعضهم ثوبه بورق الشجر [وإن كان يتسارع الجفاف إليه (١)]، وأوسطه ما يتماسك

(١) زيادة من الإحياء .

عليه شهرا وما يقاربه . فطلبُ ما يبقى أكثر من سنة خروج إلى طول الأمل، وهو مُضادّ للزهد إلا إذا كان المطلوب خشونته وقد يتبَع ذلك قوّته ودوامُه . فمن وجد زيادة من ذلك فينبغى أن يتصدّق به؛ فإن أمسكه لم يكن زاهدا بل كان محبًّا للدنيا . ولينظر إلى أحوال الأنبياء صلى الله عليهم والصحابة رضى الله عنهم كيف تركوا الملابس . قال أبو بُردة : أخرجتْ لنا عائشة رضى الله عنها كساءً مُلَبَّدًا وإزارًا غليظا فقالت : قُبِض رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذين . وقال صلى الله عليه وسلم : "إن الله تعالى يُحبّ المُتَبَذِّل الذى لا يُبَالِى ما لبِس" . وفى الخبر : "ما من عبدٍ لبِس ثوب شُهرة إلا أعرض الله عنه حتى ينزِعه وإن كان عنده حبيبا" . واشترى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثوبًا بأربعة دراهم وكان إزاره أربعة أذرع ونصفا، واشترى سراويل بثلاثة دراهم، وكان يلبَس شَمْلتين بَيْضاوَيْنِ من صوف وكانت تسمَّى حُلَّةً لأنهما ثوبان من جنس واحد. وربما كان يلبس بُردين يمانيَّيْنِ أو سَحُوليَّين . ولبس صلى الله عليه وسلم يوما واحدا ثوبا سِيَراء[1] من سُندس قيمته مائتا درهم، فكان أصحابه يلمِسُونه ويقولون : يا رسول الله، أُنزِلَ هذا عليك من الجنّة! تعجُّبا، وكان قد أهداه إليه المُقَوقِس ملك الإسكندرية، فأراد أن يُكرمه بلُبسه ثم نزعه وأرسل به إلى رجل من المشركين وصَلَه به ، ثم حرّم لُبس الحرير والديباج . وقد صلّى رسول الله صلّى الله عليه وسلم فى خَمِيصة[2] لها علم فلمّا سلّم قال : "شَغَلنى النظر الى هذه اذهبوا بها الى أبى جَهْم وأْتونى بأَنبجانيّته[3]" (يعنى كساءه)فاختار لبس الكِساء على الثوب الناعم . وكان شِراك نعله قد أَخْلق فأُبْدِل بسَيْرٍ جديد فصلّى

(١) السيراء (بكسر السين وفتح التحتية ممدودا) : ضرب من البرود فيه خطوط صفر .

(٢) الخميصة : ثوب خز أو صوف معلم .

(٣) الأنبجانىّ : نسبة الى منبج (كمجلس) موضع بالشأم، يقال فى النسبة اليه منبجانى وأنبجانى بفتح بائهما على غير قياس .

فيه؛ فلما سلّم قال : "أعيدوا الشّراك الخَلَق وٱنزِعوا هــذا الجديد فإنّى نظرت إليه فى الصلاة" . وعن جابر رضى الله عنه قال : دخل رسول الله صلى الله عليــه وسلم على فاطمة رضى الله عنها وهى تطحَن بالرحا وعليها كساء من وبر الإبل(١)، فلما نظر إليها بكى وقال : "يافاطمة تجرّعى مرارةَ الدنيا لنعيم الأبد" . فأنزل الله عليه (وَلَسَوْفَ يُعطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى) . [وقد أوصى أمته عامّة باتباعه إذ قال : "من أحبنى فَلْيَسْتَنَّ بسُنّتى" . وقال : "عليكم بسُنتى وسُنّة الخلفاء الراشدين من بعدى عَضُّوا عليها بالنواجذ" . وقال الله تعالى : (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللهُ)(٢)] .
وأوصى رسول صلى الله عليه وسلم عائشة رضى الله عنها خاصة وقال لها : "إنْ أردتِ اللّحوق بى فإيّاك ومجالسة الأغنياء ولا تَنْزِعِى ثوبا حتى تُرَقِّعيه" . وعُدَّ على قميص عمر رضى الله عنــه ٱثنتان(٣) وعشرون رقعة بعضها من أَدَم . وفى الخبر : "من ترك ثوب جَمال وهو يقدِر عليه تواضعًا لله تعالى وٱبتغاءً لوجهه كان حقًّا على الله أن يدّخره من عبقرىّ الجنّــة فى أتخات الياقوت" . وقال عمر رضى الله عنه : اخلَوْلِقُوا (١٣٧) وٱخشوشنوا ، وإيّاكم وزِىَّ العجم كسرى وقيصر . وقال الثورىّ وغيره : ٱلْبَسْ من الثياب مالا يُشَهِّرك عند العلماء ولا يُحقِّرك عند الجهّال . وقال بعضهم : قوّمت ثوبى سُفْيان ونعليه بدرهم وأربعة دوانيق . والأخبار فى التقلّل من اللباس كثيرة فلا نطوّل بسردها .

المهم الثالث المسكن . وللزهد فيه أيضا ثلاث درجات ، أعلاها ألّا يطلب موضــعا خاصًّا لنفسه فيقنع بزوايا المساجد كأصحاب الصُّفّة ، وأوسطها أن يطلب

---

(١) كذا فى الإحياء . وفى الأصلين : « من أجلة الابل ... » .
(٢) زيادة عن الإحياء .
(٣) كذا بالأصل . وفى الإحياء (ج ٤ ص ٢٢٣ طبع بلاق) : « اثنتا عشرة رقعة » .

موضعا خاصّا لنفسه مثل كُوخ مبنيّ من سَعَف أو خُصّ أو ما يشبهه، وأدناها أن يطلب حُجرة مبنيّة إما بشراء أو إجارة . فإن كان قدرُ سعة المسكن على قدر حاجته من غير زيادة ولم تكن فيه زينةٌ لم يُخرجه هذا القدر عن آخر درجات الزهد . فإنْ طلب التشييد والتجصيص والسعة وآرتفاع السقف أكثر من ستة أذرع فقد جاوز بالكليّة حدّ الزهد فى المسكن . قال : والغرض من المسكن دفع المطر والبرد ودفع الأعين والأذى . وأقلّ الدرجات فيــه معلوم ، وما زاد عليــه فهو من الفضول، والفضول كله من الدنيا، وطالب الفضول والساعى له بعيد من الزهد . وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسـلم أنه قال : " إذا أراد الله بعبـدٍ شرًّا أهلك ماله فى المـاء والطين" . وقال الحسن : مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يضع لَبِنة على لبنة ولا قَصَبة على قصبة . وقال عبـد الله بن عمر رضى الله عنهما : مرّ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نعالج خُصًّا فقال : "ما هذا" قلنا : خصٌّ لنا قد وَهَى؛ قال : "أرى الأمر أعجل من ذلك" . وآتخذ نوح عليه السلام بيتاً من قَصَب؛ فقيل له : لو بَنَيت! فقال : هذا كثير لمن يموت . وقال الحسن : دخلنا على صَفْوان بن مُحرِز(١) وهو فى بيت من قَصَب قد مال عليه؛ فقيل له : لو أصلحته! فقال : كم من رجلٍ قد مات وهذا قائم على حاله . وقال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : " من بنى فوق ما يكفيه كُلِّف أن يحمله يوم القيامة" . وفى الخــبر : "كلّ نفقةٍ للعبد يُؤْجَر عليها إلا ما أنفقه فى المـاء والطين" . وجاء فى تفسير قوله تعــالى : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى الأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾ أنه الرياسة والتطاوُل فى البُنيان . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كلُّ بناءٍ وبالٌ على صاحبه يوم القيامة إلا ما أَكَنَّ من حرّ وبرد" . ونظر عمر رضى الله عنه

(١) كذا فى كتابى الخلاصة والتهذيب فى أسماء الرجال . وفى الأصلين : « محيريز » .

فى طريق الشأم الى صَرْح قــد بُنى بجَصّ وآجُرّ، فكَبّر وقال : ما كنت أظنّ أن يكون فى هذه الأمّة من يبنى بنيان هامان لفرعون . وكان ٱرتفاع بناء السلف قامةً وبَسْطة . قال الحسن : كنت اذا دخلت بيوت رسول الله صــلى الله عليــه وسلم ضربت بيدى الى السقف . وقال عمرو بن دينار : اذا علّى العبــد البناء فوق ستة أذرع ناداه مَلَك : الى أين يا أفسق الفاسقين . وقال الفُضَيل : إنّى لا أعجب ممن بنى وترك ولكنّى أعجب ممن نظر اليــه ولم يعتبر . وقال ابن مسعود : يأتى قومٌ يرفعون الطين، و يَضَعون الدين، و يستعملون البراذين، يصلُّون الى قِبْلتكم، و يموتون على غير دينكم .

المهم الرابع أثاث البيت . وللزهد فيه أيضا درجات، أعلاها حال عيسى عليه السلام إذ كان لا يصحبه إلا مشطٌ وكُوز؛ فرأى إنسانا يمشِطُ لحيتَه بأصابعه؛ فرمى بالمشط . ورأى آخر يشرب من النهر بكفّيه فرمى بالكوز . وهــذا حكم كلّ أثاث فإنه إنما يراد لمقصود فإذا آستغنى عنه فهو وبالٌ فى الدنيا والآخرة . وما لا يُستغنى عنه فيُقتصر فيه على أقلّ الدرجات وهو الخَزَف فى كلّ ما يكفى فيه الخزف، ولا يُبالَى أن يكون مكسور الطَرَف اذ كان المقصود يحصــل به . وأوسطها أن يكون له أثاثٌ بقدر الحاجة صحيحٌ فى نفسه . ولكن يستعمل الآلة الواحدة فى مقاصد [illegible] كأن يكون معه قَصْعة يأكل فيها و يشرب فيها ويحفظ المتاع فيها . وكانــ السلف يستحبّون ٱستعمال آلة واحدة فى أشياء للتخفيف . وأعلاها أن يكون له بعــدد كلّ حاجة آلةٌ من جنس النازل الخسيس . فإن زاد فى العدد أو فى نَفاسة الجنس خرج عن جميع أبواب الزهد وركن الى طلب الفضول . ولينظر الى سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيرة أصحابه رضى الله عنهم . قالت عائشة رضى الله عنها : كان

ضِجاع[1] رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى ينام عليه وِسادةً من أَدَم حَشْوُها لِيف . وقال الفُضَيل : ما كان فِراش رسول الله صلى الله عليه وسلم إلّا عَباءةً مَثْنِيّة ووسادة حشوها ليف . وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نائم على سرير مَرْمُولٍ[2] بشريط، فجلس فرأى أثر السرير فى جنبه عليه السلام فدمعت عينا عمرَ. فقال له النبىّ صلى الله عليه وسلم : "ما الذى أبكاك يابن الخطاب"؟ قال : ذكرت كسرى وقيصر وما هما فيه من المُلْك وذكرتك وأنت حبيب الله وصفيّه ورسوله نائم على سرير مرمول بالشريط! فقال صلى الله عليه وسلم : "أمَا ترضى يا عمر أن تكون لها الدنيا ولنا الآخرة"! قال : بلى يا رسول الله . قال : "فذلك كذلك" . ودخل رجل على أبى ذَرٍّ فجعل يقلّب بصره فى بيته فقال : يا أبا ذرّ، ما أرى فى بيتك متاعاً ولا غير ذلك من الأثاث ! فقال : إن لنا بيتا نوجّه إليه صالح متاعنا . فقال : إنه لا بدّ لك من متاع ما دمتَ هاهنا . فقال : إن صاحب المنزل لا يدعنا فيه . ولما قدِم عُمَيْر بن سعد أميرحِمْص على عمر قال له : ما معك من الدنيا؟ فقال : معى عصاى أتوكّأ عليها وأقتل بها حيّةً إن لقيتها، ومعى جِرابى أحمل فيه طعامى، ومعى قَصْعَتى آكل فيها وأغسل فيها رأسى وثوبى ، ومعى مِطْهَرتى أحمل فيها شرابى ووَضُوئى للصلاة ، فما كان بعد هذا من

---

(١) كذا فى الأصلين والإحياء، ولم نجده فى كتب اللغة التى بين أيدينا . وفى لسان العرب ونهاية ابن الأثير «ضجعه» وقالا فى تفسيره : «الضجعة بالكسر من الاضطجاع وهو النوم كالجلسة من الجلوس وبفتحها المرة الواحدة ، والمرادُ ما كان يضطجع عليه فيكون فى الكلام مضاف محذوف تقديره كانت ذات ضجعته أو ذات اضطجاعه فراش أدم ... » . (٢) الرمل : النسج ، والسرير المرمول هو الذى ينسج له شريط ويجعل ظهرا له (عن القاموس) . وقد ورد الحديث فى نهاية ابن الأثير وفى لسان العرب : « وإذا هو جالس على رمال سرير » وفى رواية أخرى «على رمل حصير» . والرمال كحطام وركام ما رمل أى نسج . والمراد أن هذا السرير قد نسج وجهه بالسعف ولم يكن عليه وطاء سوى الحصير .

الدنيا فهو تَبَعٌ لما معى . فقال عمر : صدقتَ ، رحمك الله . وقدِم رسول الله صلى الله وسلم من سفر ، فدخل على فاطمة رضى الله عنها فرأى على باب منزلها سِتْرا وفى يديها قُلْبَيْنِ من فضّة فرجع . فدخل عليها أبو رافع وهى تبكى، فأخبرته برجوع رسول الله صلى الله عليه وسلم. فسأله أبو رافع فقال: "من أجل الستر والسِّوارين": فأرسلت بهما بِلالًا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت : قد تصدّقت بهما فضَعْهما حيث ترى . فقال: " اذهب فبعه وآدفعه إلى أهل الصُّفَّة". فباع القلبين بدرهمين ونصف وتصدّق بهما عليهم . فدخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " بأبى أنتِ قد أحسنتِ " . وقال الحسن : أدركت سبعين من الأخيار ما لأحدهم إلا ثوبه ، وما وضع أحدهم بينه وبين الأرض ثوبًا قط، كان إذا أراد النوم باشر الأرض بجسمه وجعل ثوبه فوقه .

المهم الخامس المنكح . قال الغزالى :- وقد قال قائلون : لا معنى للزهد فى أصل النكاح ولا فى كثرته ، وإليه ذهب سهل بن عبد الله وقال : قد حُبِّب إلى سيِّد الزاهدين النساء فكيف نزهد فيهنّ! ووافقه آبن عُيَينة ، وقال : كان أزهد الصحابة علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه وكان له أربعُ نسوة وبضْعَ عشرةَ سُرِّيّة . قال الغزالى : والصحيح ما قاله أبو سليمان الدارانى إذ قال : كُلُّ ما شغلك عن الله من أهل ومال وولد فهو عليك مشئوم . والمرأة قد تكون شاغلا عن الله . قال : وكَشْفُ الحقّ فيه أنّه قد تكون العُزُوبة أفضل فى بعض الأحوال فيكون ترك النكاح من الزهد . وحيث يكون النكاح أفضل لدفع الشهوة الغالبة فهو واجب فكيف يكون تركه من الزهد! وإن لم يكن عليه آفة فى تركه ولا فعلِه ولكن ترك النكاح آحترازًا عن مَيْل القلب إليهنّ والأنس بهنّ بحيث يشتغل عن ذكر الله فتركُ ذلك من الزهد . وإن علم أن المرأة لا تشغله عن ذكر الله ولكن ترك ذلك آحترازًا من لذّة النظر والمضاجعة

والمواقعة فليس هــذا من الزهد أصلا؛ فإن الولد مقصود لبقاء نسله ، وتكثيرُ أمّة محمد صلى الله عليه وسلم من القُربات . واللذّة التى تلحق الإنسان فيما هو من ضرورة الوجود لا تضرّه إذا لم تكن هى المقصد والمطلَب؛ وهذا كمن ترك أكل الخبز وشرب المـاء آحترازاً من لذّة الأكل والشرب، وليس ذلك من الزهد فى شئ؛ لأن فى ترك ذلك فواتَ بدنه ، فكذلك فى ترك النكاح آنقطاعُ نسله؛ فلا يجوز أن يترك النكاح زهدًا فى لذّته من غير آفةٍ أُخرى . قال: وأكثر الناس تشغَلهم كثرة النسوان، فينبغى أن يترك الأصل إن كان يشغله ، وإن لم يشغله وكان يخاف من أن تشـغله الكثرة منهن أو جمالُ المرأة فلينكح واحدةً غير جميلة وليراع قلبه فى ذلك . قال أبو سليمان : الزهــد فى النساء أن تختار المرأةَ الدُّون أو اليتيمة على المرأة الجميلة والشريفة . وقال الجُنَيْد: أُحِبّ للمريد المبتدى ألّا يشغل قلبه بثلاث وإلّا تغيّر حالُه : التكسّب، وطلب الحديث ، والتزوّج. فقد ظهر أن لذّة النكاح كلذّة الأكل والشرب، فما شغل عن (١٢٩)
الله تعالى فهو محذور فيهما جميعا .

المهم السادس : ما يكون وسيلة إلى هذه الخمسة وهو المال والجاه. [أمّا الجاه][(١)] فمعناه ملك القلوب بطلب محلّ فيها ليُتَوَصّل به إلى الآستعانة فى الأغراض والأعمال. وكلّ من لا يقدِر على القيام بنفسه فى جميع حاجاته وآفتقر إلى من يخدُمه آفتقر إلى جاه لا محالة فى قلب خادمه؛ لأنه إن لم يكن له عنده محلٌّ وقدْرٌ يقم بخدمته . وقيام القدر والمحلّ فى القلوب هو الجاه . قال: وإنما يُحتج إلى المحلّ فى القلوب إما لجلْب نفع أو لدفع ضرر أو لخلاص من ظلم . فأمّا النفع فيُغنى عنه المـال؛ فإنّ من يخدُم بأجرة خدم وإن لم يكن عنده للستأجر قدر، وإنما يُحتج إلى الجاه فى قلب من يخدم

(١) الزيادة عن الإحياء .

بغير أُجرة . وأما دفع الضرر فيُحتاج لأجله إلى الجاه فى بلد لا يكمُلُ فيه العدل أو يكون بين جيران يظلمونه فلا يقدِر على دفع شرِّهم إلا بمحلٍّ له فى قلوبهم أو محلّ له عنـد السلطان . وقدر الجاه فيه لا ينضبط . والخائض فى طلب الجاه سالك طريق الهلاك . بل حق الزاهد ألّا يسعى لطلب المحل فى القلوب أصلا ؛ فإن آشتغاله بالدين والعبادة يمهّد له من المحلّ فى القلوب ما يدفع به عنه الأذى ولو كان بين الكفّار فكيف بين المسلميـــن .

وأمّا التوهُّمات والتقديرات التى تُحْوِج(١) إلى زيادة فى الجاه على الحاصل بغير كسب فهى أوهام كاذبة ؛ إذ مَن طلب الجاه لم يخلُ عن أذى فى بعض الأحوال ؛ فعِلاج ذلك بالآحتمال والصبر أولى من علاجه بطلب الجاه . فإذاً طلبُ المحلّ فى القلوب لا رخصة فيه أصلا ، واليسير منه داعٍ إلى الكثير ، وضراوتُه أشدّ من ضراوة الخمر ، فليُحترز من قليله وكثيره .

***

وأمّا المـــال ، فهو ضرورىّ فى المعيشة أعنى القليل منه . فإن كان كسوبا ، فإذا اكتسب حاجة يومه فينبغى أن يترك الكسب ، هذا شرط الزهد ؛ وإن جاوز ذلك إلى ما يكفيه أكثر من سنة فقد خرج عن حدّ ضعفاء الزهّاد وأقويائهم جميعا . وإن كانت له ضيعة ولم تكن له قوة يقين فى التوكّل فأمسك منها مقدار ما يكفى ريعه لسنةٍ واحدة فلا يخرج بهذا القدر عن الزهد بشرط أن يتصدّق بكلّ ما يفضُل عن كفاية سنة ؛ ولكن يكون من ضعفاء الزهّاد .

قال : وأمر المنفرد فى جميع ذلك أخف من أمر المُعْيِل . وقد قال أبو سليمان : لا ينبغى أن يُرهق الرجل أهلَه إلى الزهد بل يدعوهم إليه ؛ فإن أجابوا وإلّا تركهم

(١) كذا فى الإحياء . وفى الأصل : «تخرج ...» .

وفعل بنفسه ما شاء . قال : والذى يُضطرّ الإنسان إليه من الجاه والمال ليس بمحدود؛ فالزائد منه على الحاجة سمٌّ قاتل، والاقتصار على قدْر الضرورة دواءٌ نافع، وما بينهما درجات متشابهة، فما يقرب من الزيادة وإن لم يكن سمًّا قاتلا فهو مضرّ، وما يقرب من الضرورة فهو وإن لم يكن دواءً نافعا لكنّه قليل الضرر . والسمّ محظور شُربه، والدواء فَرْض تناوله، وما بينهما مشتبه أمره . فمن آحتاط فإنما يحتاط لنفسه، ومن تساهل فإنما يتساهل على نفسه، ومن آستبرأ لدينه وترك ما يَرِيبه إلى ما لا يريبه وردّ نفسه إلى مَضيق الضرورة فهو الآخذ بالحزم وهو من الفرقة الناجية لا محالة . والمقتصر على [قدر](١) الضرورة والمهمّ لا يجوز أن يُنْسَب إلى الدنيا، بل ذلك القدر من الدنيا هو عين الدين لأنه شرطُ الدين، والشرط من جملة المشروط .

وقد رُوى أن إبراهيم الخليل عليه السلام أصابته حاجةٌ فذهب إلى صديقٍ له يستقرضه شيئا فلم يُقرضه فرجع مهموما . فأوحى الله تعالى إليه : لو سألتَ خليلك لأعطاك . فقال : يا ربّ، عرفتُ مَقْتك للدنيا فخفت أن أسألك منها شيئا . فأوحى الله إليه : ليس الحاجة من الدنيا . فعلى هذا يكون قدر الحاجة من الدين وما وراء ذلك وبالٌ فى الآخرة، وهو أيضا فى الدنيا كذلك، يعرفه من يَخْبُرُ أحوال الأغنياء وما عليهم من المِحْنة فى كسب المال وجَمْعه وحفظه وآحتمال الذُّلّ فيه، وغايةُ سعادته به أن يسلَم لورثته فيأكلوه، وربما يكونون أعداءً له، وقد يستعينون به على المعاصى فيكون هو مُعينا لهم عليها . ولذلك شُبِّه جامع الدنيا ومتّبع الشهوات بدود القزّ إذ لا يزال ينسِج على نفسه حيًّا(٢) ثم يروم الخروج فلا يجد مَخْلَصاً فيموت ويهلك بسبب عمله الذى عمِله بنفسه؛ فكذلك كلّ من آتبع شهوات الدنيا . قال الشاعر :

(١) الزيادة عن الإحياء . (٢) كذا فى الإحياء . وفى الأصل : «ينسج على نفسه حتى يقتلها ثم يروم» .

(١٣٠) كَدُودٌ كدودِ القَزِّ ينسِجُ دائما * ويَهْلِك غَمًّا وَسْطَ ما هو نَاسِجُهْ

قال : ولما انكشف لأولياء الله تعالى أنّ العبد مُهْلِكٌ نفسه بأعماله واتّباعه هوى نفسه إهلاكَ دود القزّ نفسَه رفضوا الدنيا بالكلّيّة، حتى قال الحسن : رأيت سبعين بَدْرِيًّا كانوا فيما أحلّ الله لهم أزهد منكم فيما حرّم الله عليكم . وفى لفظ آخر : كانوا بالبلاء أشدّ فرحا منكم بالخِصْب والرخاء، لو رأيتموهم قلتم : مجانين، ولو رأوا خِيارَكم قالوا : ما لهؤلاء من خَلَاق، ولو رأوا شِرارَكم قالوا : ما يُؤْمن هؤلاء بيوم الحساب . وكان أحدهم يعرض له المالُ الحلال فلا يأخذه ويقول : أخاف أن يُفسِد علىّ قلبى . فمن كان له قلب فهو لا محالة يخاف من فساده، والذين أمات حُبّ الدنيا قلوبهم فقد أخبر الله عنهم فقال : ﴿ وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴾، وقال تعالى : ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾، وقال تعالى : ﴿ فَأَعْرِضْ عَمَّنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ﴾، فأحال ذلك كلّه على الغفلة وعدم الفكر . وقال بعضهم : ما من يوم ذَرّ شارقُه إلا وأربعة أملاكٍ يُنادون فى الآفاق بأربعة أصوات : ملكان بالمشرق وملكان بالمغرب يقول أحدهم بالمشرق : يا باغى الخير هلمّ، ويا باغى الشرّ أَقْصِرْ . ويقول الآخر : اللّهمّ أَعْطِ مُنفقا خَلَفا، وأَعط مُمسكا تلفا . ويقول اللذان بالمغرب أحدهما : لِدُوا للموت وٱبنوا للخراب، ويقول الآخر : كُلُوا وتمتّعوا لطول الحساب .

ذكر بيان علامات الزهد

قال الغزالىّ رحمه الله تعالى . اعلم أنه قد يُظَنّ أنّ تارك المال زاهد، وليس كذلك؛ فإن ترك المال وإظهار الخشونة سهل على من أحب المدح بالزهد . فكم

من الرَّهَابين(١) من ردّوا أنفسهم كل يوم الى نَزْرٍ يسير من الطعام ولازموا ديْراً لا باب له ، وإنما مسرّة أحدهم معرفةُ الناس حالَه ونظرُهم إليه ومدحُهم له ؛ فذلك لا يدلّ على الزهد دلالةً قاطعة ؛ بل لا بدّ من الزهد فى المال والجاه جميعا حتى يكمُلَ الزهد فى جميع حظوظ النفس من الدنيا ؛ بل قد يدّعى جماعةٌ(٢) الزهد مع لُبس الأصواف الفاخرة والثياب الرفيعة كما قال الخوّاص فى وصف المدّعين إذ قال : وقوم ادّعَوُا الزهد ولبسوا الفاخر من الثياب يُموِّهون بذلك على الناس ليُهْدَى إليهم مثل لباسهم لئلا يُنْظَرَ إليهم بالعين التى يُنْظَرُ بها الى الفقراء فيُحقروا فيُعْطَوْا كما يُعْطَى المساكين ويحتجّون لأنفسهم باتّباع العلم وأنّهم على السنّة وأنّ الأشياء داخلةٌ إليهم وهم خارجون منها ، وإنما يأخذون [ما يأخذون](٣) بعلّة غيرهم ؛ هذا إذا طُولبوا بالحقائق وأُلجئوا إلى المضايق . وكلّ هؤلاء أَكَلَة الدنيا بالدين لم يُعْنَوْا بتصفية أسرارهم ولا بتهذيب أخلاق نفوسهم ، فظهرت عليهم صفاتهم فغلبتهم فادّعَوْها حالًا لهم ، فهم مائلون إلى الدنيا متّبعون للهوى . هذا كلام الخوّاص .

قال الغزالى رحمه الله : فإذًا معرفة الزهد أمرٌ مُشكل ، [بل حال الزهد على الزاهد مشكل](٢) ؛ فينبغى أن يعوّل فى باطنه على ثلاث علامات :

العلامة الأولى : ألّا يفرح بموجود ، ولا يحزن على مفقود ، كما قال الله تعالى : ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ ، بل ينبغى أن يكون بالضدّ من ذلك وهو أن يحزن لوجود المال ويفرح لفقده .

العلامة الثانية : أن يستوى عنده ذامّه ومادحه ؛ فالأولى علامة الزهد فى المال ، والثانية علامة الزهد فى الجاه .

(١) الرهابين : جمع رهبان وهو الكثير الخوف . (٢) كذا فى الإحياء . وفى الأصل : « حتى يكمل الزهد بل فى جميع ... الخ » . (٣) زيادة من الإحياء .

العلامة الثالثة: أن يكون أُنسه بالله عز وجل، والغالب على قلبه حلاوة الطاعة، إذ لا يخلو القلب من حلاوة المحبّة، إما محبّة الدنيا وإما محبّة الله، وهما فى القلب كالمـاء والهواء فى القَدَح؛ فالمـاء إذا دخل خرج الهواء ولا يجتمعان؛ وكلّ من أَنِس بالله اشتغل به ولم يشتغل بغيره. وقد قال أهل المعرفة: إذا تعلّق الإيمـان بظاهر القلب أحبّ الدنيا والآخرة جميعًا وعمِل لهما، وإذا بَطَن الإيمان فى سويداء القلب وباشره أبغض الدنيا ولم ينظر إليها ولم يعمل لها. وقـد ورد فى دعاء آدم عيه السلام: اللّهمّ إنّى أسألك إيمـانًا يُباشر قلبى. وقال أبو سليمان: من شُغِل بنفسه شُغِل عن الناس، وهذا مقام العاملين. ومن شُغِل بربّه شُغِل عن نفسه، وهذا مقام العارفين. والزاهد لا بدّ أن يكون فى أحد هٰذين المقامين.

[illegible]بالجملة فعلامة الزهد آستواء الفقر والغنى والعزّ والذُّلّ والمدح والذمّ، وذلك لغلبة الأُنس بالله. ويتفرّع عن هذه العلامات علاماتَ أُخَر مثل أن يترك الدنيا ولا يبالى [illegible] منها. وقيل: علامته أن يترك الدنيا كما هى فلا يقول: أَبنى رباطًا أو أُعمِّر [illegible]. وهذا من كلام الأستاذ أبى علىّ الدقّاق. وقال آبن خفيف: علامته [illegible] الراحة فى الخروج من الملك. وقال الجُنَيد: علامته خلوّ القلب عمّا خلت [illegible]. وعن أحمد بن حنبل وسُفيان: علامة الزهد قِصَر الأمل. وقال رجل [illegible] بن معاذ: متى أدخل حانوت التوكّل وألبَس بُرد الزهد وأقعد مع الزاهدين؟ [illegible] صرتَ من رياضتك لنفسك فى السرّ إلى حدّ لو قطع الله عنك الرزق [illegible] أيام لم تضعف فى نفسك؛ فأمّا ما لم تبلُغ هـذه الدرجة فجلوسك على بسـاط [illegible] جهل ثم لا آمن عليك أن تفتضح. قالوا: ولا يتمّ الزهـدُ إلا بالتوكّل؛ [illegible] ترقّى.

ذكر ما ورد فى التوكل من فضيلته وحقيقته

أمّا فضيلته فقد قال الله تعالى : ﴿وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، وقال الله تعالى : ﴿وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾. وقال تعالى : ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ . وقال تعالى : ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ ؛ وناهيك بذلك مقاما . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أُرِيتُ الأمم فى الموسم فرأيت أمّتى قد ملئوا السهل والجبل فأعجبتنى كثرتهم وهيئتهم فقيل لى أَرَضيت قلت نعم قال ومع هؤلاء سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب قيل من هم يا رسول الله قال هم الذين لا يكتوُون ولا يتطيّرون ولا يَسْتَرْقُون وعلى ربّهم يتوكّلون" . وقال صلى الله عليه وسلم : "من انقطع إلى الله عز وجلّ كفاه الله تعالى مئونة رزقه(1) من حيث لا يحتسب ومن انقطع الى الدنيا وكله الله اليها" .

***

وأمّا حقيقة التوكل فقد قال الغزالىّ رحمه الله : التوكّل مشتقّ من الوَكالة يقال : وَكَل أمرَه إلى فلان أى فوّضه إليه واعتمد عليه [فيه](2). ويسمّى الموكول إليه(3) وكيلا، ويسمّى المفوض اليه مُتّكلا عليه ومُتَوَكَّلا عليه مهما اطمأنت(4) إليه نفسه ووثق به ولم يتّهمه فيه [بتقصيره ولم يعتقد فيه عجزًا ولا قصورا](5). ثم قال بعد أن ضرب لذلك أمثلة يطول شرحها : وٱعلم أن حالة التوكّل فى القوّة والضعف ثلاث درجات :

الأولى : أن يكون حاله فى حقّ الله تعالى والثقة بكفالته وعنايته كحاله فى الثقة بالوكيل .

---

(1) فى الإحياء (ج ٤ ص ٢٤٢) : «كفاه الله كل مئونة ورزقه ...» .

(2) الزيادة عن الإحياء . (3) كذا فى الإحياء . وفى الأصل : «المتوكل به ...» .

(4) كذا فى الأصل والإحياء . ولعلها : «ما اطمأنت ...» . (5) زيادة عن الإحياء .

الثانية وهى أقوى : أن يكون حاله مع الله تعالى كحال الطفل فى حق أمّه فإنه لا يعرف غيرها ولا يفزع إلى سـواها ولا يعتمد(١) إلا إياها ؛ فإن رآها تعلّق فى كلّ حال بها ، وإن نابه أمرٌ فى غيبتها كان أوّل سابق إلى لسانه : يا أمّاه، وأوّل خاطر يخطر على قلبه أمه لوثوقه بكفالتها وكفايتها وشفقتها .

الثالثة وهى أعلاها : أن يكون بين يدى الله تعالى فى حركاته وسكناته مثل الميّت بين يدى الغاسل يقلّبه كيف أراد لا يكون له حركة ولا تدبير . قال : وهذا المقام فى التوكل يُثمر ترك الدعاء والسؤال منه ثقةً بكرمه وعنايته، وأنه يُعطى ٱبتداء أفضلَ ممـا يُسأل . وقد تكلّم المشايخ فى التوكّل وبيان حدّه وٱختلفت عباراتهم وتكلّم كلّ واحد عن مقام نفسه وأخبر عن حدّه .

قال أبو موسى الدّيلى : قلت لأبى يزيد : ما التوكل؟ فقال : ما تقول أنت؟ قلت : إن أصحابنـا يقولون : لو أن السباع والأفاعى عن يمينك ويسارك ما تحرّك لذلك سرّك . فقال أبو يزيد : نعم هـذا قريب، ولكن لو أن أهل الجنة فى الجنّة يتنعّمون ، وأهل النار فى النار يُعَـذبون، ثم وقع بك تمييزٌ عليهما خرجت من جملة التوكّل . وسُئل أبو عبـد الله القرشىّ عن التوكّل فقال : التعلّق بالله تعالى فى كلّ حال . فقال السائل : زِدْنى، فقال : ترك كلّ سبب يُوَصّل إلى سبب حتى يكون [الحق](٢) هو المتولّى لذلك . وهذا مثل توكّل إبراهيم الخليل عليه السـلام إذ قال له (١٣٢) جبريل : ألك حاجةٌ؟ فقال : أمّا إليك فلا، إذ كان سؤاله يُفضى الى سبب فترك ذلك ثقةً بأن الله يتولّى ذلك .

---

(١) كذا فى الإحياء . وفى الأصل : «يعتم» .

(٢) زيادة عن الإحياء .

قال أبو سعيد الخزاز : التوكّل آضطراب بلا سكون، وسكونٌ بلا اضطراب. أشار بالأوّل إلى فزعه إلى الله تعالى وآبتهاله وتضرّعه بين يديه كآضطراب الطفل بيديه إلى أمّه ؛ وبالثانى إلى سكون القلب إلى الوكيل وثقته به[1] . وقال أبو علىّ الدقّاق : التوكّل على ثلاث درجات : التوكّل ثم التسليم ثم التفويض، فالمتوكّل يسكن إلى وعده، وصاحب التسليم يكتفى بعلمه، وصاحب التفويض يرضَى بحكمه. وقال : التوكّل بداية، والتسليم وسائط ، والتفويض نهاية . وقال : التوكّل صفة المؤمنين، والتسليم صفة الأولياء، والتفويض صفة الموحّدين .

وسئل آبن عطاء عن حقيقة التوكّل فقال: ألّا يظهر فيك آنزعاج إلى الأسباب مع شدّة فاقتك إليها، ولا تزولَ عن حقيقة السكون إلى الحقّ مع وقوفك عليها . وقال أبو نصر السرّاج : شرط التوكّل ما قاله أبو تُراب النّخْشَبِىّ وهو طرح البدن فى العبودية وتعلّق القلب بالربوبيّة والطّمأنينة إلى الكفاية، فإن أُعطِى شكر[2]، وإن مُنِع صبرَ . وكما قال ذو النّون : التوكّل تركُ تدبير النفس والآنخلاعُ من الحول والقوة . وقال أبو بكر الدقّاق : التوكّل ردّ العيش إلى يوم واحد وإسقاطُ همّ غد .

وسئل ذو النون : ما التوكّل ؟ فقال: خلع الأرباب، وقطع الأسباب . فقال السائل : زدنى؛ فقال : إلقاءُ النفس فى العُبودية وإخراجُها من الرُّبوبيّة . وقال مَسْروق: التوكّل الآستسلام لجَرَيان[3] القضاء والأحكام . وقال أبو عثمان : التوكّل الآكتفاء بالله مع الآعتماد عليه . وقيل : التوكل الثقة بما فى يد الله واليأس مما فى يد الناس . وقيل : التوكّل فراغ السرّ عن التفكّر فى التقاضى فى طلب الرزق .

---

(١) كذا فى الإحياء . وفى الأصل : «وبالثانى ى سكون لقلب الى توكل وثقة به» .

(٢) فى الأصلين: «سكن» والسياق يقتضى ما أثبته . (٣) فى الأصل : «بجريان» بالباء ولم نجد هذا الفعل يتعدى بالباء

ذكر بيـــان أعمـــال المتوكلين

قال الغزالىّ رحمه الله : قد يُظَنّ أن معنى التوكُّل تركُ الكسب [بالبدن][1] وترك التدبير بالقلب، والسقوطُ على الأرض كالخِرْقة المُلقاة وكاللحم على الوَضَم؛ وهذا ظنّ الجهّال، فإنّ ذلك حرامٌ فى الشرع؛ والشرع قد أثنى على المتوكّلين فكيف يُنال مقامٌ من مقامات الدِّين بمحظورات الدِّين! بل إنما يظهر تأثير التوكّل فى حركة العبد وسعيه بعمله[2] إلى مقاصده . وسعيُ العبد باختياره إمّا أن يكون لأجل جلب نافع هو مفقود عنده كالكسب، أو لحفظ نافع هو موجود عنده كالآدّخار، أو لدفع ضارّ لم ينزل به كدفع الصائل والسارق والسباع، أو لإزالة ضارّ قد نزل به كالتداوى من المرض . فمقصود حركات العبد لا يعدو هذه الحالات الأربع التى هى جلبُ النافع أو حفظه أو دفعُ الضارّ أو قطعه . ثم ذكر شرط التوكّل ودرجاته فى كل واحد منها، وقرن ذلك بشواهد الشرع، فقال ما مختصره ومعناه :

*
* *

امّا جلب النافع، فالأسباب التى بها يجلب النافع على ثلاث درجات : مقطوع به، ومظنون ظنًّا يوثق به، وموهوم وهمًا لا تثق النفس به ثقةً تامّة ولا تطمئنّ إليه.

فالدرجة الأولى : المقطوع به كالطعام إذا وُضع بين يدى الرجل وهو جائع محتاج إلى تناوله فامتنع من مدّ يده إليـــه وقال : أنا متوكّل، وشرط التوكل ترك السعى، ومدُّ اليد إليه سعىٌ وحركة، وكذلك مضغه بالأسنان وآبتلاعه بإطباق أعالى الحنك على أسفله؛ فهذا جنون وليس من التوكّل فى شىء، فإنه إن آنتظر أنّ الله تعالى يخلق فيه شِبَعًا دون الخبز أو يسخّر مَلَكا يمضغه ويُوصله الى معدته فهذا رجلٌ جهل سنّة الله

(١) الزيادة عن الإحياء (ج ٤ ص ٢٥٣ طبعة بلاق) . (٢) كذا فى الإحياء . وفى الأصل : «معبود عنه» .

تعالى؛ وكذلك لو لم يزرع الأرض وطمع أنّ الله تعالى يخلق نباتاً من غير بَذْر أو تلد زوجه من غير مباضعةٍ كَرْيم، فكلّ ذلك جنون ؛ بل يجب عليه أن يعلم أن الله تعالى خالق الطعام واليد والأسنان وقوة الحركة، وأنّه الذى يُطعمه ويَسقيه ، وأن يكون قلبه وآعتماده على فضل الله تعالى لا على اليد والطعام ، فليمدّ يده ويأكل فإنه متوكل .

(١٣٣) والدرجة الثانية : الأسباب التى ليست متعيّنة، ولكن الغالب أن المسبّبات لاتحصل دونها إحتمالُ حصولها دونها بعيدٌ كالذى يفارق الأمصار والقوافل ويسافر فى البوادى التى لا يطرُقها الناس إلا نادرا ويكون سفره من غير آستصحاب زاد ، فهذا ليس شرطا فى التوكّل، بل آستصحاب الزاد فى البوادى سنّة الأوّلين مع الآعتماد على فضل الله عز وجل لا على الزاد؛ ولكن فعل ذلك جائز، وهو من أعلى مقامات التوكل وهو فعل الخواصّ . قال الغزالىّ : فإن قلت : فهذا سعىٌ فى الهلاك وإلقاء النفس إلى التَّهْلُكة ، فآعلم أن ذلك يخرج عن كونه حراما بشرطين : أحدهما أن يكون الرجل قد راض نفسَه وجاهدها حتى صبرَت عن الطعام أسبوعا أو ما يقاربه بحيث إنه لا يناله ضيق قلب ولا تشويش خاطر . والثانى أن يكون بحيث يقوى على التقوُّت بالحشيش وما يتّفق من الأشياء الخسيسة ، فإنه لا يخلو غالبَ الأمر فى البوادى فى كلّ أسبوع أن يلقاه آدمى أو ينتهى إلى مَحَلّة أو قرية أو الى حشيش يتقوّت به ؛ وعلى هذا كان يُعوّل الخَوّاص ونظراؤه من المتوكّلين . وقد كان الخواص مع توكّله لا تفارقه الإبرة والمِقْراض والحبل والركوة ، ويقول : هذا لا ينقض من التوكّل .

فأما لو آنحاز الى شِعب من شِعاب الجبال حيث لا ماء ولا حشيش ولا يطرُقه فيه الناس متوكّلا فهو آثم به ساع فى إهلاك نفسه .

وأمّا القاعد فى البلد بغير كسب فليس ذلك حراما، لأنه لا يبعد أن يأتيه الرزق من حيث لا يحتسب ولكن قد يتأخّر عنه . فإن أغلق بابَ البيت على نفسه بحيث لا طريق لأحد إليـه ففعلُه ذلك حرام . فإن فتح باب البيت وهو بطّال غير مشغول بعبادة فالكسب والخروج له أولى ، ولكن ليس فعله حراما إلّا أن يُشرف على الموت، فعند ذلك يلزمه الخروج والسؤال والكسب . و إن كان مشغول القلب بالله غير متطلّع إلى الناس ولا إلى من يدخل من الباب فيأتيه برزق، بل تطلّعه إلى فضل الله تعالى وآشتغاله بالله فهو أفضل وهو من مقامات التوكّل، فإن الرزق يأتيه لا محالة . فلو هرب العبد من رزقه لطلبه كما لو هرب من الموت لأدركه .

قال ابن عبـاس رضى الله عنهما : اختلف النـاس فى كلّ شىء إلا فى الرزق والأجل [فإنهم](١) أجمعوا أن لا رازق ولا مُميت إلا الله تعالى . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لو توكّلتم على الله تعالى حقّ تَوكُّله لرزقكم(٢) كما يرزقُ الطيرَ تغدو خماصًا وتروح بِطانا ولزالت بدعائكم الجبال" . وقال عيسى عليه السلام : أُنظروا إلى الطير لا تزرَع ولا تحصُد ولا تدّخر والله تعالى يرزقها يوماً بيوم، فإن قلتم نحن أكبر بطونا، فانظروا إلى الأنعام كيف قيّض الله تعالى لها هذا الخلق [للرزق](١) . وقال أبو يعقوب السوسى : المتوكّلون تجرى أرزاقُهم على أيدى العباد بلا تعبٍ منهم وغيرهُم مشغولون مكدودون . وقال بعضهم : العبيد كلّهم فى رزق الله تعـالى ، لكن بعضهم يأكل بذلّ كالسّؤال، و بعضهم يأكل بتعب كالتجّار، و بعضهم بامتهانٍ كالصنّاع، و بعضهم بعزٍّ كالصوفيّة، يشهدون العزيز فيأخذون رزقهم من يده ولا يرون الواسطة .

والدرجة الثالثة : ملابسة الأسباب التى يُتوهّم إفضاؤها إلى المسبّبات من غير ثقة ظاهرة، كالذى يستقصى فى التدبيرات الدقيقة فى تفصيل الاكتساب ووجوهه،

(١) زيادة عن الإحياء . (٢) كذا فى الإحياء . وفى الأصلين : «لرزقتم ... ...» .

وذلك يُخرج بالكلّية عن درجات التوكّل كلّها، وهو الذى الناسُ كلّهم فيه من التكسّب بالحيل الدقيقة اكتساباً مباحا لمـالٍ مباح . هذا ملخص ما أورده رحمه الله تعالى فى جلب النافع، وذكر لذلك أمثلة ونظائر تركناها اختصارا .

***

وأمّا حفظ النافع فهو التعرض لأسباب الادّخار، فمن حصـل له مال بإرثٍ أو كسب أو سؤال أو سبب من الأسباب فله فى الادّخار ثلاث أحوال :

الأولى : أن يأخذ قدر حاجته فى الوقت فيأكلَ إن كان جائعا، ويلبس إن كان عاريا، ويشترى مسكنا مختصرا إن كان محتاجا، ويُفرّق البـاقى فى الحال ولا يدّخر منه إلا ما أرصده لمحتاج؛ فهذا هو المُوفى بموجب التوكّل تحقيقًا، وهى الدرجة العليا .

الحالة الثـانية المقابِلةُ لهـذه المُخرجة له عن حدود التوكّل : أن يدّخر لسنة فمـا فوقها، فهذا ليس من المتوكّلين أصلا .

الحالة الثـالثة : أن يدّخر لأربعين يوما فما دونها، فهذا يُوجب حرمانَه من المقام المحمود الموعود فى الآخرة للتوكّلين . وقال الخَوّاص : لا يخرج بأربعين يومًا ويخرج بمـا زاد عليها .

***

وأمّا دفع الضارّ عن النفس والمـال فقد قال الغزالىّ رحمه الله : ليس من شرط التوكل ترك الأسـباب الدافعـة للضرر . أمّا فى النفس فكالنوم فى الأرض المَسْبعة أو فى مجارى السيل من الوادى أو تحت الجدار المـائل أو السقف المتكسّر، فإنّ ذلك مَنهىّ عنه وصاحبُه قد عرّض نفسه إلى الهلاك بغير فائدة . وأمّا فى المـال فلا يَنقص التوكّلَ إغلاق باب البيت عند الخروج منه ولا أن يُعقَل البعيرُ . فهـذه أسباب عُرفت بسنّة الله تعـالى ، فقد رُوى عن أنَس بن مالك رضى الله عنه أنه

قال : جاء رجل على ناقة فقال : يا رسول الله ، أدَعُها وأتوكل؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اِعقِلْها وتوكّل " .

* * *

وأمّا إزالة الضرر فقد قال الغزالى رحمه الله تعالى : إن الأسباب المزيلة للضرر تنقسم إلى مقطوع به كالماء المزيل لضرر العطش والخبز المزيل لضرر الجوع ، وإلى مظنون كالفَصْد والحِجامة وشرب الدواء وسائر أبواب الطبّ ، وإلى موهوم كالكيّ والرُّقْية .

أمّا المقطوع به فليس من التوكّل تركه بل تركه حرامٌ عند خوف الموت .

وأمّا الموهوم ، فشرط التوكل تركه ، إذ بتركه وَصف رسولُ الله صلى الله عليه وسلم المتوكّلين . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لم يتوكّل من آستَرْقَى وآكتوى" .

وقال سعيد بن جُبَير : لدغتنى عقربٌ فأقسمتْ علىّ أُمّى لَتَسْتَرْقِيَنّ ، فناولتُ الراقى يدى التى لم تلدغ .

وأمّا الدرجة الوسطى وهى المظنونة كالمداواة بالأسباب الظاهرة عند الأطبّاء ففعلُ ذلك لا يناقض التوكّل بخلاف الموهوم ، وتركُه ليس بمحظور بخلاف المقطوع به . وقد تداوى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وأمر بالتداوى وقال : "ما من داءٍ إلا وله دواءٌ عَرَفه من عرفه وجهِله من جهله إلّا السامَ" يعنى الموت ، وتضافرت الأحاديث بالأمر بالدواء .

ومنهم من رأى أن ترك التداوى قد يُحمد فى بعض الأحيان إذا اقترن به أحد أسباب ستة :

الأوّل : أن يكون المريض من المكاشَفين وقد كُوشف بأنه آنتهى أجله وأن الدواء لا ينفعه . وتحقّق ذلك إما برُؤْيا صادقة أو بحَدْس وظنّ أو بكشف محقّق

كحال أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه لمّا قيل له فى مرض موته: لو دعَوْنا لك طبيبا! فقال: الطبيب نظر إلىّ وقال إنّى فعّال لما أُريد . وكان رضى الله عنه من المكاشَفين؛ والدليل على ذلك أنّه قال لعائشة رضى الله عنها فى أمر الميراث: إنما هنّ أُختاك ؛ وما كان لها إلا أُختٌ واحدة وكانت آمرأته حاملا فولدت أنثى ؛ فلا يبعد أن يكون كوشف بانتهاء أجله ؛ ومحال أن يُنكر التداوى وقد رأى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فَعَله .

الثانى: أن يكون المريض مشغولا بحاله و بخوف عاقبته وآطّلاع الله تعالى عليه، فيُنسيه ذلك ألم المرض فلا يتفرّغ قلبه للتداوى شُغلًا بحاله، كحال أبى ذرّ لمّا رَمِدتْ عيناه، فقيل له: لو داويتَهما! فقال: إنّى عنهما مشغول. فقيل له: لو سألت الله أن يعافيك! فقال: أسأل فيما هو أهمّ علىّ منهما . وكحال أبى الدرداء فإنه قيل له فى مرضه: ما تشتكى؟ قال: ذنوبى. قيل: فما تشتهى؟ قال: مغفرة ربى . قالوا: ألَا ندعو لك طبيبا؟ قال: الطبيب أمرضنى . ويكون حال هذا كالمصاب بموت عزيز من أحبابه أو كالخائف من ملك فيشغَله ذلك عن ألم الجوع . (١٣٥)

الثالث: أن تكون العلّة مزمنة والدواء الذى يؤمر به بالإضافة إلى علّته موهوم كالكىّ والرقية، فترَكه للتوكّل كالربيع بن خُثَيْم فإنه أصابه فالج، فقيل له: لو تداويت! فقال: لقد هَمَمت ثم ذكرت عادًا وثمود وقرونًا بين ذلك كثيرا وكان فيهم الأطبّاء فهلَك المُداوِى والمداوَى ولم تُغنِ الرُّقَى شيئا . أى إن الدواء غير موثوق به .

الرابع: أن يقصد العبد ترك التداوى استيفاءً للرض لينال ثواب المرض بحسن الصبر على بلاء الله تعالى وليجرِّب نفسه فى القدرة على الصبر .

الخامس: أن يكون لعبد قد سبق له ذنوبٌ وهو خائفٌ منها عاجزٌ عن تكفيرها فيرى المرضَ إذا طال تكفيرا ، وتَرْك التداوى خوفا من أن يُسرع زوالُ

المرض ورغب فى مضاعفة الأجر . فقد ورد عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: "حُمّى يوم كفّارة سنة" .

السادس: أن يستشعر العبد فى نفسه مبادئ البَطَر والطُّغيان بطول مدّة الصحّة، فيترك التداوى خوفاً من أن يُعاجله زوال المرض فتعاودَه الغفلةَ والبطر والطغيان أو طولُ الأمل والتسويفُ فى تدارك الفائت وتأخيرِ الخيرات ؛ فإن الصحة تُحرّك الهـوى وتبعث على الشهوات وتدعو إلى المعاصى، وأقلّها أنْ تدعو إلى التنعّم فى المباحات وهو تضييع الأوقات و إهمال الربح العظيم فى مخالفــة النفس وملازمة الطاعات . و إذا أراد الله بعبدٍ خيراً لم يُخلِه عن التنبيه بالأمراض والمصائب؛ ولذلك قيل : لا يخلو المؤمنون من عِلّة أو قِلّة أو ذِلّة . قال : فلما أن كثُرت فوائد المرض رأى جماعة تركَ الحيلة فى زوالهـا، إذ رأَوْا لأنفسهم مَزِيداً فيها لا من حيث رأوا التداوى نُقصانا، وكيف يكون ذلك نقصانا وقد فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ! .

فهذه نُبذة كافية فى مقامى الزهد والتوكل . فلنذكر الأدعية .

البـاب الرابع
من القسم الرابع من الفن الثـانى
فى الأدعيـــة

وهذا الباب — يقبل الله منا ومنك وفينا وفيك صالح الدعوات، وجعلنا و إيّاك ممن آعتمد على كرمه ومنّته فى الحركات والسكنات؛ و وفّقنا للتضرع والسكون إلى فضله، وعاملنا بما هو من أهله لا ما نحن من أهله — هو مَشْرَع الظمآن إلى موارد الكرم العذبة، ومَفْزَع الحـيران إذا ألمّتْ به الضائقة وحصرته الكُربة؛ فبه يُتَوسّل الى الله تعالى فى مطالب الدنيا والآخرة، ويُتَوَصّل إلى النعم الوافية والخيرات الوافرة؛ كيف لا وقد

أمرنا الرب العظيم بالدعاء والإنابة ، ووعدنا وهو الوفىّ الكريم بالقبول والإجابة ؛ وترادفت بفضله الأخبار الصحيحة ، وجاءت بشرفه الآثار الصريحة ؛ على ماستقف على ذلك إن شاء الله تعالى واضحا ، وتعوّل عليه مقيما وظاعنا وغاديا ورائحا . فلازمه فى سائر أحوالك ، وتَعَاهدْه فى بُكَرك وآصالك ؛ فستجنى إن شاء الله منه ثمار غَرْسك ، وتجد حلاوة ذلك فى قلبك وأُنسَه فى نفسك .

وآعلم أن للدعاء ، كما قال آبن عطاء ، أركانا وأجنحة وأسبابا وأوقاتا . قال : فإن وافق أركانَه قوى ، و إن وافق أجنحته طار فى السمٰوات ، و إن وافق مواقيته فاز ، و إن وافق أسبابه أَنْجح . فأركانه حضور القلب والرقة والآستكانة والخشوع وتعلق القلب بالله وقطعه من الأسباب . وأجنحته الصدق . ومواقيته الأسحار . وأسبابه الصلاة على محمد صلى الله عليه وسلم . قال الله عزّ وجل : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ . روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "يقول الله تعالى للعبد يوم القيامة أكنت ترى لبعض دعائك الإجابة ولا ترى لبعضه فيقول نعم فيقول له أمَا إنك مادعوتنى بدعوة إلا وقد استجبتُ لك فيها أليس دعوتنى يوم كذا وكذا فرأيت الإجابة فيقول نعم ويقول ودعوتنى يوم كذا وكذا فلم تر الإجابة فيقول نعم فيقول فإنى آدخرتها لك فى الجنة فلا يُبقى له دعوة إلا بيّنها له حتى يتمنّى المؤمن أن دعواته كلها كانت ذخائره فى الآخرة".

وعن النعمان بن بَشِير رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن الدعاء هو العبادة" قال : وقرأ ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ . وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "ليس شىءٌ أكرم على الله من الدعاء" . وعن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إنّ الدعاء ينفع (١٣٦)

ممـا نزل ومما لم ينزل فعليكم عبادَ الله بالدعاء" . وعن أنس رضى الله عنه قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن الله عز وجل حيٌّ كريم يستحيي إذا بَسَـط الرجلُ إليه يديه أن يردّهمـا صِفرًا ليس فيهما شيء " . وعن أبى سـعيد الخُدْرِىّ رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "دعوة المسلم لا تُرَدُّ إلا بإحدى ثلاث ما لم يدعُ بإثم أو قطيعـةِ رَحِم إمّا أن يسـتجيبَ الله له فيما دعا أو يدّخره له فى الآخرة أو يَصرِف عنه من السوء بقدر ما دعا" . وعن أنس رضى الله عنه قال: قيل يارسول الله : إنا ندعو بدعاء كثيرٍ منه ما نرى إجابتَه ومنه مالا نرى إجابتـه فقال : "والذى نفسى بيده مامن أحدٍ يدعو بدعوة إلا آستُجيب له أو صُرِف عنه مثلُها شرّا ".قالوا : يارسول الله، إذًا نُكثر؟ قال: "الله أكثر وأكثر" ثلاث مرات . وعنه رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم : "دعوة فى السر تَعدِل سبعين دعوةً فى العَلَانِيَة " . وعن أبى سعيد الخُدرىّ رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن لله عز وجل فى الليل والنهار عُتَقاءَ من النار ولكلّ مسلِم ومسلمةٍ فى كلّ يومٍ وليلة دعوة مستجابة " . وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "إن الله تعالى يقول من ذا الذى دعانى فلم أُجِبْه وسألنى فلم أُعْطِه وآستغفرنى فلم أَغْفِر له وأنا أرحم الراحمين" . وعن أنس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إذا فتح الله على عبدٍ بابَ الدعاء فليُكثر فإنّ الله يَستجيب له" . وعن آبن عمر رضى الله عنهما عن النبىّ صلى الله عليـه وسلم أنه قال : "من فُتح له بابٌ فى الدعاء فُتِحت له أبواب الإجابة" . وعن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "من لم يسألِ الله يغضَبْ عليه" . وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنه أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قرأ قوله تعالى : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ الآية فقال صلى الله عليه وسلم : "اللّهم إنّكَ

أُمِرتَ بالدعاء وتوكّلت بالإجابة لبّيك اللهم لبّيك لبّيك لا شريك لك لبيك إنّ الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك أشهد أنّك فردٌ أحد صَمَدٌ لم يَلِد ولم يُولد ولم يكن له كُفُوًا أحد وأشهد أنّ وعدك حق ولقاءك حقّ والجنة حق والنار حق وأن الساعة آتيةٌ لا ريب فيها وأنّك تبعث من فى القبور" . هذا مما ورد فى الحثّ على الدعاء .

* * *

وأمّا ما ورد فى نفع الدعاء ودفعه للبلاء، رُوى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إن أنواع البِرّ كلّها نصفُ العبادة والنصف الآخر الدعاء". وعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا ينفع حَذَرٌ من قَدَر والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل وإن الدعاءَ لَيَلْقَى البلاءَ فيعتلجان إلى يوم القيامة" . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الدعاء ينفع مما نزل ومما لم لا ينزل وإن الدعاء لَيَردّ القضاء المُبْرَم وإن الدعاء والبلاء ليلتقيان بين السماء والأرض فلا يزال أحدُهما يدفع صاحبَه إلى يوم القيامة" . وعن سَلْمان الفارسىّ رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يردّ القضاءَ إلا الدعاءُ ولا يزيد فى العمر إلا البِرّ". وعن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الدعاء سِلاحُ المؤمن وعِمادُ الدّين ونورُ السموات والأرض" .

* * *

وأمّا ما ورد فى الإلحاح فى الدعاء وهيئة الذِّلّة والإنابة، قال الله تعالى : ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾. وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنّ الله يحبّ المُلِحّين فى الدعاء". وعن أبى هريرة

رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أُدعوا اللهَ وأنتم مُوقِنون بالإجابة وآعلموا أن الله عز وجل لا يستجيب دعاءً من قلب ساهٍ لاهٍ" . وعن أنس رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرفع يديه فى الدعاء حتى يُرَى بياضُ إبطيه[1] . وعن آبن عباس رضى الله عنهما قال: كان رسول الله صلى الله عليه (١٣٧)
وسلم إذا دعا جعل باطن كفّيه إلى وجهه . وعنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: "سلوا الله ببطون أكفّكم ولا تسألوه بظهورها فإذا فرغتم فآمسحوا بها وجوهكم" وعن آبن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن ربكم عز وجل حيٌّ كريم يستحي أن يرفع العبد يديه فيردّهما صِفْرا لا خير فيهما فإذا رفع أحدكم يده فليقل يا حىّ لا إله إلا أنت يا أرحم الراحمين ثلاث مرات ثم إذا ردّ يده فليُفرغ ذلك الخير على وجهه" . وعن عمر رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا مدّ يديه فى الدعاء لم يردّهما حتى يمسح بهما وجهه . وعن آبن عبّاس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "الإخلاص هكذا ورفع إصبعا واحدا من اليد اليمنى والدعاء هكذا وجعل بطونهما مما يلى السماء والآبتهال هكذا ومدّ يديه شيئاً وجعل ظهر الكفّ مما يلى السماء" . وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "أقربُ ما يكون العبدُ من ربّه وهو ساجد فأكثِروا الدعاء" .

* * *

وأمّا ماورد من كراهية آستعجال الإجابة ورفع البصر والسجع فى الدعاء

قال تعالى : ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ﴾ . وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "يستجابُ لأحدكم ما لم يعجّل

(١) فى الأصلين هكذا : «بياض» والتصحيح عن الإحياء (ج ١ ص ٢٨٧) .

فيقول قد دعوتُ فلم يُسْتَجَبْ لى" . وعنه صلى الله عليه وسلم: "لا يزال العبد بخير ما لم يستعجل". قالوا : وكيف يستعجل؟ قال: "يقول قد دعوت الله مرارا فلا أراه يستجيب لى" . وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لَيَنْتَهِيَنَّ أقوام عن رفع أبصارهم عند الدعاء فى الصلاة إلى السماء أو لَتُخْطَفَنَّ أبصارُهم" . وعن آبن عبّاس رضى الله عنهما قال : إيّاك والسجْعَ فى الدعاء فإنّى شهِدت النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه لا يفعلون ذلك .

*
* *

وأمّا ما ورد فيمن تجاب دعواتهم . قال الله عزوجل: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ . وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ . وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّه قال : "خمسُ دَعَواتٍ لا تُرَدّ دعوةُ الحاجّ حتّى يصدُر ودعوة الغازى حتى يرجع ودعوة المظلوم حتى ينتصر ودعوة المريض حتى يبرأ ودعوة الأخ لأخيه بالغيب وأسرعُ هؤلاء الدعوات إجابةً دعوةُ الأخ لأخيه بالغيب" . وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : "ثلاثُ دعوات مستجابات لا شكّ فيهنّ دعوةُ الوالد ودعوة المسافر ودعوة المظلوم" . وفى حديث آخر : "دعوة الصائم بدل دعوة الوالد" . وعن آبن عبّاس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمُعاذ حين بعثه إلى اليمن : "إنّك تأتى قوماً أهلَ كتابٍ فآتّق دعوة المظلوم" . وعنه صلى الله وسلم : " الإمام العادل لا تُرَدّ دعوته". وقال صلى الله عليه وسلم: "ثلاثة لا تردّ دعوتهم إمامٌ مُقْسِط ودعوة الصائم ودعوة المظلوم تُفتح لها أبواب السماء ويقول الله عز وجل لأنصرنّك ولو بعد حين". وعنه صلى الله عليه وسلم : "دعاء الوالد لولده مثل دعاء النبى لأمته". وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"أَسرعُ الدعاء إجابةً دعوةُ غائب لغائب". وعن أبي الدرداء، رضي الله عنه، عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: "دعوةُ الرجل لأخيه بظهر الغيب تعدل سبعين دعوةً مستجابةً ويُوكّل الله عز وجل ملَكا يقول آمين ولك مثل ما دعوت". وعن جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما من مؤمن يدعو لأخيه المؤمن بظهر الغيب إلّا قال له ملَك عن يمينه وملَك عن شماله ولك مثله". وعن أبي أُمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "حامل القرآن له (١٣٨)
دعوة مستجابة". وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إذا دخلت على المريض فسَلْه يدعو لك فإن دعاءه كدعاء الملائكة". وعن أنس رضي الله عنه قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من أُلهم الدعاء لم يُحْرَمِ الإجابةَ لأن الله تعالى يقول: ﴿ٱدْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ ومن أُلهم التوبةَ لم يحرم القبولَ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ ومن أُلهم الشكر لم يحرَم الزيادةَ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَلَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ ومن أُلهم الاستغفارَ لم يحرم المغفرةَ لأن الله تعالى يقول: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ ومن أُلهم النفقةَ لم يحرم الخَلَف لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾".

ذكر الأوقات التي تُرجى فيها إجابةُ الدعاء

قال الله عز وجل: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾. وقال تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ينزل الله حين يبقى ثُلثُ الليل إلى السماء الدُّنيا فيقول من يسألني فأُعطيَه ومن يدعوني فأَستجيبَ له ومن يستغفرني فأغفرَ له". وعنه صلى الله عليه وسلم: "تُفتح أبوابُ السماء ويُستجاب دعاءُ المسلم عند إقامة الصلاة وعند

نزول الغيث وعند زَحْف الصفوف فى سبيل الله وعند رُؤية الكعبة" . وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إذا فاءت الأفياء وهبّت الرياح فآرفعوا إلى الله حوائجكم فإنّها ساعة الأوّابين إنه كان للأوّابين غفورا" . وعن أبى أُمامة قال قلت : يا رسول الله، أىّ الدعاء أسمع ؟ قال : "جوفَ الليل وأدبارَ المكتوبات". وعن آبن عمر قال : أفضلُ الساعات مواقيت الصّلاة فآدعوا فيها . وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم: "خيرُ يومٍ طلعت فيه الشمس يوم الجمعة إن فيه لساعةً لا يوافقها عبدٌ يصلّى يسأل الله فيها خيرا إلا أعطاه إيّاه". وقد آختلف فى ابتداء وقت هذه الساعة فقيل : أوّلُ ساعة من طلوع الشمس، وقيل : آخرُ ساعة من غروبها، وقيل : عند جلوس الإمام على المنبر ، وقيل : من الزوال إلى ابتداء الصلاة، وقيل : من بعد العصر إلى الغروب، وقيل: إنها تنتقل فى ساعات اليوم كما تنتقل ليلة القَدْر فى شهر رمضان . رُوى عن أبى بُرْدة بن أبى موسى الأشعرىّ قال : قال لى عبد الله بن عمر رضى الله عنهم : أَسمعتَ أباك يحدّث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شأن ساعة الجمعة؟ قال: نعم، سمعته يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شأن ساعة الجمعة يقول : "هى ما بين أن يجلس الإمام إلى أن تُقضى الصلاةُ" . وعن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى عنها عن أبيها صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إن فى الجمعة لساعةً لا يوافقها مسلم يسأل الله فيها خيرا إلا أعطاه إياه" . فقلت : يا أبت، أىّ ساعة هى؟ قال: "إذا تدلّى نصف الشمس للغروب" . فكانت فاطمة رضى الله عنها إذا كان يوم الجمعة تأمر غلاما لها يقال له زيد يرصُد لها الشمس ، فإذا تدلّى نصف الشمس للغروب أعلمها، فتقوم فتدخل المسجد فتدعو حتى تغرب الشمس وتصلّى .

وحيث ذكرنا هذه المراتب فلنذكر الأدعية المنصوص عليها .

ذكر دعوات ساعات الأيام السبعة ولياليها

قد أورد الشيخ أبو العباس أحمد بن علىّ بن يوسف القرشىّ البُونِى رحمه الله تعالى دعوات الساعات فى اللُّمعة النورانية[1] فبدأ بيوم الأحد وذكر دعاء كل ساعة منه، ثم ذكر يوم الاثنين فقال: ساعة كذا يُدعَى فيها بدعاء ساعة كذا من يوم الأحد، ثم ذكر يوم الثلاثاء فقال : ساعة كذا يدعى فيها بدعاء ساعة كذا من يوم الاثنين وكذلك فى بقيّة ساعات الأيام والليالى، يذكر كلّ ساعة ويُحيل فى دعائها على ساعة من اليوم أو الليلة التى قبلها . فرأيت أن الراغب فى الدعاء يحتاج فى معرفته إلى كشف طويل وتحقيق إلى أن يصل إلى تلك الساعة من يوم الأحد، وربما تعذّر ذلك على كثير من الناس، فرتّبت الأدعيـة على ما ستقف إن شاء الله تعـالى عليه (١٣٩) ليسهُل على المتناول طريقها ويدنو من المحاول تحقيقُها ؛ فقلت وبالله التوفيق :

دعاء يُدْعَى به فى الساعة الأولى من يوم الأحد، وفى الثامنة من ليلة الاثنين، وفى العاشرة من يوم الاثنين ، وفى الخامسة من ليلة الثلاثاء ، وفى السابعة من يوم الثلاثاء، وفى الثانية من ليلة الأربعاء وفى الرابعة من يوم الأربعاء، وفى الحادية عشرة من ليلة الخميس وفى الأولى من يوم الخميس ، والحادية عشرة من ليـلة الجمعة والعاشرة من يوم الجمعة، وفى الثامنة من ليلة السبت وفى السابعة من يوم السبت ، وفى الخامسة من ليلة الأحد، وهو :

"ربّ أغمسنى فى بحر[من][2] نور هيبتك حتى أخرجَ منه وفى وجهى شعاعات هيبة تخطَف أبصار الحاسدين من الجنّ والإنس فتُعميهم عن رمى سهام الحسد فى قرطاس

---

(١) فى الأصلين : "اللحة النورانية" وصحة الاسم ما ذكرناه . وفى دار الكتب المصرية منه نسختان خطيتان تحت رقمى (١٩٩٣ و ٨٥ م تصوف) .

(٢) زيادة عن اللمعة النورانية .

نعمتى، وآحجُبنى عنهم بحجاب النور الذى باطنُه النورُ وظاهرُه النار . أسألك باسمك النور و بوجهك النور يانور النور أن تحجُبنى فى نور آسمك بنور آسمك حجاباً يمنعنى من كلّ نقصٍ يُمازج منّى جوهرًا أو عَرَضا إنّك نُور الكلّ ومنوّر الكل بنورك » .

قال البُونى : تدعو بهذا الدعاء ثمانيا وأربعين مرّة فى هــذه الساعة على وضوء بعد صلاة ركعتين فيما يتعلق بسؤال الهيبة و إقامة الكلمة وقهر العدوّ . ويناسب هذا الدعاء من القرآن قوله تعالى : ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآية، قال : من قرأ هذه الآية هذا العدد المتقدّم فى بيت مظلم وعيناه مغلقتان شاهد أنوارا عجيبة تملأ قلبه، و إن آستدام ذلك تشكّلت له فى عالم الحسّ . وهو ذكر يصلح لأرباب الهمم وأهل الخلوات، وكاتبه وحامله تظهر له زيادات فى قوى نفسه وقهر عدوّه وخَصْمه لم يكن يعهدها من قبل؛ ومن أمكنه أن يداوى به العلل الكائنة فى الرأس خصوصا من البرودة وجد تأثير ذلك لوقته .

دعاء يدعى به فى الساعة الثانيــة من يوم الأحد والتاسعة من ليلة الآثنين وفى الحادية عشرة من يوم الآثنين، وفى السادسة من ليلة الثلاثاء وفى الثامنة من يوم الثلاثاء، وفى الثالثة من ليلة الأربعاء وفى الخامسة من يوم الأربعاء، وفى الثانية عشرة من ليلة الخميس وفى الثانية من يوم الخميس ، وفى الحادية عشرة من يوم الجمعــة ، وفى التاســعة من ليلة السبت وفى الثامنة من يوم السبت، وفى السادسة من ليــلة الأحد وهو :

« ربّ فرّحنى بما ترضى به عنّى فرحًا يُبهجنى بجميل المَسَارّ، حتى لا ينبسط شىء من وجودى إلا بما بسطه جودك العلىّ . ربّ فرّحنى بنيل المراد منك بفناء إرادتى منّى حتى لا يكون فى كَوْنِى إرادةٌ إلا إرادتُك محفوظةً من عوارض التكوين، وأَبهج

بذلك فى سرّ سماء الأفراح فى الوجودَيْن برزق الباطن والظاهر ، إنك باسطُ الرزق والرحمة يا ذا الجودِ الباسطِ يا ذا البسط والجود » .

هذا الذكر من ذكره فى ساعة من هذه الساعات تسعًا وأربعين مرة أذهب الله تعالى عن قلبه الحزن وعن صدره الحَرَج والضّيق، ونفى عنه كل همّ وغمّ، وبه يدعو المسجونون والمأسورون والمحزونون فيفرّج الله تعالى عنهم، وذلك بعد صلاة تسليمتين ، والآياتُ[١] المناسبة لهذا القسم ﴿ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ الآية ، [١] ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ ﴾ الآية . قال البُونى : ويقدّم على ذكر هذه الآيات : [٢] اَللّهُمّ اجعلنى من الفَرِحين بما آتاهم الله من فضله ، يقول ذلك بعد الذكر الأوّل مثل العدد المذكور ، فيرى المهموم من فضل الله تعالى به عجبا ، ويزداد [به][٣] ذو السرور سرورا لا يعرف سببه . ويصلح هذا الذكر لأرباب الفيض من أهل الخَلَوات فإنّهم يَسْتَرْوِحون منه أُنسا فى خَلَواتهم ومخاطبات بألفاظ مختلفة بقدر الفيض (١٤٠) والمقام والسبب، يعرف ذلك من كانت له إحاطةٌ بكشف أسرار الدعوات والأسماء.

دعاء يُدْعَى به فى الساعة الثالثة من يوم الأحد ، والعاشرة من ليلة الاثنين وفى الثانية عشرة من يوم الاثنين، وفى السابعة من ليلة الثلاثاء وفى التاسعة من يوم الثلاثاء، وفى الرابعة من ليلة الأربعاء وفى السادسة من يوم الأربعاء، وفى الأولى من ليلة الخميس وفى الثالثة من يوم الخميس، وفى الأولى من ليلة الجمعة وفى الثانية عشرة من يوم الجمعة، وفى العاشرة من ليلة السبت وفى التاسعة من يوم السبت، وفى السابعة من ليلة الأحد . وهو :

(١) كذا فى اللمعة النورانية . وفى الأصل : «والآية» .

(٢) الذى فى اللمعة النورانية : « يضاف بعد الذكر الأوّل مثل هذا العدد المذكور » .

(٣) زيادة من اللمعة النورانية .

«ربّ قَلِّبني فى أطوار معارف أسمائك تقليبا تُشْهدنى به فى ذَرّات وُجودِى ما أودعته ذرّات(١) وجودِي المُلْكِ والمَلَكُوت حتّى أعاين سَرَيان سرّ قدرِكَ(٢) فى معالم المعلومات، فلا يبقى معلوم إلا و بيدى سِرّدقيقةٍ منه مجذوبةٍ بيد الكمال ونور الطوع؛ وأذهِبْ(٣) ظلمة الإكراه حتى أتصرّف فى المُهَج بمُبهجات المحبّة إنك أنت المحبّ المحبوب يا مقلّب القلوبْ» .

قال : من دعا بهذا الأسم والذكر ستَّ عشرةَ مرة بعد صلاة ثلاث تسليمات قلب الله قلبه عن كل خاطر فيه نقصٌ(٤) إلى كلّ خاطر فيه كمالٌ [فى حقّه](٥)، و يصلح لأرباب الأستخارات، وفيه لسرعة قضاء الحاجات معنى بديع . والآيات(٦) المناسبة له ﴿ قَوْلُهُ الْحَقُّ [وَلَهُ الْمُلْكُ ﴾، وقوله تعالى](٥) : ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ﴾ إلى آخر الآية، وقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ الآية؛ وما يناسب ذلك من القرآن .

وهو ذكر يصلح لأرباب القلوب من تكرار الخواطر والوساوس، وله فى تقلّب الأحوال أمور عجيبة عظيمة لمن فهم ذلك؛ وكذلك من كتب الذكر كله وعلّقه عليه عصمه الله فى تقلّباته من الآفات حتى فى أمور دنياه وآخرته .

---

(١) كذا فى اللعة النورانية . وفى أحد الأصلين : «م أودعته فى دور ت» وفى الأصل الآخر: «ما أودعته من ذوات ...» .

(٢) فى إحدى نسخ اللمة المخطوطة : «سر قدرتك ... » .

(٣) كذا فى اللمة النورانية . وفى الأصلين : «مجذوبة بيد كل يبدو الكمال و نور الطوع أذهب» الخ

(٤) كذا فى اللمة النورانية . وفى الأصلين : « قلب الله قلب كل من خ طره فيه نقص ... » .

(٥) زيادة من اللمة النورانية .

(٦) كذا فى اللمة النورانية : وفى الأصلين : « والآية ... » .

دعاء يدعى به فى الساعة الرابعة من يوم الأحد، وفى الحادية عشرة من ليلة الأثنين وفى الأولى من يوم الأثنين، وفى الثامنة من ليلة الثلاثاء وفى العاشرة من يوم الثلاثاء، وفى الخامسة من ليـلة الأربعاء وفى السابعة من يوم الأربعاء ، وفى الثانية من ليلة الخميس وفى الرابعة من يوم الخميس، وفى الثانية من ليلة الجمعة والأولى من يوم الجمعة، وفى الحادية عشرة من ليلة السبت وفى العاشرة من يوم السبت، وفى الثامنة من ليلة الأحد . وهو :

«ربّ قابلنى بنوراً سمك مقابلة تملأ وجودى ظاهرا و باطنا حتى تمحو منّى حظوظ الأشكال كلها فيبدو لى فى وجودى ومن وجودى سرّ ما كتبه قلم تقديرك من كل مُسـتودَع فى مُسْتَقَرّ ومستقرٍّ فى مستودع فلا يخفى علىّ ما غاب عنّى فأَنْظِرْنى بك وأَنْظِر مَنْ سواى بنور آسمك[1] فأرى الكمال المطلق فى المُلْك المطلق، يا مُودِع الأنوار قلوبَ عباده الأبرار يا سريعُ يا قريبُ» .

قال : من دعا بهذا الدعاء فى ساعة من هذه الساعات ست عشرة مرة ثم قصد أىّ حاجة أراد، أسرع الله تعالى قضاءها ونمّى له ما يملكه من مال أو جاه أو حال أو مقام . ومن خاصّة هذا الذكر وضع البركة فى أىّ شىء وُضع عليه . ويصلح هذا الذكر لطالبى المكاشفات من أرباب الخلَوات فإنهم اذا داوموا هذا الذكر أُلقى اليهم الخاطر الصحيح . قال : وإن أضيف له يا سريعُ يا قريبُ يامُبين ظهر له ما يريد من كشف العواقب فى الأفعال المرتبطة بعالَم الغيب والشهادة .

دعاء يدعى به فى الساعة الخامسة من يوم الأحد، وفى الثانية عشرة من ليلة الأثنين وفى الثانية من يوم الأثنين، وفى التاسعة من ليلة الثلاثاء وفى الحادية عشرة

---

(١) كذا فى اللمعة النورانية . وفى الأصل : «أنيتك» .

من يوم الثلاثاء، وفى السادسة من ليلة الأربعاء وفى الثامنة من يوم الأربعاء، وفى الثالثة من ليلة الخميس وفى الخامسة من يوم الخميس، وفى الثالثة من ليلة الجمعة وفى الثانية من يوم الجمعة، وفى الثانية عشرة من ليلة السبت وفى الحادية عشرة من يوم السبت، وفى التاسعة من ليلة الأحد . وهو : (١٤٤)

«ربِّ أسالك مددا رُوحانيًّا تقوَى به قُواى الكلّية والجزئيّة حتى أقهر بمبادئ نفسى كلّ نفسٍ قاهرة فتنقبض لى رِقابُها انقباضًا تسقُطُ به قُواها ، فلا يبقى فى الكون ذو رُوح إلّا ونارُ القهر أخمدت ظهورَه ، يا شديدُ يا ذا البطش يا قهّارُ يا جبّارُ أسالك بما أودعته عزرائيل من قُوى أسمائك القهريّة فانفعلت له النفوسُ بالقهر أن تكسونى[1] ذلك السرّ فى هذ الساعة حتى أُلَيِّن به كلّ صعب، وأُذلّ به كلّ منيع بقوّتك ياذا القوّة المتين» .

قال : من دعا بهذا الدعاء فى ساعة من هذه الساعات تسعا وثمانين مرة، ثم دعا على ظالم أُخذ لوقته ، وذلك بعد صلاة خمس تسليمات بالفاتحة لا غير . ويناسب هذا الدعاء من آى القرآن العظيم ﴿ وَكَذٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ . قال : فى هذا الذكر قمع الجبابرة، وقطع دابر الظالمين، وخراب ديار المـاردين ، وما شابه ذلك . وهو ذكر يليق بالسالكين فى مبادئ الرياضات والمنتهين فى مقامات التجلّى إلى الخلوة ؛ وهو من الأسرار العجيبة؛ ولا يذكره من غلبته الشيخوخة إلّا وجد فى قلبه خفقانا بالخاصيّة . ولا يذكره محمومٌ إلّا برئ من حُمّاه لوقته، وإن كتبه وعلّقه عليه دامت صحّته .

دعاء يدعى به فى الساعة السادسة من يوم الأحد، وفى الأولى من ليلة الاثنين وفى الثالثة من يوم الاثنين، وفى العاشرة من ليلة الثلاثاء وفى الثانيـة عشرة من يوم

(١) كذا فى إحدى نسخ مكتبة سورية . وفى الأصلين : "وكسنى ..."

الثلاثاء ، وفى السابعة من ليلة الأربعاء وفى التاســعة من يوم الأربعاء، وفى الرابعة من ليلة الخميس وفى السادسة من يوم الخميس، وفى الرابعة من ليلة الجمعة وفى الثالثة من يوم الجمعة، وفى الأولى من ليـلة السبت وفى الثانيــة عشرة من يوم السبت، وفى العاشرة من ليلة الأحد . وهو :

"رب صَفِّنى [من كدرات الأغيار][1] صــفاء من صفَّته يدُ عنايتك من نقص التكوين[2] حتى يتجـلى فى مرآة قلبى ومستوى نفسى كلُّ آسم آنطبع فى قُوّة جبرائيــل فقوِى به على كشف ما فى اللوح من أسرار أسمــائك ومجامع رسائلك ، فكلّ نفس منفوسة آمتدّت لها من دقائقه[3] دقيقةٌ[3] طرفها منه والثانى لمن هو به ، ومجامع هــذه الدقائق[3] فى دقيقة[3] الأسم الجبرائيلى العالم العليم العلّام، ياذا الكرم الذى علّم بالقلم، فمواد الوحى والإلهام والتحديث والفهم تسرى بنفحة منه فى هذه الساعة إلى مثلها . إلٰهى مَنْطِقْنِى بالدقيقة العظمى منه حتى أتلقّ عنك بما به تلقّ [عنك جبرائيل][1] مما أملأً به وجودى بلا ميــلٍ لغلبة حتى أتلذّذ بمصافاتك تلذُّذ جبريل برســائلك ، إنكَ علّام الغيوب" .

قال : من دعا به خمسا وعشرين مرة فى ساعة من هذه الساعات أُلْهِم رشده فى عواقب أموره . والأسم اللائق بهــذا الدعاء يا علّام الغيوب يا عالم الخفيّــات وما شاكل هذا النمط من الأسماء، ومن القرآن العظيم ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ الآية . قال : وهو من الكبريت الأحمر وبعضه من الدِّرياق الأكبر . وهذا الذكر للذى فُتِح عليه بابٌ من المعارف فإنّه مهما آستدامه أُلْهِم قلبُه إلى علوم جليلة، ويُخاطب

(١) زيادة من اللمة النورانية .

(٢) كذا فى إحدى نسخ اللمة النورانية . وفى الأصلين : «من نقص التلوين ... » .

(٣) كذا فى الأصلين بالدال فى هذه الكلمات . وفى اللمة النورانية بالراء فيها جميعا .

فى نفسه بإلقاءات[1] من وحى الإلهام ، ويخاطبه الحيوان بمعنى يفهمه فيستفيد علوما عظيمة، يعرف ذلك أرباب المنازلات لفهم الحديث .

دعاء يدعى به فى الساعة السابعة من يوم الأحد، وفى الثانية من ليلة الأثنين وفى الرابعة من يوم الأثنين، وفى الحادية عشرة من ليلة الثلاثاء وفى الأولى من يوم الثلاثاء، وفى الثامنة من ليلة الأربعاء وفى العاشرة من يوم الأربعاء ، وفى الخامسة من ليلة الخميس وفى السابعة من يوم الخميس، وفى الخامسة من ليلة الجمعة وفى الرابعة (١٤٢) من يوم الجمعة، وفى الثانية من ليلة السبت وفى الأولى من يوم السبت ، وفى الحادية عشرة من ليلة الأحد . وهو :

«ربِّ أوقفنى موقف العزّ حتّى لا أجد فى ذرّةٍ ولا رقيقةٍ ولا دقيقة إلا وقد غشّاها من عزّ عزّتك ما منعها من الذُّلّ لغيرك ، حتى لا أشهدَ دلّ مَنْ سواى لعزّتى بك مُؤيّدا برقيقة من الرعب يخضع لها[2] كلّ شيطان مَرِيد، وجَبّارٍ عَنِيد؛ وأَبقِ علىّ ذلّ العبوديّة فى العزّة بقاءً يبسط لسانَ الاعتراف، و يقبِض لسانَ الدعوى، إنّك العزيز الجبّار المتكبّر القهّار» .

قال : من دعا بهذا الدعاء فى هذه الساعة أو فى ساعة من هذه الساعات ستّ عشرة مرة بعد صلاة[3] وحضور قلب نُصِر على أىّ عدوٍّ قصده ظاهرا و باطنا .

دعاء يدعى به فى الساعة الثامنة من يوم الأحد ، وفى الثالثة من ليلة الأثنين وفى الخامسة من يوم الأثنين، وفى الثانية عشرة من ليلة الثلاثاء، وفى الثانية من يوم

(١) كذا فى اللمعة النورانية . وفى الأصل : «بألقاب» .

(٢) كذا فى إحدى نسخ اللمعة النورانية . وفى نسخة أخرى منها : «حتى يخضع ...» . وفى الأصلين : «حتى يخضع به ...» .

(٣) فى هامش إحدى نسخ اللمعة النورانية : «ثلاث تسليمات ...» وكتب عليها كلمة «صح» وأشير الى موضعها بعد كلمة «صلاة» .

الثلاثاء ، وفى التاسعة من ليلة الأربعاء وفى الحادية عشرة من يوم الأربعاء، وفى السادسة من ليلة الخميس وفى الثامنة من يوم الخميس، وفى السادسة من ليلة الجمعة وفى الخامسة من يوم الجمعة ، وفى الثالثة من ليلة السبت وفى الثانية من يوم السبت ، وفى الثانية عشرة من ليلة الأحد . وهو :

«إلهى أطلع على وجودى شمس شهودى منك فى الأكوان والألوان حتى أمشىَ بما أشهدتنى فى آفاق الملكوت فأكشفَ منه معنى كلمةِ التكوين فينفعلَ لى كلُّ مكوَّنٍ انفعاله للكلمة بإذنك الذى سخَّرت به ما فى الوجودين بلا ظلمةِ وَضْع ولا ظلمة طبع، إنك منوِّر الكلّ بكلّك ومنوِّر الأنوار بنورك الذى صدورُه عن اسمك النورِ والظاهر والحى والقيُّوم، كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ» الآية .

قال البُونى : لا يذكر أحدٌ هذا الذكر فى ساعة من هذه الساعات تسعًا وأربعين مرة إلا كساه الله نُورا يجد ذلك فى نفسه، ويُيسّر عليه المقسوم من الرزق، وتسرى كلمته فى الأسباب سَرَيانا عجيبا . وهو ذكر يصلح لأرباب المكاشفات يُثبت لهم ما يكاشفون .

دعاء يدعى به فى الساعة التاسعة من يوم الأحد ، وفى الرابعة من ليلة الاثنين وفى السادسة من يوم الاثنين ، وفى الأولى من ليلة الثلاثاء وفى الثالثة من يوم الثلاثاء، وفى العاشرة من ليلة الأربعاء وفى الثانية عشرة من يوم الأربعاء، وفى السابعة من ليلة الخميس وفى التاسعة من يوم الخميس ، وفى السابعة من ليلة الجمعة وفى السادسة من يوم الجمعة، وفى الرابعة من ليلة السبت وفى الثالثة من يوم السبت، وفى الأولى من ليلة الأحد . وهو :

«سيِّدى أدخلنى فى بواطن رياض اسمك من الباب الخاصّ الذى لا يُحْجَب بنورٍ ولا بظلمة ولا بشىء منه ولا بشىء خارجٍ عنه، وأطلق يد قُوَاىَ فى نيل النعمة،

والممنى تحقيق ذوق كلّ مَذُوق منه حتى أكونَ بك فيه وأكونَ فيه بك مبتهجاً منك وبك، ربّ إنك لطيفٌ عَطُوف رحيم رحمن » .

قال : هذا الذكر بخاصيّة فيه يجلب الفرح ويُذهب الحزن ويُطيب الوقت ويجلو الكرب؛ ومن دعا به أربعين مرة فى ساعة من هذه الساعات على طهارة[1] وآستقبال فُرِّج به كربُه وآنجلى غمُّه .

دعاء يدعى به فى الساعة العاشرة من يوم الأحد، وفى الخامسة من ليلة الآثنين وفى السابعة من يوم الآثنين ، وفى الثانية من ليلة الثلاثاء وفى الرابعة من يوم الثلاثاء، وفى الحادية عشرة من ليلة الأربعاء وفى الأولى من يوم الأربعاء، وفى الثامنة (١٤٣) من ليلة الخميس وفى العاشرة من يوم الخميس، وفى الثامنة من ليلة الجمعة وفى السابعة من يوم الجمعة، وفى الخامسة من ليلة السبت وفى الرابعة من يوم السبت، وفى الثانية من ليلة الأحد . وهو :

« يامَن نسبةُ العلوم إلى علمه نسبةُ لاشيء لشيء لا يتناهى، أظهرت الحروفَ بالقلم فكان لها صريف فى ألواح الملكوت قام لها مقام مخارج الحروف من الحلق والصدر واللّها واللسان، كلّ جنس صدر عنه آسمٌ لا يعلم تركيبه سوى مَلَك قلمك، وكلّ نوع صدر عنه مركّبا، فلوح إسرافيل أظهره بقوّة ما فى آحاد كليّاته من جزئيّات تراكيبه، أسألك بهذا السرّ الخفيّ الذى وقف العقل دونه وتقدّم إليك السرّ بسرٍّ أودعته فيه يوم إمكان وجوده ، أسألك كشف حجاب الغيب حتى أُعاينَ العيب[2] بما به حَيّ الرُّوح الباقى ، يا حيّ، يا هو، يا أنت يا مهيمنُ يا خالقُ يا بارىء أنت هو » .

---

(١) فى هامش إحدى نسختى المجمع الوراثية : «وصلاة ثلاث تسبيحات» وكتب كلمة «صح» وموضعها بعد كلمة «طهارة» .

(٢) فى المجمع الوراثية : «المغيب» .

قال البُونى: هذا الذكر من ذكره فى ساعة من هذه الساعات مائةَ مرة يُسِّر له قضاءُ أىّ حاجة قصدها بغير مشقّة .

دعاء يدعى به فى الساعة الحادية عشرة من يوم الأحد، وفى السادسة من ليلة الأثنين وفى الثامنة من يوم الأثنين، وفى الثالثة من ليـلة الثلاثاء وفى الخامسة من يوم الثلاثاء، وفى الثانية عشرة من ليلة الأربعاء وفى الثانية من يوم الأربعاء، وفى التاسعة من ليلة الخميس وفى الحـادية عشرة من يوم الخميس، وفى التاسعة من من ليلة الجمعة وفى الثامنة من يوم الجمعة، وفى السادسة من ليلة السبت وفى الخامسة من يوم السبت، وفى الثالثة من ليلة الأحد . وهو :

«يامن لوجوده العلىّ بأعتبار حكمته إلى كلّ موجود حصل من وجوده[1] آسم يليق به هو مفتاحه الخاصّ، ومعناه المغيّب، وحقيقته الوجودية وسرّه القابل؛ فما فى الأكوان جوهر فرد من جواهر آحاد العالم العُلوىّ والسُّفلىّ إلا ومقاليد أحكامه متعلّقة بآسم من أسمائه . وآجتماعُها برقائقها بيـد آسمك الذى آسـتأثرتَ به عن جميع خلقك فلم يظهر لهم إلا ما ناسب الأفعال، فأسماؤك إلهى لا تُحْصَى، ومعلوماتك لا نهايةَ لها، أسألك غمسةً فى بحر هـذا النور حتى أعود إلى الكمال الأوّل فأتصرّف فى الكون بآسم الكمال تصرّفًا يَنْـفى النقص بالوقوف على عبوديّة النقص، إنّك المُعِـزّ المُذِلّ اللطيف الخبير العَدْل المُجيب» .

قال : من ذكر هذا الذكر ستّ عشرة مرة فى ساعة من هذه الساعات ثم سأل الله تعالى فيها رزقا[1]، وتيسير أسد ر. وسكونَ بحر هائج[2]، وسلطان غاصب، ونفيس

(١) كذا فى إحدى نسخ ... وفى الأصلين : «من جوده ...» .

(١) كذا فى قلعة النور ... وفى الأصلين ... ثم سأل الله تعالى فى سأله فيها رزقا ..» .

(٢) كذا فى إحدى نسخ ... وفى الأصلين : «بحر هائل» .

متمرّدة من شيطانى الإنس والجنّ وما ناسب ذلك إلاّ أُجيب له لوقته، وذلك على طهارة وصلاة[1] و جمع همة فى موضع خال من الأصوات .

دعاء يدعى به فى الساعة الثانية عشرة من يوم الأحد، والسابعة من ليلة الأثنين والتاسعة من يوم الأثنين، وفى الرابعة من ليلة الثلاثاء وفى السادسة من يوم الثلاثاء، وفى الأولى من ليلة الأربعاء وفى الثالثة من يوم الأربعاء ، وفى العاشرة من ليلة الخميس وفى الثانية عشرة من يوم الخميس ، وفى العاشرة من ليلة الجمعة وفى التاسعة من يوم الجمعة، وفى السابعة من ليلة السبت وفى السادسة من يوم السبت ، وفى الرابعة من ليلة الأحد . وهو :

«تعاليتَ يا من تَقَاصر كلُّ فكرٍ عن حصر معنًى من معانى أسمائه . فكل علو ورفعة فمن ذلك العلو والرفعة صدورُه[2] ظاهرا و باطنا؛ تقدّس مجدك يا من أستارُ عرشه أظهر فيها كبرياءه ومجده، أسألك بالصفات التى لا تَعَلُّقَ لها بموجود ، ياذا العظمة والكبرياء والجلال والجمال والبهاء، أسألك الأُنس بمقابلات سرّ القَدَر أُنسا يمحو آثار وحشة الفكر حتى يطيب وقتى بك فأطيب بوقتى لك ، فلا يتحرّك ذو طبع لمخالفتى إلا صَغُر لعظمتك وقُصِم بكبريائك ، إنك جبّار الأرض والسماء، وقاهر الكلّ بقهرك يا مجيب» .

قال البُونى : من ذكر هذا الذكر سبعا وعشرين مرة فى ساعة من هذه الساعات ودعا [بما يريد][3] كُفِي لوقته [شرَّ من يحادره][3] . فهذه دعوت ساعات الأيّام والليالى .

---

(١) فى إحدى نسخ الفقه بعد كلمة «صلاة» بين الأسطر . «ثلاث تسليمات» .

(٢) كذا فى [illegible] صوابه . وفى الأصلين . [illegible] .

(٣) الزيادة عن إحدى نسختى الفقه [illegible] .

ذكر ما يدعى به فى المساء والصباح، والغدوّ والرواح، والصلاة والصوم، والجماع والنوم، والوِرْد والصدَر، والسفر والحضر، وغير ذلك .

فأمّا ما يقال عند المساء والصباح؛ فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لأبى بكر الصدّيق رضى الله عنه وقد سأله فقال : يا رسول الله مُرْنى بشىء أقوله إذا أصبحتُ وإذا أمسيتُ . فقال : "قل اللهمّ عالم الغيب والشهادة فاطرَ السموات والأرض ربَّ كلّ شىء ومليكَه أشهد أن لا إله إلّا أنت أعوذُ بك من شرّ نفسى وشرّ الشيطان وشِرْكه قُلْهن إذا أصبحتَ وإذا أمسيتَ وإذا أخذتَ مَضْجَعَك" . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أصبح يقول : "أصبحنا على فِطرة الإسلام وكلمة الإخلاص ودين نبيّنا(٢) محمد صلى الله عليه وسلم وملّةِ أبينا إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين" . وكان صلى الله عليه وسلم إذا أصبح قال : "أصبحنا وأصبح الملك والكبرياء والعظمة والخلق والأمر والليل والنهار وما سكَن فيهما من شىء لله وحده لا شريكَ له اللّهم اجعل أوّلَ هذا النهار لنا صَلاحا وأوسطَه فَلاحا وآخرَه نَجاحا أسألك خيرَ الدنيا وخيرَ الآخرة يا أرحم الراحمين" . وكان صلى الله عليه وسلم يقول إذا أصبح : "اللهمّ بك أصبحنا وبك أمسينا وبك نحيا وبك نموت وإليك النشور" . وإذا أمسى قال : "اللهم بك أمسينا وبك نحيا وبك نموت" . وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : "من قال حين يصبح أو يمسى اللّهم أنت ربّى لا إله إلّا أنت خلقتَنى وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شرّ ما صنعت أبوءُ

---

(٢) فى كتب [illegible] كذا وقع فى [illegible] ولعله صلى الله عليه [illegible] .

[لك](١) بنعمتك [عليك](١) وأبوءُ بذنبى فآغفرلى إنّه لا يغفر الذنوب إلّا أنت فمات من يومه أو من ليلته دخل الجنة" . وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : "من قال لا إلٰه إلّا الله وحده لا شريكَ له له الملكُ وله الحمــد وهو على كلّ شىء قدير بعد ما يصلّى الغداة عشر مرّات كتب الله له عشر حسنات ومحا عنه عشر سيّئات و رفع له عشر درَجات وكنّ له عِدْل رقبتين من ولد إسماعيل وكنّ له حجاباً من الشيطان حتّى يُمسى فإن قالها حين يُمسى كان له مثلُ ذلك وكنّ له حجابًا من الشيطان حتى يُصبح"، وفى رواية : "من قالها فى يومٍ مائةَ مرّة كانت له عِدْل عشر رقاب وكُتِبت له مائة حسنة ومُحِيت عنــه مائةُ سيّئة وكانت له حِرْزًا من الشيطان يومه ذٰلك حتّى يُمسى ولم يأت أحد بأفضلَ ممــا جاء به إلا رجلٌ عمِل أكثر منه ومن قال سبحانَ الله وبحمده فى اليوم مائةَ مرة حُطّت خَطَاياه و إن كانت مثل زَبَد البحر" . وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : "من قال حين يُمْسى أعوذ بكلمات الله التامّات كلّها من شرّ ما خلق لم تضرّه لَدْغة عقرب حتى يُصبح". وعنه صلى الله عليه وسلم : "من قال حين يُصبح فى أوّل يومه أو فى أوّل ليلته بآسم الله الذى لا يَضُرّ مع آسمه شىءٌ فى الأرض ولا فى السماء وهو السميع العليم ثلاثا لم يضرّه شىءٌ فى ذلك اليوم أو تلك الليلة" . وعنه صلى الله عليه وسلم . "من قال إذا أَصبح باسم الله العلىّ الأَعْلَى الذى لا ولدَ له ولا صاحبةَ ولا شريكَ أَشهد أنّ نوحا رسولُ الله وأنّ إبراهيم خليلُ الله وأنّ موسى نَجِىُّ الله وأنّ داود خليفةُ الله وأنّ عيسى روحُ الله وكلمتُه ألقاها إلى مريم وأنّ محمدا رســول الله وخاتمُ النبيّين لا نبىَّ بعده لم تلسعه حيّة ولا عقرب ولم يخف من سلطان ولا كاهن ولا ساحر حتى يُمسى وإذا قالها إذا أَمسى لم يخف شيئا من ذلك حتى يُصبح" .

---

(١) زيادة عن صحيح البخارى .

* * *

وأمّا ما يقال عند النوم؛ رُوِى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "وإذا أخذتَ مضجَعك فتوضّا وضوءَك للصّلاة ثم آضطجِع على شِقّك الأيمن ثم قُلْ أسلمتُ وجهى إليك وفوّضتُ أمرى اليك وألجأت ظهرى إليك رهبةً ورغبةً إليك لا ملجأً ولا منجى منـك إلا إليك اللّهم آمنتُ بكتابك الذى أنزلتَ ونبيِّـك الذى أرسلتَ فإن متّ من ليلتك متّ على فِطرة الإسلام وآجعلهنّ آخر ما تتكلّم به". قال البَرَاء بن عازِب: فردّدتها على النبيّ صلى الله عليه وسلم، فلما بلغتُ اللهم آمنتُ بكتابك الذى أنزلت قلت: ورسولِك قال: "ونبيك الذى أرسلتَ". وعن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا قام من اللّيل يقول: "اللهم لك الحمدُ أنت نورُ السمٰوات والأرض ولك الحمدُ أنت قيّام السمٰوات والأرض ومَن فيهنّ أنت الحق وقولك الحق ووعدك الحق ولقاؤك حق والجنّة حق والنار حق والساعة حق اللّهم لك أسلمتُ وبك آمنت وعليك توكّلت وإليـك أنَبْتُ وبك خاصمتُ وإليـك حاكمت[1] فاغفـر لى ما قدّمتُ وما أخّرت وما أسرَرْت وما أعلنت أنت إلهى لا إله إلا أنت".

* * *

وأمّا ما يقال عند دخول المنزل والمسجد والخروج منهما؛ رُوِى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إذا وَلَجَ الرجلُ بيتَه فليقُلْ باسم الله اللّهم إنّى أسالك خيرَ المَوْلِج وخيرَ المَخْرَج باسم الله وَلجْنا وباسم الله خرجْنا وعلى الله توكّلنا ثم ليسلِّمْ على أهله". وعنه صلى الله عليه وسلم: "إذا دخل الرجلُ بيته فقال بآسم الله قعد الشيطانُ على الباب وقال مامِنْ مَقِيلٍ فهل من غَدَاء فاذا أُتِى بغَدَائه فقال بآسم الله

(١) كذا فى رواية الأذكار للنووى من رواية الصحيحين. وقد ورد فى الأصل بدون ما الموصولة إلا فى العمل الأوّل دون الأعمال الباقية.

قال ما مِنْ غَدَاء ولا مَقِيل " . وعنه صلى الله عليه وسلم : " إذا خرج الرجلُ من بيته فقال سبحان الله قال المَلَك هُديتَ وإذا قال لا حولَ ولا قوةَ إلا بالله قال الملك وُقِيتَ فإذا قال توكّلت على الله يقول الملك كُفِيت يقول الشيطان عند ذلك كيف أعمل بمن كُفِي وهُدِى ووُقى " . وعن أُمّ سَلَمة رضى الله عنها قالت : ما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من بيته صباحًا قطّ إلا قال : " اللّهم إنّى أعوذ بك أن أَزِلّ أو أَضِلّ أو أظلم أو أَجهل أو يُجْهَل علىّ " . وعنه صلى الله عليه وسلم : "ما من مسلم خرج من بيته يريد سفرًا أو غيره فقال حين يخرج باسم الله آمنتُ بالله آعتصمتُ بالله توكّلت على الله لا حول ولا قوة إلا بالله إلا رُزِق خيرَ ذلك المَخْرَج وصُرِف عنه شرُّ ذلك المخرج" . وعن أبى سعيد رضى الله عنه قال فُضَيل بن مرزوق — أحسبه رفعه — قال : "من قال حين يخرج إلى الصّلاة اللّهم إنى أسألك بحقّ السائلين عليك وبحقّ مَمْشاى هـذا إنى لم أَخْرج أَشَرًا ولا بَطَرًا ولا رياءً ولا سُمْعة خرجتُ خوفَ سخطك وآبتغاءَ مَرْضاتك أسألك أنْ تُنقذنى من النّار وأن تغفر ذنوبى إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت وكّل الله به سبعين ألف ملك يستغفرون له وأقبل اللهُ عليه بوجهه حتى يفرُغَ من صَـلاته " . وعن فاطمة (١) رضى الله عنها قالت : كان رسـول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل المسجد قال : " باسم الله والسـلام على رسول الله اللّهم آغفر لى وآفتح لى أبوابَ رحمتك وإذا خرج قال باسم الله والسلام على رسول الله اللّهم آغفر لى ذنوبى وآفتح لى أبوابَ فضلك" . وقال صلى الله عليه وسلم : " إذا دخل أحدكم المسجد فليقل اللّهم آفتح لى أبواب رحمتـك وإذا خرج فليقل اللّهم إنى أسألك من فضلك " .

---

(١) وضع على حاشـية إحدى النسخ « لعلها بنت قيس » ووضعت هـذه الزيادة فى نسخة أخرى فى صلب الكتاب . والظاهر أنها فاطمة الزهراء رضى الله عنها ؛ فقد روى هذا الحديث الإمام النووى فى كتاب الأذكار عن عبد الله بن الحسن عن أمه عن جدّته اهـ وجدته هى فاطمة الزهراء .

* * *

وأمّا ما يقال عند النداء، فقد رُوِى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إذا كان عند الأذان فُتِحت أبوابُ السماء وآستُجيب الدعاءُ وإذا كان عند الإقامة لم تُرَدّ دعوة" . وعنه صلى الله عليه وسلم : "من قال حين يسمع المؤذِّن وأنا أشهد
(١٤٦) أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنّ محمدا عبده ورسوله رضيتُ بالله ربًّا وبمحمد رسولًا وبالإسلام دينًا غُفِر له ذنبُه" . وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : "من سمع المؤذِّن فقال اللّهم ربَّ هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آتِ محمدا الوسيلةَ والفضيلة وآبعثه مَقَامًا محمودا الذى وعدتَه حلّت له شفاعتى يوم القيامة" . وعنه صلى الله عليه وسلم : "إذا سمعتم المؤذِّن فقولوا مثلَ ما يقول ثم صلُّوا علىّ فإنه من صلّى علىّ مرّةً صلى الله عليه بها عشرا" .

* * *

وأمّا ما يقال عند دخول الخلاء، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل الخَلاء قال : "اللّهم إنى أعوذ بك من الخُبث والخبائث" وإذا خرج قال "غفرَانَك" . وفى لفظٍ إذا خرج قال : "الحمدُ لله الذى أذْهب عنِّى الأذَى وعافانى" . وعن أَنَس رضى الله عنه قال : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم إذا دخل الخلاء قال : "اللّهم إنّى أعوذ بك من الرِّجس النِجس الخبيث المُخْبِث الشيطان الرجيم"، وإذا خرج قال : "الحمد لله الذى أذهب عنّى الأذى وعافانى" .

* * *

وأمّا ما يقال عند الوضوء وغَسْل الأعضاء، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا صلاةَ لمن لا وُضُوء له ولا وضوءَ لمن لم يذكر آسم الله عليه" . وعن علىّ آبن أبى طالب رضى الله عنه قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يا علىّ

إذا توضأتَ فقل بآسم الله والصلاة على رسول الله" . وعن محمد بن الحنفيّة قال: دخلتُ على والدى علىّ بن أبى طالب — رضى الله عنهما — وإذا عن يمينه إناءٌ من ماء، فسمّى ثم سَكَب على يمينه ثم تمضمض فقال : اللّهم حَصِّنْ فَرْجى وآستُرْ عورتى ولا تُشْمِت بى الأعداء، ثم تمضمض وآستنشق وقال : اللّهم لَقِّنِّى حُجّتى ولا تحرِمنى رائحة الجنّة. ثم غسل وجهَه وقال: اللّهم بَيِّضْ وجهى يوم تَسْوَدُّ الوجوه ولا تُسوِّدْ وجهى يوم تبيضّ الوجوه . ثم سكب على يمينه فقال: اللّهم أعطِنى كتابى بيمينى والخلدَ بشمالى. ثم سكب على شماله وقال : اللّهم لا تُعطِنى كتابى بشمالى ولا تجعلها مغلولةً إلى عُنُق. ثم مسح برأسه وقال : اللّهم غَشِّنا برحمتك فإنّا نخشى عذابك، اللّهم لا تجمع بين نواصينا وأقدامنا . ثم مَسَح عنقه فقال : اللّهم نَجِّنا من مُقَطَّعات(١) النيران وأغلالها. ثم غسل قدميه فقال : اللّهم ثَبِّتْ قَدَمىّ على الصراط المستقيم يوم تَزِلّ فيه الأقدام. ثم آستوى قائما فقال : اللّهم كما طَهّرتنا بالماء فطهِّرنا من الذنوب، ثم قال بيده هكذا، يقطُرُ الماء من أنامله ، ثم قال: يا بُنَىّ، آفعل كفعلى هذا فإنه مامن قَطْرة تقطر من أناملك إلا خلق اللهُ منها مَلَكًا يستغفر لك إلى يوم القيامة . يا بُنَىّ، من فعل كفعلى هذا تساقطت عنه الذنوب كما يتساقط الورق عن الشجر يوم الريح العاصف.

وعن علىّ رضى الله عنه قال : دعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "يا علىّ إذا توضأتَ فقل اللّهم إنى أسألك تمامَ الوضوء وتمامَ مغفرتك ورضوانك" . وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "من توضأ فأحسن وضوءه ثم قال أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صادقا من قلبه فتح الله له ثمانية أبواب الجنّة يدخل من أيّها شاء" . وعن

(١) المقطعات من الثياب : شبه الجباب، وفى التنزيل : (قطعت لهم ثياب من نار) أى قطعت وخيطت وجعلت لبوسا لهم . (عن لسان العرب) .

عليّ رضي الله عنه قال : قال لى رسول الله صلى عليه وسـلم : "يا عليّ إذا فرغتَ من وُضوئك فقل أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله اللّهم ٱجعلنى من التوابين وٱجعلنى من المتطهّرين تخرج من ذنوبك كيوم ولدتك أمّك وتُفتح لك ثمانيةُ أبواب الجنة فيقال ٱدخل من أيّها شئت" .

⁂

وأمّا ادعية الصلاة، فهى إمّا أن تقع قبلها أو فيها أو بعدها . فأمّا ما يقال قبلها
فقد رُوى عن أبى سَلَمة بن عبـد الرحمن قال : سألتُ عائشة أمّ المؤمنين رضى الله (١٤٧)
عنها بأىّ شىء كان نبىّ الله صلى الله عليه وسلم يفتتح الصـلاةَ إذا قام من الليل ؟
قالت : إذا قام يفتتح صـلاته يقول : "اللهم ربَّ جِبريل وميكائيل و إسرافيـل
فاطرَ السمٰوات والأرض عالمَ الغيب والشهـادة أنت تحكُمُ بين عبادك فيما كانوا فيه
يختلفون اِهدنى لمـا ٱختلفتُ فيه من الحقّ بإذنك إنك تَهْدى من تشاء إلى صراط
مسـتقيم" .

وأمّا ما يدعى به فى نفس الصلاة، فقد روى عن عائشـة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ٱفتتح الصلاة رفع يديه حذو منْكِبيه ثم يقول : "سبحانَك اللّهمّ وبحمـدك تبارك ٱسْمك وتعالى جَدُّك ولا إلٰهَ غيرُك" . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : كان النبىّ صلى الله عليه وسلم إذا كبّر فى الصلاة سكت هُنَيَّةً قبل أن يقرأ . فقلت : يا رسول الله، بأبى أنت وأمى، ما تقول فى سكوتك بين التكبير والقراءة ؟ قال : "أقول اللّهم باعِدْ بينى و بين خَطَاياى كما باعدتَ بين المشرق والمغرب اللهم نَقِّنى من الخطايا كما يُنَقَّى الثوبُ الأبيضُ من الدَّنَس وٱغسلنى من خطاياى بالثلج والمـاء والبَرَد" . وعن جُبَيْر بن مُطْعِم رضى الله عنـه أنه رأى

النبيّ صلى الله عليه وسلم يصلّى قال : فكبّر فقال " الله أكبر كبيرا ثلاث مرات والحمد لله كثيرا ثلاث مرات وسبحان الله بكرةً وأصيلا ثلاث مرات اللهم إنى أعوذ بك من الشيطان الرجيم من هَمْزه ونفخه ونَفْثه " . قال راويه عمرو بن مُرّة : نفخه : الكبر، ونفثه : السحر، وهَمْزه : المُوتة، وهى الجنون . وعن علىّ آبن أبى طالب رضى الله عنه أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان إذا آفتتح الصلاة كبّر ثم قال : " وجّهت وجهى للّذى فطر السموات والأرض حنيفًا مُسلما وما أنا من المشركين إن صَلاتى ونُسُكى ومَحياى ومماتى لله ربّ العالمين لا شريك له وبذلك أُمِرْتُ وأنا أوّل المسلمين اللّهم أنت الملك لا إله إلا أنت أنت ربّى وأنا عبدك ظلمتُ نفسى وآعترفتُ بذنبى فاغفر لى ذنوبى جميعا لا يغفر الذنوبَ إلا أنت وآهدِنى لأحسنِ الأخلاق لا يَهدى لأحسنها إلا أنت وآصرِف عنى سيّئها لا يصرف سيّئها إلا أنت لَبّيْكَ وسَعْدَيْكَ والخير كلّه فى يديك [والشرّ ليس إليك](١) وأنا بك وإليك تباركتَ وتعاليتَ أستغفرك وأتوب إليك ". فإذا ركع قال : " اللّهم لك ركعتُ وبك آمنتُ ولك أسلمتُ خشَع لك سمعى وبصرى ومُخّى وعظمى وعَصَبى ". فإذا رفع رأسه قال : " سمع الله لمن حمِده ربّنا ولك الحمد مِلْءَ السموات والأرض وما بينهما وملءَ ما شئت من شىء بعد " . فإذا سجد قال : " اللّهم لك سجدتُ وبك آمنتُ ولك أسلمتُ سجد وجهى للّذى خلقه وصوّره فأحسنَ صُوره وشقّ سمعه وبصره فتبارك اللهُ أحسنُ الخالقين ". فإذا فرغ من الصلاة وسلّم قال : " اللهم آغفرلى ما قدّمتُ وما أخرتُ وما أسررت وما أعلنت وما أسرفت وما أنت أعلم به منّى أنت المقدّم وأنت المؤخّر لا إله إلا أنت " . وقد ورد فى لفظ آخر أنه يقول : اللهم آغفرلى إلى آخر الدعاء بين التشهّد والتسليم . وعن حذيفة رضى الله عنه قال : صلّيت مع رسول الله

(١) زيادة من كتاب الأذكار للنووى (ص ٢١) .

صلى الله عليه وسلم فسمعته يقول فى ركوعه : "سبحانَ ربّى العظيم"، وفى سجوده : " ســبحانَ ربّى الأعلى " . وفى لفظ أنه كان يقــول ذلك ثلاث مرات . وعن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول فى سجوده وركوعه : "سُبُّوح قُدُّوس ربّ الملائكة والروح" . وعن أبى ســعيد الخُدْرىّ رضى الله عنه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رفع رأسه من الركوع قال : "ربّنا لك الحمد ملء السّموات وملء الأرض وملء ما شئتَ من شىء بعْدُ أهل الثناء والمجد أحقّ ما قال العبد وكلّنا لك عبد اللّهم لا مانعَ لِمَـا أعطيتَ ولا مُعطى لمـا منعتَ ولا ينفع ذا الجَدّ منك الجَدّ" . وعن النبىّ صلى الله عليه وسلم : "من قال وهو ساجدٌ ثلاث مرّات ربّ آغفرلى لم يرفع رأسه حتّى يُغْفَرَ له" . وعن آبن عبّاس رضى الله عنهما قال : كان رسول الله صلى الله عليه وســلم يعلّمنا التشهّد كما يعلّمنا السُّورة من القرآن، وكان يقول : "التحيّات المباركات الصلوات الطيبات لله سلامٌ عليك أيها النبىّ ورحمة الله وبركاته سلامٌ علينا وعلى عباد الله الصالحين أشهد أن لا إله إلّا الله وأشهد أن محمدا رسولُ الله" . وروى : "السلامُ" فى الموضعين . وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال . كنّا نقول فى الصلاة خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم : السلام على الله السلام على فلان . فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم : "إن الله هو السلام فإذا قعد أحدكم فى الصلاة فليقل التحيّاتُ لله والصلوات والطيبات السـلام عليك أيها النبىّ ورحمة الله وبركاته السـلام علينا وعلى عباد الله الصالحين فإذا قالها أصابت كلّ عبد صالح فى السماء والأرض أشهد أن لا إلهَ إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ثم يتخيّر فى المسألة ما شاء" . وقد علّم رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه الصلاة عليه ، وقد سأله كعب بن عُجْرة عنها فقال . " قولوا اللّهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صلّيت على إبراهيم وآلِ إبراهيم إنك حميدٌ مجيد وبارِكْ

على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم إنّك حميد مجيد ". وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا فرغ أحدكم من التشهّد فليتعوّذ بالله من أربع : من عذاب جهنم وعذاب القبر وفتنة المحْيا والممات وشرّ المسيح الدجّال " . وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أن أبا بكر الصدّيق رضى الله عنه قال : قلت يا رسول الله : علّمنى دعاءً أدعو به فى الصلاة وفى بيتى قال : " قل اللّهم إنى ظلمتُ نفسى ظلمًا كثيرا ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفرلى مغفرةً من عندك إنّك أنت الغفور الرحيم " . وروى بعد قوله من عندك : "وآرحمنى إنك أنت التوّاب الرحيم" .

* * *

وأمّا ما يدعى به بعد التسليم؛ فقد روى عن آبن عبّاس رضى الله عنهما قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول دُبُرَكلّ صلاة : "لا إلَهَ إلا الله وحده لا شريك له له الملكُ وله الحمد يحيي ويُميت وهو على كلّ شىء قدير اللّهم لا مانعَ لِمَا أعطيتَ ولا مُعْطِىَ لمـا منعت ولا ينفع ذَا الجَدّ منك الجَدّ " . وعن عبد الله آبن الزُّبَير رضى الله عنهما قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سلّم من صلاته يقول بصوته الأعلى : "لا إلَهَ إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير لا حولَ ولا قوّة إلا بالله ولا نعبد إلا إيّاه له النعمةُ وله الفضلُ وله الثناء الحسن لا إلَه إلا الله مُخلصين له الدينَ ولو كره الكافرون" . وفى طريق آخر : "له الدينَ وهو على كل شىء قدير" . وعن أمّ سلَمة رضى عنها أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا صلّى الصبح قال : "اللّهم انى أسألك علماً نافعا ورزقا طيّبا وعملا مُتَقَبَّلا" . وعن أنس رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم :

" من قال حين ينصرف من صلاته سبحانَ الله العظيم و بحمده لا حولَ ولا قوةَ إلا بالله العليّ العظيم ثلاث مرات فإنه مغفور له " . وعن أبى أُمامة الباهليّ رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قرأ آية الكرسيّ دُبُرَ كلّ صلاة لم يمنعه من دخول الجنـة إلا أن يموت " . وعن أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسـلم قال : "ما من عبدٍ بَسَط كفَّيه فى دبر صـلاته ثم يقول إلٰهى إلٰهَ إبراهيم و إسحـاق و يعقوب إله جبريلَ وميكائيل و إسرافيـل أسألك أن تسـتجيبَ دعوتى وتَعْصِمَنى فى دِينى فإنى مبتلًى وتنالَنى برحمتـك فإنّى مذنبٌ وتنفىَ عنى الفقرَ فإنى مُستمسك إلّا كان حقًّا على الله ألّا يردّ يديه خائبتين " . وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "من قال دبر كلّ صلاة الحمدُ لله ثلاثًا وثلاثين مرّة وسبحانَ الله ثلاثًا وثلاثين مرة واللهُ أكبرُ ثلاثًا وثلاثين مرّةً وتمامَ المـائة لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير غُفِرَتْ ذنوبُه ولو كانت أكثر من زَبَد البحر " . وعن عليّ رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول فى آخر وَتْره : "اللّٰهم إنى أعوذ برضاك من سَخَطِك وأعوذُ بمُعافتك من عقوبتك وأعوذ بك منك لا أُحْصِى ثناءً عليك أنت كما أَثنيتَ على نفسك " . وعن الحسن بن عليّ رضى الله عنهما قال : علّمنى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم كلماتٍ أقولهنّ فى الوَتْر، وفى لفظ : فى قُنوت الوتر : " اللّٰهـم آهْدِنى فيمن هديتَ وعافِنِى فيمن عافيتَ وتولَّنى فيمن تَوَلَّيت وبارك لى فيما أعطيتَ (١٤٩) وقِنِى شرّ ما قضيتَ إنك تَقْضِى ولا يُقْضَى عليك و إنّه لا يَذِلُّ من واليت تباركت ربّنا وتعاليت " . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : صلّى رسول الله صلّى الله عليه وسـلم على جنازةٍ فقال : " اللّٰهـم آغفر لحيّنا وميّتنا وصغيرنا وكبيرنا وذَكَرنا وأُنثانا وشاهدنا وغائبِنا اللّٰهم من أَحْييته منّا فأَحْيِهِ على الإيمـان ومن توفَّيْتَه منا فتوفَّه على

الإسلام اللّهم لا تحرِمْنا أجرَه ولا تُضِلّنا بعده". وعن عليّ رضى الله عنه قال: دعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "يا عليّ اذا صلّيت على جنازة رجلٍ فقل اللّهم هٰـذا عبدُك ٱبن عبدِك ٱبنُ أمتك ماضٍ فيـه حكمُك خلقتَه ولم يكن شيئاً مذكورا نزل بك وأنت خيرُ منزولٍ به اللّهم لَقِّنْه حُجّته وألحِقْه بنبيّه محمد صلى الله عليه وسـلم وثبّتـه بالقول الثابت فإنه ٱفتقر إليك وٱستغنيتَ عنـه كان يشهدُ أنْ لا إلٰه إلّا الله فاغفر له وٱرحمـه ولا تحرِمْنا أجرَه ولا تفتِنّا بعـده اللّهم إن كان زاكياً فزكِّه وإن كان خاطئا فاغفرْ له . وإذا صلّيتَ على جنازة ٱمرأةٍ فقل اللّهـم أنتَ خلقتَها وأنت أَحْيَيتها وأنت أَمتّها تعلم سرّها وعَلانِيَتَها جئناك شفعاءَ لها فٱغفر لهـا وٱرحمها ولا تحرِمنا أجرها ولا تفتِنّا بعدها . وإذا صلّيتَ على جنازة طفل فقـل اللّهم ٱجعله لوالديه سَلَفا وٱجعـله لهما ذُخرا وٱجعله لهما رَشَدا وٱجعله لهما نُورا وٱجعـله لهما فَرَطا وأَعْقِب لوالديه الجنّة ولا تحرِمنا أجره ولا تفتِنّا بعده" . وعن عَوْف بن مالك رضى الله عنـه قال : سمعت النبيّ صلى الله عليه وسـلم وصلّى على جنازة يقول : "اللّهم ٱغفر له وٱرحمه وٱعفُ عنه وعافِه وأَكرِم نُزُلَه ووسّع مَدْخله وٱغسِله بمـاءٍ وثلج وبَرَد ونَقِّه من الخَطَايا كما يُنَقَّى الثوب الأبيض من الدنَس وأبدله داراً خيراً من داره وأهلًا خيرا من أهله وزوجًا خيرا من زوجه وقِهِ فتنةَ القبر وعذابَ القبر وعذابَ النار" . قال عوف رضى الله عنـه : فتمنّيتُ لو كنت أنا الميّت لدعاء رسول الله صلى الله عليه وسـلم .

*
* *

وأمّا ما يقال عند رؤية الجنازة والتلقين والدفن، وما فى ذلك من الأجر؛

روى عن رسول الله صلى الله عليه وسـلم أنه قال : من رأى جنازةً فقال اللهُ أكبرُ صدَق الله ورسولُه هذا ما وَعَدنا اللهُ ورسولُه اللّهم زِدْنا إيماناً وتسليماً كُتِبَ له عشرون

حسنةٌ فى كلّ يوم من يومٍ يقولها إلى يوم القيامة ". وقال صلى الله عليه وسلم : " لَقِّنوا موتاكم لا إلٰهَ إلا الله " . وقال صلى الله عليه وسلم : " إذا وضعتم مَوْتاكم فى القبر فقولوا بآسم الله وعلى مِلّة رسول الله " . وعن آبن عمر رضى الله عنهما أنه كان اذا سُوِّىَ على الميّت الترابُ قال: " اللّهم أَسْلَمه إليك الأهلُ وا ـالُ والعشيرةُ وذنبُه عظيم فاغفرْ له " . وعن سعيد بن عبد الله الأَوْدىّ قال : شهدت أبا أُمامة وهو فى النَّزع فقال : إذا أنا مِتُّ فاصنعوا بى كما أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نصنع بموتانا ، أمرنا فقال : " إذا مات أحد من إخوانكم فسوّيتم الترابَ على قبره فليقُمْ أحدكم على رأس قبره فليقل يا فلان بن فلانة فإنه يسمعه ولا يُجيبــه ثم يقول يا فلان بن فلانة فإنّه يســتوى قاعدًا ثم يقول يا فلان بن فلانة فإنه يقول أَرْشــدنا رحمك الله ولكن لا تشعرون فليقُل اُذْكُرْ ما خرجتَ عليه من الدنيا شهادة أن لا إلٰه إلّا الله وأنّ محمدا عبدُه ورسولُه وأنّك رضيت بالله ربًّا وبالإسلام دِينًا وبمحمد نبيًّا وبالقرآنِ إماما فإن مُنْكَرًا ونكيرا يأخذُ كلُّ واحدٍ منهما بيدِ صاحبــه ويقول آنطلِقْ بنا ما نقعد عند من لُقِّن حُجّته فيكون الله حجيجَه دونهما" . فقال رجل : يارسول‌الله فإن لم يعرف أُمَّه ؟ قال : " فينسبه إلى حوّاء يا فلان آبن حوّاء " .

⁂

وأمّا ما يقال عند زيارة القبور، عن عائشة رضى الله عنها أنّها تبِعت النبىَّ صلى الله عليه وسلم إلى زيارة البَقِيع فقال لهــا : " قولى السَّلامُ على أهل الديار من المؤمنين والمؤمنات ويرحمُ اللهُ المُستقدِمين منّا والمُستأْخِرين وإنّا إن شاء اللهُ بكم لاحقون" . وكان رســول الله صلى الله عليه وســلم إذا أتى المقابر قال : " السلامُ (١٥٠) عليكم أهلَ الديار من المؤمنين والمسلمين وإنّا إن شاء الله بكم لاحقون أنتم لنا فَرَطٌ ونحن لكم تَبَعٌ أسأل الله العافيةَ لنا ولكم " .

* * *

وأمّا ما يقال عند الإفطار من الصوم، والأكل والشرب، روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا أفطر قال : "اللّهم لك صُمْنا وعلى رزقك أفطرنا فتقبّل منّا إنك أنت السميع العليم" . وعنه صلى الله عليه وسلم : "من قال اللّهم لك صُمتُ وعلى رزقك أفطرتُ وعليك توكّلت كُتِبَ له من الأَجْر بعدد من صام ذلك اليوم". وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنّ أحدكم لَتُوضَعُ مائدةٌ بين يديه فما تكاد أن تُرْفَع حتى يُغْفَرَله". قيل يارسول الله وكيف ذلك ؟ قال : " لأنه يُسَمّى الله إذا وُضعت المائدةُ وأكل ويَحْمَدُ الله إذا رُفعت" . وعن عائشة رضى الله عنها أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إذا نَسِىَ أحدُكم أن يذكر آسم الله فى أوّل طَعامه فليقل بآسم الله أوّلَه وآخِرَه" . وعنه صلى الله عليه وسلم : "من أكل طعاماً ثم قال الحمدُ لله الذى أطْعمنى هـذا الطعامَ ورزقَنيه بغير حول منّى ولا قُوّة غُفِرله ما تقدّم من ذنبه" . وكان رسول الله صـلى الله عليه وسلم إذا أكل قال : "الحمد لله الذى أطعم وسَقَى وسوّغه وجعل له مَخْرَجا" . ومن رواية أنس : "الحمـد لله الذى أَطْعمنى وسقانى وهدانى وكلّ بلاء حسن أبلانى الحمدُ لله الرازقِ ذِى القوّة اللّهم لا تَنْزِعْ منّا صالحا أعطيتَناهُ ولا صالحاً رَزَقْتناهُ وآجعلنا لك من الشاكرين" . وعنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا أكل قال : "الحمـد لله الذى أطعمَنا وسقَانا وأشْبَعَنا وآوانا وكفانا" . وعن علىّ رضى الله عنه قال : دعانى رسولُ الله صلى الله عليه وسـلم فقال : " ياعلىّ إذا شربتَ ماءً فقل الحمدُ لله الذى سـقانا ماءً عَذْبًا فُراتا برحمته ولم يجعله مِلْحًا أُجَاجا بذنوبنا تُكْتَب شاكرا" . وكان صلى الله عليه وسلم إذا أفطر عند أهل بيت قال لهم : "أَفْطَرَ عندكم

الصائمون وأَكَل طعامكم الأبرارُ ونزلت عليكم الملائكة"، ورُوى : "وصلّت عليكم الملائكة وذكركم الله فيمن عنده" .

* * *

وأمّا ما يقال عند لباس الثوب و إلباسه، وعند النظر فى المرآة والتسريح وفى المجلس ، روى أبو سعيد الخُدْرىّ رضى الله عنه أن رسول الله صــلى الله عليه وسلم كان إذا آستجدّ ثوبا ــ سمّاه بآسمه قميصًا أو إزارا أو عمامةً ــ يقول : "اللّهمّ لك الحمدُ أنت كَسَوْتَنِيه اللّهم إنى أسألك من خيره (١) وخيرِ ما صُنِــع له وأعوذُ بك من شرّه وشرِّ ما صُنِــع له" . وعن علىّ رضى الله عنه قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يا علىّ إذا لَبِست ثوبًا فقل بآسم الله الحمــدُ لله الذى كسانى ما أُوَارِى به عَوْرَتى وأستغنى به عن الناس لم يبلغ الثوبُ رقبَتك حتى يُغْفَرَ لك يا علىّ من لبِس ثوبًا جديدًا وكَسَا (٢) أسماله عُرْيانا أو مِسكينا كان فى جِوار الله وأَمْنِه وحفظه ما دام عليه منه سِلْك (٣)" . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مَــن لَبِس ثوبًا فقال الحمــدُ لله الذى كسانى هــذا ورزقنيه من غير حولٍ منّى ولا قوّة غُفِر (٤) له ما تقــدّم من ذنبــه وما تأخر (٥)" . وعن آبن عبّاس رضى الله عنهما قال : كان النبىّ صلى الله عليه وســلم إذا نظر فى المرآة يقول : "الحمــد لله رب العالمين الذى خلقنى وسوّى خَلْقِى وجعلنى بَشَرًا سَوِيًّا ولا حول ولا قوّة إلا بالله" . قال آبن عبــاس رضى الله عنهما : فما تركتُها منذ سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : لا تَمَسّ

(١) الذى فى أذكار النووى ؛ «أسألك خيره ... » بدون كلمة «من» .

(٢) فى الأصول : «أو كسا أسماله ...» وظاهر أن السياق يقتضى الواو دون «أو» . وقد ورد ما يشبه هذا الحديث فى أذكار النووى (ص ١١) وأداة العطف فيه «ثم» .

(٣) السلك : الخيط .

(٤) فى الأصل : «إلا غفر له» بزيادة «إلا» وهى غير موجودة فى أذكار النووى .

(٥) كلمة «وما تأخر» غير موجودة فى أذكار النووى .

وجهَ من قالها سوءٌ أبدا . وعن عليّ رضى الله عنه قال : دعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "يا عليّ إذا نظرت فى المرآة فقل اللهم كما حسّنتَ خَلْقى فأَحْسِنْ خُلُقى وآرزقنى" . وعن الرِّضَى عليّ بن موسى عن أبيه عن آبائه أبًا فأبًا رضى الله عنهم عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "من أمَرّ المشط على رأسه ولِحيته فى كل يوم سبعَ مرّات وقال فى كلّ مرة سبحانَ الله العظيم وبحمده لا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم لم يقارنه ذنب". وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "من جلس فى مجلس كثُر لَغَطه فيه فقال قبل أن يقوم سبحانَك اللّهم ربّنا وبحمدك لا إلهَ إلّا أنت أستغفرُك وأتوبُ إليك غَفَر الله له ما كان فى مجلسه ذلك" .

* * *

(١٥١) وأمّا ما يقال فى المرض والرُّقَى والوَسْواس والحَرِيق؛ عن عائشة رضى الله عنها أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول للمريض : "بآسم الله تربةُ أرضنا وريقةُ بعضِنا يُشْفَى سقيمُنا بإذْن ربّنا"[1] . وعن عثمان بن أبى العاص الثقفيّ رضى الله عنه قال : قدِمتُ على رسول الله صلى الله عليه وسلم وبى وَجَعٌ قد كاد يُبْطلنى فقال لى صلى الله عليه وسلم : "آجعل يدك اليمنى عليه ثم قل بآسم الله أعوذُ بعزة الله وقدرته من شرّ ما أَجِد سبعَ مرات"[2]، ففعلت ذلك فشفانى الله تعالى . وعنه صلى

(١) كذا فى الأصول . وفى صحيح مسلم : «باسم الله تربة أرضنا بريقة بعضنا ليشفى به سقيمنا بإذن ربنا وقال ابن أبى شيبة : يشفى وقال زهير : ليشفى به سقيمنا» . وفى الأذكار للنووى (ص ٦١) : «وروينا فى صحيحى البخارى ومسلم وسنن أبى داود وغيرها ، إلى أن قال : بسم الله تربة أرضنا بريقة بعضنا يشفى به سقيمنا بإذن ربنا ، وفى رواية تربة أرضنا وريقة بعضنا» ا هـ . فما فى الأصول هنا يوافق بعض الروايات .

(٢) الذى فى صحيح مسلم : «عن عثمان بن أبى العاص الثقفى أنه شكا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعا يجده فى جسده منذ أسلم فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ضع يدك على الذى تألم من جسدك وقل باسم الله ثلاثا وقل سبع مرات أعوذ بالله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر» .

الله عليه وسلم : "من عاد مريضًا لم يحضُرْ أجلُه فقال عنده سبعَ مرات أسألُ الله العظيم ربَّ العرش العظيم أن يَشفيك إلا عافاه الله من ذلك المرض" . وكان صلى الله عليه وسلم إذا دخل على مريض وضع يده اليمنى على خَدّه وقال : "أذهِب البَاس، ربَّ النّاس وٱشفِ أنت الشافى شِفاءً لا يغادر سَقَمًا" . وعن عبـد الله بن مسعود رضى الله عنه أَنه قرأ فى أُذُنِ مبتلًى فأفاق، فقال له النبيّ صـلى الله عليه وسلم : "ما قرأت فى أذنه"؛ قال : قرأت (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا) إلى آخر السورة. فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "لو أنّ رجلًا مُوقِنًا قَرَأ بها على جبلٍ لزال" . وعن ٱبن عمر أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "من رأى صاحب بَلَاءٍ فقال الحمد الذى عافانى ممـا ٱبتلاكَ به وفضّلنى عليك وعلى كثيرٍ ممن خَلَق الله عافاه الله من ذلك البلاء كائنًا ما كان أبدًا ما عاش" . وعن عائشة رضى الله عنها قالت : كنت أَرقِى رسول الله صلى الله عليه وسلم من العَين فأضعُ يدى على صدره وأقول : أَذهِب البَاس، ربَّ الناس؛ بيدك الشفاءُ ولا كاشف له إلا أنت . وعن ٱبن عبّاس رضى الله عنهما رفع الحديث أَنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "هٰذه الكلمات دواءٌ من كلّ داء أعوذُ بكلمات الله التامّة وأسمائه كلها عامّة من السامّة والهـامّة وشرِّ العين اللّامّة ومن شرِّ حاسـِدٍ إذا حَسَـد ومن شرِّ أبى قِتْرَة(١) وما وَلَد ثلاثون من الملائكة أَتَوا ربَّهـم عز وجل فقالوا وَصَبٌ بأرضنا فقال خُذُوا تربةً من أرضكم وٱمسحوا بوَصَبكم رُقْيَةُ محمد صلى الله عليه وسلم من أخذ عليها صَفَدًا(٢) أو كَتَمها أحدًا فلا أَفْلح أبدا" . وعن علىّ رضى الله عنـه قال : من ٱشتكى ضِرْسـه فليأخذ الترابَ من موضع سجوده ثم يمسح يده على الموضع الذى يشتكى، ثم يقول : بٱسم الله ، والشافى الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله . وعن أبى الدرداء رضى الله عنـه أنه أتاه رجل فذكر له أن

(١) أبو قترة : إبليس . (٢) الصفد (بفتحتين) : العطاء .

أباه آحتبس بولُه وأصابته حَصَاةٌ منعته البول فعَلّمه رُقْيــة سمعها من النبيّ صلى الله عليه وسلم وهى : "رَبُّنا الله الذى فى السماء تقدّس آسمك أمْرُك فى السماء والأرض كما رَحْمتُك فى السماء فآجعل رحمتك فى الأرض وآغفرْ لنا حُوبَنا[1] وخطايانا أنت ربّ الطيّبين فأَنْزِل شفاءً من شفائك و رحمةً من رحمتك على الوَجَع فيبرأ"، فامره برَقْيه بها فرقاه بهـا فبرئ . وعن علىّ رضى الله عنه أن جبريل عليه السلام أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم فوافقه مُغْتَمًّا، فقال : يا محمد، ما هذا الغمّ الذى أراه فى وجهك؟ قال : "الحسن والحسين أصابتهما عَيْن" . فقال : يا محمد، صدِّق العينَ فإن العَيْنَ حقّ . ثم قال : أفَلا عوذتَهما بهؤلاء الكلمات؟ فقال : "وما هنّ ياجبريل"؛ فقال: "قل اللّهمّ ذا السلطان العظيم، ذا المَنِّ القديم، ذا الوجهِ الكريم، والكلمات التامّات، والدعوات المُستجابات عافِ الحسنَ والحسينَ من أَنْفُس الجنّ وأَعْيُن الإنس" . فقالهـا النبيّ صلى الله عليه وسلم فقاما يلعبانِ بين يديه . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم لأصحابه : "عَوِّذُوا أنفسكم بهذا التعوُّذ فإنّه لم يتعوّذ المتعوِّذون بمثله" . وعن علىّ رضى الله عنه قال : دعانى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : "أَمَانٌ لك من الحَرَق أن تقول سبحانَك ربّى لا إلهَ إلّا أنت عليك توكّلتُ وأنت ربّ العرش العظيم" . وعنه أيضا رضى الله عنه قال : دعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "يا علىّ أمانٌ لك من الوَسْواس أن تقـرأ ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَـكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴾ . ﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴾ " .

*
* *

وأمّا ما يقال عنـد دخول السوق وشراء الجارية والدابّة، رُوى أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا دخل السوق قال : "اللّهم إنّى أسألك من خير

(١) الحوب : الإثم .

هذه السوق وأعوذُ بك من الكفر والفُسوق" . وعن عليّ رضى الله عنه قال : قال (١٥٤) لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يا عليّ إذا دخلت السوق فقــل حينَ تدخل بٱسم الله وبالله أشهــدُ أن لا إلٰهَ إلّا الله وأشهدُ أنّ محمدًا عبــدُه ورسوله يقول الله عز وجل عبدى هذا ذَكَرنى والناسُ غافلون اشهَدوا أنّى قد غفرتُ له" . وعن عمر ٱبن الخطاب رضى الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "من دخل السوق فقال لا إلٰهَ إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يُحيي ويُميت وهو حيٌّ لا يموت بيده الخيرُ وهو على كل شيء قدير كتب اللهُ له ألفَ ألفِ حسنة ورفع له ألفَ ألفِ درجة" أو قال : "وبنى له بيتًا فى الجنّة" . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا أفاد أحدُكم الجـاريةَ أو المرأةَ أو الدابّة فليأخذْ بناصيتها وليَدْعُ بالبركة وليقُل اللّهم إنّى أسألك خيرَها وخيرَ ما جُبِلَتْ عليه وأعوذُ بك من شرِّها وشرِّ ما جُبِلت عليه فإن كان بعيرًا فليأخذ بذروة سَنَامه" .

*
* *

وأمّا ما يقال عند هبوب الرياح وفى الرعد والمطر، عن أُبَيّ بن كعب رضى الله عنه أن الريح هاجت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فسبّها رجلٌ فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم: "لا تسبّها فإنها مأمورة ولكن قل اللّهم إنى أسألك خيرَها وخيرَ مافيها وخيرَ ما أُمِرَتْ به وأعوذُ بك من شرّها وشر مافيها وشرّ ماأُمِرت به" . وعن ٱبن عمر رضى الله عنهما قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سمِـع الرعْد أو البرْق قال . "اللّهم لا تقتلنا غَضَبًا ولا تقتلنا بغتةً وعافِنا قبل ذلك". وعن عائشة رضى الله عنهـا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا سمع الرعد والصواعق قال : "اللّهم لا تُهْلِكنا بغضبك ولا تقتلنا بعذابك وعافِنا قبل ذلك". وعن أَنَس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان لا يرفع يديه فى شيء من الدعاء إلا فى الاستسقاء

حتى يُرى بياضُ إبطَيه . وعن كعب بن مُرّة السلميّ رضى الله عنه قال : كنّا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وجاءه رجل فقال : يا رسول الله، آستسق اللهَ لمُضَر، فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه وقال: "اللّهم آسقِنا غَيْثاً مُغيثا مَرِيعا مريئا عاجلًا غيرَ رائثٍ نافعًا غيرَ ضارّ" . قال : فما جَمَّعوا[1] حتى أَحْيَوْا[2] . فأتوه فشكَوْا إليه المطرَ فقالوا : يا رسول الله قد تهدّمت البيوتُ . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بيديه : "اللّهم حَوَالَيْنا ولا علينا"، فجعل السحاب يتقطّع يميناً وشِمالا . وعن عائشة رضى الله عنها أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان إذا رأى ناشئًا فى أُفُق السماء ترك العمل و إن كان فى صلاة، ثم يقول : "اللّهم إنى أعوذُ بك من شرّها"؛ فإن رأى مطرا قال : " اللّهم صَيِّبًا هَنِيئا " . وعنها رضى الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رأى المطرَ قال : "اللّهم صيّباً نافعا" .

٭ ٭ ٭

وأمّا ما يقال فى الخوف والشدائد؛ عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إذا تخوّف الرجلُ من السلطان فليقل اللّهم ربّ السمٰوات السبع وربّ العرش العظيم كن لى جارًا من فلان بن فلان يسمّى الذى يريد وشرّ الجنّ والإنس وأحزابهم وأتباعهم أن يفرُط علىّ أحدٌ منهم أو يَطْغَى عَزّ جارُك وجلّ ثناؤك ولا إلهَ غيرُك" . وعن آبن عباس رضى الله عنهما عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : " من خاف من السلطان أو غيره فليفزَعْ إلى هذه الدعوة اللهُ أكبرُ وأعزُّ من خَلْقه جميعا اللهُ أكبرُ وأعزُّ ممّا أخافُ وأحذَر وأعوذ بالله الذى لا إلهَ إلّا هو مُمْسِك السمٰوات السبع أن يَقَعْنَ على الأرض إلّا بإذنه من شرّ فلان

(١) جمّعوا : شهدوا الجمعة .

(٢) أحيوا : حييت ما شيتهم وحسن حالها وصاروا فى الخصب (عن قاموس) .

آبن فلان يا ربّ كن لى جارًا من شرّه عزّ جارُك وجلّ ثناؤك ولا إلٰهَ إلا أنت العلىّ العظيم يقولهنّ ثلاثَ مرات إلّا أعاذه الله من شرّ ذلك" . وعن علىّ رضى الله عنه قال : دعانى النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال : "يا علىّ إذا آشتدّ بك أمرٌ فكَبِّرْ ثلاثًا وقل اللهُ أكبرُ وأعزُّ من كل شىء واللهُ أكبرُ أعزّ من خَلقه وأقدر وأعزّ مما أخاف وأحذر اللّهــم أَدْرَأُ بك فى نَحْــره وأعوذُ بك من شرّه فإنك تُكْفَى بإذن الله عزّ وجل" .

* * *

١٥٣ وأمّا ما يقال فى الغضب والفزع، عن سليمان بن صُرَد رضى الله عنه قال : آستَبّ رجلان عند النبىّ صلى الله عليه وسلم فجعل أحدُهما تحمَرّ عيناه وتنتفِخ أوداجهُ . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنّى لأعرف كلمةً لو قالها لَذَهَب عنه الذى يجد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم " . وعن النبىّ صلى الله عليه وسلم : " إذا فزع أحدكم فليقُلْ أعوذُ بكلمات الله التامّة من غضبه وعذابه[(١)] ومن شرّ عبــاده ومن هَمَزَات الشياطين وأن يحضرونِ فإنّها لم تضرّه" . قال فكان عبد الله يعلّمها من بلغ من ولده، ومن لم يبلُغْ منهم كَتَبها فى صَكٍّ وعلّقها عليه . وفى لفظ :"إذا فزع أحدكم فى النوم فليقل .." يعنى الكلمات، وفى طريقٍ : كان خالد بن الوليد رجلا يفزع فى نومه فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : "إذا آضطجعت للنوم فقل .." يعنى الكلمات ، فقالها فذهب ذلك عنه .

* * *

وأمّا ما يقال فى السفر وركوب الدابّة والسفينة ودخول القرية، عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفرا توضّأ

(١) ذكر هذا الحديث فى أذكار النووى مرات ولم تذكر فيه كلمة «وعذابه» .

فأسبغ وضوءه وصلّى ركعتين، ويقول وهو فى مجلسه مستقبِلَ القبلة: "الحمد لله الذى خلقنى ولم أكُ شيئا ربِّ أَعِنِّى على أهوال الدنيا والآخرة ومن مصيبات الليالى والأيّام فى سفرى فآحفظنى وفى أهلى فآخْلُفنى" . وعن النبىّ صلى الله عليه وسلم : "ما آستخلَف العبد فى أهله إذا هو شدّ عليه ثيابَ سفره خيرًا من أربع ركعاتٍ يُصَلِّيهِنّ(١) فى بيته يقرأ فى كل واحدة بفاتحة الكتاب وقل هو الله أحد ثم يقول اللّهم إنّى أتقرّب بهنّ اليك فاجعلْهُنّ(٢) خليفتى فى أهلى ومالى قال فهو خليفته فى أهله وماله وولده ودُورٍ حولَ داره حتى يرجعَ إلى داره" . وعن أنس رضى الله عنه قال : لم يُرِد النبىّ صلى الله عليه وسلم سفرًا قطّ إلا قال حين ينهض من جلوسه : "بك آنتشرتُ إليك وَجّهتُ(٣) وبك آعتصمت أنت ثِقتى ورجائى اللّهم آكفِنِى ما يهمّنى وما لا أهتمّ به وما أنت أعلم به منّى اللّهم زوّدنى التقوَى وآغفرلى ذنبى ووجّهنى إلى الخير أينما توجّهتُ" . وعن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إذا ركبتم الإبل فتعوّذوا بالله وآذكروا آسم الله عليه فإنّ على سَنَام كلّ بعيرٍ شيطانا". وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا آستوى على بعيره يريد السفر كبّر ثلاثا ثم قال : "سبحانَ الذى سخّر لنا هذا وما كُنّا له مُقرِنِين وإنا إلى ربّنا لَمُنْقَلِبُون اللّهم إنا نسألك فى سفرنا هذا البِرّ والتقوى ومِن العمل ما ترضَى اللّهم هَوِّنْ لنا سفرنا هذا وآطوِ عنّا بُعْدَه اللّهم أنت

---

(١) كذا فى شرح الإحياء طبع المطبعة الميمنية (ج ٦ ص ٤٠٢) . وفى الأصل «يصعهن» .

(٢) ورد هذا الحديث فى كتاب منتخب كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال الموضوع بهامش الجزء الثالث من مسند الامام أحمد بن حنبل طبع مصر سنة ١٣١٣ هـ (ج ٣ ص ٣٩) مع شىء يسير جدا من النقص أو الزيادة . وفيه «واجعلهن خليفتى فى أهلى ومالى فهى خليفة» الخ .

(٣) كذا فى الأصلين . وقد روى هذا الحديث فى منتخب كنز العمال : «اللهم بك انتشرت وبك توجهت وبك اعتصمت اللهم أنت ثقتى وأنت رجائى اللهم اكفنى ما أهمنى وما لا أهتم به وما أنت أعلم به اللهم زودنى التقوى» الخ .

الصاحبُ فى السفر والخليفةُ فى الأهل والمـال والولد» ، وإذا رجع صلى الله عليه وسلم قالهن وزاد فيهن : «آئبون تائبون لربِّنا حامدون» . وعن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان إذا قفَل من حَجّ أو عُمرة فأَشرفَ على شَرَف كبّر ثلاثا ثم قال : «لا إلهَ إلّا الله وحده لا شريك له له الملكُ وله الحمدُ وهو على كل شىء قدير آئبون تائبون لربِّنا حامدون صدق اللهُ وعدَه ونصر عبدَه وهزم الأحزاب وحدَه وكُلُّ شىء هـالكٌ إلّا وجهَه له الحكمُ وإليـه تُرْجعون اللّهـم إنى أعوذ بك من وَعْثاء السفَر وكآبة المُنْقلَب وسوءِ المنظَر فى الأهل والمـال» . وعن ابن عبّاس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أَمَانٌ لأُمّتى من الغَـرَق إذا ركِبوا السُّـفُن أن يقولوا بسم الله الرحمٰن الرحيم وما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِه والأرضُ جميعًا قَبْضَتُهُ يومَ القيامةِ والسمٰواتُ مَطْوِيّاتٌ بِيَمِينه سبحانَهُ وتَعَالَى عَمّا يُشْرِكون باسم الله مَجْرِيها ومُرْساها إن رَبِّى لَغَفُورٌ رَحِيم» . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سافر فأقبل اللّيلُ قال : «يا أرضُ ربِّى وربُّكِ اللهُ أعوذُ بالله من شرِّكِ وشرّ ما فيـك وشرّ ما يدِبّ عليكِ أعوذُ بالله من أَسَدٍ وأَسْوَدَ ومن الحيّة والعقرب ومن ساكِنِ البلد ومن والد وما وَلَد» . وعن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه قال : قال لى رسـول الله صلى الله عليه وسلم : «يا علىّ إذا نزلتَ منزِلًا فقـل باسم الله اللّهم أَنْزِلْنا منزِلًا مباركا وأنت خيرُ المُنْزِلين تُرْزَقْ خيرَه ويُدْفَعْ عنك شرُّه» . (١٥٤)

وقال صلى الله عليه وسـلم : «مَنْ نزل منزِلًا ثم قال أعوذُ بكلماتِ الله التامّات كلِّها من شرِّ ما خلق لم يضرّه شىءٌ حتى يرتحل من منزله ذلك» . وعن علىّ رضى الله عنه قال : دعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : «إذا أردتَ الدخول إلى مدينة أو قرية فقـل حين تُعاينها اللّهم إنّى أسألك خيرَ هـذه القريةِ وخيرَ ما كتبتَ فيها وأعوذُ بك من شرِّها وشرِّ ما كتبتَ فيها اللّهـم ارزُقْنى خيرَها وأعوذُ بك من شرِّها

وحَبِّبْنا إلى أهلها وحَبِّبْ أهلَها إلينا " . وعن صُهَيب رضى الله عنه أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يرَ قريةً يُريدُ دخولَها إلّا قال: "اللّهم ربَّ السمٰوات السبع وما أظْلَلْنَ وربَّ الأرَضِين السبع وما أقْلَلْنَ وربَّ الرياحِ وما ذَرَيْنَ وربَّ الشياطينِ وما أضْلَلْنَ أسألك خيرَ هـذه القـريةِ وخيرَ ما فيها وأعوذ بك من شرِّها وشرِّ ما فيها" . وعن أبي هُريرة رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سافر فأراد أن ينزل قريةً عدَل إليها وقال : "اللهُ أكبرُ ثلاثا اللّهم ارزُقْنا خيرَها واصْرِفْ عنّا وَبَاءَها وحَبِّبْنا إلى صالح أهلها وحَبِّبْهم إلينا" .



وأمّا ما يقال فى الزواج والجماع؛ عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا تزوج أحدُكم ثم دخل على أهله فليقُل اللّهمّ بارك لى فى أهْلى وبارك لأهلى فىّ وارزُقْنى منها وارزقها منى واجْمَع بيننا ما جمعتَ فى خيرٍ وإذا فرّقتَ بيننا ففرّق فى خير" . وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : "لو أن أحدكم إذا أتى أهلَه قال اللّهم جنّبْنِى الشيطانَ وجَنِّب الشيطانَ ما رزقتَنى فإنْ قُضِى بينهما وَلَدٌ(١) لم يضرّه الشيطان"، أو قال : "لم يُسَلَّط عليه" .

وأمّا ما يقال فى قضاء الدَّين ونجاح الحوائج؛ عن أبى سَعيد رضى الله عنه قال : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم المسجدَ فإذا هو برجل من

(١) كذا فى الأصلين . وفى أذكار النووى (ص ١٢٥) عن رواية صحيحى البخارى ومسلم : «لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال باسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا فقضى بينهما ولد لم يضره» وفى رواية للبخارى : « ... لم يضره شيطان أبدا» .

الأنصار يقال له أبو أمامة ، فقال : " يا أبا أمامة مالى أراك جالساً فى المسجد فى غير وقت صلاة "؟ قال : هموم لزمتنى وديون يارسول الله . قال : "أفلا أعلّمك كلاماً إذا قلته أذهب الله همّك عنك وقضى عنك دَيْنَك "! قال : بلى يارسول الله . قال : "قل إذا أصبحتَ وأمسيتَ اللّهم إنى أعوذ بك من الهمّ(١) والحَزَن وأعوذ بك من العجز والكَسَل وأعوذ بك من الجبن والبُخْل وأعوذ بك من غَلَبة الدَّين وقَهْر الرجال "، قال : ففعلت ذلك فأذهب الله همّى وقضى عنّى دَيْنى . وعن مُعاذ ابن جَبَل رضى الله عنه أنّه تخلّف عن صلاة من الصلوات ففقده النبيّ صلى الله عليه وسلم . فلما جاءه قال: "ما خلّفك عن الصلاة يامعاذ" ؟ قال : لِيُوحنّا اليهودىّ علىّ دَيْنٌ فخشيتُ إن خرجتُ أن يلزمَنى فلا أنا وصلتُ إليك ولا أنا كنتُ فى أهلى . فقال صلى الله عليه وسلم : " ألَا أعلّمك(٢) كلماتٍ إذا قلتهنّ قضى الله عنك دينَك ولو كان مثلَ الأرض أو مثل صِبِرٍ(٣) ذهباً أو وَرِقاً قضاه الله عنك"! قلت : بلى يا رسول الله قال : " قل اللّهُمّ مَالِكَ المُلْكِ تُؤْتِى المُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وتَنْزِعُ المُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الخَيْرُ إنّكَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ. تُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وتُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ وتُخْرِجُ الحَىَّ مِنَ المَيِّتِ وتُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَىِّ وتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ. رَحْمٰنَ الدنيا والآخرةِ ورحيمَهما تُعطِى منهما من تشاء وتمنع منهما من تشاء أسألك بعزّتك ورحمتك أن تقضىَ عنّى دَيْنى" . وعن عبد الله بن أبى أَوْفَى الأسلمىّ رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من كانت له

(١) كذا فى "أذكار النورى (ص ٣٩) . وفى الأصلين : «... من الجبن والحزن.. » .

(٢) كذا فى نزل الأبرار بالعلم المأثور من الأدعية والأذكار طبع مطبعة الجوائب (ص ٢٦٤). وفى الأصلين : «ألا أكلمك ... » .

(٣) صبر (بفتح فكسر) : جبل من جبال اليمن مطل على قلعة «تعز» المدينة المشهورة بها . (عن تاج العروس) .

حاجةٌ إلى الله أو إلى أحد من بنى آدم فليتوضّأ وليُحسِنِ الوضوءَ وليصلِّ ركعتين ثم ليُثْنِ على الله عز وجل ويصلِّ على النبيّ صلى الله عليه وسلم ثم ليقُلْ لا إله إلا الله الحكيم الكريم سبحانَ الله ربِّ العرش العظيم والحمدُ لله ربّ العالمين أسألك مُوجباتِ رحمتك وعزائمَ مغفرتِك والغنيمةَ من كلِّ برّ والسلامةَ من كلِّ ذنب لا تدع لى ذنباً إلا غفرتَه ولا همًّا إلا فرّجتَه ولا حاجةً هى لك رِضًا إلا قضيتَها". وعن علىّ رضى الله عنه قال : دعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "يا علىّ إذا خرجتَ من منزلك تريدُ حاجةً فاقرأْ آيةَ الكُرْسىّ فإنّ حاجتَك تُقْضَى إن شاء الله تعالى" . وعنه رضى الله عنه قال : " إذا أراد أحدُكم الحاجةَ فليُبَكِّرْ فى طلبها يوم الخميس وليقرأْ إذا خرج من بيته آخر سورةِ آلِ عِمْرانَ وآيةَ الكرسىّ وإنّا أنزلناه فى ليلة القدر وأُمَّ الكتاب فإنّ فيها قضاءَ حوائج الدنيا والآخرة" . (١٥٥)

* * *

وأمّا ما يقال فى ردّ الضالّة ؛ عن مكحول رضى الله عنه أنه كان يدعو فى الضالّة : اللّهم هادىَ وراَدَّ الضَّوَالِّ ارْدُدْ علىّ ضالّتى ولا تُعَنِّنى بطلبها ولا تَفْجَعْنى بمُصِيبتها فإنها من رزقك وعطائك . وكان يقول فى الآبق : اللّهم ضَيِّق عليه البلادَ واجعلْه فى أضيقَ من ضرورة الحمل[(١)] حتى تَرُدَّه .

* * *

دعاء الاستخارة ؛ عن أبى بكر الصِّدِّيق رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إذا أراد الأمرَ : "اللّهم خِرْلِى واخْتَرْ لى" . وعن جابر

(١) كذا فى الأصل . وقد راجعنا كثيرا من كتب الحديث والأدعية فلم نوفق له . وفى كتاب مجموعة فى الصلوات والعوائد المطبوع بالمطبعة الكاستلية سنة ١٢٩٦ هـ (ص ٢٨) وردت العبارة الآتية فى عزيمة العبد الآبق وهى : «اللهم إنى أسألك يا مالك السموات والأرض ومن فيهن أن تجعل ما بين السماء والأرض وما فيهما على عبد فلان بن فلانة أضيق من حلقة حتى يرجع الى مولاه برحمتك يا أرحم الراحمين» .

ٱبن عبد الله رضى الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُعَلِّمنا الاستخارةَ فى الأمور كما يعلِّمنا السورةَ من القرآن، يقول: "إذا همّ أحدكم بالأمر فليركَعْ ركعتين من غير الفريضة ثم ليقُلْ اللّهم إنِّى أستخيرُكَ بعلمك وأستَقْدِرُك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدِر ولا أقدِر وتعلَم ولا أعلَم وأنت علّامُ الغيوب اللّهم إنْ كنت تعلم أن هذا الأمرَ خيرٌ لى فى دِينى ومَعاشى وعاقبةِ أمرى — أو قال فى عاجل أمرى وآجله — فٱقدُرْهُ لى [ويسّره لى ثم بارك لى فيه](١) وإن كنتَ تعلم أن هــذا الأمرَ شرٌّ لى فى دِينى ومعاشى وعاقبةِ أمرى — أو قال فى عاجل أمرى وآجله — فٱ[صْرِفه عنِّى وٱ](١) صرِفْنى عنه وٱقدُرْ لى الخيرَ حيث كان ثم رَضِّنى به ويُسَمِّى حاجتَــه".

ذكر ما ورد فى أسماء الله الحسنى والاسم الأعظم

قال الله تعالى: (وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا). وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن لِلهِ عز وجل تسعةً وتسعين ٱسماً مائةً غيرَ واحدٍ إنّه وِترٌ يُحبّ الوتر مَن أحصاها دخل الجنــة هو الله الذى لا إلٰهَ إلّا هُوَ الرحمن، الرحيم، الملك، القُدُّوس، السَّــلَام، المُؤْمِن، المُهَيمِن، العزيز، الجبّار، المتكبِّر، الخالق، البارئ، المصوِّر، الغفّار، القهّار، الوهّاب، الرزّاق، الفتّاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المُعِزّ، المُذِلّ، السميع، البصــير، الحَكَم، العَدْل، اللطيف، الخبير، الحليم، العظيم، الغفور، الشكور، العلىّ، الكبير، الحفيظ، المُقِيت، الحسيب، الجليل، الكريم، الرقيب، المجيب، الواسع، الحكيم، الودود، المَجِيد، الباعث، الشهيد، الحقّ، الوكيل، القوىّ، المتين، الولىّ، الحميد،

(١) زيادة عن كتاب الأذكار للنووى (ص ٦٥).

المُحْصِى ، المُبْدِئُ ، المُعيد ، المُحيِي ، المُميت ، الحيّ ، القيّوم ، الواجد، الماجد ، الواحد ، الصَّمَد ، القادر، المقتدِر، المقدِّم ، المُؤَخِّر، الأوّل ، الآخِر، الظاهر، الباطن، الوالى، المتعال ، البرّ، التوّاب ، المنتقم، العفوّ ، الرءوف ، مالك الملك ، ذو الجلال والإكرام ، المُقْسِط ، الجامع ، الغنى، المغنى، المانع، الضارّ ، النافع ، النور، الهادى، البديع ، الباقى ، الوارث ، الرشيد ، الصَّبُور .

وقد نبّه البُونى رحمه الله فى اللُّمعة النورانية على كيفية العلم والعمل بأسماء الله الحسنى وخاصيّة كل آسم منها، ورتّب ذلك وجعله عشرة أنماط فقال :

النمـــط الأوّل

مِنْ نَظْمِ الأسماء آسمُه الله، والإله ، والربّ ، والخالق ، والبارىء، والمصوّر، والمبدئ والمُعيد، والمُحيِي، والمُميت . قال البونى : هذا النمط عشرة أسماء لاتكون إلّا أذكارا للذاكرين [على آختلاف][1] أحوالهم . فالله والإله ذِكْرُ الأكابر والمُوَلَّهين فى الغالب . والربّ، والخالقُ، والبارئ ذكر الأكابر من السالكين المُرِيدين[2] . والمصوّر، والمبدئ، والمعيد، والمُحيِي، والمُميت ذكر عباد الله المتعبِّدين والمتبصّرين[3] .

النمـــط الثـانى

الأحد، الواحد، الصمد، الفعّال، البصير، السميع، القادر، المقتدر، القوىّ، القائم . قال : هذه الأسماء العشرة سِلْكٌ واحدٌ فى تقارب الأذكار ؛ وهذا القسم فيه أذكار السالكين المتعلّقين بأسرار التوحيد ذِكرُهم الأحد والواحد . وأمّا الصمد

(١) الزيادة عن اللمعة النورانية .

(٢) فى إحدى نسختى اللمعة النورانية : من المسلكين المريدين .

(٣) فى إحدى نسختى اللمعة : "المعتبرين والمتبصرين" .

فذكر يصلح للمرتاضين[1] بالجوع، فذاكره لا يُحسّ بألم الجوع البتّــة ما لم يُدخل عليه ذكرا غيره[2] . والفعّال آسم للمغلوبين بالخواطر والوساوس وكثرة الأفكار وآغتمام القلب [بهذا السبب][3]؛ فهما ذكره مَنْ هذه صفتُه تقلّبت[4] أفكاره إلى ما يقع له به سرور وفرح. وأما السميع والبصير فتنزيه جليل، وهو ذكر يصلح للمحّين فى الدعاء فإنه ربما أسرعت لهم الإجابة . وأمّا القـادر، والمقتـدر، والقوىّ، والقائم فذكر يصلح لأصحـاب الإعياء والحِرَف الثقيلة؛ ولو علم سرّه من يعانى الأثقال وآستدامه لم يحسّ بثقلٍ فيما يتعاطاه البتّة؛ ومن نقشهـا[5] فى فص خاتم وتختّم به أدرك ذلك لوقته؛ ومن ضَعُف عن شىء ما وعلّقه عليه وذَكَره قوِى لوقته .

النمـــط الثـالث

الحىّ، القيُّوم، الرحمن[6]، الرحيم، الملك القـدير[7]، العلىّ، العظيم، الكبير، المتعال . قال : هذا القسم من الأسمـاء يحتوى على أذكار المراقبين، وفيه أعمـال جليـلة البرهان . فالحىّ القيُّوم اسمان جليلان، ذكرٌ لأهل الحضرة، وهو من أذكار إسرافيل وملائكة الصُّور أجمعين، يصلُح أن يُذكر من مبـادئ الفجر إلى طلوع الشمس، يجد ذاكره من الزيادة والخشـية والتطلُّع إلى طلب الفضائل ما لم

---

(١) فى نسختى اللمعة النورانية : "للتربصين" .

(٢) كذا فى إحدى نسختى اللمعة . وفى الأخرى والأصلين : "ما لم يدخل عليه ذكر غيره" .

(٣) الزيادة عن اللمعة النورانية .

(٤) فى نسختى اللمعة النورانية : "نقلت" .

(٥) فى الأصلين ونسختى اللمعة النورانية : "ومن نقشهم" بميم الجمع . وظاهر أن قواعد اللغة لا تقتضيها

(٦) كذا فى إحدى نسختى اللمعة . وفى الأصلين وفى نسخة أخرى من اللمعة : "ياحى ياقيوم الرحمن" الخ

(٧) كذا فى إحدى نسختى اللمعة . وفى نسخة أخرى منها وفى الأصلين : "القدوس" ووجد بأحد الأصلين كلمة "القدير" فوق كلمة القدوس .

يمهّده قبلُ؛ ومن نقش الاسمين عند طلوع الشمس [من يوم الجمعة](1) مستقبلَ القبلة على ذِكْرٍ وأمسكه عنده أحيا الله ذِكْرَه إنْ كان خاملا، وأحيا رزقَه إنْ كان قليلا(2) . وأمّا الرحمن الرحيم فأذكارٌ شريفة للضطرين وأمانٌ للخائفين لا ينقُشه أحدٌ فى خاتم فى يوم جمعة آخر النهار فيرى ما يكرهه مادام عليه . ومن أكثر من ذكره كان ملطوفًا به فى كل أموره . وأمّا الملك والقدير ف[ذكر](3) يذكر عند كل ذى ملك وقدرة فإنه ما من مَلِك يستديم هذا الذِّكرَ فى عموم أوقاته إلّا ثبت مُلْكه وانبسطت قدرته؛ (١٥٧) ويصلح للسالك الذى تغلبه شهواتُ نفسه؛ فإنه ما يستديم ذكره مَنْ هذا مقامُه إلا بعث الله إليه قوّةً مَلَكيّة تؤيّده وتنصره على من يخالفه من عوالمه . وأما العلىّ العظيم فللتنزيه . والكبير المتعال مناسب للتنزيه أيضا ، وهما اسمان لائقان(4) بأهل التعظيم من أرباب الأحوال ليس للعامّة فى الذكر بهما(5) قسم .

النمـــط الرابع

المهيمن، المُقيت، العزيز، الجبّار، المتكبِّر، المحيط ، الحفيظ، الفاطر، المجيد ذو الجلال . قال البونى : أمّا المهيمن ، والمُقيت فللعلم والاستيلاء(6) والمراقبة فى الجزئيات والكليات . والعزيز ، والجبّار ، والمتكبِّر فمن أسماء صفات الذات اللازمة للخوف والرهبة والعظمة، لا يذكرها(7) ذليل إلا عزّ، ولا حقير إلا ارتفع، ولا بين يدى جبّار إلا ذلّ وخضع ، ولا يذكرها(7) ملك من ملوك الأرض إلا وجد

---

(١) هذه الكلمة ساقطة من نسختى اللمة .

(٢) كذا فى نسختى اللمة . وفى الأصلين : "أحيا الله ذكره وإن كان خاملا وأحيا رزقه وإن كان قليلا" .

(٣) زيادة عن نسختى اللمة النورانية .

(٤) كذا فى نسختى اللمة النورانية . وفى الأصلين : «وهما اسمان يليق» .

(٥) فى الأصلين : «بهم» .

(٦) فى نسختى اللمة النورانية : «فللعلم بالأشياء» .

(٧) فى الأصلين ونسختى اللمة بميم الجمع، وقواعد اللغة تقتضى ما وضعناه .

فى نفســه ذِلَّةً وآنكسارا . وأما الحفيظ فإنه آسم سريع الإجابة للخائفين فى الأسفار. وأما المحيط، والمجيد، والفاطر، وذو الجلال، فأسماء التنزيه وزيادات فى التوحيـــد .

النمــــط الخــامس

العليم، الحكيم ، البديع، النور، القابض، الباسط ، الأوّل الآخر، الظاهر ، الباطن . قال : هذا القسم من الأسماءِ جليل القدر عظيم الشأن. فأمّا العليم، والحكيم فللتوحيد الخاص، لا يصلحان إلا لِمَنْ أُبْهِمَ عليه أمرٌ من كشف سرٍّ من أسرار الله تعالى يعسُرُ على الفكر إدراكُه، فإنه إذا آستدام ذِكْرَ العليم الحكيم يسّر الله عليه علم ماسأل(١) وعرّفه الحكمة فيه ، ومنه آسمه البديع أيضا [مثل ذلك] . وأمّا النّور، والباسط ، والظاهر، فذكر أرباب المكاشفات. ومن أراد أن ينظر شيئا فى منامه فليذكر هذه الأسماءَ على طهارة وهو فى فراشه إلى أن ينام على هذا الذكر، ويُعْمِلْ همّتَه فيما يُريده فإنه يُمَثَّـلُ له فى نومه كشف ذلك . وأمّا القابض، والأوّل ، والآخر، والباطن، فكلها أسماء للتعظيم والتوحيد .

النمـــــط السادس

الحليم، الرءوف، المنّان، الكريم، ذو الطَّوْل، الوهّاب، الغفُور، الغافر، العفُوّ، المُجيب . قال : هذا النَّمَطُ من الأسماء عليه مدار إبقاءِ الوجود ودفع الأضداد وجمع المتفرّق . أما الحليم، والرءوف، والمنّان، فذكر للخائفين ؛ ما داومه مَنْ يخاف شيئا إلا أوجده الله تعـالى بَرْدَ الطُّمَأْنِينة وسكّن رَوْعَه . قال البونى : وذكر [لى](٢) من له

(١) هكذا فى الأصلين . والذى فى نسختى اللمة : "علمه فيما يناله، وعرفه الحكمة فيما سأل" .

(٢) زيادة عن اللمة النورانية .

اطلاع أنه من استدام هذا الذكر إلى أن يغلب عليه حال منه على خلق معدّة ثم أمسك النارَ لم تعدُ عليه، ولو تنفّس حينئذ على قِدْر تغْلِي سكن غَلَيَانُها بإذن الله تعالى، ولا يكتبها أحد و يقابل بها[1] من يخاف منه إلّا أطفأ الله شرّه عند رؤيته، ولا يستديم هذا الذكرَ مَن غلبته شهوتُه إلا نزَع اللهُ منه التروعَ إليها فى أثناء ذكره. وأما الكريم، الوهّاب، وذو الطَّول، فلا يستديم على هذا الذكر مَنْ قُدِر عليه رِزْقُه ومسّتْه حاجةٌ إلا يَسّر الله عليه من حيث لا يشعر، ومن نقش هـذه الأسماءَ وعلّقها عليه لم يدر كيف يُيَسِّر الله عليه المطالب من غير عُسْر. وأما الغفور، والغافر، والعفوّ، فنَظْمٌ متقارِبٌ لسؤال دفع المُؤْلِم خصوصا من آلام الدين والدنيا. وأمّا المجيب، فيذكر فى آخر الدعوات.

النمـــط السابع (١٥٨)

الكافى، الغنىّ، الفتاح، الرزاق، الوَدُود، اللطيف، الواسع، الشهيد، نِعم المولى ونعم النصير. قال: هذا النَّمَطُ من الأسماء جليل القدر، به يُنَزِّل الله الرغائب من كل مفضول به على أحد من عباده. فآسمه الكافى، والغنىّ، والفتاح، والرزّاق لا يذكرُ أحدٌ هـذه الأسماءَ الأربعةَ وهو يتمنّى شيئا لم تبلغه أمنيّته إلا بلَغَه بإذن الله تعالى من جهةٍ لا يعتمد عليها لم تخطر بباله. لا يذكر أحد هـذا الذكر على القليل إلا كثّره الله ولا على طعام إلا ظهرت فيه زيادة، ولا يذكره مَنْ هو فى رتبة وهِمّتُه طالبةٌ أعلى منها إلا يسّر الله له الوصولَ إليها. وأمّا الوَدُود، واللطيف، والواسع، والشهيد، فنَمَطٌ جليل النظم لأرباب المجوع والخَلْوة، واللطيف خصوصا لتفريج الكرب فى أوقات الشـدائد لا يضاف إليه غيره، لا يذكره من يُؤْلِمه شىء فى نفسه وبدنه إلا أزاله الله عنه أثناء الذكر.

(١) فى الأصلين ونسختى الفمة: «ولا يكتبهم أحد و يقابل بهم الخ».

النمـــــط الثامن

الشديد، ذو القوة، المتين، السريع، الرقيب، المقتدر، القاهر، الوارث، الباعث، القوى[١] . هذا النمط من الأسماء عظيم الشأن . فأمّا الشديد، وذو القوة، والقاهر، والمقتدر، فهى أسماء القهر لا يذكرها[٢] ضعيف الهمّة إلا قَويت نفسه، ولا يدعو بها[٢] أحد على ظالم فى آحتراق[٣] الشهر فى السابعة من الليل فى بيت مظلم حاسرَ الرأس على الأرض لا حائل بينه وبينها مائة مرة[٤] يقول فى آخرها : يا شديد خُذْ لى بحقّ من فلان[٥]، ولا يشخّص[٦] شيئا فالله أعلم بما يعمل . قال : وقد جُرّب مِئين من المرّات . ولا ينقشها[٢] أحد فى خاتم ويتختّم به إلا ألبسه الله تعالى مهابة يُدْرِكها مِن نفسه ويُدْرِكها غيره منه ، ويرتاع منه كل جبّار عَنِيد عند رؤيته، حتى كأن الجبال على كاهله ما دام ينظر إلى من هو معه . وأمّا السريع، والرقيب، والمتين، فذكر لأرباب المراقبة فى الأفعال تنفتح لهم بذلك مكاشفات وأسرار . وأمّا الوارث، والباعث، فلحكمة الأعتبار والتصديق بآثار القدرة .

---

(١) فى إحدى نسختى اللمة النورانية بدل اسم القوي بين السطور اسم « الشكور » . ولم يرد فى نسخة اللمة الثانية شيء بعد كلمة الباعث .

(٢) فى الأصلين ونسختى اللمة : «لا يذكرهم ... ولا يدعو بهم» ، وكذلك ما عليه رقم (٢) .

(٣) فى المخصص (ج ٩ ص ٣١) : وامتحاق القمر احتراقه يوم المحاق آخر الشهر لأن الشمس تمحق الهلال فيه ولا تبينه .

(٤) كذا فى إحدى نسختى اللمة . وفى نسخة أخرى والأصلين : «لا حائل بينه و بينها يقول فى آخرها مائة مرة : يا شديد خذ لى الخ» .

(٥) فى الكلام حذف يدل عليه السياق بأن يقدر : «إلا استجيب له» .

(٦) كذا فى الأصلين وإحدى نسختى اللمة . وفى أخرى : «ولا تجسنى» .

النمـــــــط التـاسع

التواب، الشاكر، الولىّ، الحسيب، الوكيل، القريب، الصادق، البرّ، الباقى، الخلّاق . قال : هذا القسم مرتّب على سلوك مقامات السالكين ؛ فالتواب للتائبين، والشاكر للشاكرين، والولىّ للأولياء، والحسيب لأهل الكفاية، والوكيل للتوكّلين، والقريب من أهل القرب، والصادق مع الصادقين، والبرّ مع أهل البرّ، والباقى مع الشهداء . والخلّاق لذوى الاعتبار . وللشايخ فى هـذا الميدان مجالٌ رَحْب بحسب آختلاف أحوالهم .

النمـــــــط العـاشر

الهـادى، الخبير، المبين، علّام الغيوب، ذو الجلال والإكرام، القـدّوس، السلام، المؤمن، وينتظم فى ذلك المعزّ، والمذلّ، وما فى آخر سورة الإخلاص . قال : فالهادى، والخبير، والمبين، لمن أراد كشف عواقب الأمور بجوع وسهر ؛ ويذكُر هـذه الأسماء وعلى رأس مائة من أعداد الذكر يقول : آهـدنى يا هادى، وخبّرنى يا خبير، و بيّن لى يا مُبين ؛ ويسمّى ما يريده وذلك فى جوف الليل، فإذا أدركه النوم مُثّل له كشفُ ما أراده من أىّ نوع شاء . هذا مختصر ماقاله البونى فى ترتيب أسماء الله الحسنى .

وأمّا ما ورد فى الآسم الأعظم، فقد رُوى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (١٥٩)
أنه سمع رجلا يقول : اللّهـم إنى أسألك أنى أشهدُ أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد، الصمد، الّذى لم يلِدْ ولم يُولَدْ ولم يكنْ له كُفُوًا أحد، فقال : "لقد سألتَ اللهَ بالآسم الذى إذا سُئِل به أعطى وإذا دُعِى به أجاب" . وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : دخلت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد فإذا رجل من

الأنصار يقال له أبو عَيَّاش الزُّرَقِيّ(١) يصلِّى، فدنوت منه، فدعا فى صلاته : اللّٰهم إنى أسألك — بأن لك الحمدَ لا إلهَ إلا أنت المنّان بديعُ السمٰوات والأرض ذو الجلال والإكرام — أن تغفرَ لى. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لقد دعا اللهَ بآسمه الأعظم الذى إذا دُعِى به أجاب وإذا سُئِل به أعطى" . وعن أسمـاء بنت يزيد رضى الله عنهـا أن النبيّ صلى الله عليه وسـلم قال : "آسم الله الأعظم فى هاتين الآيتين ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾" وفاتحة سورة آل عمران ﴿الٓمٓ ٱللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ . وعن أبى أُمَامة وآسمه صُدَىّ بن عَجْلَان الباهِلِيّ رضى الله عنـه قال : قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : "إن آسم الله الأعظم لفى ثلاث سور من القرآن فى البقرة وآل عمران وطه" . قال فآلتمستها فوجدت فى البقرة آية الكرسى ﴿ٱللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ ، وفاتحة آل عمران ﴿الٓمٓ ٱللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾، وفى طه ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ .

والأدعية المختارة كثيرة وقد أتينا منها بما فيه كفاية لمن توجّه إلى الله تعالى وسأله . ولنختم هذا الباب بمـا ختم به البخارىّ كتابه : كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان فى الميزان، حبيبتان إلى الرحمن : سبحانَ الله وبحمده سبحانَ الله العظيم .

---

(١) فى أحد الأصلين : « أبو العباس » وفى الآخر : « أبو عياس » بالسين المهملة وهو محرف عن أبى « عياش » الزرقى الأنصارى وهو صحابى روى عن النبى صلى الله عليه وسلم حديث صلاة الخوف بعسفان كما فى تهذيب التهذيب .

صورة ما ورد بآخر الجزء الخامس فى أحد الأصلين الفتوغرافيين :

تمّ الجزء الخامس من كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب للنويرىّ ،
والحمد لله وحده ، وصلى الله على من لا نبىّ بعده محمد وآله وسلم
يتلوه إن شاء الله الجزء السادس

صورة ما ورد بآخر الجزء الخامس فى الأصل الثانى الفتوغرافى :

كمل السفر الخامس من كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب، على يد مؤلفه فقير رحمة ربه أحمد بن عبد الوهّاب بن محمد بن عبد الدائم البكرىّ التّيمىّ القرشىّ، عُرِف بالنُّوَيْرِىّ، عفا الله عنهم .

ووافق الفراغ من كتابته فى يوم الأحد المبارك لثمان بقين من شهر ربيع الأوّل سنة آثنتين وعشرين وسبعمائة بالقاهرة المُعِزِّيّة .

يتلوه إن شاء الله تعالى فى أوّل الجزء السادس القسم الخامس من الفن الثانى فى الملك وما يحتاج إليه وما يجب له على الرعية وما يجب للرعيّة عليه إن شاء الله تعالى .

الحمد لله وحده وصلواته على سيدنا محمد نبيّه وآله وصحبه ، وسلّم تسليما كثيرا، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

